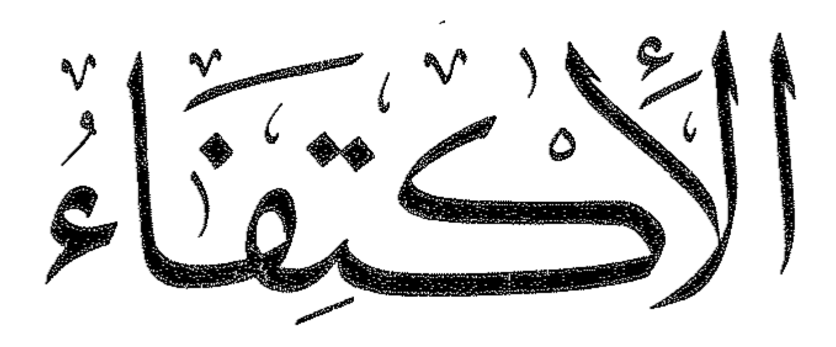


الاكتفاء

بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء

تأليف

أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي

(٥٦٥ - ٦٣٤هـ)

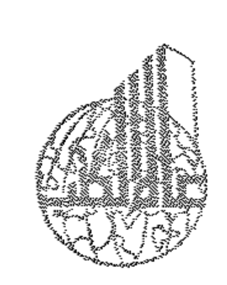
المجلد الثاني - الجزء الثاني

[مغازي الثلاثة الخلفاء]

تحقيق

دكتور محمد كمال الدين عز الدين علي

عالم الكتب



عالم الكتب
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت ـ لبنان

ص.ب: ٨٧٢٣ ـ ١١، برقياً: نابعلبكي
هاتف: ٨١٩٦٨٤ـ٣١٥١٤٢ـ٦٠٣٢٠٣(٠١)
خليوي: ٣٨١٨٣١(٠٣)
فاكس: ٦٠٣٢٠٣ـ١ (٩٦١)

WORLD OF BOOKS
FOR PRINTING, PUBLISHING & DISTRIBUTION
BEIRUT - LEBANON

P.O.BOX: 11- 8723, CABLE: NABAALBAKI
TEL.: 01- 819684/315142/603203
CELL. 03 - 381831 FAX: 961 - 1 603203

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م



ذكر فتح مصر

ذكر ابن عبد الحكم[1] عمن سمى من شيوخه أنه لما قدم عمر ـ رضي الله عنه ـ الجابية[2] خلا[3] به عمرو بن العاص فاستأذنه في المسير إلى مصر، وكان عمرو قد دخلها في الجاهلية وعرف طرقها ورأى كثرة من فيها.

وكان سبب دخوله إياها أنه كان قدم بيت المقدس لتجارة في نفر من قريش، وكانت رعية إبلهم نوباً بينهم، فبينا عمرو يرعاها في نوبته إذ مر به شماس من شمامسة الروم ـ من أهل الإسكندرية ـ كان قدم للصلاة في بيت المقدس وللسياحة في جبالها، فوقف على عمرو فاستسقاه وقد أصابه عطش شديد في يوم شديد الحر، فسقاه عمرو من قربة له، فشرب حتى روى، ونام الشماس مكانه، وكانت إلى جنبه حيث نام حفرة، فخرجت منها حية عظيمة، فبصر بها عمرو، فنزع لها بسهم فقتلها، فلما استيقظ الشماس ونظر إلى الحية سأل عمراً عنها، فأخبره أنه رماها فقتلها، فأقبل الشماس فقبل رأسه، وقال: قد أحياني الله بك مرتين، مرة من شدة العطش، ومرة من هذه الحية، فما أقدمك هذه البلاد؟ قال: قدمت مع أصحاب لي نطلب الفضل في تجارتنا. فقال له الشماس: وكم تراك ترجو أن تصيب في تجارتك؟ قال: رجائي أن أصيب ما اشتري به بعيراً، فإني لا أملك إلا بعيرين، فأملي أن أصيب بعيراً ثالثا. فقال له الشماس: كم الدية فيكم؟ قال: مائة من الإبل. قال الشماس لسنا أصحاب إبل، إنما نحن أصحاب

(١) ابن عبد الحكم. فتوح مصر وأخبارها ص ٥٣ ـ ١٩٢.

(٢) كان ذلك سنة ثماني عشرة من الهجرة.

(٣) في الأصل: «خلي».

دنانير. قال: تكون ألف دينار. فقال له الشماس: إني رجل غريب في هذه البلاد، وإنما قدمت أصلي في كنيسة بيت المقدس، وأسيح في هذه الجبال شهراً، جعلت ذلك نذراً على نفسي، وقد قضيت ذلك، وأنا أريد الرجوع إلى بلادي، فهل لك أن تتبعني إلى بلادي، ولك عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين لأن الله - عز وجل - أحياني بك مرتين؟ فقال له عمرو: وأين بلادك؟ قال: مصر، في مدينة يقال لها الإسكندرية. فقال له عمرو: لا أعرفها، ولم أدخلها قط. فقال له الشماس: لو دخلتها لعلمت أنك لم تدخل قط مثلها. فقال عمرو: وتفي لي بما تقول؟ فقال له الشماس: نعم، لك عليّ العهد والميثاق أن أفي لك، وأن أردك إلى أصحابك. فقال عمرو: كم يكون مكثي في ذلك؟ قال: شهراً
١٦٨ أ / / تنطلق معي ذاهباً عشراً، وتقيم عندنا عشراً، وترجع في عشر، ولك عليّ أن أحفظك ذاهباً، وأن أبعث معك من يحفظك راجعاً. فقال له عمرو: أنظرني حتى أشاور أصحابي.

فانطلق عمرو إلى أصحابه، فأخبرهم بما عاهده عليه الشماس، وقال لهم: أقيموا عليّ حتى أرجع إليكم ولكم عليّ العهد أن أعطيكم شطر ذلك، على أن يصحبني رجل منكم آنس به. فقالوا: نعم، وبعثوا معه رجلا منهم.

فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس إلى مصر، حتى انتهى إلى الإسكندرية، فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الأموال ما أعجبه، ونظر إلى الإسكندرية وعمارتها وجودة بنائها، وكثرة أهلها، وما بها من الأموال، فازداد عجباً.

ووافق دخول الإسكندرية عيداً فيها عظيماً، يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم، ولهم أكرة من ذهب مكللة يترامى بها ملوكهم ويتلقونها بأكمامهم، وفيما اختبروا منها على ما وضعها من مضى منهم أنه من وقعت في كمه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم (١).

---

(١) أشار الكندي في الولاة والقضاة ص ٧: إلى أنه دخل مصر تاجراً.

وأكرم الشماس عمراً الإكرام كله، وكساه ثوب ديباج ألبسه إياه، وجلس معه في ذلك المجلس مع الناس حيث يترامون بالأكرة وهم يتلقونها بأكمامهم، فرمى بها رجل منهم، فأقبلت تهوي حتى وقعت في كم عمرو، فعجبوا من ذلك، وقالوا: ما كذبتنا هذه الأكرة قط إلا هذه المرة، أترى هذا الأعرابي يملكنا؟ هذا ما لا يكون أبداً.

وإن ذلك الشماس مشى في أهل الإسكندرية، وأعلمهم بأن عمراً أحياه مرتين، وأنه ضمن له ألفي دينار، وسألهم أن يجمعوا ذلك له فيما بينهم، ففعلوا، ودفعوها إلى عمرو، فانطلق هو وصاحبه، وبعث معهما الشماس دليلاً ورسولاً، وزودهما وأكرمهما، حتى رجعا إلى أصحابهما، فدفع إليهم عمرو فيما بينهم ألف دينار، وأمسك لنفسه ألفاً.

قال: فكان أول مال اعتقدته وتأثلته.

فبذلك ما عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها، ورأى فيها ما علم به أنها أفضل البلاد وأكثره مالاً.

فلما قدم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الجابية، خلا به عمرو، وقال: يا أمير المؤمنين إيذن لي فأسير إلى أرض مصر، فإنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم، وهي أكثر الأرضين أموالاً، وأعجزه عن القتال. فتخوف عمر وكره ذلك، فلم يزل عمرو بن العاص يعظم أمرها في نفسه ويخبره بحالها، ويهون عليه فتحها، حتى ركن لذلك عمر، فعقد له على أربعة آلاف رجل، كلهم من عك، وقال[1]: سيروا وأنا مُستخير الله في مسيرك، وسيأتيك كتابي سريعا، فإن لحقك كتابي آمرك فيه بالانصراف فانصرف، وإن دخلتها قبل أن يأتيك كتابي ثم جاءك فامض لوجهتك، واستعن بالله فاستنصره.

فمضى عمرو من جوف الليل، ولم يشعر به أحد من الناس، واستخار عمر

---

(١) في الأصول: قالوا.

ربه، فكأنه تخوف على المسلمين في وجههم ذلك، فكتب إلى عمرو بن العاص: أن انصرف بمن معك من المسلمين إن أدركك كتابي قبل أن تدخل مصر، فأدرك الكتاب عمراً وهو برفح، فتخوف إن هو أخذه فقرأه أن يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمر، فلم يأخذ الكتاب من الرسول، وسار كما هو حتى مر بقرية صغيرة فيما بين رفح والعريش، فسأل عنها، فقيل: إنها من مصر، فدعا بالكتاب فقرأه، فإذا فيه: «أن انصرف بمن معك من المسلمين». فقال لمن حوله: ألستم تعلمون أن هذه من مصر؟ قالوا: بلى. قال: فإن أمير المؤمنين عهد إليّ وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع، ولم يلحقني (كتابه) حتى دخلت أرض مصر، فسيروا على بركة الله.

ويقال: بل كان عمرو بن العاص بفلسطين، فتقدم في أصحابه إلى مصر بغير إذن، فكتب إليه عمر ينكر ذلك عليه، فجاءه كتابه وهو دون العريش، عريش مصر، فلم يقرأ الكتاب حتى بلغ العريش فقرأه، فإذا فيه:

«من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص(١). أما بعد، فإنك سرت إلى مصر بمن معك، وبها جموع الروم، وإنما معك نفر يسير، ولعمري لو كانوا ثكل أمك ما سرت بهم، فإن لم تكن بلغت مصر فارجع».

فقال عمرو: الحمد لله، أية أرض هذه؟ قالوا: من مصر، فتقدم كما هو.

ويقال: بل كان عمرو في جنده على قيسارية مع كل من كان بها من أجناد المسلمين، وعمر بن الخطاب إذ ذاك بالجابية، فكتب سراً واستأذن إلى مصر، وأمر أصحابه فتنحوا كالقوم الذين يريدون أن يتجولوا من منزل إلى منزل قريب، ثم سار بهم ليلا، فلما فقده أمراء الأجناد استنكروا الذي فعل، ورأوا أنه قد غرر، فرفعوا ذلك إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فكتب إليه عمر:

---

(١) في ابن عبد الحكم: إلى العاص بن العاص.

« أما بعد ، فإنك (قد) غررت بمن معك ، فإن أدركك كتابي ولم تدخل مصر فارجع ، وإن أدركك كتابي وقد دخلت فامض ، واعلم أني ممدك » .

ويقال : إن عمر كتب إلى عمرو بعدما فتح الشام : أن اندب الناس إلى المسير معك إلى مصر ، فمن خف معك فسر به . وبعث به مع شريك بن عبدة ، فندبهم عمرو ، فأسرعوا إلى الخروج معه ، ثم أن عثمان بن عفان دخل على عمر ، فذكر له عمر ما كتب به إلى عمرو ، فقال عثمان : يا أمير المؤمنين ، إن عمراً له جرأة ، وفيه إقدام وحب للإمارة ، فأخشى أن يخرج في غير ثقة ولا جماعة ، فيعرض المسلمين للهلكة ، رجاء فرصة لا يدري أتكون أم لا . فندم عمر على كتابه إشفاقاً مما قال عثمان ، فكتب إلى عمرو يأمره بنحو ما تقدم من الرجوع إن لم يكن دخل مصر ، والمضي لوجهه إن كان دخلها .

فسار عمرو في طريقه قاصداً مصر ، فلما بلغ المقوقس ذلك توجه نحو الفسطاط يجهز الجيوش على عمرو ، وأقبل عمرو حتى إذا كان بجبال الحلال نفرت معه راشدة وقبائل من لخم ، وأدركه النحر وهو بالعريش ، فضحى يومئذ عن أصحابه بكبش .

وكان رجل ممن خرج معه قد أصيب بجمله ، فأتاه الرجل يستحمله ، فقال له عمرو : تحمل مع أصحابك حتى نبلغ أوائل العامر ، فلما بلغوا العريش جاءه ، فأمر له بجملين ، ثم قال : لن تزالوا بخير ما رحمتكم أئمتكم ، فإذا لم يرحموكم هلكتم وهلكوا .

فتقدم عمرو ، فكان أول موضع قوتل فيه الفرما ، قاتلته الروم قتالاً شديداً ، نحوا من شهر ، ثم فتح الله على يديه .

وكان بالإسكندرية أسقف للقبط يقال له « أبو ميامين » ، فلما بلغه قدوم
عمرو بن العاص إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا تكون للروم // دولة ، ١٦٨ ب
وأن ملكهم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقي عمرو ، فيقال : إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعواناً .

ثم توجه عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى نزل القواصر، ثم تقدم لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى بلبيس، فقاتلوه بها نحواً من شهر حتى فتح الله عليه، ثم مضى لا يدافع إلا بالأمر الخفيف، حتى أتى أم دنين فقاتلوه بها قتالاً شديداً، وأبطأ عليه الفتح، فكتب إلى عمر يستمده، فأمده بأربعة آلاف تمام ثمانية آلاف، فقاتلهم.

وجاء رجل من لخم إلى عمرو بن العاص فقال: اندب معي خيلا حتى آتي من ورائهم عند القتال، فأخرج معه خمسمائة فارس، فساروا من وراء الجبل حتى دخلوا مغار بني وائل قبل الصبح.

ويقال: كان على هذا البعث خارجة بن حذافة، فلما كان في وجه الصبح نهض القوم، فصلوا الصبح، ثم ركبوا خيلهم، وغدا عمرو بن العاص على القتال، فقاتلوهم من وجههم، وحملت الخيل التي كان وجه من ورائهم واقتحمت عليهم فانهزموا. وكانوا قد خندقوا حول الحصن، وجعلوا للخندق أبوابا، فسار عمرو بمن معه حتى نزل على الحصن، فحاصرهم حتى سألوه أن يسير منهم بضعة عشر أهل بيت ويفتحوا له الحصن، ففعل ذلك، وفرض عليهم لكل رجل من أصحابه ديناراً وجبة وبرنساً وعمامة وخفين.

فجاء النفر من القبط يستأذنونه إلى قراهم وأهليهم، وقد كان نفر منهم تحدثوا قبل ذلك ورجل من لخم يسمعهم، فقال بعضهم لبعض: ألا تعجبوا من هؤلاء القوم - يعنون المسلمين - يقدمون على جموع الروم، وإنما هم في قلة من الناس. فجاءهم رجل منهم، فقال: إن هؤلاء القوم لا يتوجهون إلى أحد إلا ظهروا عليه، حتى يقتلوا خيرهم. فأنكر عليه اللخمي قوله وأراد حمله إلى عمرو، فرغب إليه أصحابه وغيرهم حتى خلصوه، فلما استأذن أولئك النفر عمراً قال لهم كيف رأيتم أمرنا؟ قالوا: لم نر إلا حسنا. فقال ذلك الرجل لعمرو مثل مقالته تلك: إنكم لن تزالوا تظهرون على كل من لقيتم حتى تقتلوا خيركم رجلاً. فغضب عمرو وأمر به، فطلب إليه أصحابه وأخبروه أنه لا يدري ما يقول، حتى

خلصوه، فلما بلغ عمراً قتل عمر بن الخطاب عجب من قول ذلك القبطي، وأرسل في طلبه، فوجدوه قد هلك.

وفي حديث غيره: قال عمرو بن العاص: فلما طعن عمر بن الخطاب قلت: هو ما قال القبطي، فلما حدثت أنه إنما قتله رجل نصراني[1] قلت: لم يعنْ هذا، إنما عني من قتله المسلمون، فلما قتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ عرفت أن ما قال الرجل حق.

قال ابن عبد الحكم: وقد سمعت في فتح القصر وجهاً غير هذا، ثم ذكر عن نفر سمي منهم قال: وبعضهم يزيد على بعض في الحديث أن عمرو بن العاص حصرهم في القصر الذي يقال له باب اليون حينا، وقاتلهم قتالا شديدا، يصبحهم ويمسيهم، فلما أبطأ عليه الفتح كتب إلى عمر بن الخطاب يستمده، فأمده عمر بأربعة آلاف رجل، على كل ألف منهم رجل يقوم مقام ألف: الزبير ابن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد. وقيل: بل خارجة بن حذافة مكان مسلمة. وقال عمر بن الخطاب:

«اعلم أن معك اثني عشر ألفا، ولا يغلب أثنا عشر ألفاً من قلة».

وذكر الليث عن يزيد بن أبي حبيب: أن عمر ـ رحمه الله ـ إنما أمد عمراً حين استمده بالزبير بن العوام، وبالمقداد بن عمرو، وبخارجة بن حذافة.

قال الليث بن سعد: وبلغني عن كسرى أنه كان له رجال إذا بعث أحدهم في جيش وضع من عدة الجيش الذي كان سمى ألفاً مكانه، وإذا احتاج إلى أحدهم وكان في جيش فجيشه زادهم ألف رجل، فأنزلت الذي صنع عمر بن الخطاب حين أمد عمراً بالزبير والمقداد وخارجة نحو الذي صنع كسرى.

وقيل: إن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أشفق على عمرو حين بعثه،

---

(١) هو: أبو لؤلؤة، غلام المغيرة بن شعبة ـ راجع مقتل عمر بن الخطاب ـ رحمه الله ـ من هذا الجزء.

فأرسل الزبير في أثره في اثني عشر ألفا، فشهد معه الفتح. وكان عمرو قدم من الشام في عدة قليلة، وكانت الروم قد خندقوا حول حصنهم، وجعلوا للخندق أبوابا، ورموا في أفنيتها حسك الحديد، فكان عمرو يفرق أصحابه ليرى العدو أنهم أكثر مما هم، فلما انتهى إلى الخندق نادوه: أن قد رأينا ما صنعت، وإنما معك من أصحابك كذا وكذا، فلم يخطئوا برجل واحد. فبينا هو على ذلك إذ جاءه خبر الزبير، فلما قدم المدد مع الزبير على عمرو بن العاص ألح على القصر ووضع عليه المنجنيق. وقد كان عمرو دخل إلى صاحب القصر فتناظرا في شيء مما هم فيه، فقال له عمرو: أخرج وأستشير أصحابي، فدس صاحب الحصن الوصية إلى الذي على الباب إذا مر به عمرو أن يلقي عليه صخرة فيقتله. فأشعر بذلك عمراً رجل من العرب وهو يريد الخروج، فرجع عمرو إلى صاحب الحصن، فقال له: إني أُريد أن آتيك بنفر من أصحابي حتى يسمعوا منك مثل الذي سمعت، فقال العلج في نفسه: قتل جماعة أحب إليّ من قتل واحد، فأرسل إلى الذي كان على الباب يأمره بالكف عن عمرو رجاء أن يأتيه بأصحابه فيقتلهم، فخرج عمرو ولم يعد.

وفي حصار المسلمين هذا الحصن كان عبادة بن الصامت يوماً في ناحية يصلي وفرسه عنده، فرآه قوم من الروم، فخرجوا إليه وعليهم حلية وبزة، فلما دنوا منه سلم من صلاته، ووثب على فرسه، ثم حمل عليهم، فلما رأوه غير مكذب عنهم ولوا راجعين، وأتبعهم، فجعلوا يلقون مناطقهم ومتاعهم ليشغلوه بذلك عن طلبهم، ولا يلتفت إليه حتى دخلوا الحصن، ورمي عبادة من فوق الحصن بالحجارة، فرجع ولم يعرض لشيء مما كانوا طرحوا من متاعهم، حتى أتى موضعه الذي كان به، فاستقبل الصلاة، وخرج الروم إلى متاعهم يجمعونه.

ولما أبطأ الفتح على عمرو بن العاص قال الزبير: إني أهب نفسي لله وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، فوضع سلماً إلى جانب الحصن ثم صعد، وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعا، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر معه السيف، وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفا من أن

ينكسر. ولما اقتحم / / الزبير وتبعه من تبعه وكبر، وكبر من معه وأجابهم المسلمون ١٦٩ أ
من خارج، لم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموه جميعاً، فهربوا، وعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه، واقتحمه المسلمون، فلما خاف المقوقس على نفسه ومن معه سأل عمرو بن العاص الصلح ودعاه إليه، على أن يفرض للعرب على القبط دينارين دينارين على كل رجل منهم، فأجابه عمرو إلى ذلك.

وكان مكثهم على باب القصر حتى فتحوه سبعة أشهر فيما روي عن الليث.

قال ابن عبد الحكم: وقد سمعت في فتح القصر وجهاً آخر مخالفا للحديثين المتقدمين، فالله أعلم.

ثم أورد بإسناد يرفعه إلى جماعة من التابعين، يزيد بعضهم على بعض، أن المسلمين لما حاصروا باب اليون وكان به جماعة من الروم وأكابر القبط ورؤسائهم وعليهم المقوقس فقاتلوهم بها شهراً، فلما رأى القوم الجد منهم على فتحه والحرص ورأوا من صبرهم على القتال ورغبتهم فيه خافوا أن يظهروا عليهم، فتنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط، وخرجوا من باب القصر القبلي ودونهم جماعة يقاتلون العرب، فلحقوا بالجزيرة - موضع الصناعة اليوم - وأمروا بقطع الجسر، وذلك في جري النيل.

وزعم بعض مشايخ أهل مصر أن الأعيرج تخلف في الحصن بعد المقوقس، وهو رجل من الروم كان والياً على الحصن تحت يدى المقوقس، وكانت سفنهم ملصقة بالحصن، فلما خاف الأعيرج فتح الحصن ركبها هو وأهل القوة والشرف ثم لحقوا بالمقوقس بالجزيرة.

قال أصحاب الحديث من التابعين: فأرسل المقوقس إلى عمرو: إنكم قوم قد ولجتم في بلادنا وألححتم على قتالنا، وطال مكثكم في أرضنا، وإنما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم معهم العدة والسلاح، وأحاط بكم هذا النيل، وإنما أنتم أسارى في أيدينا، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم، فلعله أن يأتي

الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفا لطلبتكم ورجائكم.

فلما أتت عمرو بن العاص رسل المقوقس بهذا حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس، فقال لأصحابه: أترون أنهم يقتلون الرسل (ويحبسونهم) ويستحلون ذلك في دينهم؟ وإنما أراد عمرو أن يروا حال المسلمين، ثم رد عمرو إلى المقوقس رسله، وقال لهم: إنه ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصالٍ: إما دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا، وكان لكم مالنا، وإما أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإما جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين.

فلما جاءوا إلى المقوقس قال لهم: كيف رأيتم؟ قالوا: رأينا قوما الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليه من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة (ولا نهمة)، إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد منهم، يغسلون بالماء أطرافهم، ويخشعون في صلاتهم.

فقال عند ذلك المقوقس: والذي يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ومايقوى على قتال هؤلاء أحد، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهُمْ محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم.

فرد إليهم المقوقس رسله: أن ابعثوا إلينا رسلاً منكم نعاملهم ونتداعى نحن وهم إلى ما عساه أن يكون فيه صلاح لنا ولكم.

فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت، وأمره عمرو أن يكون مكلم القوم وأن لا يجيبهم إلى شيء دعوه إليه إلا إلى إحدى هذه الخصال الثلاث.

وكان عبادة أسود طويلاً، يقول ابن عفير، أدرك الإسلام من العرب عشرة، طول كل رجل منهم عشرة أشبار، أحدهم عبادة بن الصامت. فلما ركبوا السفن إلى المقوقس ودخلوا عليه تقدم عبادة فهابه المقوقس لسواده، فقال: نحُّوا عني هذا الأسود، وقدموا غيره يكلمني. فقالوا جميعا: إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا، وإنما نرجع جميعا إلى قوله ورأيه، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره به، وأمرنا أن لا نخالفه.

قال: وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم، وإنما ينبغي أن يكون دونكم؟

قالوا: كلا، إنه وإن كان أسود كما ترى، فإنه من أفضلنا موضعا، وأفضلنا سابقةً وعقلاً ورأياً، وليس ينكر السواد فينا.

فقال له المقوقس: تقدم يا أسود وكلمني برفق فإني أهاب سوادك، وإن اشتد كلامك عليَّ ازددت لذلك هيبة.

فتقدم إليه عبادة فقال: قد سمعت مقالتك، وإن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل كلهم أشد سواداً مني وأفظع منظرا، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منك لي، وأنا قد وليت وأدبر شبابي، وإني مع ذلك ـ بحمد الله ـ ما أهاب مائة رجل من عدوي ولو استقبلوني جميعا، وكذلك أصحابي، وذلك أنا إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في دنيا، ولا طلبا للاستكثار منها، إلا أن الله ـ عز وجل ـ قد أحل لنا ذلك، وجعل ما غنمنا منه حلالاً، وما يبالي أحدنا أكان له قنطار من الذهب أم كان لا يملك إلا درهما، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته لليله ونهاره، وشملة يلتحفها، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله ـ تعالى ـ واقتصر على هذا الذي يتبلغ به ما كان في الدنيا، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ورخاءها ليس برخاء، إنما النعيم والرخاء في الآخرة، وبذلك أمرنا ربنا، وأمرنا به نبينا، وعهد إلينا أن لا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا ما يمسك جوعته، ويستر عورته، وتكون همته وشغله في رضى ربه وجهاد عدوه.

فلما سمع المقوقس كلامه قال لمن حوله: هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل
١٦٩ ب قط؟ لقد هبت منظره، وإن قوله لأهيب عندي من // منظره، وإن هذا وأصحابه
أخرجهم الله لخراب الأرض، ما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها. ثم أقبل على عبادة فقال:

أيها الرجل قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك، ولعمري ما بلغتم إلا بما ذكرت، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا بحبهم الدنيا ورغبتهم فيها، وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده، قوم يعرفون بالنجدة والشدة، لا يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل، وإنا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم وقد أقمتم بين أظهرنا أشهراً وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بأيديكم، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين، ولأميركم مائة دينار، ولخليفتكم ألف دينار، فتقبضوها وتنصرفوا إلى بلادكم، قبل أن يغشاكم ما لا قبل لكم به.

فقال عبادة بن الصامت: يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك، أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم، وأنا لا نقوى عليهم، فلعمري ما هذا بالذي يخوفنا، ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه، إن كان ما قلتم حقا فذلك والله أرغب ما يكون في قتالكم، وأشد لحرصنا عليكم، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه، وإن قتلنا من آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته، وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك، وإنا منكم حينئذ على إحدى الحسنيين: إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا، وإن الله عز وجل قال لنا في كتابه: **﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين﴾** (٢٤٩: البقرة)، وما منا (من) رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساءً أن يرزقه الله الشهادة وألا يرده إلى بلاده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا هَمٌّ فيما خلفه، وقد استودع كل واحد منا ربه (في)

أهله وولده، وإنما همنا ما أمامنا، وأما قولك: إنا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا، فنحن في أوسع السعة، لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه، فانظر الذي تريد فبينه لنا، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث، فاختر أيها شئت ولا تطمع نفسك بالباطل، بذلك أمرني الأمير، وبه أمره أمير المؤمنين، وهو عهد رسول الله ﷺ من قبل إلينا: إما أجبتم إلى الإسلام الذي هو الدين الذي لا يقبل الله غيره، وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته، أمرنا أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه، فإن فعل كان له مالنا وعليه ما علينا، وكان أخانا في دين الله، فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة، ورجعنا عن قتالكم، ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم، وإن أبيتم إلا الجزية فأدوا إلينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، نعاملكم على شيء نرضى به نحن وأنتم في كل عام أبداً ما بقينا وبقيتم، ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم، ونقوم بذلك عنكم إذ كنتم في ذمتنا، وكان لكم به عهد علينا، وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت من آخرنا أو نصيب ما نريد منكم. هذا ديننا الذي ندين الله ـ تعالى ـ به، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينكم غيره، فانظروا لأنفسكم.

فقال له المقوقس: هذا ما لا يكون أبداً، ما تريدون إلا أن تتخذونا عبيدا ما كانت الدنيا!

فقال له عبادة: هو ذلك فاختر ما شئت!

فقال له المقوقس: أفلا تجيبوننا(١) إلى خصلة غير هذه الخصال الثلاث؟

فرفع عبادة يديه فقال: لا ورب هذه السماء، ورب هذه الأرض، وربنا، ورب كل شيء، ما لكم عندنا خصلة غيرها، فاختاروا لأنفسكم.

فالتفت المقوقس عند ذلك إلى أصحابه، فقال: قد فرغ القوم، فماذا ترون؟

فقالوا: أو يرضى أحد بهذا الذل؟ أما ما أرادوا من دخولنا في دينهم فهذا

(١) في الأصل: «تجيبونا».

ما لا يكون أبداً، أن نترك دين المسيح بن مريم وندخل في دين غيره لا نعرفه، وأما ما أرادوا أن يسبونا ويجعلونا عبيداً فالموت أيسر من ذلك، لو رضوا منا أن نضعف لهم ما أعطيناهم مراراً كان أهون علينا.

فقال المقوقس لعبادة: قد أتى[1] القوم فما ترى؟ فراجع أصحابك[2] على أن نعطيكم في مرتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفوا.

فقام عبادة وأصحابه، فقال المقوقس عند ذلك لمن حوله: أطيعوني وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث، فوالله مالكم بهم طاقة، ولئن لم تجيبوا إليها طائعين لتجيبنهم إلى ما هو أعظم كارهين.

فقالوا: وأي خصلة نجيبهم إليها؟

قال: أنا أخبركم، أما دخولكم في غير دينكم فلا آمركم به، وأما قتالكم فأنا أعلم أنكم لن تقووا عليهم، ولن تصبروا صبرهم، ولا بد من الثالثة.

قالوا: فنكون لهم عبيداً أبداً؟

قال: نعم، أن تكونوا عبيداً منبسطين[3] في بلادكم، آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم، خير لكم من أن تموتوا من آخركم، أو تكونوا عبيداً تباعون وتمزقون في البلاد مستعبدين أبدا أنتم وأهلكم وذراريكم.

قالوا: فالموت أهون علينا، وأمروا بقطع الجسر من الفسطاط والجزيرة، وبالقصر من القبط والروم جمع كثير.

فألح المسلمون عند ذلك بالقتال على من في القصر، حتى ظفروا بهم وأمكن الله منهم، فقتل منهم خلق كثير، وأسر من أسر، وانحازت السفن كلها إلى الجزيرة، وصار المسلمون قد أحدق بهم الماء من كل جهة لا يقدرون على أن

(١) في ابن عبد الحكم: قد أبى القوم.

(٢) في ابن عبد الحكم: صاحبك.

(٣) في ابن عبد الحكم: مسلطين.

يتقدموا نحو الصعيد ولا إلى غير ذلَك من المدائن والقرى، والمقوقس يقول لأصحابه: ألم أعلمكم هذا وأخَفْه عليكم؟ ما تنتظرون، فو الله لتجيبن إلى ما أرادوا طوعا أو لتجيبنهم إلى ما هو أعظم كرها، فأطيعوني من قبل أن تندموا.

فلما رأوا منهم ما رأوا، وقال لهم المقوقس ما قال، أذعنوا بالجزية، ورضوا بها على صلح يكون بينهم يعرفونه.

فأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص: أني لم أزل حريصاً على إجابتك إلى خصلة من الخصال التي أرسلت إليّ بها فأبي ذلك // عليّ من حضرني من الروم ١٧٠ أ
والقبط، فلم يكن لي أن أفتات عليهم في أموالهم، وقد عرفوا نصحي لهم وحبي صلاحهم فرجعوا إلى قولي، فأعطني أمانا أجتمع أنا وأنت، أنا في نفر من أصحابي، وأنت في نفر من أصحابك، فإن استقام الأمر بيننا تم ذلك لنا جميعا، وإن لم يتم رجعنا إلى ما كنا عليه.

فاستشار عمرو أصحابه في ذلك، فقالوا: لا نجيبهم إلى شيء من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا، وتصير كلها لنا فيئاً وغنيمةً كما صار لنا القصر وما فيه.

فقال عمرو: قد علمتم ما عهد إليّ أمير المؤمنين في عهده، فإن أجابوا إلى خصلة من الخصال الثلاث التي عهد إليّ فيها أجبتهم إليها وقبلت منهم، مع ما قد حال هذا الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم.

فاجتمعوا على عهد بينهم، واصطلحوا على أن يُفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين دينارين، على كل نفس، شريفهم ووضيعهم، ومن بلغ الحلم منهم، وليس على الشيخ الفاني، ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم، ولا (على) النساء شيء. وعلى أن للمسلمين عليهم النزل بجماعتهم حيث نزلوا، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم، وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يعرض لهم في شيء منها، فشرط هذا كله على القبط خاصة.

وأحصوا عدد القبط من بلغ منهم الجزية ومن فرض عليهم الديناران. رفع ذلك عرفاؤهم بالأيمان المؤكدة، فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط أكثر من ستة آلاف ألف نفس، فكانت فريضتهم يومئذ اثني عشر ألف ألف دينار في كل سنة.

وعن يحيي بن ميمون الحضرمي قال: لما فتح عمرو بن العاص مصر صالح عن جميع ما فيها من رجال القبط، ممن راهق الحلم إلى ما فوق ذلك، ليس فيهم امرأة ولا شيخ ولا صبي، فأحصوا بذلك على دينارين دينارين، فبلغت عدتهم ثمانية آلاف ألف.

وفي الحديث المتقدم الطويل: أن المقوقس شرط للروم أن يُخيروا، فمن أحب منهم أن يقيم على مثل هذا أقام لازما له ذلك مفترضاً عليه، ممن أقام بالإسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها، ومن أراد الخروج منها إلى أرض الروم خرج، وعلى أن للمقوقس الخيار في الروم خاصة حتى يكتب إلى ملك الروم يعلمه ما فعل، فإن قبل ذلك ورضيه جاز عليهم وإلا كانوا جميعا على ما كانوا عليه.

وكتب المقوقس إلى ملك الروم يعلمه بالأمر على وجهه، فكتب إليه ملك الروم يقبح رأيه ويعجزه، ويرد عليه ما فعل ويقول في كتابه:

« إنما أتاك من العرب اثنا عشر ألفا، وبمصر من عدد القبط ما لا يحصى، فإن كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية إلى العرب واختاروهم علينا فإن عندك بمصر من الروم وبالإسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف، معهم العدة والقوة، والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت، فعجزت عن قتالهم، ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم أذلاء في حال القبط، ألا قاتلتهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظفر عليهم، فإنهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم وعلى قدر قلتهم وضعفهم كأكلة، فناهضهم القتال ولا يكن لك رأي غير ذلك.

وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتاباً إلى جماعة الروم.

فقال المقوقس لما أتاه كتابه: والله إنهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على كثرتنا وقوتنا، إن الرجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منا، وذلك أنهم قوم الموت أحب إليهم من الحياة، يقاتل الرجل منهم وهو مستقتل، يتمنى أن لا يرجع إلى أهله ولا بلده، ولا ولده، ويرون أن لهم أجراً عظيما فيمن قتلوا منا، ويقولون إنهم إن قُتلوا دخلوا الجنة، وليس لهم رغبة في الدنيا ولا لذة إلا قدر بلغة العيش من الطعام واللباس، ونحن قوم نكره الموت ونحب الحياة ولذتها، فكيف نستقيم نحن وهؤلاء، وكيف صبرنا معهم، واعلموا معشر الروم أني والله لا أخرج مما دخلت فيه وصالحت العرب عليه، وأني لأعلم أنكم سترجعون غدا إلى قولي ورأيي، وتتمنون أن لو كنتم أطعتموني، وذلك أني قد عاينت ورأيت وعرفت ما لم يعاين الملك ولم يره ولم يعرفه، ويحكم أما يرضى أحدكم أن يكون آمنا في دهره على نفسه وماله وولده بدينارين في السنة؟

ثم أقبل المقوقس إلى عمرو بن العاص فقال له: إن الملك قد كره ما فعلت وعجزني، وكتب إليّ وإلى جماعة الروم أن لا نرضى بمصالحتك، وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك أو تظفر بهم، ولم أكن لأخرج مما دخلت فيه وعاقدتك عليه، وإنما سلطاني على نفسي ومن أطاعني، وقد تم صلح القبط فيما بينك وبينهم، ولم يأت من قبلهم نقض وأنا متم لك على نفسي، والقبط متمون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه وعاهدتهم، وأما الروم فأنا منهم بريء، وأنا أطلب إليك أن تعطيني ثلاث خصال.

قال عمرو: وما هن؟

قال: لا تنقض بالقبط، وأدخلني معهم وألزمني ما لزمهم، فقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاهدتك عليه وهم متمون لك على ما تحب. وأما الثانية: إن سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئاً وعبيداً، فإنهم أهل لذلك، لأني نصحتهم فاستغشوني، ونظرت لهم فاتهموني. وأما الثالثة: أطلب إليك أن إذا مت أن تأمرهم يدفنوني في أبي يحنس بالإسكندرية.

فأنعم له عمرو بن العاص بذلك وأجابه إلى ما طلب، على أن يضمنوا له الجسرين جميعاً، ويقيموا لهم الأنـزال والضيـافـة والأسـواق والجسـور مـا بين الفسطاط إلى الإسكندرية، ففعلوا.

ويقال: إن المقوقس إنما صالح عمرو بن العاص على الروم وهو محاصر
١٧٠ ب الإسكندرية، وبعد أن حصر أهلها ثلاثة أشهر // وألح عليهم وخافوه، فسأله المقـوقس الصلـح عنهـم، كما صـالحه على القبـط، على أن يستنظـر رأي الملـك وعلى أن يسير من الروم مـن أراد المسير، ويقـر مـن أراد الإقـامـة، فـأنكـر ذلك هرقل لما بلغه أشد الإنكار، وتسخط أشد التسخط، وبعث الجيوش، فأغلقوا الإسكندرية وآذنوا عمرو بن العاص بالحرب، فخرج إليه المقوقس فقال: أسألك ثلاثا، وذكر نحو ما تقدم، وزاد أن عمراً قال له في الثالثة التي هي أن يدفن في أبي يحنس: هذه أهونهن علينا.

ثم رجع إلى الحديث الأول، قال: فخرج عمرو بن العاص بالمسلمين حين أمكنهم الخروج، وخرج معه جماعة من رؤساء القبط قد أصلحوا لهم الطريق وأقاموا لهم الجسور والأسواق، وصارت لهم القبط أعواناً على ما أرادوا من قتال الروم، وسمعت بذلك الروم فاستعدت واستجاشت، وقدمت عليهم مراكب كثيرة من أرض الروم، فيها جمع من الروم كثير بالعدة والسلاح، فخرج إليهم عمرو بن العـاص مـن الفسطـاط متوجهاً نحو الإسكـنـدريـة، فلم يلـق منهـم أحداً حتى بلغ ترنوط[1]، فلقي فيها طائفة من الروم فقاتلوه قتالا خفيفا فهزمهم الله، ومضى عمرو بمن معه حتى لقي جمع الروم بكوم شريك، فاقتتلوا به ثلاثة أيام ثم فتح الله للمسلمين وولي الروم أكتافهم.

ويقال: بل أرسل عمرو بن العاص ـ شريك بن سمي في آثارهم، فأدركهم

---

(١) ترنوط: بالفتح ثم السكون، وضم النون، وواو ساكنة، وطاء مهملة: قرية كانت بين مصر والإسكندرية، أشار ياقوت إلى أنها: قرية كبيرة جامعة على النيل، فيها أسواق ومعاصر للسكر وبساتين، وأكثر فواكه الإسكندرية منها ـ ياقوت. معجم البلدان ج٢ ص٢٧.

عند الكوم الذي يقال له كوم شريك، فقاتلهم شريك فهزمهم.

ويقال: بل لقيهم فألجأوه إلى الكوم فاعتصم به، وأحاطت به الروم، فلما رأى ذلك شريك أمر أبا ناعمة الصدفي[1] ـ وهو صاحب الفرس الأشقر الذي يقال له: أشقر صدف ـ وكان لا يجارى، فانحط عليهم من الكوم، وطلبته الروم فلم تدركه، حتى أتى عمراً فأخبره، فأقبل عمرو نحوه. وسمعت به الروم فانصرفت، وبهذا الفرس سميت خوخة الأشقر التي بمصر، وذلك أنه نفق فدفنه صاحبه هناك، فسمي المكان به.

قال: ثم التقوا بسلطيس[2] فاقتتلوا بها قتالا شديدا، فهزمهم الله، ثم التقوا بالكريون[3] فاقتتلوا بها بضعة عشر يوما.

وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة، وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو، فأصابت عبد الله بن عمرو على المقدمة جراحات كثيرة، فقال: يا وردان لو تقهقرت قليلا لنصيب الروح. فقال وردان: الروح أمامك وليس هو خلفك. فتقدم عبد الله، وجاء رسول أبيه يسأله عن جراحه، فأنشأ يقول:

أقول إذا ما النفس جاشت ألا أصبري عليك قليلا تحمدي أو تلامي[4]

(الطويل)

فرجع الرسول فأخبره بما قال. فقال عمرو: هو ابني حقاً.

وصلى يومئذ عمرو صلاة الخوف، فحدث شيخ صلاها معه بالإسكندرية أنه صلى بكل طائفة ركعة وسجدتين.

---

(١) هو: أبو ناعمة مالك بن ناعمة الصدفي.

(٢) سلطيس: بضم أوله وسكون ثانية، وفتح الطاء، وياء ساكنة، وسين مهملة، قرية من قرى مصر القديمة، كان أهلها أعانوا على عمرو بن العاص فسباهم ـ راجع بشأن ذلك: ياقوت. معجم البلدان ج ٣ ص ٢٣٦.

(٣) كريون: بكسر أوله وسكون ثانيه وفتح الياء المثناة من تحتها وواو ساكنة ثم نون، موضع قرب الإسكندرية ـ راجع بشأنه المصدر السابق ج ٤ ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩.

(٤) في الأصل: تلام.

قال: ثم فتح الله على المسلمين، وقتلوا من الروم مقتلة عظيمة، وأتبعوهم حتى بلغوا الإسكندرية فتحصنوا بها، وكانت عليهم حصون لا ترام، حصن دون حصن، فنزل المسلمون ما بين حلوة إلى قصر فارس إلى ما وراء ذلك، ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة. ورسل ملك الروم تختلف إلى الإسكندرية في المراكب بمادة الروم.

ويروى أن عمراً أقام بحلوة شهرين ثم تحول إلى المقس، فخرجت عليه الخيل من ناحية البحيرة حيث كانت مستترة بالحصن فواقعوه، فقتل من المسلمين يومئذ بكنيسة الذهب اثنا[1] عشر رجلاً، ولم يكن للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية، وإنما كان عيد الروم حين غلبت العرب على الشام بالإسكندرية، فكان ملك الروم يعظم ظهور العرب عليها ويقول: لئن غلبوا على الإسكندرية لقد هلكت الروم، وانقطع ملكها، وتجهز للخروج إليها ليباشر قتالها بنفسه إعظاما لها، وأمر أن لا يتخلف عنه أحد من الروم، وقال: ما بقاء الروم بعد الإسكندرية؟ فلما فرغ من جهازه صرعه الله فأماته وكفى المسلمين مؤنته. وكان موته في سنة تسع عشرة، وقيل سنة عشرين، فكسر الله بموته شوكة الروم.

ورجع جمع كبير ممن كان قد توجه إلى الإسكندرية، واستأسدت العرب عند ذلك وألحت بالقتال على أهل الإسكندرية، فقاتلوهم قتالاً شديداً، وخرج طرف من الروم من باب حصنها فحملوا على الناس وقتلوا رجلا من مهرة فاحتزوا رأسه وانطلقوا به، فجعل المهريون يتغضبون ويقولون: لا ندفنه أبداً إلا برأسه. فقال عمرو بن العاص: تتغضبون كأنكم تتغضبون على من يبالي بغضبكم، احملوا على القوم إذا خرجوا فاقتلوا رجلاً منهم وارموا برأسه يرموا برأس صاحبكم، فخرجت الروم عليهم فاقتتلوا، فقتل رجل من بطارقة الروم، فاحتزوا رأسه، فرموا به إلى الروم، فرمت الروم برأس المهري إليهم، فقال: دونكم الآن فادفنوا صاحبكم.

وكان عمرو بن العاص يقول: ثلاث قبائل في مصر: أما مهرة فقوم يَقْتلون

(١) في الأصل: اثني.

ولا يُقْتلون، وأما غافق فقوم يُقْتلون ولا يَقتلون، وأما بلى فأكثرها رجلاً صحب رسول الله ﷺ وأفضلها فارساً.

وقاتل عمرو بن العاص الروم بالإسكندرية يوما من الأيام قتالا شديدا، فلما استحر القتال بارز رجل من الروم مسلمة بن مخلد فصرعه الرومي، وألقاه عن فرسه، وأهوى إليه بسيفه ليقتله حتى حماه رجل من أصحابه. وكان مسلمة لا يقام بسبيله ولكنها مقادير، ففرحت بذلك الروم وشق ذلك على المسلمين، وغضب عمرو بن العاص فقال ـ وكان مسلمة كثير اللحم ثقيل البدن: ما بال الرجل المسبّه[1] الذي يشبه النساء يتعرض فيداخل الرجال ويتشبه بهم؟ فغضب مسلمة ولم يراجعه، ثم اشتد القتال حتى اقتحموا حصن الإسكندرية فقاتلهم العرب في الحصن، ثم جاشت عليهم الروم حتى أخرجوهم جميعاً من الحصن إلا أربعة نفر فيهم عمرو بن العاص ومسلمة بن مخلد، أغلق الروم عليهم باب الحصن وحالوا بينهم وبين أصحابهم ولا يدرون من هم[2]. فلما رأى ذلك عمرو
وأصحابه لجأوا إلى ديماس من حماماتهم فتحرزوا به // فأمرت الروم روميا فكلمهم ١٧١ أ
بالعربية فقال لهم: إنكم قد صرتم بأيدينا أساري فاستأسروا ولا تقتلوا أنفسكم فامتنعوا ثم قال لهم: إن في أيدي أصحابكم منا رجالاً أسروهم ونحن نعطيكم العهود أن نفادي بكم أصحابنا ولا نقتلكم، فأبوا عليهم. فلما رأى الرومي ذلك منهم قال لهم: هل لكم إلى خصلة وهي نصف فيما بيننا وبينكم: أن تعطونا العهد ونعطيكم مثله على أن يبرز منكم رجل ومنا رجل، فإن غلب صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا، وأمكنتمونا من أنفسكم، وإن غلب صاحبكم صاحبنا خلينا سبيلكم إلى أصحابكم. فرضوا بذلك وتعاهدوا عليه، فبرز رجل من الروم قد وثقت الروم بنجدته وشدته، وقالوا لعمرو وأصحابه وهم في الديماس، ليبرز رجل منكم لصاحبنا فأراد عمرو أن يبرز فمنعه مسلمة وقال: يا هذا تخطىء مرتين، تشذ من أصحابك وأنت أميرهم وإنما قوامهم بك وقلوبهم معلقة نحوك لا يدرون ما

(١) السبه: محركة، ذهاب العقل من الهرم ـ الفيروزابادي. القاموس المحيط ج ٤، ص ٢٨٤ ابن منظور. لسان العرب ج ٣ ص ١٩٣٢.

(٢) في الأصل: «منهم».

أمرك، ثم لا ترضى حتى تبارز وتتعرض للقتل، فإن قتلت كان ذلك بلاءً على أصحابك؟ مكانك وأنا أكفيك إن شاء الله! قال عمرو: دونك فربما فرجها الله (بك)، فبرز مسلمة والرومي فتجاولا ساعة ثم أعانه الله عليه فقتله، فكبر مسلمة وأصحابه، ووفى لهم الروم بما عاهدوهم عليه، ففتحوا لهم باب الحصن فخرجوا ولا تدري الروم أن أمير القوم فيهم، حتى بلغهم ذلك فأسفوا وأكلوا أيديهم تغيظاً على ما فاتهم، فلما خرجوا استحيـي عمرو مما كان قال لمسلمة حين غضب، وسأله أن يستغفر له، ففعل مسلمة وقال عمرو: والله ما أفحشت قط إلا ثلاث مرات، مرتين في الجاهلية وهذه الثالثة، وما منها مرة إلا وقد ندمت واستحييت وما استحييت من واحدة منهن أشد مما استحييت مما قلت لك ووالله إني لأرجو أن لا أعود إلى الرابعة ما بقيت.

قال ابن لهيعة: وأخبرني بعض أشياخنا [1] أن عبد العزيز بن مروان لما قدم الإسكندرية سنة ثمانين سأل: هل بقي بالإسكندرية أحد ممن أدرك فتحها؟ فأتوه بشيخ من الروم من أكابر أهل الإسكندرية يومئذ فأعلموه أنه أدرك فتحها وهو رجل، فسأله عن أعجب ما رأى يومئذ من المسلمين. فقال: أخبرك أيها الأمير أنه كان لي صديق من أبناء بطارقة الروم يومئذ منقطع إليّ، وأنه أتاني فسألني أن أركب معه حتى ننظر إلى المسلمين وإلى حالهم وهيئتهم، وهم إذ ذاك محاصرون الإسكندرية، فخرجت معه وهو على برذون له كثير اللحم وأنا على برذون خفيف، فلما خرجنا من الحصن الثالث وقفنا على كوم مشرف ننظر إلى العرب، وإذا هم في خيام لهم وعلى باب كل خيمة فرس واقف ورمح مركوز، ورأينا قوماً ضعفاء فعجبنا من ضعفهم، وقلنا: كيف بلغ هؤلاء القوم ما بلغوا؟ فبينا نحن وقوف ننظر إليهم ونعجب إذ خرج رجل منهم من بعض تلك الخيام، فلما نظر إلينا اختلع رمحه ووثب على ظهر فرسه ثم أقبل نحونا، فقلت لصاحبي: والله إنه ليريدنا! فلما رأيناه مقبلاً إلينا لا يريد غيرنا ولينا

---

(١) هو: بكر بن عمرو الخولاني.

هاربين، فما كان بأوشك من أن أدرك صاحبي فطعنه بالرمح فصرعه، ثم تركه صريعاً وأقبل في إثري وأنا خائف أن لا أفلت منه حتى دخلت الحصن الأول فنجوت منه، ثم صعدت الحصن لأبصر ما يفعل، فرجع وهو يتكلم بكلام يرفع به صوته، فظننت أنه يقرأ، ثم مضى حتى اعترض برذون صاحبي فأخذه ورجع إلى صاحبي وهو صريع فأخذ سيفه وترك سلبه فلم يأخذه تهاوناً به، وكانت ثيابه ديباجاً كلها، فلم يأخذها ولم ينزعها عنه.

فقال عبد العزيز بن مروان للشيخ الرومي: صف لي ذلك الرجل وشبهه ببعض من عندي.

فأشار إلى رجل مخفف كوسج[1] فقال: هو يشبه هذا.

قال عبد العزيز: تخبرك أنه يمان[2].

وأقام عمرو يحاصر الإسكندرية أشهراً، فقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لما بلغه ذلك: ما أبطأوا بفتحها إلا لما أحدثوا.

وقال أسلم مولى عمر: لما أبطأ على عمر فتح مصر كتب إلى عمرو بن العاص:

أما بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، أنكم تقاتلونها منذ سنين، وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن الله ـ تبارك وتعالى ـ لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف، إلا أن يكونوا غيّرهم ما غير غيرهم، فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم، ورغبهم في الصبر والنية، وقدم أولئك النفر الأربعة في صدور الناس، ومر الناس جميعاً أن تكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة، فإنها ساعة تنزل الرحمة ووقت الإجابة، وليضج الناس إلى

---

(١) الكوسج: الناقص الأسنان، والبطيء من البراذين ـ الفيروزابادي. القاموس ج ١ ص ٢٠٤.

(٢) الوارد في ابن عبد الحكم: «.. فقال عبد العزيز عند ذلك: إنه ليصف صفة رجل يماني».

الله ويسألوه النصر على عدوهم.

فلما أتى عمراً الكتاب جمع الناس وقرأه عليهم، ثم دعا أولئك النفر فقدمهم أمام الناس، وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين، ثم يرغبوا إلى الله ويسألوه النصر، ففعلوا، ففتح الله عليهم.

ويقال إن عمرو بن العاص استشار مسلمة بن مخلد فقال له: أشر عليّ في قتال هؤلاء. فقال له مسلمة: أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول الله ﷺ فتعقد له على الناس، فيكون هو الذي يباشر القتال ويكفيكه. قال عمرو: ومن ذلك؟ قال: عبادة بن الصامت. فدعا عمرو عبادة، فأتاه وهو راكب على فرسه، فلما دنا منه أراد النزول، فقال له عمرو: عزمت عليك أن لا تنزل، ناولني سنام رمحك، فناوله إياه، فنزع عمرو عمامته عن رأسه وعقد له وولاه القتال، فتقدم عبادة مكانه فصاف الروم وقاتلهم، ففتح الله على يديه الإسكندرية في يومه ذلك.

ويروى أن عمرو بن العاص قال وقد أبطأ عليه الفتح، فاستلقى على ظهره ثم جلس فقال: إني فكرت في هذا الأمر فإذا هو لا يصلح آخره إلا من أصلح
١٧١ ب أوله ـ يريد الأنصار ـ // فدعا عبادة بن الصامت فعقد له، ففتح الله الإسكندرية على يديه من يومه ذلك.

وقال جنادة بن أبي أمية: دعاني عبادة بن الصامت يوم الإسكندرية وكان على قتالها، فأغار العدو على طائفة من الناس ولم يأذن بقتالهم، فبعثني أحجز بينهم، فأتيتهم فحجزت بينهم ثم رجعت إليه، فقال: أقتل أحد من الناس؟ قلت: لا. قال: الحمد لله الذي لم يقتل أحد منهم عاصيا.

قالوا: وكان فتح الإسكندرية يوم الجمعة مستهل شهر المحرم من سنة عشرين.

ولما هزم الله الروم وفتحت الإسكندرية وهرب الروم في البحر والبر، خلف عمرو بن العاص بالإسكندرية من أصحابه ألف رجل، ومضى في طلب من

هرب في البر من الروم، فرجع من كان هرب منهم في البحر إلى الإسكندرية فقتلوا من كان فيها من المسلمين إلا من هرب.

وبلغ ذلك عمرو بن العاص فكر راجعاً ففتحها، وأقام بها، وكتب إلى عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أن الله قد فتح علينا الإسكندرية عنوة بغير عقد ولا عهد، فكتب إليه عمر يقبح رأيه ويأمره ألا يجاوزها.

قال ابن لهيعة: وهذا هو فتح الإسكندرية الثاني، وكان سبب فتحها أن بواباً يقال له ابن بسامة سأل عمراً الأمان على نفسه وأرضه وأهل بيته ويفتح له الباب، فأجابه عمرو إلى ذلك وفتح له ابن بسامة الباب، فدخل عمرو من ناحية قنطرة سليمان، وكان مدخله الأول من الباب الذي من ناحية كنيسة الذهب.

وقد روى ابن لهيعة ـ أيضاً ـ عن يزيد بن أبي حبيب أن فتحها الأول كان سنة احدى وعشرين ثم انتقضوا سنة خمس وعشرين.

وجاءت الروم عليهم منويل الخصي، بعثه هرقل في المراكب حتى أرسوا بالإسكندرية فأجابهم من بها من الروم، فخرج إليهم عمرو بن العاص في البر والبحر، فقاتلهم قتالاً شديداً، فهزمهم الله وقُتل منويل، ولم يكن المقوقس تحرك ولا نكث.

ويقال: أن هذا انتقاض ثانٍ للإسكندرية بعد انتقاضها الذي ذكره ابن لهيعة أولا (وكان) ذلك في زمان عمر، وهذا الذي ذكر يزيد بن أبي حبيب في خلافة عثمان ـ رضي الله عنهما ـ وسيأتي ذكره في موضعه مستوفى إن شاء الله [1].

وقيل: إن جميع من قتل من المسلمين من حين كان من أمر الإسكندرية ما كان إلى أن فتحت اثنان وعشرون رجلا.

وبعث عمرو بن العاص ـ معاوية بن حديج وافداً إلى عمر بن الخطاب يبشره بالفتح، فقال له معاوية: ألا تكتب معي؟ فقال له عمرو: ما أصنع بالكتاب، ألست رجلا عربياً تبلغ الرسالة وما رأيت وحضرته؟

(١) راجع ص ٤٨ من هذا الجزء.

فلما قدم على عمر أخبره بفتح الإسكندرية، فخر عمر ساجداً وقال: الحمد لله.

ويروى عن معاوية بن حديج أنه قال: قدمت المدينة في الظهيرة فأنخت راحلتي بباب المسجد، ثم دخلت المسجد، فبينا أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب فرأتني شاحباً عليَّ ثياب السفر، فأتتني فقالت: من أنت؟ فقلت: أنا معاوية بن حديج رسول عمرو بن العاص. فانصرفت عني، ثم أقبلت تشتد، فقالت: قم فأجب أمير المؤمنين. فتبعتها، فلما دخلت إذا بعمر بن الخطاب يتناول رداءه فقال: ما عندك؟ فقلت: خير يا أمير المؤمنين، فتح الله الإسكندرية، فخرج معي إلى المسجد فقال للمؤذن: أذن في الناس الصلاة جامعة، فاجتمع الناس ثم قال لي: قم فأخبر أصحابك. فقمت فأخبرتهم، ثم صلى ودخل منزله واستقبل القبلة فدعا بدعوات ثم جلس فقال: يا جارية، هل من طعام؟ فأتت بخبز وزيت، فقال: كل، فأكلت على حياء، ثم قال: كل فإن المسافر يحب الطعام، فلو كنت آكلا لأكلت معك. فأصبت على حياء، ثم قال: يا جارية، هل من تمر؟ فأتت بتمر في طبق، فقال: كل، فأكلت على حياء، ثم قال: ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد؟ قال: قلت: أمير المؤمنين قائل (١). قال: بئس ما قلت، أو بئس ما ظننت. لئن نمت بالنهار لأضيعن الرعية، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية؟

ثم كتب عمرو بن العاص بعد ذلك إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه:

أما بعد، فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها، غير أني أصبت فيها أربعة آلاف منيه بأربعة آلاف حمام، وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية، وأربعمائة ملهى للملوك.

وعن أبي قبيل أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية وجد فيها اثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر.

---

(١) القائل: هو النائم في وسط النهار - الفيروزابادي. القاموس ج ٤ ص ٤٢.

وعن غيره [١] أنه كان فيما أحصى من الحمامات اثنا [٢] عشر ديماساً أصغر ديماس منها يسع ألف مجلس، كل مجلس منها يسع جماعة نفر.

قال: وترحل من الإسكندرية في الليلة التي دخلها عمرو بن العاص أو الليلة التي خافوا دخوله سبعون ألف يهودي، وكان عدة من بالإسكندرية من الروم مائتي ألف من الرجال، فلحق بأرض الروم أهل القوة وركبوا السفن، وكان بها مائة مركب من المراكب الكبار يُحْمل فيها ثلاثون ألفا بما قدروا عليه من المال والمتاع والأهل، وبقي من بقي ممن يؤدي الخراج، فأحصوا يومئذ ستمائة ألف سوى النساء والصبيان.

واختلف الناس على عمرو في قسمهم، وكان أكثرهم يريدون القسم، فقال عمرو: لا أقدر على ذلك حتى أكتب إلى أمير المؤمنين، فكتب إليه في ذلك، فكتب إليه عمر - رضي الله عنه: لاتقسمها، وذرهم يكون خراجهم فيئا للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم.

فأقرها عمرو وأحصى أهلها وفرض عليهم الخراج، فكانت مصر صلحاً كلها بفريضة دينارين دينارين على كل رجل، لا يزاد على أحد منهم في جزية رأسه على دينارين، غير أنه يلزم بقدر مايتوسع فيه من الأرض والزرع، إلا الإسكندرية فإنهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرى من وليهم، لأن الإسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد، ولم يكن لهم صلح ولا ذمة.

ويقال: إن مصر كلها فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد.

قال سفيان بن وهب الخولاني: لما فتحنا مصر بغير عهد قام الزبير بن العوام فقال: اقسمها يا عمرو. فقال: لا أقسمها. فقال الزبير: والله لتقسمنها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر. فقال عمرو: والله لا أقسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين. فكتب إليه فأجابه: أقرها حتى يغدو [٣] منها حبل الحبلة.

---

(١) هو: حسين بن شفي بن عبيد.

(٢) في الأصل: اثنى.

(٣) في ابن عبد الحكم: يغزو.

وفي حديث آخر أن الزبير صولح على شيء أرضى به.

١٧٢ أ وحدث أبو قنان[١] // عن أبيه أنه سمع عمرو بن العاص يقول - يعني بمصر: لقد قعدت مقعدي هذا وما لأحد من قبط مصر عليّ عهد ولا عقد، إن شئت قتلت، وإن شئت حبست، وإن شئت بعت.

ويروى عن ربيعة نحو ما تقدم من فتح مصر بغير عهد، وأن عمر بن الخطاب حبس درها وصرها أن يخرج منه شيء نظيراً للإسلام وأهله.

وقال زيد بن أسلم: كان لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - تابوت فيه كل عهد كان بينه وبين أحد ممن عاهده، فلم يوجد فيه لأهل مصر عهد.

ويروى أن عمرو بن العاص لما فتح مصر قال للقبط: إن من كتمني كنزا عنده فقدرت عليه قتلته. فذكر لعمرو أن قبطياً[٢] من أهل الصعيد يقال له بطرس عنده كنز، فأرسل إليه فسأله، فأنكر، فحبسه عمرو، وسأل: هل تسمعونه يسأل عن أحد؟ فقالوا: سمعناه يسأل عن راهب بالطور، فأخذ خاتم بطرس وكتب على لسانه بالرومية إلى ذلك الراهب: أن ابعث إليّ بما عندك، وختم بخاتمه، فجاء الرسول من عند الراهب بقلة شامية مختومة بالرصاص، فوجد فيها صحيفة[٣] مكتوب فيها: يابني، إن أردتم مالكم فافتحوا تحت الفسقية الكبيرة. فأرسل عمرو إلى الفسقية فحبس عنها الماء، وقلع البلاط الذي تحتها، فوجد فيها اثنين وخمسين أردبا ذهباً مضروبة، فضرب عمرو رأس القبطي عند باب المسجد، فأخرج القبط كنوزهم خشية أن يقتلوا.

وروى يزيد بن أبي حبيب أن عمرو بن العاص استحل مال قبطي كان يظهر الروم على عورات المسلمين ويكتب إليهم بذلك، فاستخرج منه بضعة وخمسين أردباً دنانير.

---

(١) هو: أيوب بن أبي العالية.

(٢) في ابن عبد الحكم: نبطيا.

(٣) في الأصول: صفيحة، والتصويب من ابن عبد الحكم.

وقال ابن شهاب: كان فتح مصر بعضها بعهد وذمة وبعضها عنوة. فجعل عمر بن الخطاب جميعها ذمة، وحملهم على ذلك، فجرى ذلك فيهم إلى اليوم.

وفي كتاب سيف عمن سمى من أشياخه[1] في فتح مصر مساق آخر غير ما تقدم، وذلك أن عمرو بن العاص خرج إلى مصر بعدما رجع عمر إلى المدينة - يعني رجوعه من الشام - فانتهى عمرو إلى باب مصر، وأتبعه الزبير فاجتمعا، فلقيهم هناك أبو مريم جاثليق[2] مصر ومعه الأسقف في أهل النيات، بعثهم المقوقس لمنع بلادهم. فلما نزل بهم عمرو قاتلوه، فأرسل إليهم عمرو: لا تعجلونا لنعذر إليكم، وتروا رأيكم بعد، فكفوا أصحابهم، فأرسل إليهم عمرو: إني بارز فليبرز لي أبو مريم وأبو مريام، فأجابوه إلى ذلك وآمن بعضهم بعضا. فقال لهما عمرو: أنتما راهبا أهل هذه البلدة فاسمعا: إن الله بعث محمداً بالحق وأمره به، وأمرنا به محمد، وأدى إلينا كل الذي أمر به، ثم مضى - صلوات الله عليه - وقد قضى الذي عليه وتركنا على الواضحة، وكان مما أمرنا به الإعذار إلى الناس، فنحن ندعوكم إلى الإسلام، فمن أجابنا إليه قبلنا منه وكان مثلنا، ومن لم يجبنا إليه عرضنا عليه الجزية، وبذلنا له المنعة، وقد أعلمنا أنا مفتتحوكم، وأوصانا بكم حفظاً لرحمنا فيكم، وإن لكم إن أجبتمونا إلى ذلك ذمة إلى ذمة، ومما عهد إلينا أميرنا: استوصوا بالقبطيين خيرا، فإن رسول الله ﷺ أوصى بالقبطيين خيراً، لأن لهم رحماً وذمة - يعني بالرحم أن هاجر أم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام منهم - فقالا: قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء وأتباع الأنبياء، وذكرا أن هاجر معروفة عندهم شريفة.

قالا: كانت ابنة ملكنا، وكان من أهل منف والملك فيهم، فأذيل عليهم أهل عين شمس فقتلوهم وسلبوا ملكهم واغتربوا، فلذلك صارت إلى إبراهيم عليه السلام.

---

(١) الطبري. تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ١٠٧ - ١٠٨.

(٢) الجاثليق: رئيس النصارى في ديار الإسلام.

مرحبا بكم وأهلاً أَمِّنا حتى نرجع إليك.

فقال عمرو: إن مثلي لا يُخدع ولكنني[1] أأجلكما ثلاثاً ولتناظرا قومكما، وإلا ناجرناكم.

قالا: زدنا، فزادهم يوماً، فقالا: زدنا، فزادهم يوماً، فرجعوا إلى المقوقس، فهم - يعني بالإنابة إلى الجزية - فأبى أرطبون أن يجيبهما، وأمر بمناهدتهم، فقالا لأهل مصر: أما نحن فسنجهد أن ندنع عنكم، لا نرجع إليهم وقد بقيت أربعة أيام، فلا تصابون فيها بشيء إلا رجونا أن يكون له أمان، فلم يفجأ عمراً والزبير إلا البيات من فرقب[2]، وعمرو والزبير بعين شمس وبها جمعهم. وبعث إلى الفرما أبرهة بن الصباح، فنزل عليها، وبعث عوف بن مالك إلى الإسكندرية فنزل عليها، فقال كل واحد منهما لأهل مدينته: إن شئتم أن تنزلوا فلكم الأمان. فقالوا: نعم، فراسلوهم، وتربصوا بهم أهل عين شمس، وسبي المسلمون من بين ذلك.

وقال عوف بن مالك: ما أحسن مدينتكم يا أهل الإسكندرية فقالوا: إن الإسكندر قال: إني أبني مدينة إلى الله فقيرة، وعن الناس غنية، فبقيت بهجتها.

وقال أبرهة لأهل الفرما: ما أخلق مدينتكم يا أهل الفرما؟ قالوا: إن الفرما قال: إني أبني مدينة عن الله غنية، وإلى الناس فقيرة، فذهبت بهجتها.

قال الكلبي: كان الإسكندر والفرما أخوين، ثم حدث بمثل ذلك، قال: فنسبتا إليهما، فالفرفا يتهدم كل يوم فيها شيء، وأخلقت مرآتها، وبقيت جدة الإسكندرية.

قالوا: ولما نزل عمرو على القوم بعين شمس، وكان الملك بين القبط والنوب، ونزل معه الزبير عليها قال أهل مصر لملكهم: ما تريد إلى قوم فلوا كسرى وقيصر وغلبوهم على بلادهم، صالح القوم واعتقد منهم، ولا تعرضنا لهم -

(١) في الأصول: ولكني.

(٢) في الأصول: قريب، والتصويب من الطبري، وهو موضع لم يُعرفه ياقوت ج ٤ ص ٢٥٤

وذلك في اليوم الرابع ـ فأبى، وناهدوهم فقاتلوهم، وارتقى الزبير سورها، فلما أحسوه فتحوا الباب لعمرو، وخرجوا إليه مصالحين، فقبل منهم، ونزل الزبير عليهم عنوة، حتى خرج على عمرو من الباب معهم، فاعتقدوا بعدما أشرفوا على الهلكة فأجروا ما أخذوا عنوة مجرى ما صالحوا عليه، فصاروا ذمة.

وكان صلحهم:

« بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم، وملتهم، وأموالهم، وكنائسهم، وصلبهم، وبحرهم، وبرهم، لا يدخل عليهم في شيء من ذلك، ولا ينتقض، ولا يساكنهم النوب.

وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف.

وعليهم ما جني // لصوصهم، فإن أبى أحد أن يجيب رفع عنهم من الجزى بقدرهم، وذمتنا ممن أبى بريئة. ١٧٢ ب

وإن نقص نهرهم من عادته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك، ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى فاختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، أو يخرج من سلطاننا، عليهم ما عليهم أثلاثا في كل ثلث ـ يريد من السنة ـ جباية ثلث ما عليهم، لهم على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله ﷺ وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين.

وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً، وكذا وكذا فرساً معونة، على أن لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة.

شهد الزبير، وعبد الله ومحمد ابنا عمرو، وكتب وردان، وحضر فدخل في ذلك أهل مصر كلهم، وقبلوا الصلح »(١).

---

(١) الطبري ج ٤ ص ١٠٩.

فمصر عمرو الفسطاط، ونزله المسلمون، وظهر أبو مريم وأبو مريام، فكلموا عمراً في السبايا التي أصيبت بعد المعركة، فقال عمرو: أولهم عهد وعقد [1] ؟ألم نخالفكما ويغر [2] علينا من يومكما؟ فطردهما، فرجعا وهما يقولان: كل شيء أصبتموه إلى أن نرجع إليكم ففي ذمة. فقال لهما عمرو: يغيرون علينا وهم في ذمة؟ قالا: نعم. وقسم عمرو ذلك السبي على الناس، وتوزعوه ووقع في بلاد العرب، وقدم البشير إلى عمر بعد بالأخماس، وقدم الوفود، فسألهم عمر، فما زالوا يخبرونه حتى مروا بحديث الجاثليق وصاحبه، فقال عمر: ألا أراهما يبصران وأنتم (تجاهلون و) لا تبصرون من قاتلكم فلا أمان له، ومن لم يقاتلكم وأصابه منكم سبي من أهل القرى في الأيام الخمسة فله الأمان، وكتب بذلك إلى عمرو بن العاص، فجعل يُجاء بهم من اليمن ومكة حتى ردوا.

وعن عمرو بن شعيب[3] قال: لما التقى عمرو والمقوقس بعين شمس، واقتتلت خيلاهما، جعل المسلمون يجولون بعد البعد، فزمرهم عمرو، فقال رجل من أهل اليمن: إنا لم نخلق من (حجارة ولا) حديد. فأسكته عمرو، ثم لما تمادى ذلك نادى عمرو: أين أصحاب رسول الله ﷺ؟ فحضر من شهدها منهم، فقال: تقدموا فبكم ينصر المسلمون. فتقدموا وفيهم يومئذ أبو بردة وأبو برزة، وناهدهم الناس يتبعون الصحابة، ففتح الله على المسلمين، وظفروا أحسن الظفر، وافتتحت مصر، وقام فيها ملك الإسلام على رجل، وجعل يفيض على الأمم والملوك.

وعن محمد بن إسحاق[4] عن رجل من أهل مصر اسمه القاسم بن قزمان: أن زياد بن جزء الزبيدي حدثه وكان في جند عمرو بن العاص، قال: افتتحنا الإسكندرية في خلافة عمر، فلما افتتحنا باب اليون تدنينا قرى الريف فيما بيننا وبين الإسكندرية قرية قرية، حتى انتهينا إلى بلهيب[5] وقد بلغت سبايانا مكة

(١) في الأصل: «عهداً وعقداً».

(٢) في الأصل: «يغار».

(٣) المصدر السابق ج ٤ ص ١١١.

(٤) نفسه ج ٤ ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٥) بلهيب: بالفتح ثم السكون وكسر الهاء وباء ساكنة، قرية من قرى الريف، يقال لها الريش =

والمدينة (واليمن)، فلما انتهينا إلى بلهيب ِأرسل صاحب الإسكندرية إلى عمرو ابن العاص: إني قد كنت أخرج الجزية إلى من هو أبغض إليّ منكم يا معشر العرب، لفارس والروم، فإن أحببت أن أعطيك الجزية على أن ترد عليّ ما أصبتم من سبايا أرضي فعلت، فبعث إليه عمرو: إن ورائي أميراً لا أستطيع أن أصنع أمراً دونه، فإن شئت أن أمسك عنك وتمسك عني حتى أكتب إليه بالذي عرضت عليّ، فإن قبل ذلك منك قبلت، وإن أمرني بغير ذلك مضيت لأمره. قال: فقال: نعم. فكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يذكر له الذي عرض عليه صاحب الإسكندرية. قال: وكانوا لا يخفون علينا كتاباً كتبوا به، ثم وقفنا ببلهيب وفي أيدينا بقايا من سبيهم، وأقمنا ننتظر كتاب عمر حتى جاءه، وقرأه علينا عمرو وفيه:

«أما بعد. فإنه جاء في كتابك تذكر أن صاحب الإسكندرية عرض عليك أن يعطيك الجزية على أن ترد عليه ما أصبت من سبايا أرضه، ولعمري لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحب إليّ من فيء يقسم، ثم كأنه لم يكن، فاعرض على صاحب الإسكندرية أن يعطيك الجزية، على أن تخيروا من في أيديكم من سبيهم بين الإسلام وبين دين قومه، فمن اختار منهم الإسلام فهو من المسلمين، له مالهم وعليه ما عليهم، ومن اختار دين قومه وضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل ذمته[1]، فأما من تفرق من سبيهم بأرض العرب وبلغ مكة والمدينة واليمن فإنّا لا نقدر على ردهم، ولا نحب أن نصالحه على أمر لا نفي له به».

قال: فبعث عمرو بن العاص إلى صاحب الإسكندرية يعلمه الذي كتب به أمير المؤمنين، فقال: قد فعلت، فجمعنا ما في أيدينا من السبايا، واجتمعت النصارى، فجعلنا نأتي بالرجل ممن في أيدينا، ثم نخيره بين الإسلام وبين

= راجع بشأنها: الطبري ج٤ ص ١٠٥، ياقوت. معجم البلدان ج١ ص ٤٩٢.

(١) في الطبري: دينه.

النصرانية، فإذا اختار الإسلام كبرنا تكبيرة لهي أشد من تكبيرتنا حين تقتحم القرية، ثم نحوزه إلينا، وإذا اختار النصرانية نخرت النصارى وحازوه إليهم، ووضعنا عليه الجزية، وجزعنا من ذلك جزعاً شديداً، حتى كأنه رجل خرج منا إليهم، فكان ذلك الدأب حتى فرغنا (منهم).

وفيمن أتينا به أبو مريم عبد الله بن عبد الرحمن ـ قال القاسم: وقد أدركته وهو عريف بني زبيد، قال ابن جزء الزبيدي: فعرضنا عليه الإسلام والنصرانية ـ وأبوه وأمه وإخوته في النصارى ـ فاختار الإسلام،فحزناه إلينا، ووثب عليه أبوه وأمه وإخوته يجاذبوننا عليه، حتى شققوا ثيابه، ثم هو اليوم عريفنا كما ترى.

ثم فتحت لنا الإسكندرية فدخلناها، فمن زعم غير ذلك أن الإسكندرية وما حولها من القرى لم تكن لها جزية ولا لأهلها عهد فقد كذب.

قال القاسم: وإنما أهاج[١] هذا الحديث أن ملوك بني أمية كانوا يكتبون إلى أمراء مصر أنها إنما دخلت عنوة، وإنما هم عبيدنا نزيد عليهم كيف شئنا، ونضع ما شئنا، وقد تقدم بعض ما وقع في هذا المعنى من الاختلاف.

وكذلك اختلفوا في وقت فتح مصر، فذكر ابن إسحاق أنها فتحت سنة
١٧٣ أ عشرين، وكذلك قال أبو معشر // والواقدي.

وقد روي عن أبي معشر أن الإسكندرية فتحت سنة خمس وعشرين، ولعل ذلك فتحها الأخير، إذ قد تقدم ذكر انتقاضها مرتين.

وأما سيف[٢] فزعم أن مصر والإسكندرية فتحتا في سنة ست عشرة. قال: ولما كان ذو القعدة من سنة ست عشرة وضع عمر ـ رحمه الله ـ مسالح مصر على السواحل وغيرها[٣]، وكان داعية ذلك أن هرقل أغزى مصر والشام في

(١) في الأصول: هاج.

(٢) الطبري ج ٤ ص ١١١ ـ ١١٢.

(٣) في الطبري: كلها.

وقال سعيد بن عفير وغيره[1] : لما تم الفتح للمسلمين بعث عمرو بن العاص جرائد الخيل إلى القرى التي حول الفسطاط ، فأقامت الفيوم سنة لم يعلم المسلمون مكانها ، حتى أتاهم رجل فذكرها لهم ، فأرسل عمرو معه ربيعة بن حبيش بن عرفطة الصدفي ، فلما سلكوا في المجابة لم يروا شيئا ، فهموا بالإنصراف ، فقالوا : لا تعجلوا ، سيروا فإن كان كذبا فما أقدركم على ما أردتم . فلم يسيروا إلا قليلا حتى طلع لهم سواد الفيوم فهجموا عليها ، فلم يكن عندهم قتال وألقوا بأيديهم .

قال : ويقال : بل خرج مالك بن ناعمة الصدفي ـ وهو صاحب الأشقر ـ ينفض المجابة على فرسه ، ولا علم له بما خلفها من الفيوم ، فهجم على الفيوم فلما رأى سوادها رجع إلى عمرو فأخبره .

وقيل غير ذلك في وجه الإنتهاء إلى الفيوم مما لا كبير فائدة في ذكره ، والله تعالى أعلم[2] .

وعن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغا منها همَّ بسكناها ، وقال : مساكن قد كفينا بناءها ، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك ، فسأل عمر الرسول : هل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟ قال : نعم ، إذا جرى النيل . فكتب إلى عمرو :

إني لا أُحب[3] أن ينزل المسلمون[4] منزلا يحول الماء بيني وبينهم لا في شتاء ولا في صيف .

فتحول عمرو من الإسكندرية إلى الفسطاط . وإن ناساً من المسلمين حين

---

(١) ابن عبد الحكم . فتوح مصر وأخبارها ص ١٦٩ .
(٢) راجع بشأن ذلك المصدر السابق ص ٩١ .
(٣) في الأصول : لأحب .
(٤) في ابن عبد الحكم : أن تنزل المسلمين .

افتتحوا مصر مع عمرو بن العاص اختطوا بالجيزة وسكنوا بها، فكتب عمرو بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر يقول: ما كنت أحب أن ينزلوا منزلاً يكون الماء دونهم، فإذ فعلوا فابن عليهم حصناً. فبني الحصن الذي خلف الجسرين.

وبنى عمرو بن العاص المسجد، وكان ما حوله حدائق وأعناباً، فنصبوا الحبال حتى استقام لهم، ووضعوا أيديهم، فلم يزل عمرو قائماً حتى وضعوا القبلة، وضعها هو ومن حضر معه من أصحاب رسول الله ﷺ واتخذ فيه منبراً. فكتب إليه عمر بن الخطاب:

أما بعد. فإنه بلغني أنك اتخذت منبراً ترقى به على رقاب المسلمين، أوما بحسبك أن تقوم قائما والمسلمون تحت عقبيك، فعزمت عليك لما كسرته.

ولما اختط الناس المنازل بالفسطاط كتب عمرو بن العاص إلى عمر - رضي الله عنه:

إنا قد اختططنا لك داراً عند المسجد الجامع.

فكتب إليه عمر:

أنّى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر؟ وأمره أن يجعلها سوقاً للمسلمين.

وذكر الطبري(1) أن القبط حضروا باب عمرو، فبلغه أنهم يقولون: ما أرَثَّ العربَ وأهونَ أنفسهم وما رأينا مثلنا دان لهم فخاف أن يستثيرهم ذلك، فأمر بجزر فنحرت، فبطحت في الماء والملح، وأمر أمراء الأجناد أن يحضروا هم وأصحابهم، وجلس وأذن لأهل مصر، وجيء باللحم والمرق فطافوا به على المسلمين، فأكلوا أكلاً عربياً، انتشلوا وحسوا وهم في العباء ولا سلاح، فافترق أهل مصر وقد ازدادوا طمعاً وجرأة، وتقدم إلى أمراء الأجناد في الحضور بأصحابهم من الغد، وأمرهم أن يجيئوا في ثياب أهل مصر وأحذيتهم، وأمرهم أن يأخذوا أصحابهم بذلك، ففعلوا، وأذن لأهل مصر، فرأوا غير ما رأوا بالأمس، وقام عليهم القوم بألوان مصر، فأكلوا أكل أهل مصر، ونحوا نحوهم،

(1) الطبري. تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ١١٠.

فافترقوا وقد ارتابوا. وبعث إليهم: أن يتسلحوا غداً للعرض، وغداً على العرض، وأذن لأهل مصر فعرضهم عليهم، ثم قال: إني قد علمت أنكم أريتم في أنفسكم أنكم في شيء حين رأيتم اقتصاد العرب (وهون تزجيتهم)،فخشيت أن تهلكوا، فأحببت أن أريكم حالهم، كيف كانت في أرضهم (ثم حالهم في أرضكم)، ثم حالهم في الحرب فظفروا بكم، وذلك عيشهم، وقد كلبوا على بلادكم قبل أن ينالوا منها ما رأيتم في اليوم الثاني، فأحببت أن تعلموا أن من رأيتم في اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثاني وراجع إلى عيش اليوم الأول. فتفرقوا وهم يقولون: لقد رمتكم العرب برُجلهم.

وبلغ عمر ـ رحمه الله ـ (ذلك)، فقال لجلسائه ـ يعني عمراً: والله إن حربه للينة مالها سطوة ولا سورة كسورات الحروب من غيره، إن عمراً لعض، ثم أمَّره عليها وأقام بها.

وذكر ابن عبد الحكم أن عمر ـ رضي الله عنه ـ كتب أن يختم في رقاب أهل الذمة بالرصاص، ويظهروا مناطقهم، ويجزوا نواصيهم، ويركبوا على الأُكُفِ عرضاً، ولا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليه الموسى، ولا يضربوا على النساء، ولا على الولدان، ولا يدعوهم يتشبهون[1] بالمسلمين في لبوسهم[2].

قال[3]: ثم أن عمر بن الخطاب أمر أمراء الأجناد أن يتقدموا إلى الرعية بأن عطاءهم قائم، وأرزاق عيالهم جارية، فلا يزرعون ـ يعني الأجناد ـ ولا يزارعون.

فأتى شريك بن سمي الغطيفي إلى عمرو بن العاص فقال: إنكم لا تعطوننا ما يحسبنا أفتأذن لي بالزرع؟ فقال له عمرو: ما أقدر على ذلك،فزرع شريك بغير إذنه، فكتب عمرو بذلك إلى عمر بن الخطاب، فأمره أن يبعث إليه

---

(١) في الأصول: «يتشبهوا».

(٢) ابن عبد الحكم. فتوح مصر وأخبارها ص ١٥١.

(٣) نفسه ص ١٦٢.

شريكاً، فأقرأ عمرو شريكاً الكتاب، فقال له شريك، قتلتني يا عمرو قال: ما أنا قتلتك قال: أنت صنعت هذا بنفسك قال: فإذا كان هذا من رأيك فأذن لي في الخروج إليه من غير كتاب، ولك عليّ عهد الله أن أجعل يدي في يده، فأذن له، فلما وقف على عمر قال: تؤمنني يا أمير المؤمنين؟ قال: ومن أي الأجناد أنت؟ قال: من جند مصر، قال: فلعلك شريك بن سمي الغطيفي؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين، قال: لأجعلنك نكالاً لمن خلفك، قال: أو تقبل مني ما قبل الله من العباد؟ قال: وتفعل؟ قال: نعم، فكتب إلى عمرو بن العاص: إن
شريك بن سمي جاءني // تائباً فقبلت منه. ١٧٣ ب

وعن الليث بن سعد [١] قال: سأل المقوقس عمرو بن العاص أن يبيعه سفح المقطم بسبعين ألف دينار، فعجب عمرو من ذلك وقال: أكتب في ذلك إلى أمير المؤمنين، فأجابه عمر عن كتابه إليه في ذلك: سله لم أعطاك به ما أعطاك، وهي لا تزدرع ولا يستنبط بها ماء ولا ينتفع بها. فسأله عمرو، فقال: إنا لنجد صفتها في الكتب أن فيها غراس الجنة، فكتب بذلك إلى عمر، فأجابه: إنا لا نعلم غراس الجنة إلا المؤمنين [٢]، فأقبر فيها من مات قبلك من المسلمين ولا تبعه بشيء. فكان أول من دفن فيها رجل من المعافر يقال له عامر، فقيل: عمرت.

قالوا [٣]: ولما استقامت البلاد وفتح الله على المسلمين، فرض عمرو بن العاص لرباط الإسكندرية ربع الناس، يقيمون ستة أشهر ثم يعقب بعدهم ربعاً آخر ستة أشهر، وربعاً في السواحل، والنصف الثاني مقيمون معه.

وقيل: كان عمر بن الخطاب يبعث كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالإسكندرية، وكانت الولاة لا تغفلها، ويكثفون [٤] رابطتها، ولا يأمنون الروم عليها.

(١) المصدر السابق ص ١٥٧.
(٢) في الأصل: «المؤمنون».
(٣) نفسه ص ١٩٢.
(٤) في الأصول: ويكنفون، والتصويب من ابن عبد الحكم.

وكتب عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وهو خليفة إلى عبد الله بن سعد ابن أبي سرح بعد أن استعمله على مصر:

قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالإسكندرية، وقد نقضت مرتين، فألزم الإسكندرية رابطتها، وأجر عليهم أرزاقهم، وأعقب بينهم في كل ستة أشهر.

وكان عمرو بن العاص يقول: ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة، وقال: نيل مصر سيد الأنهار، سخر الله له كل نهر من المشرق والمغرب، فإذا أراد الله أن يجريه أمر الأنهار فأمدته بمائها، وفجر له الأرض عيونا، فإذا انتهت جريته إلى ما أراد سبحانه أوحى إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره.

ولما فتح عمرو مصر أتاه أهلها حين دخل بؤنة[1] من أشهر العجم، فقالوا له: أيها الأمير، إن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها. فقال: وما ذاك؟ قالوا: إنه إذا كان لاثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عهدنا إلى جارية بكر بين أبويها، فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النهر. فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون في الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما قبله. فأقاموا ذلك الشهر والشهرين اللذين بعده[2] لا يجري قليلاً ولا كثيراً حتى هموا بالجلاء، فلما رأى ذلك عمرو كتب به إلى عمر بن الخطاب، فكتب [إليه] عمر - رضي الله عنه:

قد أصبت أن الاسلام يهدم ما كان قبله، وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها في داخل النيل.

فلما قدم الكتاب على عمرو وفتح البطاقة فإذا فيها:

من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى نيل مصر[3]: أما بعد، فإن

---

(١) في الأصول: بُونية.

(٢) هما: أبيب ومسري.

(٣) في ابن عبد الحكم: إلى نيل أهل مصر.

كنت تجري من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك.

فألقى عمرو البطاقة في النيل قبل يوم الصليب بيوم، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها، لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل، فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ـ عز وجل ـ ستة عشر ذراعاً في ليلة. وقطع تلك السنة السوء عن أهل مصر.



ذكر فتح أنطابلس

قال ابن عبد الحكم[1]: كان البربر بفلسطين - يعني في زمان داود عليه السلام - فخرجوا منها متوجهين إلى الغرب[2] حتى انتهوا إلى لوبية ومراقية، وهما كورتان من كور مصر الغربية، مما يشرب من ماء السماء ولا ينالها النيل، فتفرقوا هنالك، فتقدمت زناته ومغيلة إلى الغرب وسكنوا الجبال، وتقدمت لواته فسكنت أرض أنطابلس وهي برقة، وتفرقت في هذا الغرب وانتشروا فيه حتى بلغوا السوس، ونزلت هوارة مدينة لبدة، ونزلت نفوسة مدينة صبرة، وجلا من كان فيها من الروم من أجل ذلك، وأقام الأفارق وكانوا خدماً للروم على صلح يؤدونه إلى من غلب على بلادهم، وهم بنو أفارق بن قيصر بن حام.

فسار عمرو بن العاص في الخيل حتى قدم برقة، فصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية، على أن يبيعوا من أبنائهم في جزيتهم، ولم يكن يدخل برقة يومئذ جابي خراج، وإنما كانوا يبعثون بالجزية إذا جاء وقتها.

ووجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة. قال الطبري: فافتتحها بصلح، وصار ما بين برقة وزويلة سلماً للمسلمين. وقال أبو العالية الحضرمي: سمعت عمرو بن العاص على المنبر يقول: لأهل أنطابلس عهد يُوفى لهم به.



---

(١) ابن عبد الحكم. فتوح مصر وأخبارها ص ١٧٠ - ١٧١.

(٢) في ابن عبد الحكم: المغرب.

فتح أطرابلس

قال ابن عبد الحكم[1] ثم سار عمرو حتى نزل أطرابلس في سنة اثنتين وعشرين، فنزل القبة التي على الشرف من شرقيها، فحاصرها شهراً لا يقدر منهم على شيء، فخرج رجل من بني مدلج ذات يوم من عسكر عمرو متصيداً في سبعة نفر، فمضوا غربي المدينة حتى أمعنوا عن العسكر، ثم رجعوا فأصابهم الحر، فأخذوا على ضفة البحر، وكان البحر لاصقا بسور المدينة، ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور، وكانت سفن الروم شارعة في مرساها إلى بيوتهم، فنظر المدلجي وأصحابه، فإذا البحر قد غاض من ناحية المدينة، ووجدوا مسلكاً إليها من الموضع الذي حسر عنه البحر، فدخلوا (منه) حتى أتوا من ناحية الكنيسة وكبروا، فلم يكن للروم مفزع إلا سفنهم، وأبصر عَمْرُو وأصحابه السلمة[2] في جوف المدينة، فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم، فلم يفلت الروم إلا بما خف لهم من مراكبهم، وغنم عمرو ما كان في المدينة.

وكان من بصبرة متحصنين، وهي المدينة العظمى وسوقها السوق القديم، فلما بلغهم محاصرة عمرو مدينة أطرابلس، وأنه لم يصنع فيهم شيئا ولا طاقة له بهم أمنوا.

فلما ظفر عمرو بمدينة أطرابلس جرد خيلا كثيفة من ليلته، وأمرهم بسرعة السير، فصبحت خيله مدينة صبرة وهم غافلون وقد فتحوا أبوابها لتسرح

---

(١) المصدر السابق ص ١٧١ - ١٧٣.

(٢) في الأصول: اللسله.

ماشيتهم، فدخلوها فلم ينج منهم أحد، واحتوى أصحاب عمرو على ما فيها ورجعوا إلى عمرو.

قال: ثم أراد عمرو أن يوجه إلى المغرب، فكتب إلى عمر بن الخطاب: إن الله - عز وجل - قد فتح علينا أطرابلس، وليس بينها وبين أفريقية إلا تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن نغزوها ويفتحها الله على يديه فعل.

فكتب إليه عمر:

١٧٤ أ // لا، إنها ليست بأفريقية، ولكنها المفرقة، غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت.

قال: وأتى عمرو بن العاص كتاب المقوقس، يذكر له أن الروم يريدون نكث العهد ونقض ما كان بينهم وبينه - وكان عمرو قد عاهد المقوقس على أن لا يكتمه أمراً يحدث - فانصرف عمرو راجعاً مبادراً لما أتاه.

قال: وقد كان عمرو يبعث الجريدة من الخيل فيصيبون الغنائم ثم يرجعون - يعني من أطراف أفريقية.

* * *

ذكر انتقاض الإسكندرية في خلافة
عثمان رضي الله عنه (★)

قال عبد الرحمن بن عبد الحكم: وفي سنة خمس وعشرين عزل عثمان بن عفان عمرو بن العاص عن مصر، وولى عبد الله بن سعد. وقد كانت الإسكندرية انتقضت، وجاءت الروم عليهم منويل الخصي في المراكب حتى أرسوا بالإسكندرية، فأجابهم من بها من الروم، ولم يكن المقوقس تحرك ولا نكث، فلما نزلت الروم بالإسكندرية سأل أهل مصر عثمان ـ رضي الله عنه ـ أن يقر عمراً حتى يفرغ من قتال الروم، فإن له معرفة في الحرب وهيبة في العدو، ففعل.

فخرج إليهم عمرو في البر والبحر، وضوى إلى المقوقس من أطاعه من القبط. فأما الروم فلم يطعه منهم أحد. فقال خارجة بن حذافة لعمرو: ناهضهم قبل أن يكثر مددهم ولا آمن أن تنتقض مصر كلها. قال عمرو: لا، ولكن دعهم حتى يسيروا إليّ، فإنهم يصيبون من مروا به فيجزي الله بعضهم ببعض، فخرجوا من الإسكندرية ومعهم من نقض من أهل القرى، فجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورها، ويأكلون أطعمتها، وينتهبون ما مروا به، فلم يعرض لهم عمرو حتى بلغوا نقيوس[1]، فلقوهم في البر والبحر، فبدأت الروم والقبط فرموا بالنشاب في الماء رمياً شديداً، حتى أصاب النشاب يومئذ فرس عمرو في لبته وهو في البر، فعقر فنزل عنه، ثم خرجوا من البحر، فاجتمعوا هم والذين في البر فنضحوا المسلمين بالنشاب، فاستأخر المسلمون عنهم شيئا، وحملوا حملة ولى

(★) الخبر منقول عن ابن عبد الحكم. فتوح مصر وأخبارها ص ١٧٤ - ١٩١.

(١) نقيوس: قرية كانت بين الفسطاط والإسكندرية ـ ياقوت. معجم البلدان ج ٥ ص ٣٠٣.

المسلمون منها، وانهزم شريك بن سمي في خيله.

وكانت الروم قد جعلت صفوفاً خلف صفوف، وبرز يومئذ بطريق ممن جاء من أرض الروم على فرس له عليه سلاح مذهب، فدعا إلى البراز، فبرز إليه رجل من زبيد يقال له حومل ويكنى أبا مذحج، فاقتتلا طويلا برمحين يتطاردان، ثم ألقى البطريق الرمح وأخذ السيف، وألقى حومل رمحه وأخذ سيفه وكان يعرف بالنجدة، وجعل عمرو يصيح: أبا مذحج فيجيبه: لبيك، والناس على شاطىء النيل في البر على تعبئتهم وصفوفهم، فتجاولا ساعة بالسيفين، ثم حمل عليه البطريق فاحتمله وكان نحيفا، ويخترط حومل خنجراً كان في منطقته أو في ذراعه فيضرب[1] به نحر العلج أو ترقوته، فأثبته ووقع عليه فأخذ سلبه، ثم مات حومل بعد ذلك بأيام ـ رحمة الله عليه ـ فرُئي عمرو يحمل سريره بين عمودي نعشه حتى دفنه بالمقطم.

قال: ثم شد المسلمون عليهم فكانت هزيمتهم، وطلبهم المسلمون حتى ألحقوهم بالإسكندرية، ففتح الله عليهم وقُتل منويل الخصي.

قال الهيثم بن زياد: وقتلهم عمرو بن العاص حتى أمعن في مدينتهم، فكُلم في ذلك فأمر برفع السيف عنهم، وبُني في ذلك الموضع مسجد، وهو الذي يُقال له بالإسكندرية مسجد الرحمة، سمي بذلك لرفع عمرو السيف هنالك.

وكان عمرو حلف: لئن أظفره الله عليهم ليهدمن سورها حتى تكون مثل بيت الزانية يؤتى من كل مكان، فلما أظفره الله هدم سورها كله.

وجمع عمرو ما أصاب منهم، فجاءه من أهل تلك القرى من لم يكن نقض، فقالوا: قد كنا على صلحنا، ومرَّ علينا هؤلاء اللصوص فأخذوا متاعنا ودوابنا وهو قائم في يديك، فرد عليهم عمرو ما كان لهم من متاع عرفوه وأقاموا عليه البينة.

وقال بعضهم لعمرو: ما حل لك ما صنعت بنا، وكان لنا عليك أن تقاتل عنا لأنا في ذمتك ولم ننقض، فأما من نقض فأبعده الله. فندم عمرو وقال:

(١) في الأصل: فضرب.

ياليتني كنت لقيتهم حين خرجوا من الإسكندرية.

وكان سبب نقض الإسكندرية ـ فيما ذكر ابن عبد الحكم ـ أن صاحب اخناء [١] قدم على عمرو بن العاص فقال: أخبرنا ما علينا من الجزية فنصبر لها، فقال له عمرو وهو يشير إلى ركن كنيسة: لو أعطيتني من الركن إلى السقف ما أخبرتك، إنما أنتم خزانة لنا، إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خفف عنا خففنا عنكم. فغضب صاحب اخناء، فخرج إلى الروم فقدم بهم، فهزمهم الله، وأسر ذلك النبطي، فأُتي به إلى عمرو، فقال له الناس: اقتله، فقال: لا، بل انطلق فجئنا بجيش آخر.

وقيل: إنه لما أتي به سوره وتوجه وكساه برنسين [٢] أرجوان، وقال له: ايتنا بمثل هؤلاء، فرضي بأداء الجزية.

فقيل له: لو أتيت ملك الروم؟ فقال: لو أتيته لقتلني وقال: قتلت أصحابي.

وذكر ابن عبد الحكم ـ أيضاً ـ أن الروم مشت إلى قسطنطين بن هرقل في سنة خمس وثلاثين فقالوا: تترك الإسكندرية في أيدي العرب وهي مدينتنا الكبرى؟ فقال: ما أصنع بكم وما تقدرون أن تتماسكوا ساعة إذا لقيتم العرب؟ قالوا: فاخرج على أن نموت، فتبايعوا على ذلك، وخرج في ألف مركب يريد الإسكندرية، فبعث الله عليهم ريحاً عاتية فأغرقتهم، إلا قسطنطين نجا بمركبه فألقته الريح بصقلية، فسألوه عن أمره فأخبرهم، فقالوا: شأمت النصرانية وأفنيت رجالها، فلو دخل العرب علينا لم نجد من يردهم، ثم صنعوا له الحمام ودخلوا عليه ليقتلوه، فقال: ويلكم تذهب رجالكم وتقتلون ملككم؟ قالوا: كأنه غرق معهم، ثم قتلوه وخلوا من كان معه في المركب.

---

(١) في الأصول وفي ابن عبد الحكم: اجنا، والتصويب من ياقوت (معجم البلدان ج ١ ص ١٢٤)، وفيه: اخنا بالكسر ثم السكون والنون مقصور،.. ووجدته في غير نسخة من كتاب فتوح مصر بالجيم، واحفيت في السؤال عنه بمصر، فلم أجد من يعرفه إلا بالخاء.

(٢) في ابن عبد الحكم: برنس.

ذكر غزو أفريقية وفتحها

قال ابن عبد الحكم:[1] ولما عزل عثمان ـ عمرو بن العاص عن مصر وأمَّر عبد الله بن سعد بـن أبي سرح، كان يبعث المسلمين في جرائد الخيل كما كانوا يفعلون في إمرة عمرو بن العاص، فيصيبون من أطراف أفريقية ويغنمون، فكتب عبد الله بن سعد في ذلك إلى عثمان، وأخبره بقربها من حوز[2] المسلمين، واستأذنه في غزوها، فندب عثمان الناس إلى ذلك بعد المشورة فيه، فلما اجتمع الناس أمَّر عليهم الحارث بن الحكم إلى أن يقدموا مصر على عبد الله ابن سعد، فيكون إليه الأمر، // فخرج عبد الله إليها، وكان عليها ملك يقال لـه ١٧٤ ب
جرجير، كـان هرقل استخلفه فخلعه، وكان سلطانه ما بين اطرابلس إلى طنجة، ومستقر سلطانه يومئذ بمدينة يقال لها قرطاجنة، فلقي عبد الله جرجير، فقاتله فقتله الله، وولي قتله عبد الله بن الزبير ـ فيما يزعمون ـ وهرب جيش جرجير، فبعث عبد الله السرايا وفرقها، فأصابوا غنائم كثيرة، فلما رأى ذلك رؤساء أهل أفريقية سألوه أن يأخذ منهم مالاً على أن يخرج من بلادهم، فقبل منهم ذلك ورجع إلى مصر، ولم يول على أفريقية أحداً، ولا اتخذ بها قيرواناً.

ويروى أن جرجيرا لما نازله المسلمون القتال أبرز ابنته وكانت من أجمل النساء، فقال: من يقتل عبد الله بن سعد وله نصف ملكي وأزوجه ابنتي؟ فبلغ ذلك عبد الله فقال: أنا أصدق من العلج، وأوفي بالعهد! من يقتل جرجيراً فله ابنته، فقتله عبد الله بن الزبير، فدفع إليه عبد الله ابنته.

---

(١) ابن عبد الحكم. فتوح مصر وأخبارها ص ١٨٣.

(٢) في ابن عبد الحكم: حرز.

وذكر ابن عبد الحكم [1] عن أبيه وابن عفير: أن ابنة جرجير صارت لرجل من الأنصار في سهمه، فأقبل بها منصرفاً قد حملها على بعير له، فجعل يرتجز:

يا ابْنَةَ جرجيرٍ تمشي عَقْبَتكْ   إن عليكِ بالحجاز رَبَّتَكْ

لتحْمِلنَّ من قباءٍ قربتَكْ

(الرجز)

فقالت: ما تقول؟ وسبته فأخبرت بذلك، فألقت بنفسها [2] عن البعير الذي كانت عليه، فاندقت عنقها فماتت. فالله أعلم أي ذلك كان.

وكانت غنائم المسلمين يومئذ أنه بلغ سهم الفارس بعد إخراج الخمس ثلاثة آلاف دينار: للفرس ألفا دينار، ولفارسه ألف دينار، وللراجل ألف، وقسم لرجل من الجيش توفي بذات الحمام، فدفع إلى أهله بعد موته ألف دينار.

وكان جيش عبد الله بن سعد ذلك الذي وقع له القسم عشرين ألفاً.

وبعث عبد الله بالفتح إلى عثمان ـ رضي الله عنه ـ عقبة بن نافع، ويقال: بل عبد الله بن الزبير، وهو أصح.

وسار ـ زعموا ـ عبد الله بن الزبير على راحلته من أفريقية إلى المدينة عشرين ليلة، ولما دخل على عثمان أخبره بلقائهم العدو، وبما كان في تلك الغزوة، فاعجب عثمان فقال له: هل تستطيع أن تخبر الناس بهذا؟ قال: نعم، فأخذ بيده حتى انتهى به إلى المنبر ثم قال: اقصص عليهم ما أخبرتني [به]، فتلكأ عبد الله بدأً، ثم تكلم بكلام أعجبهم.

ويروى عن ابن شهاب [3] أن عثمان لما قال لابن الزبير أتكلم الناس بهذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أنا أهيب لك مني لهم، فأمر عثمان فجمع الناس، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وكان أكره شيء إليه الخطب، وأحب

(١) ابن عبد الحكم ص ١٨٤ ـ ١٨٥.
(٢) في الأصل: نفسها.
(٣) هو: محمد بن مسلم بن عبد الله الزهري.

الأشياء إليه ما كفي، ثم قال: أيها الناس، إن الله قد فتح عليكم أفريقية، وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم بخبرها إن شاء الله، ثم جلس على المنبر.

وقام ابن الزبير إلى جانب المنبر - وكان أول من قام إلى جانبه - فقال[1]: الحمد لله الذي ألف بيننا بعد الفرقة، وجعلنا متحابين بعد البغضة، والحمد لله الذي لا تجحد نعماؤه، ولا يزول ملكه، له الحمد كما حمد نفسه، وكما هو أهله. ابتعث محمداً ﷺ فاختاره بعلمه، وائتمنه على وحيه، فاختار له من الناس أعواناً قذف في قلوبهم تصديقه، فآمنوا به وعزروه ووقروه ونصروه، وجاهدوا في الله حق جهاده، فاستشهد الله منهم من استشهد على المنهاج الواضح والبيع الرابح، وبقي منهم من بقي، لا يأخذهم في الله لومة لائم.

أيها الناس - رحمكم الله - إنا خرجنا للوجه الذي قد علمتم، فكنا مع خير والٍ ولي فحمد، وقسم فعدل، لم يفقد من بر أمير المؤمنين شيئاً، كان يسير بنا البردين يخفض بنا في الظهائر، ويتخذ الليل جملاً، يعجل الترحل من المنزل الفقير، ويطيل اللباث في المنزل المخصب الرحب، فلم نزل على أحسن حالة يتعرفها قوم من ربهم، حتى انتهى إلى أفريقية، فنزل منها بحيث يسمع صهيل الخيل ورغاء الإبل وقعقعة السلاح، فأقام أياماً يجم كراعه، ويصلح سلاحه، ثم دعاهم إلى الإسلام والدخول فيه فبعدوا منه، وسألهم الجزية عن صغار والصلح فكانت هذه أبعد، فأقام فيها ثلاث عشرة ليلة يتأتى[2] بهم وتختلف رسله إليهم، فلما يئس منهم قام خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر النبي ﷺ وأكثر الصلاة عليه، ثم ذكر فضل الجهاد، وما لصاحبه إذا صبر واحتسب، ثم نهد لعدوه فقاتلهم أشد القتال يومه ذلك، وصبر الفريقان جميعا، وكانت بيننا وبينهم قتلى كثيرة، واستشهد الله رجالا من المسلمين، فبتنا وباتوا، للمسلمين بالقرآن دوي كدوي النحل، وبات المشركون في ملاهيهم وخمورهم، فلما أصبحنا أخذنا مصافنا التي كنا عليها بالأمس، وزحف بعضنا إلى بعض، فأفرغ

---

(١) هذه الخطبة غير واردة في ابن عبد الحكم.

(٢) في الأصل: «يتأنى».

الله علينا الصبر، ثم أنزل علينا النصر، ففتحناها من آخر النهار، فأصبنا غنائم كثيرة، فبلغ فيها الخمس خمسمائة ألف دينار، وتركت المسلمين قد قرت أعينهم، وقد أغناهم النفل، ووسعهم الحق، وأنا رسولهم إلى أمير المؤمنين وإلى المسلمين، أبشره وإياهم بما فتح الله من البلاد وأذل من المشركين. فأحمد الله على آلائه، وما أحل بأعدائه من بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين[١].

ثم صمت، ونهض إليه الزبير فقبل بين عينيه وقال: يا بني، إذا نكحت المرأة فانكحها على شبه أبيها أو أخيها تـأتك بأحدهما، والله ما زلت تنطق بلسان أبي بكر الصديق حتى صمت.

ويروى عن الزبير لما أمر عثمان - رحمه الله - ابنه عبد الله بالقيام ليخبر الناس بما شهد من فتح أفريقية أنه قال: وجدت في نفسي على عثمان وقلت: يقيم غلاماً من الغلمان لا يبلغ الذي يحق عليه والذي يجمل به! فقام فتكلم فأبلغ وأصاب، فما فرغ حتى ملأهم عجبا.

وفي كتاب سيف[٢]: أن عثمان لما وجه عبد الله بن سعد إلى أفريقية قال له: إن فتح الله عليك أفريقية فلك مما أفاء الله عليك خمس الخمس، فلما انتهى إلى أفريقية فيمن معه لقيهم صاحبها، فقاتلهم فقتله الله - قتله عبد الله بن سعد - وفتح الله أفريقية سهلها وجبلها، واجتمعوا على الإسلام وحسنت طاعتهم، وقسم عبد الله على الجند ما أفاء الله عليهم بعد أن أخرج الخمس، فعزل منه لنفسه خمسه، وبعث بأربعة أخماسه إلى عثمان، وضرب فسطاطاً في موضع القيروان.

ووفد وفد [٣] إلى عثمان فشكوه فيما أخذ من الخمس، فقال عثمان: أنا نفلته،

---

(١) راجع - أيضاً - وصفه لفتح أفريقية في ابن عساكر. تاريخ دمشق ص ٤٢٠ - ٤٢١ من حرف العين مج ٢.

(٢) الطبري. تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٣) في الأصول، وفي الطبري: ووفد وفداً، وهو ما لا يستقيم المعنى به، والتصويب من ابن عذارى. البيان المغرب ج ١ ص ١٣، نقلاً عن الطبري.

وإنما النَفل تبصرة وتدريب للرجال. ثم كتب إلى // عبدالله بن سعد ١٧٥ أ
باستصلاحهم.

قال: وكان عثمان قد أرسل معه عبد الله بن نافع بن عبد القيس، وعبد الله ابن نافع بن الحصين الفهريين، وأمرهما بالمسير إلى الأندلس فيمن ندبه معهما من الرجال، وأمرهما بالاجتماع مع عبد الله بن سعد على صاحب أفريقية، وبعد ذلك يسيران إلى الأندلس، فلما كان الاستيلاء على صاحب أفريقية سارا من فورهما إلى الأندلس، وأتياها من قبل البحر.

وكان عثمان ـ رحمه الله تعالى ـ قد كتب إلى من انتدب إلى الأندلس:

«أما بعد: فإن القسطنطينية إنما تفتح من قبل الأندلس، وإنكم إن لم تفتحوها كنتم شركاء من يفتحها في الأجر، والسلام».

وقال كعب: يعبر البحر إلى الأندلس أقوام يفتحونها، يُعرفون بنورهم يوم القيامة.



ذكر صلح النوبة (*)

قال ابن عبد الحكم[1]: ثم غزا عبد الله بن سعد بن أبي سرح الأساود وهم النوبة سنة إحدى وثلاثين، فقاتلته النوبة قتالاً شديداً، وأصيبت يومئذ عين معاوية بن حديج، وأبي شمر بن أبرهة، وحيويل بن ناشرة، فيومئذ سموا رماة الحدق، فهادنهم عبد الله بن سعد إذ لم يطقهم. وفي ذلك اليوم يقول بعض من حضره:

لَم تَرَ عيْني مثْلَ يومِ دمْقَلَهْ[2]   والخيلُ تغدو بالدروع مُثْقَلَهْ

(الرجز)

قال: وكان الذي صُولح عليه النوبة - فيما ذكر بعض مشايخ المصريين - ثلاثمائة رأس وستين رأساً في كل سنة. ويقال: بل على أربعمائة في كل سنةٍ، منها لفيء المسلمين ثلاثمائة وستون، ولوالي البلد أربعون، منها - فيما زعم بعض المشايخ - سبعة عشر مرضعاً.

ثم انصرف عبد الله بن سعد عنهم.

قال: وذكر بعض المتقدمين أنه وقف بالفسطاط في بعض الدواوين - يعني على عهد لهم قرأه قبل أن يحرق، فإذا هو يحفظ منه:

(*) راجع بشأنه: إلى جانب ما مر: البغدادي. مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٥٣٤، ابن حجر. تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٢٠٣.

(١) ابن عبد الحكم. فتوح مصر وأخبارها ص ١٨٨ - ١٨٩.

(٢) البيت في ابن عبد الحكم، والولاة والقضاة للكندي ص ١٢، وتاريخ أبي زرعة ج ١ ص ١٨٦، ومعجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٤٧٠، ودمقلة: بضم أوله وسكون ثانيه وضم القاف، ويروى بفتح أوله وثالثه - أيضاً - مدينة كبيرة في بلاد النوبة. وفي الأصل: «دنقله».

إنا عاهدناكم وعاقدناكم أن توفونا في كل سنة ثلاثمائة رأس وستين رأساً، وتدخلون بلادنا مجتازين غير مقيمين، وكذلك ندخل بلادكم، على أنكم إن قتلتم من المسلمين قتيلاً فقد برئت منكم الهدنة، وإن آويتم للمسلمين عبداً فقد برئت منكم الهدنة، وعليكم رد أباق المسلمين ومن لجأ إليكم من أهل الذمة.

وقال يزيد بن أبي حبيب: وليس بينهم وبين أهل مصر عهد ولا ميثاق، وإنما هي هدنة أمان بعضنا من بعض.

قال ابن لهيعة: وأبو حبيب والد يزيد واسمه سويد منهم.

وقال الليث بن سعد وذكر له قول مالك بن أنس: لا يشترى رقيق النوبة ولا يباعون. فقال الليث: لا علم لمالك بهذا، نحن أعلم به منه، إنما صولحوا على أن نكف عنهم حربنا فقط، وعلى أنهم يعطونا منهم رقيقاً في كل سنة، وعلى أنا لا نمنع غزو غيرنا، فبذلك نشتريهم، إنما علينا الوفاء بأن لا نحاربهم فقط.

قال ابن عبد الحكم: ولم أر أحداً من أصحاب مالك يقول بقوله في النوبة، وكلهم كان يشتريهم.

قال: واجتمعت لعبد الله بن سعد البجة في انصرافه من بلاد النوبة على شاطىء النيل، فسأل عنهم، فأخبر بشأنهم، فهان عليه أمرهم، فنفذ وتركهم، ولم يكن لهم عقد ولا صلح، وأول من صالحهم عبيد الله بن أبي الحبحاب.



ذكر البحر والغزو فيه

ذكر الطبري[1] عن سيف عن أشياخه قالوا: ألح معاوية على عمر بن الخطاب في غزو البحر وقرب الروم من حمص، وقال: إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم، حتى إذا كاد ذلك يأخذ بقلب عمر أحب أن يزود[2] عنه، فكتب إلي عمرو بن العاص: صف لي البحر وراكبه، فإن نفسي تنازعني إليه، وإني أشتهي خلافها، فكتب إليه عمرو بن العاص: إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، إن سكن خَوّفَ القلوبَ وإن تحرك راع العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق وإن نجا فرق[3].

فلما جاءه كتاب عمرو كتب إلى معاوية:

لا والذي بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً لا أحمل فيه مسلماً أبداً.

وفي رواية أنه كتب إليه:

إنا قد سمعنا أن بحر الشام يشرف على أطول شيء في الأرض، يستأذن الله في كل يوم وليلة أن يفيض على الأرض فيغرقها، فكيف أحمل الجنود في هذا البحر الكافر المستصعب؟ والله لمسلم واحد أحب إليّ مما حوت الروم فإياك أن تتعرض لي، وقد تقدمت إليك.

فلما ولي عثمان بن عفان لم يزل به معاوية، حتى عزم على ذلك، وقال له: لا

---

(١) الطبري. تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٥٨ - ٢٦١.

(٢) في الأصول: بزد.

(٣) في الطبري: برق، وانظر مادة «برق» لدى ابن منظور: لسان العرب: ج ١ ص ٢٦٢. وفيها الخبر.

تنتخب الناس، ولا تقرع بينهم، خيرهم، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه.

ففعل ذلك معاوية، واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الجاسي[1] حليف بني فزارة، فغزا خمسين غزاة من بين صائفة وشاتية في البر والبحر، ولم يغرق معه أحد في البحر ولا نكب، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده، ولا يبتليه بمصاب أحد منهم، ففعل الله ذلك له، حتى إذا أراد الله أن يصيبه وحده، خرج في قارب طليعة، فانتهى إلى البر من أرض الروم، وعليه سُؤال يعبرون ذلك المكان، فتصدق عليهم، فرجعت امرأة من السؤال إلى قريتها، فقالت للرجال: هل لكم في عبد الله بن قيس؟ قالوا: وأين هو؟ قالت: في المرفأ، قالوا: أي عدوة الله، ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس؟ فوبختهم، وقالت: أنتم أعجز مني! أويخفى عبد الله على أحد؟ فبادروا فهجموا عليه، فقاتلوه وقاتلهم، فأصيب وحده، وأفلت الملاح حتى أتى أصحابه، فجاءوا حتى أرفوا، والخليفة فيهم سفيان بن عوف الأودي، فخرج فقاتلهم، فضجر وجعل يعبث بأصحابه ويشتمهم، فقالت جارية عبد الله: واعبد الله، ما هكذا كان يقول حين يقاتل! فقال سفيان: وكيف كان يقول؟ قالت: «الغمرات ثم ينجلين»؛ فجعل سفيان يقول ذلك وترك ما كان يقول، وأصيب في المسلمين يومئذ. وقيل لتلك المرأة: بأي شيء عرفته؟[2] فقالت: بصدقته، أعطى كما يعطي الملوك، ولم يقبض قبض التجار.



(١) في الأصل: الحارثي، والتصويب من الطبري.

(٢) في الأصل: عرفتيه.

[غزو معاوية بن أبي سفيان قبرس]

وغزا معاوية بن أبي سفيان قبرس سنة ثمان وعشرين فيما ذكر الواقدي.
قال: وهو أول من غزا الروم، وغزاها أهل مصر وعليهم عبد الله بن سعد ابن أبي سرح، حتى لقوا معاوية فكان على الناس.

قال ابن عفير: ومع معاوية امرأته فاختة بنت قرظه، وكان معه ـ أيضاً ـ في غزاته أبو الدرداء، وشداد بن أوس، وأبو ذر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، في عدة من أصحاب رسول الله ﷺ وأم حرام الأنصارية فتوفيت هناك، فقبرها يستسقي // به أهل قبرس ويسمونه قبر المرأة الصالحة. ١٧٥ ب

وأم حرام هذه هي خالة أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ وحديثها مشهور في نوم النبي ﷺ في بيتها ثم استيقظ وهو يضحك، فسألته: ما يضحكه؟ فقال: ناس من أمتي، عرضوا عليّ غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكا على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة، فقالت: يارسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم! فدعا لها، ثم وضع رأسه فنام ثم استيقظ يضحك، فسألته فقال: ناس من أمتي عرضوا عليّ، مثل مقالته الأولى. فقالت: يارسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. قال: أنت من الأولين، فكانت هذه الغزوة هي التي عرضت على رسول الله ﷺ أولا. وخرجت أم حرام فيها، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت(*).

(*) أطراف الخبر في مواطن من صحيح البخاري، فهو في الجهاد ج ٤ ص ١٩ ـ باب الدعاء بالجهاد والشهادة للرجال والنساء ـ ج ٤ وص ٢١ ـ فصل من يصرع في سبيل الله، وج ٤ ص ٣٩ ـ غزوة المرأة في البحر ـ وج ٤ ص ٤٤ ـ ركوب البحر ـ كما أنه في الاستئذان ج ٨ ص ٧٨ ـ من زار قوماً فقال عندهم، وفي التعبير ج ٩ ص ٤٣ ـ الرؤيا بالنهار.

قال ابن عمير: وذلك العام بالشام عام قبرس الأول.

وقيل: إن معاوية توجه إليها من حصن عكا في مائتي مركب، قال: وظفر معاوية في هذه الغزاة، وأخذ من الأموال والحلي ما لا يحصى.

وقال جبير بن نفير[1]: لما سبيناهم - يعني أهل قبرس - نظرت إلى أبي الدرداء يبكي، فقلت: ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله، وأذل الكفر وأهله؟ فضرب بيده على منكبي، وقال: ثكلتك أمك يا جبير، ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره! بينا هي أمة ظاهرة قاهرة للناس لهم الملك، إذ تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى، فسلط عليهم السباء، وإذا سلط السباء على قوم فليس لله - عز وجل - بهم حاجة.

وذكر الطبري[2] أن معاوية لما غزا قبرس صالح أهلها على جزية سبعة آلاف دينار، يؤدونها إلى المسلمين في كل سنة، ويؤدون إلى الروم مثلها، ليس للمسلمين أن يحولوا بينهم وبين ذلك، على أن لا يغزوهم المسلمون، ولا يقاتلوا هم من غزا من خلفهم يريد الخروج إلى أرض المسلمين، وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم، وعلى أن يبطرق[3] إمام المسلمين عليهم منهم.

= وفي الموطأ بشرح تنوير الحوالك ج ١ ص ٣٠٨ «باب الترغيب في الجهاد»، وفي صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٣ ص ٥٧، وفي سنن أبي داود ج ٢ ص ٦، «باب فضل الغزو في البحر»، وفي سنن الترمذي ج ٤ ص ١٧٨ «باب ما جاء في غزو البحر» برقم ١٦٤٥، وفي سنن النسائي ج ٦ ص ٣٤ «فضل الجهاد في البر».

وهي أم حرام بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي ابن النجار، زوج عبادة بن الصامت، وأخت أم سليم، وخالة أنس بن مالك - ولها ترجمة في الاستيعاب لابن عبد البر ج ٤ ص ١٩٣١، والإصابة لابن حجر ج ٨ ص ١٨٩.

(١) الطبري. تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٦٢ - ٢٦٣.

(٢) نفسه ج ٤ ص ٢٦٢.

(٣) في الأصول: يتطرق، والتصويب من الطبري.

وذكر الواقدي[1] - أيضاً - مصالحة معاوية أهل قبرس في ولاية عثمان - رحمه الله - وأن في العهد الذي بيننا وبينهم ألا يتزوجوا في عدونا من الروم إلا بإذننا.

قال: وفي هذه السنة - يعني سنة ثمان وعشرين - غزا حبيب بن مسلمة سورية من أرض الروم.

* * *

---

(١) الرواية في الطبري ج ٤ ص ٢٦٣.

غزوة ذات الصواري

ذكر الواقدي[1] أن أهل الشام خرجوا، وعليهم معاوية بن أبي سفيان، وعلى أهل البحر عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وخرج عامئذ قسطنطين بن هرقل لما أصاب المسلمون منهم بأفريقية، فخرجوا في جمع لم ير الروم مثله قط منذ كان الإسلام، فخرجوا في خمسمائة مركب، فالتقوا هم وعبد الله بن سعد، فأمن بعضهم بعضاً حتى قرنوا بين سفن المسلمين وأهل الشرك.

قال مالك بن أوس بن الحدثان: كنت معهم، فالتقينا في البحر، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط، وكانت الريح علينا، فأرسينا ساعة، وأرسوا قريباً منا، وسكنت الريح عنا، فقلنا: الأمن بيننا وبينكم. قالوا: ذلك لكم منا ولنا منكم. قلنا: إن أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجل، وإن شئتم فالبحر، فنخروا نخرة واحدة، وقالوا: الماء فدنونا منهم، فربطنا السفن بعضها ببعض، حتى كنا بحيث يضرب بعضنا بعضاً، فقاتلنا أشد القتال، ووثب الرجال على الرجال يضطربون بالسيوف ويتواجئون بالخناجر، حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاماً.

وقال بعض من حضر ذلك اليوم ـ أيضاً: رأيت الساحل وإن عليه لمثل الظرب[2] العظيم من جثث الرجال، وإن الدم للغالب على الماء.

ولقد قتل يومئذ من المسلمين بشر كثير، وقتل من الكفار ما لا يحصى، وصبروا يومئذ صبراً لم يصبروا في موطن قط مثله، ثم أنزل الله نصره على أهل

(١) الرواية في الطبري ج ٤ ص ٢٩٠.

(٢) الظرب: ما نتأ من الحجارة وحد طرفه أو الجبل المنبسط أو الصغير ـ الفيروزابادي. القاموس ج ١ ص ٩٩.

الإسلام، وانهزم القسطنطين مدبراً، وأصابته يومئذ جراحات مكث فيها حينا جريحا.

وعن حنش الصنعاني[1] قال[2]: ركب الناس البحر سنة إحدى وثلاثين مع عبد الله بن سعد، فلما بلغوا ذات الصواري[3] لقوا جموع الروم في خمسمائة مركبٌ أو ستمائة، فيها القسطنطين بن هرقل، فقال: أشيروا عليّ، قالوا: انتظر الليلة فباتوا يضربون بالنواقيس، وبات المسلمون يصلون ويدعون الله، ثم أصبحوا وقد أجمع القسطنطين فقربوا سفنهم، وقرب المسلمون فربطوا بعضها إلى بعض، وصف عبد الله المسلمين على نواحي السفن، وأمرهم بقراءة القرآن وبالصبر، ووثبت الروم في سفن المسلمين على صفوفهم حتى نقضوها، واقتتلوا على غير صفوف قتالاً شديداً، ثم إن الله نصر المؤمنين، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة لم ينج من الروم إلا الشريد، وأقام عبد الله بذات الصواري أياماً بعد هزيمة القوم، ثم أقبل راجعاً.

وذكر ابن عبد الحكم[4] أن عبد الله بن سعد لما نزل ذات الصواري أنزل نصف الناس مع بسر بن (أبي) أرطأة سرية في البر[5]، فلما مضوا أتى آت إلى عبد الله فقال: ما كنت فاعلاً حين ينزل بك ابن هرقل في ألف مركب فافعله الساعة.

قال: وإنما مراكب المسلمين مائتا مركب ونيف. فقام فقال: أشيروا عليّ، فما كلمه رجل من المسلمين، فجلس قليلا لترجع إليهم أفئدتهم، ثم استشارهم فما كلمه أحد ثم قال الثالثة: إنه لم يبق شيء فأشيروا عليّ، فقال رجل من أهل المدينة كان متطوعاً: أيها الأمير، إن الله ـ تعالى ـ يقول: **﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين﴾** (٢٤٩: البقرة)،

(١) هو: حنش بن عبد الله الصنعاني.

(٢) الرواية في الطبري ج٤ ص٢٩٢.

(٣) الصواري: جمع صار، وهو الخشبة المعترضة وسط السفينة ـ الفيروزابادي. القاموس ج٤ ص٣٥٢.

(٤) ابن عبد الحكم. فتوح مصر وأخبارها ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(٥) في الأصل: «البحر».

فقال عبد الله : اركبوا باسم الله ، فركبوا ، وإنما في كل مركب نصف شحنته ، قد خرج النصف الآخر مع بسر في البر ، فلقوهم فاقتتلوا بالنبل والنشاب ، وتأخر ابن هرقل لئلا تصيبه الهزيمة ، وجعل تختلف القوارب إليه بالأخبار . فقال : ما فعلوا ؟

قالوا [1] : اقتتلوا بالنبل والنشاب ، قال : غلبت الروم . ثم أتوه فقال : ما فعلوا ؟ قالوا : قد نفدت النبل والنشاب فهم يرتمون بالحجارة ، قال : غلبت الروم : ثم أتوه فقال : ما فعلوا ؟ قالوا : نفدت الحجارة وربطوا // المراكب بعضها ببعض يقتتلون ١٧٦ أ
بالسيوف . قال : غلبت الروم .

قال يزيد بن أبي حبيب : وكانت السفن إذ ذاك تقرن بالسلاسل عند القتال ، فقرن مركب عبد الله يومئذ وهو الأمير بمركب من مراكب العدو ، فكاد مركب العدو يجر مركب عبد الله إليهم ، فقام علقمة بن يزيد العطيفي وكان في المركب مع عبد الله فضرب السلسلة بسيفه فقطعها ، فسأل عبد الله بعد ذلك امرأته بسيسة ابنة جمرة بن ليشرح بن عبد كلال ، وكانت معه يومئذ ، وكان الناس فيما خلا يغزون بنسائهم : من رأيت أشد الناس قتالاً ؟ قالت : علقمة صاحب السلسلة . وكان عبد الله حين خطبها إلى أبيها قال له : إن علقمة قد خطبها وله عليّ فيها رأي فإن يتركها أفعل . فكلم عبد الله علقمة فتركها ، فتزوجها عبد الله ثم هلك عنها ، فتزوجها بعده علقمة ، ثم هلك عنها ، فتزوجها كريب بن أبرهة .

وقال محمد بن الربيع : إنما سميت غزوة ذات الصواري لكثرة المراكب التي اجتمعت فيها : ابن هرقل في ألف مركب ، والمسلمون في مائتي مركب ونيف . فكثرت الصواري في البحر فسميت ذات الصواري .

وفي بعض ما تقدم من الأخبار ما يقتضي أن ذات الصواري موضع يسمى هكذا ، فالله تعالى أعلم .

---

(١) في الأصول : قال .

ذكر فتح العراق
وما والاه على ما ذكره سيف بن عمرو
وأورده أبو جعفر محمد بن جرير الطبري
عنه وعن غيره

ذكروا عن علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قالا: حض الله المسلمين على عهد نبيه ﷺ على الاستقامة على الدين وندبهم إلى فارس، ووعدهم، فتقدم إليهم في ذلك من قبل غزوهم، ليحثهم وليدربهم، فبدأ بالردة فقال: ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل أنقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين**﴾ (١٤٤: آل عمران)، فسمى من ثبت على دينه بعد موت رسول الله ﷺ الشاكرين. ثم عاد في وصف من ناهض منهم أهل الردة، والمنافقون حشر في المؤمنين، وإنما يكلم الله ـ عز وجل ـ المؤمنين بما يعني به المنافقين، فقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم**﴾ (٥٤: المائدة)، فسماهم أحباء وأثابهم، حيث كانوا أذلة أرقة على المؤمنين، أعزة أشدة على الكافرين، يجاهدون ـ يعني جهاداً بعد جهادهم أهل الردة ـ يقاتلون من بعدهم أهل فارس، ولا يخافون تخويف من يخوفهم، هذا فضل الله يخص به من يشاء، «والله واسع عليم» عالم بهم، فهم الشاكرون، وهم الفاضلون، وهم المقربون، وهم أحباء الله.

وعن علي وابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله عز وجل: ﴿**وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم**﴾ الآيتين إلى قوله: ﴿**وكان الله على كل شيء قديراً**﴾ (٢٠ - ٢١: الفتح)، «مغانم» فتوحاً من لدن خيبر، تلونها وتضمون ما فيها «فعجل لكم هذه» أي عجل لكم من ذلك خيبر «وكف أيدي الناس عنكم» أيدي قريش بالصلح يوم الحديبية «ولتكون آية للمؤمنين» شاهداً على ما بعدها ودليلاً على إنجازها «وأخرى لم تقدروا عليها» أي على علم وقتها، أفيئها عليكم: فارس والروم «قد أحاط الله بها» قضى الله بها أنها لكم، منها: الأيام، والقوادس، والواقوصة، والمدائن الحمر بالشام، ومصر، والضواحي، فاجتمعت هذه الصفات فيمن قاتل فارس والروم وسائر الأعاجم ذلك الزمان.

ذكر سيف قال: كان أول ملوك فارس قاتله المسلمون شيري[1] بن كسرى، وذلك أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - حيث فرغ من أهل الردة، وأقامت جنود المسلمين في بلدان من ارتد، كتب إلى خالد بن الوليد وهو باليمامة: أن ائذن للمسلمين في القفل إلا من أحب المقام معك، ولا تكرهن أحداً على القيام، ولا تستعن في شيء من حربك بمتكاره، وادع من يليك من تميم وقيس وبكر إلى موتان اليمامة، فإن موات ما أفاء الله على رسوله لله ولرسوله، فمن أحيا شيئاً من ذلك فهو له، لا يدخل ذلك في شيء من موات كل بلد أسلم عليه أهله.

ففعل خالد، فأنزل اليمامة من هؤلاء الأحياء من أقرن ببني حنيفة، ولما أذن خالد في القفل قفل الناس، أهل المدينة ومن حولها، وسائر من كان معه من أهل القبائل، وبقي خالد في ألفين من القبائل التي حول المدينة، من مزينة، وجهينة، وأسلم، وغفار، وضمرة، وأناس من غوث طيء، ونبذ من عبد القيس.

ولما قفل من قفل، وجه المثنى بن حارثة الشيباني، ومذعور بن عدى العجلي،

---

(١) في الأصول: شيرين، والتصويب من الطبري.

وحرملة بن مريطة، وسلمى بن القين الحنظليين وهما من المهاجرين، والمثنى ومذعور ممن وفد على النبي ﷺ فقدموا على أبي بكر - رحمه الله - فقال له حرملة وسلمى: إنا معاشر بني تميم وبكر بن وائل قد دربنا بقتال فارس، وأشجيناهم حتى اتخذوا الخنادق، وغبقوا المياه، واتخذوا المسالح في القصور المشيدة وتحصنوا بها منا، فَأْذَنْ لنا في حربهم. فأذن لهما فولاهما على من تابعهما، واستعملها على ما غلبا عليه، وكانا أول من قدم أرض فارس لقتال أهل فارس، وكانا من المهاجرين ومن صالحي الصحابة، فنزلا أطد [1] ونعمان والجعرانة في أربعة آلاف من تميم والرباب، وكان بإزائهما النوشجان والفيرمان بالوركاء [2] فزحفوا إليهما فغلبوهما على الوركاء، وغلبا على هرمزجرد إلى فرات بادقلي[3].

وذكر سيف من طريق آخر أن المثنى ومذعوراً لما قدما على أبي بكر استأذناه في غزو أهل فارس وقالا: إنا وإخواننا من بني تميم قد دربنا بقتالهم، وأخذنا النصف من أحد وثني كل موسم، فأذن لهما، وولاهما على من تابعهما، واستعملهما على ما غلبا عليه، فسارا فجمعا جموعهما ثم سارا بهم حتى قدما بلاد فارس،
١٧٦ ب وكانا أول من قدمهالقتالهم هما وحرملة وسلمى، وقدم // المثنى ومذعور في أربعة آلاف من بكر بن وائل وعنزة وضبيعة، فنزل أحدهما بخفان[4]، ونزل الآخر بالمهارق، وعلى فرج الفرس مما يليهما شهربراز بن بندا، فنفياه وغلبا على فرات بادقلي إلى السيلحين[5] واتصل ما غلبا عليه وما غلب عليه سلمى وحرملة، وفي ذلك يقول مذعور بن عدي:

---

(١) أطد: بفتحتين، أرض قرب الكوفة من جهة البر - ياقوت. معجم البلدان ج١ ص٢١٦.

(٢) الوركاء: بالفتح ثم السكون وكاف وألف ممدودة - راجع بشأنها المصدر السابق ج٥ ص ٣٧٢ - ٣٧٣.

(٣) الخبر عن سيف بن عمر في المصدر السابق ص ج٥ ص ٣٧٢ - ٣٧٣.

(٤) خفان: بفتح أوله وتشديد ثانية وآخره نون، موضع قرب الكوفة - ياقوت. معجم البلدان ج٢ ص٣٧٩.

(٥) موضع بين الكوفة والقادسية - راجع بشأنه المصدر السابق ج٣ ص٢٩٨ - ٢٩٩.

غلبْنـا على خفـانَ بنـداً وشيحـةً إلى النَّخَلاَت السحْق فوق المهـارقِ
وإنـا لنرْجـو أن تجـولَ خيـولُنـا بشاطِيِ الفراتِ بالسيـوف البـوارقِ
(الطويل)

وقال المثنى في ذلك :

ألا أبلغـا شهـراً وشهْـرٌ مهـاجِـرٌ بـأنـا سنلقـاه على الحدَثـانِ
فنحْـنُ سللنـا شيحـةً يـوم بـارِقٍ إلى شـرٍّ دارٍ تنتـوي ومكـانِ
(الطويل)

ويروى أن أبا بكر ـ رحمه الله ـ لما بلغه ما كان من فتح حرملة وسلمى ومثنى ومذعور ما بين السيلحيـن إلى أسفل الفرات تمثل بقول الآخر :

ومتى تسلّـف في قبيـل خطـة تلْـقَ المَنـال مضـاعفـا أو مُـوعَبـا
وإذا عَقَـدتَ بجْبـلِ قـوم مـرةً ذربوا عليـك فلم تجد لـك مَقْضَبـا
حيـانِ لا خُطَهَا بَحْبلِ هضيمـةٍ أَنِفَـا الزمـام فلم يَقَـرَّا مـرْكَبـا
(الكامل)

وحكى عمر بن شبة عن شيوخه من أهل الأخبار : أن المثنى بن حارثة كان يغير على أهل فارس بالسواد ، فبلغ أبا بكر والمسلمين خبره ، فقال عمر : من هذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه ، فقال له قيس بن عاصم : أما إنه غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا قليل العدد ، ولا ذليل العمارة ، ذلك المثنى بن حارثة الشيباني [١].

ثم أن المثنى قدم على أبي بكر فقال له : يا خليفة رسول الله ، ابعثني في قومي ، فإن فيهم إسلاما ، أقاتل بهم أهل فارس ، وأكفك أهل ناحيتي من العدو . ففعل ذلك أبو بكر ، فقدم المثنى العراق ، فقاتل وأغار على أهل فارس ونواحي السواد حولا مُجَرَّما ، ثم بعث أخاه مسعود بن حارثة إلى أبي بكر يسأله المدد ، ويقول :

---

(١) راجع : ابن أعثم الكوفي . كتاب . الفتوح ج ١ ص ٨٩ . ابن عبد البر : الإستيعاب ص ١٤٥٧ ، النويري . نهاية الأرب ج ١٩ ص ١٠٦ .

إنك إن أمددتني وسمعت بذلك العرب أسرعوا إليّ وأذل الله المشركين، مع أني أخبرك يا خليفة رسول الله، أن الأعاجم تخافنا وتتقينا. فقال له عمر: يا خليفة رسول الله أبعث خالد بن الوليد مدداً للمثنى بن حارثة، يكون قريباً من أهل الشام، فإن استغنى عنه أهل الشام ألح على أهل العراق حتى يفتح الله عليه. قال: فهذا الذي هاج أبا بكر - رحمه الله - على أن يبعث خالد بن الوليد إلى العراق[1].

وفي حديث آخر: أنه ولاه حرب العراق لما قضى ما أراد قضاءه من اليمامة، وكتب إلى المثنى ومذعور وسلمى وحرملة بأن يسمعوا له ويطيعوا.

★ ★ ★

(١) راجع: الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ٥٣ - ٥٤، ابن عبد البر. الإستيعاب ص ١٤٥٧، النويري. نهاية الأرب ج ١٩ ص١٠٦ - ١٠٧

أخبار الأيام في زمان خالد بن الوليد
رضي الله عنه (*)

وكانت لمن وليها الفضيلة والسابقة والقدمة، لأنهم شركوا أهل القادسية والبويب وفضلوهم بولايتهم هذه.

وهذا كما اجتمعت للمهاجرين النصرة مع الهجرة، وفضلوا الأنصار بالهجرة، فروى الشعبي وهشام بن عروة قالا: لما فرغ خالد بن الوليد من اليمامة كتب إليه أبو بكر: إني قد وليتك حرب العراق، فاحشد من ثبت على الإسلام، وقاتل أهل الردة ممن بينك وبين العراق، من تميم وقيس وأسد وبكر ابن وائل وعبد القيس، ثم سر نحو فارس، واستنصر الله عز وجل، وادخل العراق من أسفل العراق، فابدأ بفرج الهند ـ وهو يومئذ الأبلة[1] ـ وكان صاحبها يساجل أهل الهند والسند في البحر، ويساجل العرب في البر.

وقال له: تألف أهل فارس، ومن كان في مملكتهم من الأمم، وأنصفوا من أنفسكم فإنكم كنتم خير أمة أخرجت للناس. نسأل الله أن يجعل من ألحقه بنا وصيره منا خير متبع بإحسان. وإن فتح الله عليك فعارق حتى تلقى عياضا.

وكتب إلى عياض بن غَنْم وهو بين الحجاز والنباج[2]: أن سر حتى تأتي

(*) الخبر منقول عن الطبري بتصرف ج ٣ ص ٣٤٣-٣٥٠، وهو في الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٦١ - ٢٦٣، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٦ ص ٣٤٢ - ٣٤٣، وتاريخ ابن خلدون ج ٢، ص ٧٨ وما بعدها.

(١) الأبلة: بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها، بلدة على شاطىء دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة ـ ياقوت. معجم البلدان ج ١ ص ٧٧.

(٢) النباج: بكسر أوله، موضع بين البصرة ومكة ـ راجع المصدر السابق ج ٥ ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

المصيخ[1] فاحشد من بينك وبينها ممن ثبت على إسلامه، وقاتل أهل الردة فابدأ بهم، ثم ادخل العراق من أعلاها فعارق حتى تلقى خالداً.

فاستمد خالد أبا بكر قبل خروجه من اليمامة، فأمده بالقعقاع بن عمرو التميمي، واستمده عياض قبل تحركه، فأمده أبو بكر بعبد بن عوف الحميري، وقيل لأبي بكر: أتمد خالداً برجل قد أرفض عنه الناس؟ فقال: لا يهزم جيش فيه مثل القعقاع، وسيحشر من بينه وبين أهل العراق.

وكتب خالد إلى حرملة وسلمى والمثنّى ومذعور ليلحقوا به، وأمرهم أن يغزوا جنودهم الأبلة ليوم سماه، ثم حشد من بينه وبين العراق، فحشد ثمانية آلاف من مضر وربيعة إلى ألفين كانا[2] معه، فقدم في عشرة آلاف إلى ثمانية آلاف ممن كان مع الأمراء الأربعة، فلقي هرمز في ثمانية عشر ألفاً.

وفيما ذكره سيف من مسير خالد وعياض إلى العراق: أن أبا بكر أمرهما أن يستبقا إلى الحيرة، فأيهما سبق إليها فهو أمير على صاحبه. وقال: فإذا اجتمعتما بالحيرة، وفضضتما مسالح فارس، وأمنتما أن يُؤتى المسلمون من خلفهم، فليكن أحدكما ردءاً لصاحبه وللمسلمين بالحيرة، وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم ومستقر عزهم بالمدائن.

وكتب إليهما: استعينوا بالله واتقوه، وآثروا أمر الآخرة على الدنيا، يجمع الله لكم بطاعته الدنيا إلى الآخرة، ولا تؤثروا الدنيا فتعجزكم، ويسلبكم الله بمعصيته الدنيا والآخرة، فما أهون العباد على الله إذا عصوه.

قال: ولما عزم خالد على المسير من اليمامة إلى العراق سأل عن الأدلة، فأتى بنفر، فسأل عن أسمائهم، فتفاءل منهم إلى ثلاثة بأسمائهم: ظفر بن عمرو السعدي، ورافع بن عميرة الطائي، ومالك بن عباد الأسدي.

وجدد خالد التعبئة، فعبأ الناس تعبئة مستأنفة غير التي دخل بها اليمامة، ونصب لجنده أعلاماً غير الذين كانوا أعلامهم، وذلك أنّ أعلامهم الذين دخل

---

(١) المصيخ: بضم أوله وفتح الصاد المهملة وتشديد الياء، راجع بشأنه المصدر السابق ج٥ ص ١١٤.

(٢) في الأصل: كانتا.

بهم اليامة قفلوا. فوضع رجالاً مكانهم، وتوخى الصحابة، ثم توخى منهم الكماة، فاستعمل على مضر القعقاع بن عمرو، وعلى ربيعة فرات بن حيان، وعلى قضاعة وضم إليهم أهل اليمن جرير بن عبد الله الحميري أخا الأقرع بن عبد الله رسول رسول الله ﷺ إلى اليمن، وجعل // على القبائل دون ذلك ـ على نصف خندق ـ فارس أطلال بكير بن عبد الله الليثي، وعلى النصف الآخر معقل بن مقرن المزني، وعلى قيس عيلان [و] على غطفان ومن يلاقيهم إلى سعد بن قيس سعد بن عمارة[1] التغلبي، وعلى هوازن ومن يلاقيهم إلى خصفة أبا حنش بن ذي اللحية العامري، وضم جديلة إليهم، وهم عمرو بن قيس بن عيلان وعلي اللهازم من بكر بن وائل عتيبة بن النهاس، واللهازم عجل، وتيم اللات، وقيس بن ثعلبة، وعنزة، وعلى الدعائم وهم: شيبان بن ثعلبة، وذهل بن ثعلبة، وضبيعة بن ربيعة، ويشكر بن ربيعة، يشكر بن بكر [بن] مطر بن عامر الشيباني، وعلى قضاعة الحارث بن مرة الجهني، وعلى اليمن مالك بن مرة الرهاوي، وابن زيد الخيل بن مهلهل، وهؤلاء تحت أيدي أولئك الثلاثة.

واستعمل على المقدمات: المثنى بن حارثة، وعلى المجنبات: عدي بن حاتم وعاصم بن عمرو أخا القعقاع، وعلى الساقة: بسر بن أبي رهم الجهني صاحب جبانة بسر، واستخلف على اليامة وهوافي قيس وتميم سبرة بن عمرو العنزي، وكل من أمر له صحبة وقدمة. وخرج قاصداً الهرمز والأبلة.

وقال المغيرة بن عتبة قاضي الكوفة: فرق خالد مخرجه من اليامة جنده ثلاث فرق، ولم يحملهم على طريقة واحدة، فسرح المثنى قبله بيومين ودليله ظفر، وسرح عدياً وعاصماً ودليلاهما مالك بن عباد وسالم بن نصر، أحدهما قبل صاحبه بيوم، وخرج خالد ودليله رافع، فواعدهم جميعاً الحفير[2] ليجتمعوا فيه وليصادموا به عدوهم.

وكان فرج الهند أعظم فروج فارس شأنا وأشده شوكة، وكان صاحبه يحارب العرب في البر والهند في البحر.

(١) في الأصل: «العمارة».
(٢) في الأصل: «الجفير»، وسوف تتكرر دون تنبيه.

وعن الشعبي قال: كتب خالد إلى هرمز قبل خروجه، وهرمز صاحب الثغر يومئذ:

أما بعد، أسلم تسلم، أو اعقد لنفسك وقومك الذمة وأقر بالجزية، وإلا فلا تلومن إلا نفسك، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة.

ولما قدم كتاب خالد على هرمز كتب بالخبر إلى شيري بن كسرى، وإلى أزدشير بن شيري، وجمع جموعه ثم تعجل إلى الكواظم في سرعان أصحابه ليتلقى خالداً، وسبق حلبته فلم يجد طريق خالدٍ، وبلغه أنهم تواعدوا الحفير، فعاج يبادر خالداً إليه، فنزله فعبأ به، وجعل على مجنبتيه أخوين يلاقيان أزدشير وشيري آل أزدشير الأكبر، يقال لهما: قباذ وأنو شجان، فاقترنوا في السلاسل، فقال مَن لم ير ذلك لمن رآه: قيدتم أنفسكم لعدوكم، فلا تفعلوا فإن هذا طائر سوء. فأجابوهم: أما أنتم فتحدثوننا أنكم تريدون الهرب. فلما أتى الخبر خالداً بمنزل هرمز أمال الناس إلى كاظمة، وبلغ ذلك هرمز، فبادره إليها فنزلها وهو حسير.

وكان من أسوَء أمراء ذلك الفرج جواراً للعرب، فكل العرب عليه مغيظ، وقد كانوا يضربونه مثلاً في الخبث والمكر حتى قالوا: «أخبث من هرمز، وأمكر من هرمز». وتعبأ هو وأصحابه والماء في أيديهم.

وقدم خالد فنزل على غير ماء، فقالوا له في ذلك، فأمر مناديه فنادى: ألا انزلوا وحطوا أثقالكم، ثم جالدوهم على الماء، فلعمري ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين. فحطت الأثقال والخيل وقوف، وتقدم الرجل ثم زحف إليهم حتى لاقاهم، فاقتتلوا، وأرسل الله سبحانه سحابة فأغدرت ماءً وراء صف المسلمين فقواهم بها، وما ارتفع النهار وفي الغائط مقترن.

وأرسل هرمز أصحابه ليغدروا بخالد، ثم خرج فنادى رجل: أين خالد؟ وقد عهد إلى فرسانه عهده. فلما برز خالد نزل هرمز ودعاه إلى البراز، فبرز خالد يمشي إليه، فالتقيا فاختلفا ضربتين واحتضنه خالد، وحملت حامية هرمز وغدرت، فاستلحموا خالداً فما شغله ذلك عن قتله.

وحمل القعقاع بن عمرو، واستلحم حماة هرمز، فأتاهم وخالد يماصعهم[1]، فانهزم أهل فارس، وركب المسلمون أكتافهم إلى الليل، وجمع خالد الرثاث[2] والسلاسل، فكان وقر بعير، ألف رطل، فسميت ذات السلاسل.

قال: وكان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قدر أحسابهم في عشائرهم، فمن تم شرفه فقيمة قلنسوته مائة ألف، وتمام شرف أحدهم أن يكون من البيوتات السبعة، فكان هرمز ممن تم شرفه، فكانت قيمة قلنسوته مائة ألف، فنفلها أبو بكر ـ رحمه الله ـ خالداً، وكانت مفصلة بالجوهر.

وقال حنظلة بن زياد بن حنظلة: لما تراجع الطلب من ذلك اليوم، نادى منادي خالد بالرحيل، وسار بالناس، وأتبعته الأثقال حتى نزل موضع الجسر الأعظم من البصرة اليوم، وقد أفلت قباذ وأنوشجان، وبعث خالد بالفتح وما بقي من الأخماس وبالفيل، وقرىء الفتح على الناس، فلما قرىء فيه: «خرجت من اليمامة في ألفين، وحشرت من ربيعة ومضر ثمانية آلاف، فقدمت في عشرة آلاف على ثمانية آلاف مع الأمراء الأربعة: المثني ومذعور وحرملة وسلمى» تمثل أبو بكر ـ رضي الله عنه:

تمنانا ليلقانا بقوم ... تخال بياضَ لامهمُ السرابا
فقدْ لاقيتَنَا فأريتَ يوماً ... عُماساً يمنع الشيْخَ الشرابا
تَبَدَّلُ عَلقماً منا بحُلْوٍ ... يُنَسِّيك الغنيمةَ والإيابا
إذا خرجَتْ سَوَالِفُهنَّ زورا ... كأنَّ على حَوَارِكِهنَّ غابا
عليها كلُّ متصلٍ بمجْدٍ ... من الجهتين يلتهب التهابا[3]

(الوافر)

ولما قدم زر بن كليب بالفيل مع الأخماس فطيف به في المدينة ليراه الناس،

---

(١) يماصعهم: يجالدهم بالسيف ـ الفيروزابادي. القاموس ج ٣ ص ٨٥.

(٢) الرثاث: المتاع ـ نفسه ج ١ ص ١٦٧.

(٣) الأبيات لزياد بن حنظلة، واستشهد بالبيتين الأول والثاني عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز لدقة اختيار الفاء في النظم ص ١٧، والبيت الثاني عند عبد القاهر:

وقد لاقينا فرأيت حرباً ... عواناً تمنع الشيخ الشراب.

جعلت ضعيفات النساء يقلن: أمن خلق الله ما نرى؟ ورأينه مصنوعاً، فرده أبو بكر - رضي الله عنه - مع زر.

وعن زياد بن حنظلة قال: إني لبالمدينة وقد قدمتها وافداً من البحرين، إذ أرسل إليّ أبو بكر وقد قدم عليه الخبر بوقعة ذات السلاسل، فقال لي: ألم تعلم أنه كان من الشأن ذيت وذيت، وأن خالداً ألقى هرمز فاستلحم، وأن القعقاع استلحم فقتلهم وتنفل؟

قال زياد: فأقبلت على نفسي أحدثها فقلت: الخليفة وفراسته، وذكرت قوله: «ولا يهزم جيش فيهم مثل هذا»، فما راعني إلا وأبو بكر يقول: أين أنت يا زياد؟ أما إن خالداً سيتغير له ويتنكر، ثم يراجع ويعرف الحق. فاستنكره
١٧٧ ب // القعقاع بعد ذلك، ووقع بينهما ما يقع بين الناس حتى قال القعقاع يعاتبه ولم يكن إلا ذلك:

منعتك من قرنَي قباذَ وليتني تركتُكَ فاستذكَتْ عليك الْمعاتبُ
عَطَفْتَ عليك الـمُهْرَ حتى تفرَّجَتْ وملَّتْ من الطعن الدِّراكِ الرواجبُ
أجالدهم والخيلُ تنحطُّ في القنا وأنت وحيدٌ قد حَوَتْك الكتائبُ
وكائِنْ هَزَمْنا من كتيبةِ قاهرٍ وكم عجَمَتْنَا في الحروب العجائبُ
(الطويل)

ولما نزل خالد موضع الجسر الأعظم اليوم بالبصرة بعث المثني بن حارثة في آثار القوم، فمضى حتى انتهى إلى نهر المرأة وإلى الحصن الذي فيه المرأة، فخلف المثنى بن حارثة عليها من حاصرها في قصرها، ومضى المثنى، وأسلمت فتزوجها المثنى، ولم يحرك خالد وأمراؤه الفلاحين في شيء من فتوحهم لتقدم أبي بكر فيهم، وسبي أولاد المقاتلة الذين كانوا يقومون بأمور الأعاجم، وأقر من لم ينهض من الفلاحين وجعل لهم الذمة.

وبلغ سهم الفارس يوم ذات السلاسل والثني ألف درهم، والراجل على الثلث من ذلك.

حديث الثِّنْيِ والمذار (*)

وكانت وقعة المذار في صفر سنة اثنتي عشرة، ويومئذ قال الناس: صفر الأصفار، فيه يقتل كلّ جبّار، على مجمع الأنهار.

ولما كتب هرمز إلى ملكهم بكتاب خالد إليه بمسيره من اليمامة نحوه، أمّده بقارِن بن قربانس، فخرج مِن المدائن مُمِدّاً لهرمز؛ حتى إذا انتهى إلى المذار بلغْته الهزيمة؛ وانتهى [1] إليه الفُلاّل فتذامَروا، وقال فُلاّل الأهواز وفارس لفلاّل السواد والجبل: إن افترقتم لم تجتمعوا بعَدها أبداً؛ فاجتمعوا على العدو [2] مرّةً واحدةً، فهذا مدد الملك وهذا قارن، لعل الله يُديلُنَا ويشفينا من عَدّونا ونُدرك بعض ما أصابوا منّا. ففعلوا وعسكروا بالمذار، واستعمل قارن على مَجْنبتيه قباذ وأنو شجان، فأرسل المثنى إلى خالد بالخبر؛ فعند ذلك قسّم خالد الفَيْءَ على من أفاء الله عليه، ونفَّل من الخُمْس ما شاء الله، وبعث مع الوليد بن عُقْبَة ببقيته، وبالفتح إلى أبي بكر، وبالخَبَر عن القوم، وباجتماع المغيث منهم والـمُغاث إلى الثِّنْي - وهو النهر - وخرج خالد سائراً إليهم حتى ينزل المذار، فالتقوا وخالد على تعبئته، فاقتتلوا على حَنَقٍ وحفيظةٍ، وخرج قارن يدعو للبراز، فبرز له خالد وأبيضُ الركبان معقل بن الأعشى بن النبَّاش، فابتدراه، فسبقه إليه مِعقل

(*) الخبر في معظمه منقول عن الطبري ج ٣ ص ٣٥١ - ٣٥٢، وهو في الروض المعطار نقلاً عن الإكتفاء مختصراً ص ٥٣١. وانظر كذلك: الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٦٣، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ١٠٨ - ١٠٩.

(١) في الأصل: وانتهت.

(٢) في الطبري: العَوْد.

فقتله، وقَتل عاصِمٌ أنو شجان، وقَتل عديٌّ قباذ. وكان شرف قارن قد انتهى؛ ثم لم يقاتل المسلمون بعده أحداً انتهى شرفه في الأعاجم.

وقُتلت فارس مقتلة عظيمة؛ فضَمُّوا السُفنَ ومَنعت المياه المسلمين من طلَبهم. وأقام خالد بالمذار، وسلَّم الأسلاب لمن سلَبها بالغةً ما بلغتْ وقسّم الفيء ونفّل من الأخماس ما نفل في أهل البلاء، وبعث ببقيَّتها إلى أبي بكر - رضي الله عنه.

وعن الشعبيّ قال: دفع خالد إلى أبيض الركبان سلب قارن وقيمته مائة ألفٍ، وإلى عاصم وعدي سلب أنو شجان وقباذ، وقيمة سلب كل واحدٍ منهما ثلاثة أرباع الشرف.

وعن أبي عثمان قال: قتل ليلة المذار ثلاثون ألفاً سوَى من غرق، ولولا المياه لأُتِيَ على آخرهم، ولم يُفْلِتْ منهم مَن أفلت إلا عُراة أو أشباه العُراة.

قال الشعبي: لم يلْقَ خالد أحداً بعد هرمز إلا كانت الوقْعة الآخرةُ أعظمَ من التي قبلها.

وأقام خالد بالثِّنْي يسبي عيالات المقاتلة ومن أعانهم، وأقرَّ الفلاحين ومن أجاب إلى الخراج من جميع الناس بعدما دُعوا، وكلّ ذلك أخذ عَنْوةً، ولكن دُعوا إلى الجزاء فأجابوا وتراجعوا، وصاروا ذمَّة، صارت أرضهم خراجا؛ وكذلك جرى ما لم يُقسم، فإذا اقتسم فلا، ومن ذلك السبي كان حبيب أبو الحسن البصري، وكان نصرانياً.

وقال عزيز بن مكنف: لم يدعْ خالدٌ بعد هرمز أحداً من الأعاجم حتى هلك أزدشير إلا أن يدعو قوماً بعدما يغلبهم على أرضهم ويُجْليهم عنها إلى الجزاء والذمة فيرد عليهم أرضهم فيصيروا ذمة ما لم تقتسم، وبذلك جرت السنة [1].

وأمر خالد على الجزاء سُوَيد بن مُقرن المزنيَّ، وأمره بنزول الحفير، وأمره

---

(١) لم ترد هذه العبارة المثبتة عن ابن مكنف في الطبري.

ببث عُمَّاله، ووضع يديه في الجباية، وأقام لِعدوه يتحسَّس[1] الأخبار.

وقال عاصم بن عمرو في ذلك من أبيات:

فلم أر مثْلَ يوم السيب حتى رأيْتُ الثّنْيَ تخضبه الدماءُ
وألوتْ خيْلُنا لما التقينا بقارنَ والأمورُ لها انتهاء[2]

(الوافر)

* * *

(١) في الأصل: يتجسس، والمثبت من الطبري.

(٢) لم يرد قول عاصم هذا في الطبري.

حديث الولجة[1] وهي مما يلي كَسْكَر من البر

وكانت في صفر سنة اثنتي عشرة.

قالوا: لما وقع الخَبَرُ إلى أرَدِشير بمصاب قارن وأهل المَذار، أرسل الأنْدرزَغَر - وكان فارسياً من مولَّدِي السواد وتُنَّائهم[2]؛ ولم يكن ممّن وُلد في المدائن ولا نشأ بها - وأرسل بَهْمَن جاذَويْه في أثره - وكان رافد فارس في يوم من أيام شهرهم، وذلك أنهم بَنْوا شهورهم كلَّ شهر على ثلاثين يوماً؛ فكان لأهل فارس في كلِّ يوم رافد نُصِب لذلك يرفدُهم عند الملك؛ فكان بَهْمَن أحدَهم - فخرج الأنْدرزَغَر سائراً من المدائن حتى أتى كَسْكَر[3]، ثم جازها إلى الوَلَجَة[4]، وخرج بَهْمَن جاذويه في أثره، فأخذ غير طريقه فسلك أوسط السَّواد، وقد حشد الأندرزغر من بين الحيرة وكَسْكَر من عرب الضّاحية والدّهاقين فعسكروا إلى جَنْب عسكره بالولجة؛ فلـمّا اجتمع له ما أراد واستتم له

---

(١) الخبر منقول عن الطبري ج ٣ ص ٣٥٣ - ٣٥٤، باستثناء ما ذيل عليه من الشعر، وفي الروض المعطار طرف منه، وهو في الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٦٣ - ٢٦٤، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ١٠٩، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٦ ص ٣٤٥.

(٢) التناء: جمع تانيء، وهو الطارىء الغريب.

(٣) كسكر: بفتح أوله وإسكان ثانيه، بعده كاف مفتوحة وراء مهملة - معناه: عامل الزرع، وهو بلد بالعراق بين الكوفة والبصرة - البكري. معجم ما استعجم ص ١١٢٨، ياقوت. معجم البلدان ج ٤ ص ٤٦١.

(٤) الولجة، والوالج، بفتح أوله وثانيه، بعده جيم، موضع يلي كسكر من البر - الطبري. تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٣٥٣، البكري. معجم ما استعجم ص ١٣٨٣، ياقوت. معجم البلدان ج ٥ ص ٣٨٣.

أعجبه ما هو فيه، وأجمع السَّيْر إلى خالد.

ولما بلغ خالداً خبرُه ونزولُه الولجة، نادى بالرَّحِيل، وخلَّف سُوَيْدَ بن مُقَرّن، وأمره بلزوم الحفير، وتقدّم إلى من خلّف بأسفل دِجْلة، وأمرهم بالحذَرِ وقِلَّة الغَفْلَة، وتَرْك الاغترار، وخرج سائراً في الجنود نحو الولجة، حتى نزل على الأنذرزغر وجنوده ومَنْ تأشَّبَ إليّه، فاقتتلوا قتالاً شديداً؛ هو أعظم من قتال الثّني، حتى ظنَّ الفريقان أنّ الصبر قد فرغ، واستبطأ خالد كمينه؛ وكان (قد) وضع لهم كمينا في ناحيتيْن، عليهم بُسْر بن أبي رُهْم وسعيدُ بن مُرّة العِجليُّ، فخرج الكمين من وجْهين، فانهزمت صفوف الأعاجم وولّوا؛ وأخذهم خالدٌ من بين أيديهم والكمينُ من خلْفهم، فلم ير رجلٌ منهم مقتلَ صاحبه؛ ومضى الأنذرزغر في هزيمته، فمات عطشا. // وقام خالد في الناس خطيباً يرغِّبُهم في بلاد ١٧٨ أ
العَجَم، ويُزَهّدهم في بلاد العرب، وقال: ألا ترون إلى الطعام كالتراب[1]، والله لو لم يلزمْنا الجهادُ في الله، والدعاءُ إليه، ولم يكن إلا المعاش لكان الرأي أن نقارعَ على هذا الريف حتى نكونَ أولى به، ونوليِّ الجوعَ والإقلالَ مَنْ تولاَّه ممّن تثاقل عمَّا أنتم عليه.

وسار خالدٌ في الفلاحين سيرته فلم يقتلهم، وسبى ذراريَّ المقاتلة ومن أعانهم، ودعا أهْلَ الأرض إلى الجزاء والذمَّة فتراجعوا.

وبارز خالدُ يوم الولجة رجلاً من أهل فارس يُعْدَل بألف رجل فقتله، فلمّا فرغ اتَّكأ عليه، ودعا بغذائه.

وقال خالد يذكر ذلك اليوم:[2]

نَهَكْناهُمْ بها حتى استجاروا ... ولولا اللهُ لم يُرْزَوْا قُبَالا
فَوَلُّوا اللهَ نعمَتَهُ وقولوا ... ألا باللهِ نَحْتَضِرُ القتالا

(الوافر)

---

(١) في الطبري: كرفغ التراب، أي مجتمع التراب.

(٢) هذا الشعر المنسوب إلى خالد بن الوليد غير وارد في الطبري، وهو مثبت في الروض المعطار ص ٦١١.

وقال القعقاع في ذلك وأثنى على المسلمين: [1]

(و) لَمْ أر قوما مِثْلَ قـوم رأيتُهـم على وَلَجَـاتِ البر أحمى وأنْجَبَـا
وأقتـلَ للـرواس في كـل مجمعٍ اذا صعْصَعَ الدهرُ الجموعَ وكبكبا
فنحن حبسنـا بـالـزمـازم بعـدمـا أقاموا لنا في عَـرِصَـةِ الدار تـرقبـا
قتلنـاهُـمُ مـا بين قلْـعِ مُطَلّـق إلى القِيَعـةِ الغَبْـراء يـومـاً مَطَنَّبَـا

(الطويل)

* * *

(١) الشعر المنسوب للقعقاع مما لم يرد لدى الطبري، والبيتان الأول والثاني أوردهما ياقوت في معجم البلدان ج ٥ ص ٣٨٣.

حديث أُلَّيْس، وهي على صُلْب الفرات(*)

ولـمَّا أصاب خالدٌ من أصاب يوم الولجة من بكر بن وائل من نصاراهم الذين أعانوا أهْلَ فارس غضب لهم نصارى قومهم؛ فكاتبوا الأعاجم وكاتبتْهم الأعاجم؛ فاجتمعوا إلى أليس، وعليهم عبْدُ الأسود العِجْليّ، وكان أشدَّ الناس على أولئك النصارى مسلموا بني عِجْل عُتْيبةُ بن النهاس وسعيدُ بن مُرَّةَ وفراتُ ابن حيان والمثنى بن لاحق ومذعورُ بن عَدِي.

وكتب أردشيرُ إلى بهمن جاذَوَيْه: أنْ سِرْ حتى تقْدمَ أليس بجيشك إلى من اجتمع بها من فارس ونصارى العرب. فقدم بهمن أمامه جابان وأمره بالحثّ وقال له: كفكف نفسك وجندك عن قتال القوم حتى ألحق بك إلا أن يعجلوك. فسار جابان نحو أليس، وانطلق بهمن إلى أردشير ليُحْدِث به عهداً، ويستأمره فيما يريد أن يشير به، فوجده مريضاً؛ فعرَّج عليه، وأخلي جابان بذلك الوجه، ومضى جابان حتى انتهى (إلى) أليس فنزل بها، واجتمعَتْ إليه المسالحُ التي كانت بإزاء العرب، وعبد الأسود في نصارى بني عجل وتيم اللات وضبيعة وعَربُ الضاحية من أهل الحيرة، وكان أبْجَرُ بن بجير نصرانياً فساند عبْدَ الأسود؛ وكان خالد بلغه بجمع عبد الأسود وأبجر وزهير فيمن تأشب إليهم، فنهد إليهم ولا يشعر بدنو جابان، وليست لخالد همة إلا من تجمع له من عرب الضاحية ونصاراهم.

(*) الخبر منقول ـ باستثناء ما ورد فيه من شعر لابن قطبة ـ عن الطبري ج ٣ ص ٣٥٥ ـ ٣٥٨، وهو في الروض المعطار ص ٢٩ ـ ٣٠، وقد أخذه عن الإكتفاء، وفي الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ١٠٩ ـ ١١٠، والبداية والنهاية لابن كثير ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧.

ولما طلع خالد على أليس قالت الأعاجم لجابان: أنعاجلهم أو نغدي الناس ولا نريهم أنا نحفل بهم، ثم نقاتلهم بعد الفراغ؟ فقال جابان: إن تركوكم والتهاون بهم فتهاونوا، ولكن ظني أن سيعاجلوكم ويعجلوكم عن طعامكم، فعَصَوْهُ وبسطوا البُسُط ووضعوا الأطعمة، وتداعوا إليها، وتوافوا عليها. فلما انتهى خالد إليهم أمر بحط الأثقال، فلما وضعت توجه إليهم، ووكل خالدٌ بنفسه حوامِيَ يحمون ظهره، ثم برز أمام الصف فنادى: أين أبجر؟ أين عبد الأسود؟ أين مالك بن قيس؟ رجل من خدره، فنكلوا عنه جميعاً إلا مالكاً، فبرز له، فقال له خالد: يا ابن الخبيثة، ما جرأك عليّ من بينهم، وليس فيك وفاء!

وقال:

أنا ابْنُ ذاتِ الحسَبِ المذوقِ إنك في ضيق أشَدّ الضيقِ

(الرجز)

وضربه فقتله، وأجهض الأعاجم عن طعامهم قبل أن يأكلوه، فقال لهم جابان: ألم أقل لكم يا قوم؟ لا والله ما دخلتني من رئيس وحشة قط حتى كان اليوم، فقالوا تجلدا ـ حيث لم يقدروا على الأكل ـ: ندعها حتى نفرغ منهم؛ ثم نعود إليها. فقال جابان: وأيضا أظنكم والله لهم وضعتموها وأنتم لا تشعرون، فالآن فأطيعوني وسُمُّوها؛ فإن كانت لنا فأهون هالك، وإن كانت علينا كنا قد صنعنا شيئاً، وأبلينا عذراً. فقالوا: لا، إلا اقتداراً عليهم.

وجعل جابان على مجنَبتيه عبْدَ الأسود وأبجر، وخالدٌ على تعبئته في الأيام التي قبلها، فاقتتلوا قتالا شديداً، والمشركون يزيدهم كَلَباً وشدةً ما يتوقعون من قدوم بهمن، فصابروا المسلمين للذي كان في علم الله أنْ يصيرهم إليه، وحرب المسلمون عليهم، وقال خالد: اللهم لكَ عَلَيَّ إن منْحتنا أكتافَهم أن لا استبقي منهم أحداً قدرنا عليه حتى أُجْرِيَ نهرهم بدمائهم! ثم إن الله ـ عز وجل ـ كشفهم للمسلمين، ومنحهم أكتافهم، فأمر خالد مناديَةً، فنادى في الناس: الأسْرَ ـ الأسْرَ! لا تقتلوا إلا من امتنع، فأقبلت الخيول بهم أفواجاً مستأسرين يساقون

سوقاً، وقد وكل بهم رجالاً يضربون أعناقهم في النهر، ففعل ذلك بهم يوماً وليلة وطلبوهم الغَدَ وبعد الغد؛ حتى انتهوا إلى النهرين، ومقدار ذلك من كل جوانب أليس. فضرب أعناقهم، وكانت على النهر أرْحاء فطحنَت بالماء وهو أحمَرُ قُوتَ العسكر ثلاثة أيام وهم ثمانيةَ عَشَرَ ألفا أو يزيدون.

ولما رجع المسلمون من طلبهم، ودخلوا عسكرهم، وقف خالد على الطعام الذي كان المشركون قدَّموه لغدائهم فأعجلوا عنه، فقال للمسلمين: قد نَفَّلْتكموه فهو لكم ـ وقد كان رسول الله ﷺ إذا أتى على طعام مصنوع نَفَّله ـ فقعد الناس على ذلك لعشائهم بالليل، وجعل من لا يرد الأرياف ولا يعرف الرقاق يقول: ما هذه الرقاع البيض! وجعل من قد عرفها يجيبهم، ويقول لهم مازحا: هل سمعتم برقيق العيش؟ فيقولون: نعم، فيقول: هو هذا؛ فسمي الرقاق.

وعن خالد بن الوليد أن رسول الله ﷺ نفل الناس يوم خيبر الخبز والطبيخ والشواء وما أكلوا غير ذلك في بطونهم غير متأثليه.

وبعث خالد بالخبر مع رجل يدعى جندلاً من بني عجل، وكان دليلاً صارماً، فقدم على أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ بالخبر، وبفتح أليس، وبقدر الفيء، وبعدة السبي، وبما حصل من الأخماس، وبأهل البلاء من الناس، فلما رأى أبو بكر صرامته وثبات خبره، قال: ما اسمك؟ قال: جندل. فقال أبو بكر: ويها جندل:

نَفسُ عِصام سَوَّدَتْ عِصاماً وَعلَّمْته الكرَّ والإقْداما[1]

(الرجز)

---

(١) مثل يضرب في نباهة الرجل من غير قدم، والأصل فيه: أن عصام بن شهبر الجرمي كان قد غلب على أمر النعمان بن المنذر، ولم يكن لآبائه شرف فشرُف بنفسه، فقيل له في ذلك، فقال النابغة الذبياني:

نفس عصام سودت عصاماً وعلمته الكر والإقداما =

١٧٨ ب // وأمر له بجارية من السبي فولدت له.

وكان خالد وجنده هم جند المسلمين، وكتيبة الإسلام، بهم فض الله أهل فارس ورعبهم، وما زالت بعدها مرعوبة منتشرة لم يأتوا في وقعة بمثل ذلك الجد والصبر إلى أن فارقهم خالد إلى الشام.

وبلغت قتلاهم يوم أليس سبعين ألفاً جلهم من أمغيشيا، وفي ذلك يقول الأسود بن قطبة:

قَتَلْنا منهم سبعينَ ألفاً بقيَّةَ حربِهم غِبَّ[1] الإسار
سوى مَنْ ليس يُحْصَى من قتيلٍ ومَنْ قد غال جولان الغُبَارِ[2]
(الوافر)

وقال خالد بن الوليد لما افتتح الحيرة: لقد قاتلت يوم مؤتة فانقطع في يدي تسعة أسياف، وما لقيت قوماً كقوم لقيتهم من أهل فارس، وما لقيت من أهل فارس قوماً كأهل أليس.

= وجعلته ملكاً هماما

راجع بشأن ذلك: ابن عاصم. المفضل ص ١٧٧، الواحدي. الوسيط في الأمثال ص ١٧٢، الميداني. مجمع الأمثال ج ٢ ص ٣٣١ - ٣٣٢، الزمخشري: المستقصى في أمثال العرب ص ٣٦٩، ابن منظور. لسان العرب ص ٢٩٧٩، وفيه:

نفس عصام سودت عصاماً وصيرته ملكاً هماماً
وعلمته الكر والإقداما

وهو غير مثبت في ديوان النابغة الذبياني، ط. بيروت.

(١) في معجم البلدان لياقوت (ج ١ ص ٢٥٤): نحب.

(٢) شعر الأسود بن قطبة غير وارد في الطبري، وهو مثبت في معجم البلدان لياقوت (مادة: أمغيشيا - ج ١ ص ٢٥٤)، وقد سبق ما أثبت هنا بقوله:

لقينا يوم أليس وأمغي ويوم المقر آساد النهار
فلم أر مثلها فضلات حرب أشد على الجحاجحة الكبار

حديث أمْغيشيَا وكيف أفاءها الله بغير قتال (*)

ولـمَّا فَرَغَ خالد من وقعة أُليَسْ، نهض فأتى على أمْغيشيَا وقد أعجلهم عَمَّا فيها، وقد جلا أهْلُها، وتفرّقوا في السَّوَاد، فأمر خالد بهدمها وهدْم كلّ شيء كان في حَيِّزها وكانت مِصْراً كالحيرة؛ وكان فرات بادَقْلي[1] ينتهي إليها، وكان أُليَسْ من مسالحها، فأصابوا فيها ما لم يصيبوا قطّ قبله مثله.

[و]بلغ سهْمُ الفارس ألفاً وخمسمائة، سوى الأنفال التي نُفِّلَها أهْلُ البلاء.

ولما بلغ ذلك أبا بكر قال: يا معشر قريش، عدا أسدُكم على الأسد فغلبَه على خراذيله[2]، أعجز النساء أن ينسأن[3] بمثل خالد.

(*) الخبر منقول عن الطبري ج٣ ص ٣٥٨ - ٣٥٩، وهو مثبت في الروض المعطار ص ٣١، وقد نقله عن الإكتفاء.

(١) أنظر مادة: « الفرات » في كل من: ياقوت. معجم البلدان ج ٤ ص ٢٤١ - ٢٤٢، الحميري. الروض المعطار ص ٤٣٩.

(٢) الخراذيل: قطع اللحم، الواحد خرذولة.

(٣) في الطبري: « أعجزت النساء أن ينفسوا بمثل خالد »، وفي الكامل لابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير: « أعجزت النساء أن يلدن مثل خالد » وفي نهاية الأرب للنويري: « عجزت النساء أن يلدن مثل خالد »، وفي الروض المعطار للحميري: « أعجز النساء أن ينفسوا بمثل خالد ».

والمثبت هنا ما ورد في الأصل بعد مراجعة القاموس للفيروزابادي - ج١ ص ٣٠، ولسان العرب لابن منظور ص ٤٤٠٤، وفيه: « نسئت المرأة تنسأ نسئاً، على ما لم يسم فاعله، إذا كانت عند أول حبلها، وذلك حين يتأخر حيضها عن وقته، فيرجى أنها حبلى، وهي امرأة نسيء ».

حديث يوم المقر وفم فرات بادقلي مع ما يتصل به من حديث الحيرة [1]

ذكر أن الآزادبـه كان مرزبان الحيرة من زمان كسرى إلى ذلك اليوم، وكانوا لا يمد بعضهم بعضاً إلا بإذن الملك، فلما أخرب خالد أمغيشيا علم أنه غير متروك، فتهيأ لحرب خالد، وقدّم ابنه، ثم خرج في أثـره، فعسكـر خـارجـاً مـن الحيرة، وأمر ابنه بسد الفرات.

ولما استقبل خالد من أمر أمغيشيا وحمل الرّجل في السفن مع الأثقال والأنفال، لم يفجأ خالداً إلا والسفن جوانح [2] فارتاعوا لذلك، فقال الملاحون: إن أهل فارس فجروا الأنهار، فسلك الماء على غير طريقه، فلا يأتينا الماء إلا بسد الأنهار، فتعجل خالد في خيل نحو الآزادبـه، فلقي على فم العتيق خيلاً من خيلهم، فجأهم وهم آمنون غارَتَهُ تلك الساعة، فأنامهم بالمقْر، ثم سار من فوره، وسبق الأخبار إلى ابن الآزادبه حتى يلقاه وجنوده بفم فرات بادقلي، فاقتتلوا، فأنامهم خالد، وفجر الفرات وسد الأنهار فسلك الماء سبيله.

ثم قصد خالد للحيرة، واستلحق أصحابه، وسار حتى ينزل بين الخورنق والنجف، فقدم خالد الخورنق، وقد قطع الآزادبه الفرات هرباً من غير قتال، وإنما جرأه على الهرب أن الخبر وقع إليه بموت أردشير وبمصاب ابنه، وكان

---

(١) الخبر منقول عن الطبري ج ٣ ص ٣٥٩ - ٣٧٣، وهو في الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٦٥ - ٢٦٨، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ١١١ - ١١٢، وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ج ١ ص ٥٠٢ - ٥٠٥، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٦ ص ٣٤٧ - ٣٤٨.

(٢) جنحت السفينة جنوحا: انتهت إلى الماء القليل، فلزقت بالأرض فلم تمض.

عسكره بين الغريين والقصر الأبيض. ولما تتام أصحاب خالد إليه بالخورنق خرج منه حتى يعسكر في موضع عسكر الآزادبَه بين الغريين والقصر الأبيض، وأهل الحيرة متحصنون، فأدخل خالد الحيرة الخيل من عسكره، وأمر بكل قصر رجلاً من قـواده يحاصر أهلـه ويقـاتلهـم، فكـان ضرار بـن الأزور محاصراً للقصر الأبيض، وفيه إياس بن قبيصة الطائي، وكان ضرار بن الخطاب محاصراً قصر الغريين وفيه عدي بن عدي المقتول، وكان ضرار بن مقرن المزني - عاشر عشرة إخْوة له - محاصراً قصر بني مازن وفيه ابن أكال، وكان المثنى محاصراً قصر بني بقيلة وفيه عمرو بن عبد المسيح، فدعوهم جميعاً، وأجلوهم يوماً، فأبى أهل الحيرة ولجوا، فناوشهم المسلمون.

وعهد خالد إلى أمرائه أن يَبْدَءُوا بالدعاء، فإن قبلوا قبلوا منهم، وإن أبوا أجلوهم يوما، وقال: لا تمكنوا عدوكم من آذانكم فيتربصوا بكم الدوائر، ولكن ناجزوهم ولا ترددوا المسلمين عن قتال عدوهم.

فكان أول القواد أنشب القتال بعد يوم أجلوهم فيه ضرار بن الأزور، وكان على قتال القصر الأبيض، فأصبحوا وهم مشرفون، فدعاهم إلى إحدى ثلاث: الإسلام، أو الجزاء، أو المنابذة. فاختاروا المنابذة، فقال ضرار: ارشقوهم، فدنوا منهم فرشقوهم بالنبل، فأعروا رءوس الحيطان، ثم بثوا غاراتهم فيمن يليهم، وصبح أمير كل قوم أصحابه بمثل ذلك، فافتتحوا الدور والديران، وأكثروا القتل، فتنادى القسيسون والرهبان: يا أهـل القصـور، مـا يقتلنـا غيركم. فنادى أهل القصور: يا معشر العرب، قد قبلنا واحدة من ثلاث فدعونا وكفوا عنا حتى تبلغونا خالداً.

وكان أول من طلب الصلح عمرو بن عبد المسيح بن قيس بن حيان بن الحارث وهو بُقَيلة - وإنما سمي بقيلة لأنه خرج على قومه في بردين أخضرين، فقالوا له: يا حار ما أنت إلا بقيلة خضراء [1] - ثم تتـابعـوا [2] على ذلـك. فخـرج

---

(١) في الأصول: تبايعوا، والتصويب من الطبري.

(٢) راجع في تسميته - كذلك: معجم الشعراء للمرزباني.

وجوه كل قصر إلى من كان عليه من أمراء خالد، فأرسلوهم إليه مع كل رجل منهم ثقة من قبل مرسله، فخلا خالد بأهل كل قصر منهم دون الآخرين[١]، وبدأ بأصحاب عدي بن عدي وقال: ويحكم ما أنتم؟ أعَربٌ؟ فما تنقمون من العرب؟ أو عَجَم؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل؟ فقال له عديّ: بل عرب عاربة وأخرى متعربة، فقال: لو كنتم كما تقولون لمَ تُحَادُّونا وتكرهوا أمرنا؟! فقال له عدي: ليدلك على ما تقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية، فقال: صدقت. اختاروا واحدة من ثلاث: إما أن تدخلوا في ديننا فلكم مالنا وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم أو أقمتم في دياركم، أو الجزية، أو المنابذة والمناجزة، فقد والله أتيتكم بقوم هم أحرى على الموت منكم على الحياة. فقال: بل نعطيكم الجزية، فقال خالد: تبا لكم، ويحكم إن الكفر فلاة مضلة، فأحمق العرب من سلكها فلقيه دليلان: أحدهما عربي فتركه واستدل الأعجمي. فصالحوه على مائة ألف وتسعين ألفا، وتتابعوا على ذلك، وأهدوا له الهدايا، وبعث بالفتح والهدايا إلى أبي بكر الصديق، فقبلها أبو بكر - رضي الله عنه - من الجزاء، وكتب إلى
١٧٩ أ خالد: أن احسب لهم هديتهم من الجزاء، إلا أن تكون من الجزاء / / وخذ بقية ما عليهم فقو بها أصحابك.

وفي حديث مثله أو نحوه عن رجل من كنانة وغيره: أن أهل الحيرة لما انتهوا إلى خالد كانوا يختلفون إليه ويقدمون في حوائجهم عمرو بن عبد المسيح، فقال له خالد: كم أتت عليك؟ قال: مِئُوسنين، قال: فما أعْجَبُ ما رأيت؟ قال: رأيت القرى منظومة ما بين دمشق والحيرة، تخرج المرأة من الحيرة فلا تُزوَّدُ[٢] إلا رغيفاً، فتبسم خالد، وقال:

«هل لك من شيخك إلا عقله» خرفت والله يا عمرو

(الرجز)

ثم أقبل على أهل الحيرة وقال: ألم يبلغني أنكم خبثة خدعة مكرة؟ فما لكم

(١) في الأصل: «الآخر».

(٢) في الأصل: تتزود.

تتناولون حوائجكم بخرف لا يدري من أين جاء؟ فتجاهل له عمرو، وأحب أن يريه من نفسه ما يعرف به عقله، ويستدل به على صحة ما حدثه به، فقال: وحقك أيها الأمير، إني لأعرف من أين جئت؟ قال: فمن أين جئت؟ قال: أقْرُبُ أم أُباعِدُ؟ قال: ما شئت، قال: من بطن أمي، قال: فأين تريد؟ قال: ما أمامي، قال: وما هو؟ قال: الآخرة. قال: فمن أين أقصى أثرك؟ قال: صلب أبي، قال: ففيم أنت؟ قال، في ثيابي، فقال خالد: إنه ليعقل! قال: أي والله وأفند، فوجده حين فره[1] عضاً[2] وكان أهل قريته أعلم به.

وقال خالد: قَتَلَتْ أرضٌ جاهِلَها، وَقَتَل أرضاً عالِمُها، القوم أعلم بما فيهم! فقال عمرو: والنْمَلةُ أعلم بما في بيْتها من الجَمَلِ بما في بيت النملة!

قالوا: وكان مع ابن بقيلة منصف[3] له متعلقا كيساً في حقوه، فتناول خالد الكيس ونثر ما فيه في راحته، وقال: ما هذا يا عمرو؟ قال: هذا وأمانة الله سمّ ساعة، قال: ولم تحتقبه؟ قال: خشيت أن تكونوا على غير ما رأيت، وقد أتيت على أجلي، والموت أحب إليّ من مكروه أدخله على قومي. فقال خالد: إنه لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها، وقال: بسم الله خير الأسماء، ورب الأرض والسماء، الذي ليس يضر مع اسمه داء، فأهووا إليه ليمنعوه، فبادرهم وابتلع السم، فقال عمرو: والله يا معشر العرب لتمْلكُنَّ ما أردتم ما دام منكم أحد أيها القرن[4].

وأقبل على أهل الحيرة، وقال: لم أر كاليوم أمراً أوضح إقبالاً.

وكان رسول الله ﷺ قد ذكر الحيرة وأنه أُرِيَها ورُفِعَتْ له، وكأن شُرَفَ قصورها أضراس الكلاب، وأنها ستفتح على المسلمين. فسأله رجل يقال له

(١) فره: اختبره.

(٢) عضا: داهية.

(٣) المنصف: الخادم.

(٤) أشار الدينوري في الأخبار الطوال ص ١١٢: إلى هذه الواقعة محدداً نوع السم بقوله «شيء من بيش» ـ وهو نبات كالزنجبيل، فيه سم قتال لكل حيوان.

شويل: كرامةَ بنت عبد المسيح. فقال له: «هي لك إذا فتحت عنوة» ـ يعني الحيرة ـ فلما راوض أهل الحيرة خالداً على الصلح وأداء الجزية قام إليه شويل فذكر له ذلك وشهد له به، فأبى خالد أن يكاتبهم إلا على إسلام كرامة إلى شويل، فثقل ذلك عليهم، فقالت: هونوا عليكم وأسلموني، فإني سأفتدي، ففعلوا، وكتب خالد بينه وبينهم كتاباً:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمراً ابني عدي، وعمرو بن عبد المسيح، واياس بن قبيصة، وحيرى بن أكال، وهم نقباء أهل الحيرة، ورضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم به ـ [و] عاهدوهم على تسعين ومائة ألف درهم، تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا، رهبانهم وقسيسيهم، وجماعتهم، إلا من كان غير ذي يد، حبيسا عن الدنيا، تاركاً لها، وسائحاً تاركاً للدنيا، وعلى المنعة، فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم، وإن غدروا بقول أو فعل فالذمة منهم بريئة. وكتب في شهر ربيع الأول سنة اثنتي عشرة».

فاستخف أهل الحيرة بهذا الكتاب وضيعوه، فلما نقض أهل السواد بعد موت أبي بكر وكفروا فيمن كفر، وغلب عليهم أهل فارس، ثم افتتحها المثنى بن حارثة ثانية، أدلوا بمقتضى ذلك الكتاب، فلم يجبهم إليه، ودعا بشرط آخر، فلما غلب المثنى على البلاد كفروا فيمن كفر، وأعانوا، واستخفوا وأضاعوا الكتاب، فلما افتتحها سعد، أدلوا بذلك فسألهم واحداً من الشرطين، فلم يجيبوا به، فوضع عليهم وتحرى ما يرى أنهم يطيقون، فوضع عليهم أربعمائة ألف سوى الخرزة ـ وهو رسم كان عليهم لكسرى في كل سنة أربعة دراهم على كل رأس.

وفيما حكاه ابن الكلبي من حديث الحيرة أن الذي خرج منهم إلى خالد هو عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة وهانىء بن قبيصة الطائي، مع من خرج إليه من أشرافهم، وأن خالداً سأل عبد المسيح فذكر نحواً مما تقدم عن عمرو بن عبد المسيح إلى أن قال له: ويحك تعقل قال: نعم، وأقيد. قال خالد: وأنا أسألك، قال عبد المسيح: وأنا أجيبك. قال: أسلم أنت أم حرب؟ قال: بل سلم. قال: فما

هذه الحصون التي أرى؟ قال: بنيناها للسفيه (تمنعه) حتى يأتي الحليم فينهاه. ثم ذكر من مصالحته إياهم على الجزية نحواً مما تقدم.

قال: فكانت أول جزية حملت إلى المدينة، من العراق، ثم نزل على بانقيا فصالحهم بصهير بن صلوبا على ألف درهم وطيلسان، وكتب لهم كتابا.

وعن ابن إسحاق أن أول شيء صالح عليه خالد حين سار يريد العراق قريات من السواد، يقال لها: بانقيا، وباروسما، وأليس، نزل عليها خالد فصالحه عليها ابن صلوبا، فقبل منهم خالد الجزية، وكتب لهم كتابا.

قال: ثم أقبل خالد بمن معه حتى نزل الحيرة فجعل ابن إسحاق شأن تلك القريات مقدماً على أمر الحيرة، والأكثرون يقولون إنها كانت بعدها، وإن أهلها وسائر دهاقين الملطاطين إنما كانوا يتربصون وينظرون ما يصنع أهل الحيرة. فلما استقام ما بين أهل الحيرة وبين خالد على الصلح طلب جميعهم الصلح وسمحوا بالجزية واكتتبوا بها من خالد كتباً.

وبين الرواة خلاف كثير في أسماء الرجال والأماكن ومقادير الجزاء، فرأيت اختصار ذلك أولى.

وعن الشعبي في حديث كرامة بنت عبد المسيح لما اشتد على قومها دَفْعُها إلى شويل وأعظم الخطر، قالت لهم: لا تخطروه، ولكن اصبروا، ما تخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة؟ إنما هذا رجل أحمق رآني في شبيبتي فظن أن الشباب يدوم. فدفعوها إلى خالد، فدفعها خالد إليه، فقالت: ما أربك إلى عجوز كما قد ترى؟ فأدِّني قال: لا، إلاّ على حكمي، قالت: فلك حكمك مرسلاً، فقال: لست لأم شويل إن نقصتك من ألف درهم! فاستكثرت ذلك لتخدعه، ثم أتته بها. فرجعت إلى أهلها، فتسامع الناس بذلك، فعنفوه، فقال: ما كنت أرى أن عدداً يزيد على
١٧٩ ب ألف، وخاصمهم // إلى خالد، وقال: كانت نيتي غاية العدد، وقد ذكروا أن العدد يزيد على ألف، فقال خالد: أردْتَ أمراً وأراد الله غيره، ونأخذ بما ظهر وندعك ونيتك، كاذباً كنت أو صادقاً.

ومما يروى من شعر ابن بقيلة:

أبعد المنذرين أرى سواماً ... تروّح بالخورنق والسدير
وبعد فوارس النعمان أرعى ... قلوصاً بين مرّة والحفير
فصرنا بعد[1] ملك أبي قبيس ... كجرب المعز في اليوم المطير
تقسّمنا القبائل من معدّ ... علانية كأيسار الجزور
وكنا لا يرام لنا حريم ... فنحن كضرة الضرع الفجور
نودي الخرج بعد خراج كسرى ... وخرج من قريظة والنضير
كذاك الدهر دولته سجال ... فيوم في مساءة أو سرور

(الوافر)

وقال القعقاع بن عمرو في أيام الحيرة: [2]

سقى الله قتلى بالفرات مقيمة ... وأخرى بأثباج النّجاف الكوانف
فنحن وطئنا بالكواظم هرمزاً ... وبالثّني قرني قارن بالجوارف
ويوم أحطنا بالقصور تتابعت ... على الحيرة الروحاء إحدى المصارف
حططناهم منها وقد كاد عرشهم ... يميل به فعل الجبان المخالف
مننا عليهم بالقبول وقد رأوا ... عيون المنايا حول تلك المحارف
صبيحة قالوا: نحن قوم تنزّلوا ... إلى الريف من أرض العريب النفانف[3]

(الطويل)

وقال أخوه عاصم بن عمرو في ذلك:

صبحنا الحيرة الروحاء خيلا ... ورجلاً فوق أثباج الركاب
حصرنا في نواحيها قصورا ... مشرّفة كأضراس الكلاب
فبادوا بالغريب ولم يحاموا ... فقلنا: دونكم فعل العراب
فقالوا: بل نؤدي الخرج حتى ... تزلّ الراسيات من الضراب

---

(١) في الطبري: فصرنا بعد هلك. ـ ج ٣ ص ٣٦٢.

(٢) الأبيات في: الطبري ج ٣ ص ٣٦٥، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٦ ص ٣٤٨.

(٣) في البداية والنهاية: المقانف.

صَدفْنَا عنهم لما اتَّقَوْنَا   وأُبْنَا حيث أُبْنَا بالنِّهابِ
(الوافر)

وبعث خالد بن الوليد عماله ومسالحه، لجباية الخراج وحماية البلاد، وأمر أمراءه على الثغور بالغارة والإلحاح، فنزلوا على السيب في عرض سلطانه، وهناك كانت الثغور في زمانه، فمهدوا له ما وراء ذلك إلى شاطىء دجلة، وليس لأهل فارس فيما بين الحيرة ودجلة أمر، وليس لأحدهم ذمة إلا الذين كاتبوا خالداً واكتتبوا منه، وسائر أهل السواد جلاء ومتحصنون ومحاربون، وجني الخراج إلى خالد في خمسين ليلة، وكان الذين ضمنوه وهم رءوس الرساتيق رهناً في يديه، فأعطي ذلك كله المسلمين، فقووا به على أمرهم.

وقال أبو مفزر الأسود بن قطبة فيما فتح بعد الحيرة:

ألا أبلغا عنا الخليفة أننا   غَلَبْنَا على نصف السواد الأكاسِرَا
غلبنا على ماء الفرات وأرضِهِ   عشيَّةَ حُزْنَا بالسيوف الأكابرا
فدَرَّتْ علينا جِزيَةُ القوم بعدما   ضربناهُمُ ضرباً يقطُّ البواترا
(الطويل)

ولما غلب خالد على أحد جانبي السواد، دعا برجلين، أحدهما حيري والآخر نبطي، وكتب معهما كتابين إلى أهل فارس، أحدهما إلى الخاصة والآخر إلى العامة. وهذا أحدهما:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس، أما بعد، فالحمد لله الذي حل نظامكم، ووهن كيدكم، وفرق كلمتكم، ولو لم يفعل ذلك بكم لكان شراً لكم، فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم، ونَجُزْكُم إلى غيركم، وإلا كان ذلك على غلب وأنتم كارهون، على أيدي قوم يحبون الموت كحبكم الحياة».

والكتاب الآخر:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس، أما بعد، فالحمد لله الذي فض حرمتكم، وفرق كلمتكم، وفل حدكم، وكسر شوكتكم، فأسْلِموا تَسْلَموا، وإلا فاعتقدوا مني الذمة، وأدوا الجزية، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة».

ودعا خالد الرجل الحيري فقال له: ما اسمك؟ قال: مرة. قال: خذ الكتاب - لأحد الكتابين - فأت به أهل فارس لعل الله يمر عليهم عيشهم، أو يسلموا، وينيبوا. وقال للنبطي: ما اسمك؟ قال: هزقيل. قال: خذ الكتاب، اللهم ازهق نفوسهم.

وكان أهل فارس إذ ذاك لموت أردشير مختلفين في الملك مجتمعين على قتال خالد متساندين، إلا أنهم قد أنزلوا بهمن جاذويه ببهر سير[1]، ومعه الآزادبه في أشباه له.

ولما وقعت كتب خالد إلى أهل المدائن تكلم نساء آل كسرى، فولى الفرخزاد ابن البندوان إلى أن يجتمع آل كسرى على رجل إن وجدوه، وأقام خالد في عمله سنة ومنزله الحيرة، يصعد ويصوب قبل خروجه إلى الشام، وأهل فارس يخلعون ويملكون، ليس إلا للدفع عن بهرسير، وكان شيري بن كسرى قد قتل كل من يناسب إلى كسرى بن قباذ، ووثب أهل فارس بعده وبعد أردشير ابنه، وقتلوا كل من بين كسرى بن قباذ وبين بهرام جور، فبقوا لا يقدرون على من يملكونه ممن يجتمعون عليه.

وعن الشعبي قال: أقام خالد فيما بين فتح الحيرة إلى خروجه إلى الشام أكثر من سنة، يعالج عمل عياض الذي سمى له، فقال خالد للمسلمين: لولا ما عهد إليّ الخليفة ما كان دون فتح فارس شيء، وكان عهد إليه وإلى عياض إذ وجههما أن يستبقا إلى الحيرة فأيهما سبق إليها فهو أمير على صاحبه، وقال: فإذا اجتمعتما بالحيرة وفضضتما مسالح فارس، وأمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم

(١) في الأصل: «بنهر سير».

فليكن أحدكما رداءاً للمسلمين ولصاحبه بالحيرة وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم ومستقر عزهم المدائن، حسب ما تقدم من كتاب أبي بكر إليهما بذلك قبل هذا [1].

فكان خالد لا يستطيع أن يفارق مكانه للاقتحام على فارس ولا لإغاثة عياض وكان بدومة قد شجى وأشجى، لأجل ما عهد إليه أبو بكر أن لا يقتحم عليهم، وخلفه نظام لهم. وكان بالعين عسكر لفارس وبالأنبار آخر وبالفراض آخر، ثم أن خالداً لما استقام له ما بين الفلاليج إلى أسفل السواد فرق سواد الحيرة على رجال ممن كان معه، وفعل في سواد الأبلة مثل ذلك، وأقر أمر المسالح على ثغورهم، واستخلف على الحيرة القعقاع بن عمرو. وخرج خالد في عمل عياض ليقضي ما بينه وبينه ولإغاثته، فسار حتى نزل بكربلا، وأقام عليها أياماً، وشكا إليه عبد الله بن وثيمة الذباب، فقال له: اصبر فإني إنما أريد أن أستفرغ
المسالح التي أمر بها عياض فتسكنها / / العرب، فتأمن جنود المسلمين أن ١٨٠ أ
يؤتوا من خلفهم، وتجيئنا العرب آمنة وغير متعتعة، وبذلك أمرنا الخليفة، ورأيه يعدل نجدة الأمة.

وقال رجل من أشجع في مثل ما شكاه ابن وثيمة النضري من أمر الذباب:

لقد حُبِسَتْ بكرْبلاءَ مطيَّتي ... وبالعين حتى عاد غَثًّا سمينُها
إذا رَحَلتْ من منزلٍ رجعَتْ لهُ ... لَعَمْرُ أبيها إنني لا أُهينُها
ويمنَعُها من ماء كلِّ شريعَةٍ ... رفاقٌ من الذبَّان زرقٌ عيونها [2]

(الطويل)

* * *

---

(١) راجع ص ٧٢ من هذا الجزء.

(٢) الأبيات في الطبري ج ٣ ص ٣٧٣.

حديث الأنبار [١] وهي ذات العيون [٢]

وخرج خالد في تعبيته التي خرج فيها من الحيرة، على مقدمته الأقرع بن حابس. فلما نزل الأقرع المنزل الذي يسلمه إلى الأنبار نتج [٣] قوم من المسلمين إبلهم، فلم يستطيعوا العرجة [٤]، ولم يجدوا بداً من الإقدام، ومعهم بنات مخاض تتبعهم. فلما نودي بالرحيل صَرّوا [٥] الأمهات، واحتقبوا المنتوجات، لأنها لم تطق السير، فانتهوا ركبانا إلى الأنبار، وقد تحصن أهلها، وخندقوا عليهم، فأشرفوا من حصنهم، وعلى الجنود التي قبلهم شيرزاد صاحب ساباط [٦] - وكان أعقل أعجمي يومئذ وأسوده - فتصايح عرب الأنبار وقالوا: صبح الأنبار شر، جمل يحمل جميلة وجمل تربه [٧] عوذ. فقال شيرزاد - وقد سأل عن ما يقولون، فأخبر به: أما هؤلاء فقد قضوا على أنفسهم، والله لئن لم يكن خالد مجتازاً لأصالحنه، فبينما هم كذلك قدم خالد على المقدمة، فأطاف بالخندق، وأنشب القتال، وكان قليل الصبر عنه إذا رآه أو سمع به، وتقدم إلى رماته، فأوصاهم

(١) الأنبار: مدينة قرب بلخ، وبها كان مقام السلطان، وكان لها مياه وكروم وبساتين كثيرة - راجع بشأن ذلك ياقوت: معجم البدان ج١ ص ٢٥٧ - ٢٥٨.

(٢) الخبر منقول عن الطبري ج ٣ ص ٣٧٣ - ٣٧٥، وهو في الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٦٩، ونهاية الأرب للنويري ج١٩ ص ١١٢ - ١١٣، والبداية والنهاية لابن كثير ج٦ ص ٣٤٩، وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٨١ وما بعدها.

(٣) المقصود: أولدوها.

(٤) العرجة: المقام.

(٥) صروها: أي شدوا ضرعها بالصرار، لئلا يرضعها ولدها.

(٦) ساباط: هي ساباط كسرى، موضع بالمدائن - راجع بشأن ذلك: ياقوت. معجم البلدان ج٣ ص١٦٦ - ١٦٧.

(٧) تربه: تصلحه.

وقال: إني أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب، فارموا عيونهم ولا تَوَخَّوْا غيرها، فرموا رشقاً[1] واحداً، ثم تابعوا، ففقئت ألفَ عين يومئذ، فسميت تلك الوقعة ذات العيون، وتصايح القوم: ذهبت عيون أهل الأنبار فراسل شيرزاد خالداً في الصلح على أمر لم يرضه خالد، فرد رسله، وأتى خالد أضيق مكان في الخندق فنحر رذايا[2] الجيش ثم رمى بها فيه فأفعمه، ثم اقتحموا الخندق والرذايا جسورهم، فاجتمع المسلمون والمشركون في الخندق، وأرز القوم إلى حصنهم، وراسل شيرزاد في الصلح على مراد خالد، فقبل منه خالد على أن يخليه ويلحقه بمأمنه في جريدة خيل، ليس معهم من المتاع والمال شيء، فخرج شيرزاد، فلما قدم على بهمن جاذويه وأخبره الخبر لامه، فقال له شيرزاد: إني كنت في قوم ليست لهم عقول، وأصلهم من العرب، فسمعتهم مَقْدَمُهم علينا يقضون على أنفسهم، وقلما قضى قوم على أنفسهم قضاءإلا وجب عليهم. ثم قاتلهم الجند، ففقئوا فيهم وفي أهل الأرض ألف عين، فعرفت أن المسالمة أسلم، وأن قرة العين لهم، وأن العيون لا تقر منهم بشيء.

ولما اطمأن خالد بالأنبار والمسلمون، وأمن أهل الأنبار وظهروا، رآهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها، فسألهم: ما أنتم؟ فقالوا: قوم من العرب، نزلنا إلى قوم من العرب كانت أوائلهم نزلوا أيام بختنصر حين أباح العرب، فلم نزل عنها. فقال: ممن تعلمتم الكتابة[3]؟ فقالوا: تعلمنا الخط من إياد، وأنشدوا قول الشاعر:

قوم إياد لو أنَّهمْ أمم ... أو لو أقاموا فتهْزَلُ النَّعَمُ
قوم لهم باحَةُ العراق إذا ... ساروا جميعاً والخطُّ والقلم[4]

(المنسرح)

---

(١) رموا رشقا: أي وجهاً واحداً بجميع سهامهم.

(٢) الرذايا: جمع رذية، وهي الناقة المهزولة من السير.

(٣) في الأصل: «الكتاب».

(٤) الأبيات في: الطبري ج٣ ص ٣٧٥، والبداية والنهاية لابن كثير ج٦ ص ٣٤٩، وقد ورد فيه

فصالح خالد من حولهم، وبدأ بأهل البوازيج، فبعث إليه أهل كلواذة [1] ليعقد لهم، وكاتبهم فكانوا عيبته من وراء دجلة.

ثم أن الأنبار (وما حولها) نقضوا فيما كان يكون بين المسلمين والمشركين من الدول ما خلا أهل البوازيج فإنهم ثبتوا كما ثبت أهل بانقيا.

* * *

= الشطر الثاني من البيت الثاني على النحو التالي:

«ساروا جميعاً واللوح والقلم».

(١) كلواذة: بالفتح ثم السكون وذال معجمة، موضع بين الكوفة وواسط - ياقوت. معجم البلدان ج ٤ ص ٤٧٧.

حديث عين التمر [1]

ولما فرغ خالد من الأنبار، واستحكمت له، استخلف عليها الزبرقان بن بدر، وقصد لعين التمر، وبها يومئذ مهران بن سوسن[2] في جمع عظيم من العجم، وعقة بن أبي عقة في جمع عظيم من العرب من النمر وتغلب وإياد ومن لاقاهم.[3] فلما سمعوا بخالد قال عقة لمهران: إن العرب أعلم بقتال العرب، فدعنا وخالداً. قال: صدقت، لعمري لأنتم أعلم بقتال العرب، وإنكم لمثلنا في قتال العجم. فخدعه واتقى به، وقال: دونكموهم وإن احتجتم إلينا جئناكم. فلما مضى عقة نحو خالد قالت الأعاجم لمهران: ما حملك على أن تقول هذا القول لهذا الكلب فقال: دعوني فإني لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر له، إنه قد جاءكم من قتل ملوككم، وفل حدكم، ما اتقيته بهم، فإن كانت لهم على خالد فهي لكم، وإن كانت الأخرى لم يبلغوا منهم حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم ضعفاء، فاعترفوا له بفضل الرأي، فلزم مهران العين ونزل عقة لخالد على الطريق، وبينه وبين مهران روحة أو غدوة، فقدم عليه خالد وهو في تعبئة جنده، فَعَبَّأَ خالد جنده وقال لمجنبتيه: اكفونا ما عندكم فإني حامل، ووكل بنفسه حوامي، ثم حمل وعقة يقيم صفوفه، فاحتضنه فأخذه أسيراً، وانهزم صفه من غير قتال، فأتبعهم

---

(١) الخبر منقول عن الطبري ج ٣ ص ٣٧٦ - ٣٧٧، وهو في الأخبار الطوال للدينوري ص ١١٢، والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٦٩ - ٢٧٠، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ١١٢ - ١١٣، وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ج ١ ص ٥٠٥، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٦ ص ٣٤٩ - ٣٥٠، وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٨١ - ٨٢.

(٢) هكذا في جميع الأصول، وفي المصادر: مهران بن بهرام جوبين.

(٣) في الأصول: ومن لافهم.

المسلمون وأكثروا فيهم القتل والأسر. ولما جاء الخبر مهران هرب في جنده، وتركوا الحصن. فلما انتهى[1] فلال عقة من العرب والعجم إلى الحصن اقتحموه واعتصموا به، وأقبل خالد في الناس حتى نزل عليه ومعه عقة أسيراً وعمرو بن الصعق، وهم يرجون أن يكون خالد كمن كان يغير عليهم من العرب، فلما رأوه يحاولهم سألوه الأمان. فأبى إلا حكمه، فسكنوا إليه، فلما فتحوا دفعهم إلى المسلمين أسارى، وأمر بعقة فضربت عنقه ليوئس الأسرى من الحياة، فلما رأوه مطروحاً على الجسر يئسوا ثم دعا بعمرو بن الصعق فضربت عنقه، وضرب أعناق أهل الحصن أجمعين، وسبى كل من حوى حصنهم، وغنم ما فيه، ووجد في بيعتهم أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل، عليهم باب مغلق، فكسره عنهم، وقال: ما أنتم؟ قالوا: رهن، فقسمهم في أهل البلاء، فمن أولئك الغلمان أبو زياد مولى ثقيف، وحمران مولى
١٨٠ ب عثمان، ونصير أبو موسى بن نصير / / وسيرين والد محمد بن سيرين، وأبو عمرة جد عبد الله بن عبد الأعلى الشاعر.

وقال عاصم بن عمرو في ذلك يعير عقه:

ألا أبلغا الوركاءَ أنَّ عميدَها رهينةُ جيشٍ من جيوش الزعافرِ
فَبَهْلاً لَمَنْ غرت كفالةُ عتْقهِ بني عامرٍ أخرى الليالي الغوابر
أتيحَ له ضرغامةٌ لا يفلُّهُ قِراعُ الكُماةِ والليوثِ المَساعِرِ
أتيحتْ له نارٌ تَسيحُ وتَلتوي وترمي بأمثال النجوم العَناهِرِ
(الطويل)

★ ★ ★

(١) في الأصل: انتهت.

حديث دومة الجندل وما بعدها من الأيام بحصيد والخنافس ومصيخ والبشر والفراض[1]

قالوا: ولما قدم الوليد بن عقبة من عند خالد إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ بما بعثه به إليه من الأخماس، وجهه أبو بكر إلى عياض وأمده به، فقدم عليه الوليد وهو يحاصر أهل دومة، وهم محاصروه، وقد أخذوا عليه الطريق، فقال له الوليد: الرأي في بعض الحالات خير من جند كثيف، ابعث إلى خالد واستمده، ففعل، فقدم رسوله على خالد غب وقعة العين مستغيثا، فعجل به خالد إلى عياض وكتب إليه معه: إياك أريد.

لَبِّثْ قليلا تأتك الجلائبُ (يَحْمِلْنَ آساداً عليها القاشِبُ)[2]
كتائبٌ يَتْبعُها كتائبُ

(رجز)

ولما فرغ خالد من عين التمر خلف فيها عويمر بن الكاهل الأسلمي، وخرج في تعبئته التي دخل فيها العين يريد عياضاً، ولما بلغ أهل دومة مسير خالد إليهم بعثوا إلى أحزابهم من بهراء وكلب وغسان وتنوخ (والضجاعم)، وقبل ما أتتهم منهم طوائف فيهم وديعة الكلبي، وابن الأيهم التنوخي، وابن الحدرجان، فأشجوا عياضاً وأشجوا به، فلما بلغهم دنو خالد وهم على رئيسين: أكيدر بن عبد الملك، والجودي بن ربيعة ـ اختلفوا، فقال أكيدر: أنا أعلم الناس بخالد،

(١) الخبر منقول عن الطبري ج ٣ ص ٣٧٨ ـ ٣٨٥، وهو في الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٧٠ ـ ٢٧٥، ونهاية الأرب للنويري ج١٩ ص ١١٤ ـ ١١٦، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٦ ص ٣٥٠ ـ ٣٥٢، وتاريخ ابن خلدون ص ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) ساقط من الأصول، مثبت من الطبري ج ٣ ص ٣٧٧.

لا أحد أيمن طائراً منه، ولا أحد في حرب، ولا يرى وجه خالد قوم قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه، فأطيعوني وصالحوا القوم، فأبوا عليه، فقال: لن أمالئكم على حرب خالد، فشأنكم.

فخرج لطيته، وبلغ ذلك خالداً، فبعث عاصم بن عمرو معارضاً له، فأخذه وقال: إنما تلقيت الأمير خالداً، فلما أتى به خالداً أمر به فضربت عنقه، وأخذ ما كان معه من شيء، ومضى خالد حتى ينزل على أهل دومة، وعليهم الجودي ابن ربيعة، فجعل خالد دومة بين عسكره وعسكر عياض، وكان النصارى الذين أمدوا أهل دومة من العرب محيطين بحصن دومة لم يحملهم الحصن، فلما اطمأن خالد خرج الجودي فنهض بوديعة فزحفا لخالد، وخرج ابن الحدرجان وابن الأيهم إلى عياض، فاقتتلوا فهزم الله الجودي ووديعة على يدي خالد، وهزم عياض من يليه، وركبهم المسلمون، فأما خالد فإنه أخذ الجودي أخذاً، وأخذ الأقرع بن حابس وديعة، وأرز بقية الناس إلى الحصن، فلم يحملهم، فلما امتلأ الحصن، أغلق من في الحصن الحصن دون أصحابهم، فبقوا حوله، وقال عاصم ابن عمرو: يا بني تميم، حلفاؤكم كلب آسُوهُمْ وأجيروهم، فإنكم لا تقدرون لهم على مثلها، ففعلوا، وكان سبب نجاتهم يومئذ وصية عاصم بهم، وأقبل خالد إلى الذين أرزوا إلى الحصن فقتلهم حتى سد بهم باب الحصن، ودعا بالجودي فضرب عنقه، وضرب أعناق الأسرى إلا أسير كلب، فإن عاصما والأقرع وبني تميم قالوا: قد أمناهم، فأطلقهم لهم خالد، وقال: مالي ولكم أتحوطون أمر الجاهلية وتضيعون أمر الإسلام؟ فقال له عاصم: لا تحسدهم العافية، ولا تحرزهم الشيطان. ثم أطاف خالد بباب الحصن، فلم يزل عنه حتى اقتلعه، واقتحموا عليهم، فقتلوا المقاتلة وسبوا الشرخ [1] فأقاموهم فيمن يزيد، فاشترى خالد ابنة الجودي، وكانت موصوفة بالجمال، ثم أن خالداً رد الأقرع إلى الأنبار، وثبت بدومة قليلاً، ثم ارتحل منها إلى الحيرة، فلما كان قريبا منها حيث يصبحها

---

(١) الشرخ: النساء الشابات، مع ملاحظة أن المثبت في الأصل هو: «الشيوخ».

ـ أخذ القعقاع أهلها بالتغليس[1] فخرجوا يتلقونه وهم مغلسون، وجعل بعضهم يقول لبعض: مروا بنا فهذا فرج الشر.

قالوا: وقد كان خالد عندما أقام بدومة كاتب عرب الجزيرة الأعاجم غضباً لعقة، فخرج زرمهر من بغداد ومعه روزبه يريدان الأنبار، واتعدا حصيداً والخنافس، فكتب بذلك الزبرقان وهو على الأنبار إلى القعقاع بن عمرو وهو يومئذ خليفة خالد على الحيرة، فبعث القعقاع أبا ليلى بن فدكي السعدي وأمره بحصيد، وبعث عروة بن الجعد البارقي وأمره بالخنافس، وقال لهما: إن رأيتما مقدما فأقدما. فخرجا فحالا بينها وبين الريف، وانتظر روزبه وزرمهر بالمسلمين اجتماع من كاتبهما من ربيعة، وقد كانوا تكاتبوا واتعدوا، فلما رجع خالد من دومة إلى الحيرة على الظهر وبلغه ذلك وقد عزم على مصادمة أهل المدائن كره خلاف أبي بكر، وأن يتعلق عليه بشيء، فعجل القعقاع (وابن عمرو) وأبا ليلى بن فدكي إلى روزبه وزرمهر، فسبقاه إلى عين التمر، وقدم على خالد كتاب امرىء القيس الكلبي[2]، أن الهذيل بن عمران قد عسكر بالمصيخ، ونزل ربيعة بن بجير بالثنى في عسكر غضباً لعقة، يريدان زرمهر وروزبه. فخرج خالد وعلى مقدمته الأقرع بن حابس، واستخلف على الحيرة عياض بن غنم، وأخذ خالد طريق القعقاع وأبي ليلى حتى قدم عليهما بالعين، فبعث القعقاع إلى حصيد، وأمّره على الناس، وبعث أبا ليلى إلى الخنافس،وأمّره على الناس، وقال: زجياهم ليجتمعوا ومن استشارهم، وإلا فواقعاهم، فأبى روزبه وزرمهر إلا المقام، فلما رآهما القعقاع لا يتحركان سار نحو حصيد، وعلى من به من العرب والعجم روزبه. ولما رأى روزبه أن القعقاع قد قصد له استمد زرمهر، فأمده بنفسه، واستخلف على عسكره المهبوذان، فالتقوا حينئذ فاقتتلوا، فقتل الله العجم مقتلة عظيمة، وقتل القعقاع زرمهر وقتل ـ أيضا ـ روزبه، قتله عصمة

---

(١) الغلس محركة: ظلمة آخر الليل.

(٢) في الأصول: الكندي، والتصويب من الطبري.

ابن عبد الله ـ أحد بني الحارث بن طريف، من بني ضبة، وكان عصمة من البررة، وكل فخذ هاجرت بأسرها تدعى البررة، وكل قوم هاجروا من بطن يدعون الخيرة، فكان المسلمون خيرة بررة ـ وغنم المسلمون يوم حصيد غنائم
١٨١ أ كثيرة، وأرز فلاّل[1] // حصيد إلى الخنافس فاجتمعوا بها.

وقال القعقاع في ذلك اليوم:

ألم يَنْهَ عنا غَيَّ فارس أننا ... منعناهُمُ مِنْ ريفهم بالصوارمِ
وأنا أناسٌ قد تعوَّد خَيْلُنا ... لقاءَ الأعادي بالحتوف القواصِمِ
وروزاً قتلنا حيث أرهَفَ حَدَّه ... وكلَّ رئيسٍ زاريا بالعظائم
تركْنا حصيداً لا أنيسَ بجَوِّه ... وقد شَقِيَتْ أربابُهُ بالأعاجم
وإنّي لراجٍ أنْ تُلاَقَى جُمُوعُهم ... غُدَيًّا باحدى المنكراتِ الصوادم
ألا أبلغا أسماءَ أن خليلَها ... قضى وَطراً من رُوزَمهْرَ[2] الأعاجِمِ

(الطويل)

وسار أبو ليلى ابن فدكي بمن معه ومن قدم عليه نحو الخنافس[3] وبها المهبوذان، فلما أحس بهم هرب هو ومن معه إلى المصيخ[4] وبه الهذيل بن عمران، فلما انتهى الخبر إلى خالد بمصاب أهل الحصيد[5] وهرب أهل الخنافس كتب إلى القعقاع وأبي ليلى وعروة وواعدهم ليلة وساعة يجتمعون فيها على المصيخ ـ وهو بين حوران والقلت ـ وخرج خالد من العين قاصداً للمصيخ على الإبل يجنب الخيل، فلما كان في تلك الساعة من ليلة الموعد اتفقوا جميعا معه

---

(١) فلال: جمع فل، وهم القوم المنهزمون.
(٢) في الأصول: زوربي، والتصويب من ياقوت. معجم البلدان ج ٢ ص ٢٦٧.
(٣) الخنافس: في طرف العراق، قرب الأنبار من ناحية البردان ـ ياقوت. نفسه ج ٢ ص ٣٩١.
(٤) المصيخ: بضم الميم وفتح الصاد المهملة وياء مشددة، وفاء معجمة ـ موضع بين حوران والقلت ـ ياقوت. نفسه ج ٢ ص ٣٩١.
(٥) حصيد ـ بالضم ثم الكسر وياء ساكنة ودال مهملة ـ واد بين الكوفة والشام ـ نفسه ج ٢ ص ٢٢٦.

بالمصيخ، فأغاروا على الهذيل ومن معه ومن أوي إليهم، وهم نائمون، أتوهم بالغارة من ثلاثة أوجه، فقتلوهم، وامتلأ الفضاء قتلى، فما شبهوا إلا غنماً مصرعة، وأفلت الهذيل في أناس قليل، وقد كان حرقوص بن النعمان بن النمر ابن قاسط محضهم النصح، وأجاد الرأي، فلم ينتفعوا بتحذيره، وذلك أن حرقوصا قال قبل الغارة:

ألا فاسقياني قبل خيل أبي بكْرِ ... لعل منايانا قريبٌ ولا ندري
ألا فاسقياني بالزجاج وكرِّرا ... علينا كُمَيْتَ اللون صافيةً تجري
أظن خيولَ المسلمين وخالداً ... ستطرقكم عند الصباح إلى البشر
فهل لَكُمُ في السير قَبْلَ قتالِهِمْ ... وقبل خروج المُعْصِراتِ من الخِدْر
أريني سلاحي يا أميمةُ إنني ... أخاف بياتَ القوم مُطَّلَعَ الفجْرِ [1]

(الطويل)

وكان حرقوص معرساً بامرأة من بني هلال تدعى أم تغلب، فقتلت تلك الليلة ـ وقد تقدم من حديث عدي بن حاتم فيما مضى من هذا الكتاب، قال: أغرنا على المصيخ، وإذا رجل يدعى حرقوص بن النعمان بن النمر، وإذا حوله بنوه وامرأته، وبينهم جفنة من خمر، وهم عليها عكوف، فقال: اشربوا شرب وداع، فما أرى أن تشربوا خمراً بعدها، خالد بالعين وجنوده بحصيد، وقد بلغه جمعنا وليس بتاركنا.

ألا فاشربوا من قبل قاصمة الظهْر ... (بُعَيْد انتفاخ القوم بالعُكَّر الدُّثْر)
وقبل منايانا المصيبةِ بالقدْر ... (لحيْنٍ لعمري لا يزيد ولا يَحرى) [2]

(الطويل)

فسبق إليه وهو في ذلك بعض الخيل، فضرب رأسه، فإذا هو في جفنته،

---

(١) الأبيات في الطبري ج ٣ ص ٤١٦ ـ ٤١٧، والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٨٠، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ١١٨، ومعجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٤٢٧، ج ٥ ص ١٤٤ ـ مع اختلاف في صياغتها وترتيبها.

(٢) ما بين القوسين ساقط من الأصول، مثبت من الطبري.

وأخذنا بناته وقتلنا بنيه.

وأصاب جرير بن عبد الله بالمصيخ عبد العزي بن أبي رهم من النمر، وإنما حضر جرير مما كان بالعراق ما كان بعد الحيرة، وذلك أنه كان ممن خرج مع خالد بن سعيد بن العاص إلى الشام، فاستأذن جرير في القدوم على أبي بكر ليكلمه في قومه بجيلة، وكانوا أوزاعاً في العرب، ليجمعهم ويتخلصهم، فأذن له، فقدم على أبي بكر فذكر له عِدَة من النبي ﷺ وأتاه عليها بشهود، وسأله إنجازها، فغضب أبو بكر وقال: ترى شغلنا وما نحن فيه، من بعوث المسلمين لمن بإزائهم من الأشدين: فارس والروم ثم أنت تكلفني التشاغل بما لا يغني عني عما هو أرضى لله ولرسوله، دعني وسر نحو خالد بن الوليد حتى أنظر ما يحكم الله في هذين الوجهين. فسار جرير حتى قدم على خالد وهو بالحيرة، فشهد معه ما كان بعدها من الأيام، وأصاب يوم المصيخ ـ كما ذكرنا ـ عبد العزى بن أبي رهم، وكان معه ومع رجل آخر من قومه يقال له لبيد بن جرير كتاب من أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ بإسلامهما، وسمي عبد العزى عبد الله، وبلغ أبا بكر مع ذلك أن عبد العزى قال ليلة الغارة:

وأقول إذْ طَرَقَ الصباحُ بغارةٍ ... سبحانك اللهمَّ رَبَّ محمد
سبحانَ ربِّي لا إله غيْرُهُ ... ربِّ العباد [١] وربِّ من يتودَّد [٢]

(الكامل)

فوداه أبو بكر لما بلغه هذا، ووَدى لبيداً، وقال: أما إن ذلك ليس عليّ إذ نازلا أهل حرب. وأوصى بأولادهما.

وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ يعتد على خالد بقتلهما إلى قتل مالك بن نويرة، فيقول أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ كذلك يلقى من ساكن أهل الحرب في ديارهم.

---

(١) في الطبري وابن الأثير: رب البلاد.

(٢) اختلاف حركة الروي هكذا في جميع النسخ، كما هي ـ كذلك ـ في الطبري وابن الأثير.

وقد كان ربيعة بن بجير التغلبي نزل الثني والبشر غضباً لعقة، وواعد لذلك روزبه وزرمهر والهذيل قبل أن يصيبهم ما أصابهم بالمصيخ، فلما أصاب، خالد أهل المصيخ بما أصابهم به، تقدم إلى القعقاع وإلى أبي ليلى، بأن يرتحلا أمامه، وواعدهما ليلة ليفترقوا فيها للغارة على ربيعة ومن معه من ثلاثة أوجه، كما فعل بأهل المصيخ، ثم خرج خالد من المصيخ فنزل حوران [١]، ثم الرنق [٢]، ثم الحماة [٣]، ثم الزميل [٤]، وهو البشر [٥] والثني معه، وهما شرقي الرصافة - فبدأ بالثني، واجتمع هو وأصحابه، فبيت من ثلاثة أوجه ربيعة بن بجير ومن اجتمع له وإليه، ومن ناشب لذلك من الشبان، فجرد خالد فيهم السيوف بياتاً، فلم يفلت من ذلك الجيش مخبر، واستبقى الشيوخ [٦]، وبعث بخمس الله - عز وجل - إلى أبي بكر - رضي الله عنه - مع النعمان بن عوف الشيباني، وقسم النهب والسبايا، فاشترى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - من ذلك السبي ابنة ربيعة التغلبي، فاتخذها، فولدت له عمر ورقية.

وقال أبو مقرز في ذلك:

لَعَمْرُ بني بجيرٍ حيث صاروا ... ومَنْ آذاهُمُ يَوْمَ الثَّنِيِّ
لقد لاقتْ سراتهُمُ فضاحا ... وفينا بالنساء على المَطِيِّ [٧]

(الوافر)

---

(١) حوران، بالفتح: كانت كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة ومزارع وحرار - ياقوت. معجم البلدان ج ٢ ص ٣١٧.

(٢) لم يعرفه ياقوت ولا الحميري - صاحب الروض المعطار - وانظر مادة: «رنقاء».

(٣) من المدن المشهورة بالشام، كانت مدينة عظيمة وكبيرة، كثيرة الخيرات، رخيصة الأسعار، حفلة الأسواق - ياقوت. معجم البلدان ج٢ ص٣١٧ - ٣١٨.

(٤) الزميل: موضع شرقي الرصافة - نفسه ج٣ ص١٥١.

(٥) البشر: بكسر أوله ثم السكون. اسم جبل يمتد من عَرَضٍ إلى الفرات من أرض الشام من جهة البادية - نفسه ج١ ص٤٢٦ - ٤٢٨.

(٦) في الطبري: واستبي الشرخ.

(٧) البيتان في ياقوت. معجم البلدان ج ٢ ص ٨٦، وقد تبعهما البيت التالي:

ألا ما للرجال؟ فإن جهلا ... بكم أن تفعلوا فعل الصبي

وكان الهذيل حيث نجا من المصيخ أوى إلى الزميل، إلى عتاب بن فلان، وهو بالبشر في عسكر ضخم، فبيتهم خالد بمثلها غارة شعواء من ثلاثة أوجه، سبقت إليهم الخبر عن ربيعة، وكانت على خالد يمين: ليبْغَتَنَّ تغلب في دارها، فقتل فيهم مقتلة لم يقتلوا قبلها مثلها، وأصابوا منهم ما شاءوا، وقسم خالد في الناس فيئهم، وبعث الأخماس إلى أبي بكر - رضي الله عنه - مع الصباح بن فلان المزني، ثم عطف خالد من البشر إلى الرضاب [1] وبها هلال بن عقة وقد أرفض عنه أصحابه حين سمعوا بدنو خالد، فانقشع عنها هلال ولم يلق كيداً، ثم قصد خالد بعدها إلى الفراض - والفراض تخوم الشام والعراق والجزيرة [2] - فأفطر فيها في رمضان في تلك السفرة التي اتصلت له فيها هذه الغزوات والأيام، ونظمن نظماً إلى ما كان قبل ذلك منه.

قالوا: ولما اجتمع المسلمون بالفراض حميت الروم واغتاظت، واستعانوا (ب) من يليهم من مسالح أهل فارس، وقد حموا واغتاظوا واستمدوا تغلب وإياد والنمر، فأمدوهم بأجمعهم، واجتمعوا كلهم على كلمة واحدة، ثم ناهدوا خالداً حتى إذا صار الفرات بينه وبينهم قالوا: إما أن تعبروا إلينا، وإما أن نعبر إليكم
١٨١ ب // قال خالد: اعبروا إلينا، قالوا: فتنحوا حتى نعبر، قال خالد: لا نفعل، ولكن اعبروا أسفل منا. فقالت الروم وفارس بعضهم لبعض: احتسبوا ملككم، هذا رجل يقاتل عن دين، وله عقل وعلم، ووالله لَيُنْصَرَنَّ ولتُخْذَلُنَّ. ثم لم ينتفعوا بذلك، فعبروا أسفل من خالد، فلما تتاموا قالت الروم: امتازوا حتى يعرف اليوم ما كان من حسن أو قبح، من أينا يجيء ففعلوا، ثم اقتتلوا قتالا شديداً طويلاً، ثم هزمهم الله تعالى.

وقال خالد للمسلمين: ألحوا عليهم، فجعل صاحب الخيل يحشر منهم الزمرة برماح أصحابه، فإذا جمعوهم قتلوهم، فقتل يوم الفراض في المعركة وفي الطلب

---

(١) الرضاب: موضع الرصافة قبل بناء هاشم إياها - ياقوت. المصدر السابق ج٣ ص٥٠.

(٢) الجزيرة، ويقال: جزيرة أقور، سميت بذلك لكونها بين دجلة والفرات - نفسه ج٢ ص١٣٤.

مائة ألف، وأقام خالد على الفراض بعد الوقعة عشراً، ثم أذن في القفـل إلى الحيرة، وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بهم، وأمر شجرة بن الأعز أن يسوقهم.

وأظهر خالد أنه في الساقة، وخرج من الفراض حاجاً لخمس بقين من ذي القعدة مكتتما بحجه، ومعه عدة من أصحابه، يعتسف[1] البلاد حتى أتى مكة بالسمت[2]، فقضى حجه، ثم أتى الحيرة، فوافاه بها كتاب أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ يأمره فيه بالمسير إلى الشام ويعاتبه على ما فعل، إذ لم يعلم أبو بكر بحجته هذه إلا بعد انصرافه إلى الحيرة.

وقد تقدم هذا كله فيما رسم قبل من فتوح الشام مستوفى في بيانه، وكيف كان مسيره إلى الشام وتركه المثنى بن حارثة بعده على العراق، ومشاطرته إياه في الناس، كل ذلك بأمر أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ حسب ما تقدم ذكره[3].

* * *

---

(١) اعتسف الطريق: إذا قطعه دون صوب توخاه فأصابه.

(٢) السمت: السير على الطريق بالظن.

(٣) راجع ص ٧١ وما بعدها من هذا الجزء.

حديث المثنى بعد خالد (*)

ولما انفصل خالد - رحمه الله - إلى الشام شيعه المثنى إلى قراقر [1]، ورجع من تشييعه إلى الحيرة، فأقام بها في سلطانه، ووضع في المسلحة التي كان فيها على السيب أخاه، وسد أماكن كل من خرج مع خالد من الأمراء برجال أمثالهم من أهل الغناء، ووضع مذعور بن عدي في بعض تلك الأماكن.

واستقام أهل فارس على رأس سنة من مقدم خالد على الحيرة، بعد خروجه إلى الشام بقليل، وذلك سنة ثلاث عشرة، على شهربراز بن أردشير بن شهريار ممن يناسب إلى كسرى، (ثم) إلى سابور. فوجه إلى المثنى جنداً عظيماً عليهم هرمز جاذويه في عشرة آلاف، ومعه فيل، وكتبت المسالح إلى المثنى بإقباله، فخرج المثنى من الحيرة نحوه، وضم إليه أصحاب المسالح، وجعل على مجنبتيه أخويه: المعنَّى ومسعوداً، وأقام له ببابل، وأقبل هرمز جاذويه، وقد كتب شهربراز إلى المثنى بن حارثة:

« من شهربراز إلى المثنى: إني قد بعثت إليك جنداً من وخش [2] أهل فارس، إنما هم رعاة الدجاج والخنازير، ولست أقاتلك إلا بهم ».

فكتب إليه المثنى:

« من المثنى إلى شهربراز، إنما أنت أحد رجلين. إما صادق، فذلك شر لك

(*) الخبر منقول عن الطبري ج٣ ص ٤١١ - ٤١٥، وهو في الكامل لابن الأثير ج٢ ص ٢٨٤ - ٢٨٦، وتاريخ ابن خلدون ج٢ ص٨٧ - ٩١.

(١) قراقر: بضم أوله، وبعد الألف قاف أخرى مكسورة وراء - اسم لعدة مواضع عرفها ياقوت - معجم البلدان ج ٤ ص ٣١٧ - ٣١٨.

(٢) الوخش: رذال الناس.

وخير لنا، وإما كاذب، فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند الله وفي الناس الملوك، وأما الذي يدلنا عليه الرأي، فإنكم إنما اضطررتم إليهم[1]، فالحمد لله الذي رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير».

فجزع أهل فارس من كتابه، وقالوا: إنما أتى شهربراز من (شؤم) مولده ولؤم منشئه - وكان يسكن ميسان[2] - وأن بعض البلدان شين على من يسكنه. وقالوا له: جرأت عدونا بالذي كتبت إليهم، فإذا كاتبت أحداً فاستشر. ثم التقوا ببابل، فاقتتلوا بعدوة الصراة الدنيا[3] - على الطريق الأول - قتالا شديداً.

ثم أن المثنى وفرسان من المسلمين اعتمدوا الفيل - وكان يفرق بين الصفوف والكراديس - فأصابوا مقتله، فقتلوه وهزموا أهل فارس، وأتبعهم المسلمون يقتلونهم، حتى جازوا بهم مسالحهم، فأقاموا فيها، وتتبع الطلب الفالة، حتى انتهوا إلى المدائن، ومات شهربراز مُنْهَزَمَ هرمز (جاذويه)، واختلف أهل فارس، وبقي ما دون دجلة (وبرس من السواد) في يد المثنى وأيدي المسلمين.

ثم أن أهل فارس اجتمعوا بعد شهربراز على دخت زنان ابنة كسرى، فلم ينفذ لها أمر، وخلعت، وملك سابور بن شهربراز، وقام بأمره الفرخزاد بن البندوان، فقتلا جميعا، وملكت آرز ميدخت، وتشاغلوا بذلك، وأبطأ خبر أبي بكر - رضي الله عنه - على المسلمين، فخلف المثنى على المسلمين بشير بن الخصاصية، ووضع مكانه في المسالح سعيد بن مرة العجلي، وخرج المثنى نحو أبي بكر ليخبره خبر المسلمين والمشركين، ولكي يستأذنه في الاستعانة بمن قد ظهرت توبته من أهل الردة ممن يستطعمه الغزو، وليخبره أنه لم يخلف أحداً أنشط إلى

---

(١) في الأصول: اضطررتم إليه، والتصويب من الطبري.

(٢) ميسان: بالفتح ثم السكون وسين مهملة وآخره نون، كورة واسعة كثيرة القرى والنخيل، بين البصرة وواسط - ياقوت. المصدر السابق ج ٥ ص ٢٤٢.

(٣) العدوة: من البصرة - ياقوت. نفسه ج ٤ ص ٩٠. والصراة: نهران ببغداد - نفسه ج ٣ ص ٣٩٩.

قتال فارس وحربها ومعونة المهاجرين منهم، إذ كان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ قد منع من الاستعانة بهم رأساً، وقال لأمرائه: لا تستعينوا في حربكم بأحد ممن ارتد، فإني لم أكن لأستنصر بجيش فيهم أحد ممن ارتد، وبالجزاء إن فعلت أن لا تنصروا.

وقال عروة بن الزبير: أمران يعرف بهما حال من شهد الفتوح، من ذكر أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ استعان في حربه بأحد ممن ارتد فقد كذب، وذكر من قول أبي بكر في ذلك ما بدأنا به.

قال: ومن زعم أن عمر ـ رضي الله عنه ـ حين أذن لمن ارتد في الجهاد أمّر أحداً منهم فقد كذب، وإنما تألف من تألف بالإمارة منهم عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ رجاء ما رجاه منهم عمر حين استعان بهم، فمن قبلهم ابتدأت الفتنة، وعلق عثمان ـ رضي الله عنه ـ عند الذي بدا منهم يتمثل بقول الأول:

(و) كنت وَعمْراً كالمسمِّن كلْبَـهُ فخـدَّشَـهُ أنيـابُـه وأظـافـرُه

(الطويل)

فقدم المثنى بن حارثة المدينة، وأبو بكر مريض مرضه الذي توفاه الله ـ تعالى ـ منه، وذلك بعد مخرج خالد إلى الشام ـ وقد تقدم ذكر وفاة أبي بكر واستخلافه عمر ـ رضي الله عنهما ـ في أول موضع احتيج إلى ذكر ذلك فيه من فتح الشام ـ وتوفي أبو بكر وأحد شقي السواد في سلطانه، والجمهور من جند أهل العراق بالحيرة، والمسالح بالسيب، والغارات تنتهي بهم إلى شاطىء دجلة، ودجلة حجاز بين العرب والعجم.

فهذا حديث العراق في خلافة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ من مبتدئه إلى منتهاه.

ذكر ما كان من خبر العراق في خلافة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وما كان من أمر المثنى بن حارثة معه، وذكر أبي عبيد بن مسعود، على ما في ذلك كله من الإختلاف بين رواة الآثار (١)

ذكر سيف عن شيوخه قالوا: أول ما عمل به عمر ـ رحمه الله ـ أن ندب الناس مع المثنى بن حارثة الشيباني إلى أهل فارس قبل صلاة الصبح، من الليلة التي مات فيها أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ ثم أصبح فبايع الناس، وعاد فندب الناس إلى فارس، وتتابع الناس على البيعة ففزعوا في ثلاث، كل يوم يندبهم فلا ينتدب أحد، وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم، وأثقلها عليهم، لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم.

قالوا: فلما كان في اليوم الرابع عاد // ينتدب الناس إلى العراق، فكان أول ١٨٢ أ منتدب أبو عبيد بن مسعود، وسعد بن عبيد القاري ـ حليف الأنصار ـ وتتابع الناس.

قال القاسم بن محمد: وتكلم المثنى بن حارثة، فقال: يا أيها الناس، لا يَعْظُمَنَّ عليكم هذا الوجه، فإنا قد تبجحنا ريف فارس، وغلبناهم على خير شِقَّيْ السواد، وشاطرناهم ونلنا منهم، واجترأ من قبلنا عليهم، ولها إن شاء الله ما بعدها.

---

(١) الخبر في الطبري ج ٣ ص ٤٤٤ ـ ٤٥٤، والأخبار الطوال للدينوري ص ١١٣، والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٩٧ ـ ٣٠١، وكنز الدرر للدواداري ج٣ ص١٩٣ ـ ١٩٤، ونهاية الأرب للنويري ج ٢ ص١٧٩ ـ ١٨٢، والبداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص ٢٦ ـ ٢٧.

وقام عمر ـ رضي الله عنه ـ في الناس، وقال: إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك، أين المهاجرون عن موعود الله ـ عز وجل ـ سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب بأن يورثكموها، فإنه قال: ﴿ليظهره على الدين كله﴾، والله مظهر دينه، ومعز ناصره، ومولى أهله مواريث الأمم. أين عباد الله الصالحون!

فلما[1] اجتمع ذلك البعث، وكان أولهم ـ كما تقدم ـ أبو عبيد، ثم ثني سعد بن عبيد أو سليط بن قيس، قيل لعمر ـ رحمه الله: أمِّر عليهم رجلاً من السابقين من المهاجرين والأنصار. فقال: لا والله لا أفعل، إن الله ـ تعالى ـ إنما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو، فإذا جبنتم وكرهتم اللقاء، فأولوا الرياسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب الدعاء، لا والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتداباً. ثم دعا أبا عبيد، ودعا سليطاً وسعداً، فقال لهما: أما إنكما لو سبقتماه لوليتكما ولأدركتكما بها إلى مالكما من القدمة. فأمّر أبا عبيد على الجيش، وقال له: اسمع من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأشركهم في الأمر، ولا تجيبن مسرعاً حتى تتبين، فإنها الحرب، لا يصلحها إلا الرجل المكّيث[2] الذي يعرف الفرصة والكف، ثم قال له: إنه لم يمنعني أن أؤمر سليطا إلا تسرعه إلى الحرب، وفي التسرع إليها إلا عن بيان ضياع، والله لولا ذلك لأمّرته، ولكن الحرب لا يصلحها إلا المكّيث.

ويروى أن عمر انتخب من أهل المدينة ومن حولها ألف رجل[3]، أمّر عليهم أبا عبيد، فقيل له: استعمل من أصحاب رسول الله ﷺ فقال: لاها الله ذا يا أصحاب النبي، لا أندبكم فتبطئون، وينتدب غيركم فأؤمركم عليهم إنما فضلتم بتسرعكم، فإن نكلتم فضلوكم.

---

(١) راجع: مروج الذهب للمسعودي ج١ ص ٥٢٣ ـ ٥٢٤.

(٢) المكيث: الرزين لا يعجل.

(٣) في الأخبار الطوال: خمسة آلاف رجل.

وعجل عمر ـ رضي الله عنه ـ المثنى، وقال: النجاء حتى يقدم عليك أصحابك. فخرج المثنى، وقدم الحيرة في عشر، ولحقه أبو عبيد بعد شهر.

وفي كتاب المدائني أن تحرك عمر لهذا البعث إنما كان بكتاب المثنى إليه، يستمده ويحرضه على أرض فارس، فذكر باسناد له إلى جماعة من أهل العلم يزيد بعضهم على بعض: أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال حين ولي: والله لأعزلن خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة ليعلما أن الله إنما ينصر دينه وليس ينصر اياهما، فكتب إليه المثنى وهو بالحيرة: أنا بأرض فارس، وقد عرفناهم وغازيناهم وغلبناهم على بعض ما في أيديهم، ومعي رجال من قومي لهم صلاح ونجدة وصدق بلاء عند الناس وجرأة على البلاد، فإن رميتنا بجماعة من قبلك رجوت أن يفتح الله عليهم، قالوا: ولم تكن لعمر ـ رحمه الله ـ همة حين قام بأمر المسلمين إلا الروم وفارس، فلما أتاه كتاب المثنى بن حارثة خطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وحثهم على الجهاد، ورغبهم فيه، وأنبأهم بما أعد الله للمجاهدين في سبيله، وقال: أنتم بين فتح عاجل وذخر آجل، وقد أصبحتم بالحجاز بغير دار مقام، وقد وعدكم الله كنوز كسرى وقيصر، وأنزل على نبيه ﷺ **﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾** (٢٨، الفتح) وقال: **﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾** (٣٣ :التوبة)، فانهضوا لجهاد عدوكم من أهل فارس، فإن لكم بها إخوانا ليسوا مثلكم في السابقة، وقد لقوهم وقاتلوهم فاستعدوا للمسير إليهم رحمكم الله **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾** (٦٠ : الأنفال)، ولا تركنوا إلى الدنيا، واستعينوا بالله واصبروا.

فتثاقل الناس حين ذكر فارس. فقال عمر: **﴿ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض﴾** (٣٨ : التوبة)، فقام أبو عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة الثقفي، فقال: أنا أول من انتدب، ثم قام سليط ابن قيس بن عمرو فقال: يا أمير المؤمنين، أنا ثان، ثم قام رهط من الأنصار، فسمي

منهم نفراً. قال: ثم تتابع الناس وكثروا وقالوا: يا أمير المؤمنين، أمر علينا رجلا، فقال: أؤمر عليكم أول من انتدب، فاستعمل عليهم أبا عبيد، وقال: لم يمنعني من استعمال سليط بن قيس، وهو من أهل بدر إلا عجلة فيه، فخشيت أن يلقى المسلمين ملقى يهلكون فيه، وكان فيمن انتدب سعد بن عبيد القاري، ففر يوم الجسر، فكان بعد ذلك يقول: إن الله اعتدّ عليّ بغرة في أرض فارس، فعسى أن يعيد لي فيها كرة.

وفي حديث غير المدائني: فكانت الوجوه تعرض عليه بعد ذلك فيأبى إلا العراق، ويقول: إن الله اعتد عليّ فيها بغرة، وذكر نحو ما تقدم.

واختلف ما ذكره سيف فيمن كان إليه أمر فارس عند قدوم أبي عبيد بحسب اختلاف أهل الأخبار عليه في ذلك.

فمما ذكره أن بوران بنت كسرى كانت ـ كلما اختلف الناس بالمدائن ـ عدلا بينهم حتى يصطلحوا، فلما قتل الفرخزاد وقدم رستم فقتل أرزميدخت، كانت بوران عدلا إلى أن استخرجوا يزدجرد.

قال: فقدم أبو عبيد والعدل بوران، وصاحب الحرب رستم.

وذكر من طريق آخر: أن بوران هي التي استحثت رستم في السير، وكان على فرج خراسان، لما قتل الفرخزاد، فأقبل رستم في الناس حتى نزل المدائن، لا يلقى جيشا لأرزميدخت إلا هزمه، واقتتلوا بالمدائن، فهزمهم سياوخش وهو قاتل الفرخزاد، وحصر أرزميدخت ثم افتتح المدائن، فقتل سياوخش، وفقأ عين أرزميدخت، ونصب بوران، فدعته إلى القيام بأمر فارس، وشكت إليه تضعضعهم وإدبار أمرهم، على أن تملكه عشر حجج، ثم يكون الملك في آل كسرى إن وجدوا من غلمانهم أحداً، وإلا ففي نسائهم. فقال رستم: أما أنا فسامع مطيع، غير طالب عوضاً ولا ثواباً، فإن شرفتموني وصنعتم إليّ شيئا فأنتم أولياء ما صنعتم، إنما أنا سهمكم وطوع أيديكم. فقالت بوران: أغد عليّ، فغدا عليها، ودعت مرازبة فارس، فكتبت له: بأنك // على حرب فارس، ليس عليك إلا الله ١٨٢ ب

عن رضاً منا وتسليم لحكمك، وحكمك جائز فيهم ما كان حكمك في منع أرضهم وجمعهم عن فرقتهم، وتوجته وأمرت أهل فارس أن يسمعوا له ويطيعوا، ودانت له فارس بعد قدوم أبي عبيد.

فهذا ما ذكره سيف في شأن مملكة فارس إذ ذاك.

قال: وكتب رستم إلى دهاقنة السواد أن يثوروا بالمسلمين، ودس إلى كل رستاق رجلاً ليثور بأهله، فبعث جابان إلى البهقباذ الأسفل، وبعث نرسي إلى كسكر، وبعث المصادمة إلى المثني، وبلغ المثنى ذلك، فضم إليه مسالحه وحذر، وعجل جابان فنزل النمارق، وتوالوا على الخروج، فخرج نرسي، فنزل زندورد، وثار أهل الرساتيق من أعلى الفرات إلى أسفله، وخرج المثنى بن حارثة في جماعة حتى ينزل خفان، لئلا يؤتى من خلفه بشيء يكرهه، فأقام حتى قدم عليه أبو عبيد.

وأما المدائني فلم يعرض لما عرض له سيف في شأن مملكة فارس، بل بنى على أن يزدجرد هو كان الملك عليهم حينئذ، فإنه قال بعقب ما نسب إليه قبل: وبلغ يزدجرد أن ملك العرب يسير إليه، فشاور أهل بيته ومرازبته، فقالوا له: وجه إلى أطرافك فحصنها وأخرج من فيها من العرب، فوجه جالينوس ورستم وليس بالادزي ومرادن شاه ونرسي ابن خال ابرويز، وكل واحد في خمسة آلاف، وأمرهم أن ينزلوا متفرقين، ويكون بعضهم قريباً من بعض كل رجل في أصحابه، ويمد بعضهم بعضاً إن احتاجوا إلى ذلك، وأمرهم أن يقتلوا من قدروا عليه من العرب، فخرجوا والمثنى بالحيرة، فبلغه مسيرهم، فخرج لينزل على البلاد، فلقي على قنطرة النهرين خرزاذبه فقتله، ومضى المثنى فنزل من وراء أليس، ونزل العجم متفرقين، فنزل نرسي كسكر، ونزل مردان شاه فيما بين سورا وقبين، ونزل رستم بابل، ونزل جالينوس بارسمي، ووجه جالينوس جابان في ألف إلى أليس، ووجه أزاذبه إلى الحيرة في ألف، وفصل أبو عبيد بن مسعود من المدينة في ألف وثمانمائة من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فيهم من ثقيف

أربعمائة معهم أبو محجن ـ كان مع خالد بن الوليد بالشام فلما أتتهم وفاة أبي بكر رجع إلى المدينة، فخرج مع أبي عبيد ـ وانضم إلى أبي عبيد في الطريق مائة من بني أسد، ومائتان من طيء، ومائة من بني ذبيان بن بغيض، ومائة من بني عبس، معهم خمسة وعشرون فرسا، وخرج المثنى بن حارثة في ثلاثمائة وسبعين من بكر بن وائل، وثلاثمائة من بني تميم حنظلة وعمرو وسعد والرباب، فتلقى أبا عبيد ثم أقبل معه حتى نزل عسكره الذي كان فيه، ووضع عيوناً على المسلحة التي بأليس فأتوه فأعلموه فأخبر أبا عبيد، فقال له: إن أذنت لي سرت إليهم، فأذن له وضم إليه ابنه جبر بن أبي عبيد، وقال لابنه جبر: لا تخالفه، فسار المثنى فصبح أليس وهم آمنون فلم يكن بينهم كبير قتال حتى انهزموا، فأصاب المسلمون سلاحاً ومتاعاً ليس بالكثير، ورجع إلى أبي عبيد، ونزل جابان فيما بين الحيرة والقادسية، وكتب أبو عبيد إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ بخبر أليس، فسر المسلمون ونشطوا، وخرج قوم من المدينة إلى أبي عبيد، وتقدم أبو عبيد فلقي جابان فيما بين الحيرة والقادسية، وجابان في ألفين معه ازاذبه، فلم يطل القتال بينهم حتى انهزم المشركون.

وفيما ذكره سيف من الأحاديث أن أبا عبيد لما نزل خفان مع المثنى أقام بها أياما ليستجم أصحابه، وقد اجتمع إلى جابان بشر كثير، وخرج أبو عبيد بعدما جم الناس وطهرهم، وجعل المثنى على الخيل، فنزلوا على جابان بالنمارق فاقتتلوا قتالاً شديداً، فهزم الله أهل فارس، وأسر جابان، أسره مطر بن فضة أحد بني تيم الله، وأسر مردان شاه، أسره أكتل بن شماخ العكلي، فأما أكتل فإنه ضرب عنق مردان شاه، وذلك أنه سأله: ما اسمك؟ ـ فيما ذكره المدائني ـ فقال له: مردان شاه. قال: وما مردان شاه؟ قال: ملك الرجال. قال: لا جرم والله لأقتلنك، فقتله. وأما مطر بن فضة فإن جابان خدعه وهو لا يعرفه، وكان جابان شيخاً كبيراً، فقال لمطر: إنكم معشر العرب أهل وفاء، فهل لك أن تؤمنني واعطيك غلامين أمردين خفيفين في عملك وكذا وكذا، قال: نعم، قال: فأدخلني على ملككم حتى يكون ذلك بمشهد منه، فأدخله على أبي عبيد، فتم له

على ذلك وأجاز ذلك أبو عبيد، فعرفه ناس فقالوا لأبي عبيد: هذا الملك جابان، وهو الذي لقينا بهذا الجمع، فقال أبو عبيد: فما تأمرونني، أيؤمنه صاحبكم وأقتله أنا، معاذ الله من ذلك.

وفي رواية: إني أخاف الله إن قتلته، وقد أمنه رجل من المسلمين في الذمة والتواد والتناصر كالجسد، ما لزم بعضهم لزم كلهم. فقالوا: إنه الملك، قال: وإن كان لا اعذر به، فتركه، وقال له: اذهب حيث شئت.

وهرب أصحاب جابان حين أسر إلى كسكر ونرسي بأسفلها. وكانت كسكر قطيعة له[1]، وكان النرسيان له، يحميه لا يأكله بشر، إلا ملك فارس، أو من أكرموه فيه بشيء، ولا يغرسه غيرهم، فكان ذلك مذكوراً من فعلهم في الناس، وأن ثمرهم هذا حمي، فقال رستم وبوران لنرسي: اشخص إلى قطيعتك فاحمها من عدوك وعدونا وكونن رجلا، فلما انهزم الناس يوم النمارق، ووجهت الفالة نحو نرسي - ونرسي في عسكره - نادى أبو عبيد بالرحيل، وقال للمجردة: اتبعوهم حتى تدخلوهم عسكر نرسي، أو تبيدوهم فيما بين النمارق إلى بارق دورني[2].

ومضى أبو عبيد حين ارتحل من النمارق حتى ينزل على نرسي بكيسكر، والمثنى في تعبئته التي قاتل فيها جابان، وقد أتى الخبر رستم وبوران بهزيمة جابان، فبعثوا إليه الجالينوس، وبلغ ذلك نرسي وأهل كسكر وباروسما ونهر جوبر والزوابي[3]، فرجوا أن يلحق قبل الوقعة، وعاجلهم[4] أبو عبيد، فالتقوا أسفل من كسكر بمكان يدعى السقاطية، فاقتتلوا في صحار ملس هناك قتالاً شديداً، ثم إن الله - عز وجل - هزم فارس، وهرب نرسي، وغلب المسملون على

(١) كسكر: بالفتح - بين الكوفة والبصرة - ياقوت. معجم البلدان ج ٤ ص: ٤٦١.

(٢) بارق: ماء بالعراق من أعمال الكوفة - ياقوت. نفسه ج ١ ص ٣١٩أ.

(٣) الزوابي: مجموعة أنهار بالعراق - ياقوت. نفسه ج ٣ ص ١٥٥ - ونهر جوبر: نسبة الى قرية بغوطة دمشق - نفسه ج ٢ ص ١٧٦.

(٤) عاجلهم: زاولهم فغلبهم.

عسكره وأرضه، وأخذ أبو عبيد ما حوى معسكرهم، وجمع الغنائم، فرأى من الأطعمة شيئاً عظيماً، فبعث فيمن يليه من العرب فانتفلوا ما شاءوا، لا يؤثرون ١٨٣ أ / / فيه، وأخذت خزائن نرسي، فلم يكونوا بشيء مما خزن أفرح منهم بالنرسيان، لأنه كان يحميه ويمالئه عليه ملوكهم، فاقتسمه المسلمون، فجعلوا يطعمونه الفلاحين.

قال المدائني: وسار أبو عبيد إلى الجالينوس فلقيه بباروسما فهزمه، فلحق بالمدائن، وبلغ الذين كانوا ببابل هزيمة نرسي وجالينوس، فرجعوا إلى المدائن، ودخل أبو عبيد باروسما، فصالحه ابن الأندرزعر عن كل رأس بأربعة دراهم، وهيئوا له طعاما فأتوه به، فقال: لا آكل إلا ما يأكل مثله المسلمون. فقالوا: كل، فكل أصحابك يأكل مثل ما تؤتون به، فأكل، فلما راح المسلمون سألهم عن طعامهم فأخبروه، فإذا الذي أكلوا مثل طعامه.

وفي بعض ما أورده سيف من الأخبار أن ابن الأندرزعر لما أعلم أبا عبيد بالطعام الذي صنعوا له، وأتوا به قال لهم: هل أكرمتم الجند بمثله وقريتموهم؟ قالوا: لا، قال: فردوه فلا حاجة لنا فيه، بئس المرء أبو عبيد إن صحب قوما من بلادهم اهراقوا دماءهم دونه، أولم يهريقوها فاستأثر عليهم بشيء يصيبه! لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم إلا مثل ما يأكل أوساطهم!

قال المدائني: وبعث أبو عبيد من باروسما المثنى بن حارثة إلى زندورد، وعاصم بن عمرو الأسدي إلى نهرجوير، وعروة بن زيد الخيل إلى الزوابي، فأما المثنى فإن أهل زندورد حاربوه فظفر بهم فقتل وسبي، وأما أهل الزوابي ونهر جوبر فصالحوا على صلح باروسما، فبعث أبو عبيد بخمس ما أصاب من أليس وخفان وكسكر وزندورد، وما صالح عليه إلى عمر بن الخطاب - رضي‌الله عنه - ونزل أبو عبيد والمسلمون الحيرة.

وذكر سيف - أيضا - أنهم بعثوا بخمس ما أصابوا من النرسيان إلى عمر - رحمه الله - وكتبوا إليه: إن الله - عز وجل - أطعمنا مطاعم كانت

الأكاسرة يحمونها الناس، فأحببنا أن تروها لتذكروا أنعم الله وأفضاله.

وقال في ذلك عاصم بن عمرو:

ضربنا حماة النِّرْسيانِ بكسْكرٍ غداة لقيناهم بِبيضٍ بواتر
وفزنا على الأيام والحرب لاقح بِجُرْدٍ حسانٍ أو برودٍ غرائر
وظلت فلال النرسيان وتمره مباحا لمن بين الدَّبا والأصافرِ
أبحنا حمى قوم وكان حماهم حراما على من رامه بالعساكر[1]

(الطويل)

وقال - أيضاً - يذكر ملتقى القوم بالنمارق:

لعمري وما عمري عليَّ بهيِّنٍ لقد صُبِّحَتْ بالخزي أهلُ النمارقِ
نجوسهُمُ ما بين ألْيَسَ غدوةً وبين قديسٍ في طريق البرارق
بأيدي رجال هاجروا نحو ربِّهمْ يجوسونهم ما بين درْتَا[2] وبارق[3]

(الطويل)

وبين الرواة فيما تقدم من الأخبار اختلاف في أسماء الأعاجم والأماكن، وفي التقديم والتأخير لم أر لذكر أكثر ذلك وجها إلا ما كان منه زائدا في الإمتاع ومحسنا انتظام الحديث.

ومما ذكروا أن عمر - رضي الله عنه - تقدم به إلى أبي عبيد حين بعثه في هذا الوجه وأوصاه بجنده، أن قال له: إنَّكَ تقدم على أرض المكْر والخديعة والخيانة والجَبريَّة، وتقدم على قوم جرءوا على الشرّ فعملوه، وتناسوا الخير فجهلوه، فانظر كيف تكون! واخُزن لسانك، ولا يَفْشُوَنَّ لك سِرٌّ؛ فإن صاحب السرّ ما ضبطه متحصّن لا يؤتى من وجْه يكرهه، وإذا ضيّعه كان بمَضْيَعةٍ.

---

(١) الأبيات في ياقوت. معجم البلدان ج ٥ ص ٢٨٠ - ٢٨١.

(٢) في الأصول: «درنى».

(٣) الأبيات في الطبري ج ٣ ص ٤٥٠ - ٤٥١، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٢٧.

حديث وقعة الجسر [1]

ويقال لها: وقعة القس، قس الناطف [2]، ويقال لها المروحة.

وقد جمعت الذي أوردت هنا من الحديث عن هذه الوقعة من أحاديث متفرقة أوردها الخطيب أبو القاسم - رحمه الله - في كتابه عن سيف بن عمرو وغيره، يزيد بعضها على بعض ومما وقع إليّ - أيضاً - عن أبي الحسن المدائني في فتوح العراق، وحديثه أطول افتضاضا وأشد اتصالا، وقد جعلت هذه الأحاديث كلها على اختلافها حديثا واحداً، إلا أن يعرض فيها ما يتناقض، فإما أن أسقط - حينئذ - أحد النقيضين بعد الإجتهاد فيه وفي الذي أوثر إثباته منهما، وإما أن أذكرهما معا وأبين ذلك، وأنسبه إلى من وقع ذكره في حديثه، وكثيراً ما مضى عملي في هذا الكتاب على هذا النحو، وعليه يستمر - إن شاء الله - قصداً للتهذيب وحرصاً على الجمع بين الإمتاع والإيجاز بحول الله سبحانه.

وأفتتح بما افتتح به المدائني هذه القصة للذي ذكرته من حسن اتصال حديثه.

قال: ولما فتح أبو عبيد ما فتح، وهزم تلك الجنود، ونزل الحيرة، ورجعت المرازبة إلى يزدجرد منهزمين، شتمهم، وأقصاهم، ودعا بهمن ذا الحاجب فعقد

(١) الخبر منقول عن الطبري ج ٣ ص ٤٥٤ - ٤٥٩، وهو في فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٠٨ - ٢٠٩، والبدء والتاريخ للبلخي ج ٥ ص ١٦٩، والأخبار الطوال للدينوري ص ١١٣ - ١١٤، ومروج الذهب للمسعودي ج ١ ص ٥٢٤، وكتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي ج ١ ص ١٦٨ - ١٧٤، والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٣٠١ - ٣٠٣، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ١٨٢ - ١٨٤، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٢٧ - ٢٩.

(٢) قس الناطف: موضع قريب من الكوفة، على شاطىء الفرات الشرقي - ياقوت. معجم البلدان ج ٤ ص ٣٤٩.

له على اثني عشر ألفاً، وقال له: قدم هؤلاء الذين انهزموا، فإن انهزموا فاضرب أعناقهم، ودفع إليه درفش كابيان، راية كانت لكسرى فكانوا يتيمنون بها، وكانت من جلود النمور، عرضها ثمانية أذرع في طول اثني عشر ذراعاً، وأعطاه سلاحاً كثيراً، وحمل معه من أداة القتال وآلة الحرب أوقاراً من الإبل، ودفع إليه الفيل الأبيض، فخرج في عدة لم ير مثلها.

وفي كتاب سيف أن رستم هو صاحب ذلك، وأنه الذي رجع إليه الجالينوس ومن أفلت من جنده بناء على ما قدمنا من الإختلاف في ملك فارس إلى من كان حينئذ. قال: فقال رستم: أي العجم أشد على العرب فيما ترون؟ قالوا: بهمن جاذويه ـ وهو ذو الحاجب ـ فوجهه ومعه الفيلة، ورد جالينوس معه. وذكر بعض ما تقدم.

وبلغ المسلمون[1] مسيرهم، فقال المثنى لأبي عبيد: إنك لم تلق مثل هذا الجمع ولا مثل هذه العدة، ولمثل ما أتوك به روعة لا تثبت لها القلوب، فارتحل من منزلك هذا حتى نعبر الفرات ونقطع الجسر وتصير الفرات بينك وبينهم فتراهم، فإن عبروا إليك قاتلتهم، واستعنت الله، قال: إني لأرى هذا وهناً، ثم أخذ برأي المثنى فعبر الفرات ونزل المروحة وقطع الجسر، وأقبل بهمن فنزل قس الناطف ـ بينه وبين أبي عبيد الفرات ـ وأرسل إلى أبي عبيد: إما أن تعبر إلينا، وإما أن نعبر إليك. فقال أبو عبيد: نعبر إليكم. فقال المثنى: أُذكرك الله والإسلام أن تعبر إليهم، فحلف ليعْبُرَنَّ إليهم، ودعا ابن صلوبا فعقد له الجسر
١٨٣ ب فقال سليط بن قيس الأنصاري: يا أبا عبيد أُذكرك الله ألا تركت للمسلمين مجالاً، فإن العرب من شأنها أن تفر ثم تكر، فاقطع هذا الجسر وتحول عن منزلك وانزل أدنى منزل من البر وتكتب إلى أمير المؤمنين فتعلمه ما قد أجلبوا به علينا، ونقيم فإذا كثر عددنا وجاء مددنا رجعنا إليهم وبنا قوة، وأرجو أن يظهرنا الله عليهم. قال: جبنت والله يا سليط. قال: والله إني لأشد منك بأساً،

---

(١) في الأصول: وبلغ المسلمين.

وأشجع منك قلباً، ثم تقدم فعبر، فقال المثنى لأبي عبيد: والله ما جبن، ولكن أشار بالرأي، وأنا أعلم بقتال هؤلاء منك، لئن عبرت إليهم في ضيق هذا المطرد ليجزرن المسلمين هذا العدو. وقال: والله لأعبرن إليهم، وكان رسول بهمن قد قال: إن أهل فارس قد عيروهم - يعني المسلمين - بالجبن عن العبور إليهم، فازداد أبو عبيد مَحَكاً[1]، فقال المثنى للناس: اجعلوا جبنها بي ولا تعبروا فقالوا: كيف نصنع وقد عبر أميرنا وسليط في الأنصار وعبر الناس فقال المثنى: إني لأرى ما تصنعون ولولا أن خذلانكم يقبح ولا أراه يحل ما صحبتكم، ثم عبر، فالتقى الناس في موضع ضيق المطرد.

قال: وكانت دَوْمة امرأة أبي عبيد رأت وهي بالطائف[2] كأن رجلا نزل من السماء معه إناء فيه شراب، فشرب منه أبو عبيد ورجال من أهل بيته يأتي ذكرهم، فقصتها على أبي عبيد، فقال: هذه الشهادة إن شاء الله.

فلما التقوا قال أبو عبيد: إن قتلت فأميركم عبد الله بن مسعود بن عمرو - يعني أخاه - فإن قتل فأميركم جبر بن أبي عبيد - يعني ولده - فإن قتل فأميركم حبيب بن ربيعة بن عمرو بن عمير، فإن قتل فأميركم أبو الحكم بن حبيب بن ربيعة بن عمرو بن عمير، فإن قتل فأميركم أبو قيس بن حبيب - وهؤلاء الإخوة الثلاثة بنو عمه - حتى عدّ كل من شرب الإناء، ثم قال: فإن قتل فأميركم المثنى بن حارثة، وسير على ميمنته سليط بن قيس، وعلى ميسرته المثنى، وقدم ذو الحاجب جالينوس معه الفيل الأبيض وراية كسرى وقد أطافت به حماة المشركين، معلمين أمامهم رجال يمشون على العمد، فكانت بين الناس مشاولة، يخرج العشرة والعشرون فيقتتلون ملياً من النهار، ثم حمل المشركون على المسلمين فنضحوهم بالنبل، وجثت رجالهم فاستقبلوا بالرماح، ولم يقدروا من المسلمين على شيء فانصرفوا عنهم، ثم حملوا عليهم الثانية ففعلوا مثلها، ثم انصرفوا، وحملوا عليهم الثالثة فصبروا، فلما رأوا أنهم لا يقدرون على ما يريدون

---

(١) محكا: أي لجاجا.

(٢) في الطبري: وهي بالمروحة.

من المسلمين جاءوا بالنشاب فوضعوه كأنه آكام وتفرقوا ثلاث فرق، فقصدت فرقة لأبي عبيد في القلب، وفرقة لسليط في الميمنة، وفرقة للمثنى في الميسرة، ثم صاروا كراديس، فجعل الكردوس يمر بهم معرضاً بالمسلمين ويرميهم حتى كثرت الجراحات فيهم، وعضلت الأرض بأهلها، وأقبلت الفيلة عليها النخل، والخيول عليها التجافيف[1]، والفرسان عليهم الشُّعر[2]، فلما نظرت إلى ذلك خيول المسلمين رأت شيئاً منكراً لم تكن ترى مثله، فجعل المسلمون إذا حملوا عليهم لم تقدم خيولهم، وإذا حملوا على المسلمين بالفيلة والجلاجل فرقت بين كراديسهم، لا تقوى لهم الخيل إلا على نفار، وخزقهم[3] الفرس بالنشاب، وعض المسلمين[4] الألم، وجعلوا لا يصلون إليهم، فنادى سليط بن قيس: يا أبا عبيد أرأيي أم رأيك أما والله لتعلمن أنك قد أضررت برأيك نفسك والمسلمين، ثم قال: يا معشر المسلمين علام نستهدف لهؤلاء المشركين من أراد الجنة فليحمل معي، فحمل في جماعة أكثرهم من الأنصار، فقتل وقتلوا، وترجل أبو عبيد وترجل الناس ومشوا إليهم، فتكافحوا وصافحوهم بالسيوف وحمي البأس حتى كثرت القتلى من الطائفتين جميعاً، وجعلت الفيلة لا تحمل على جماعة إلا دفعتهم، فنادى أبو عبيد: احتوشوا[5] الفيلة فقطعوا بُطُنَها[6] واقلبوا عنها أهلَها؛ وواثب هو الفيل الأبيض، فتعلق ببِطانه فقطعه، ووقع الذين عليه، وفعل القوم مثل ذلك؛ فما تركوا فيلا إلا حطّوا رحله وقتلوا أصحابه، وقال أبو عبيد: ماهذه الدابة من مقتل؟ قالوا: بلى، مشفرها إن قطع، فضرب مشفره فقطعه وبرك عليه فاستدبره أبو محجن فضرب عرقوبيه فاستدار وسقط لجنبه، وتعاور أبا عبيد المشركون فقتلوه، وقيل: بل اتَّقاه الفيل بيده لم نفح مِشْفَره بالسيف

(١) التجافيف: من آلات الحرب، توضع على الفرس ويتقى بها كالدرع للانسان.

(٢) الشعر: جمع شعار، وهو جل الفرس.

(٣) خزقوهم: طعنوهم.

(٤) في الأصول: المسلمون.

(٥) يقال: احتوش القوم الصيد، إذا نفره بعضهم على بعض.

(٦) البطن: جمع بطان، وهو حزام القتب.

فأصابه بيده فوقع فخبطه الفيل وقام عليه، فلما بصر الناس بأبي عبيد تحت الفيل خشعت أنفس بعضهم، وأخذ اللواء الذي كان أمّره من بعده فقاتل الفيل حتى تنحى عن أبي عبيد فاجتره إلى المسلمين وأخذوا شلـوه [١] ، ثم تجرثم [٢] الفيل فاتقاه الفيل بيده دأب أبي عبيد، وخبطه الفيل، وقام عليه، وتتابع أمراء أبي عبيد الذين عهد إليهم بأخذ اللواء، فيقاتل حتى يموت، وصبر الناس حتى قتلوا، وصارت الراية إلى المثنى بن حارثة، فجاش بها ساعة ثم انهزم الناس وركبهم المشركون واقتطعوا زر بن خطم أو ابن حصن بن جوين الطائي في جماعة من المسلمين، فنادى زر: يا معشر المسلمين، أنا زر، إنه ليس بعار أن يقتل الرجل وهو مقبل على عدوه ومعه سيف يضرب به سبالهم وأنفهم، وإنما العار أن يقتل الرجل وهو غير مقبل على عدوه، فاثبتوا فرب قوم قد فروا ثم كروا ففتح الله عليهم، فثاب إليه ناس من أهل الحفاظ حتى صاروا نحواً من ثلاثمائة، وأحاط بهم المشركون حتى خافوا الهلاك، ونظر إليهم المثنى بن حارثة، فقال لناس من بكر بن وائل: أرى إخوانكم قد أحسنوا القتال وصبروا لعدوهم، فإن أمسكتم عنهم هلكوا، وإن كررتم رجوت أن تفرجوا عنهم وأن يكشف الله لهم السبيل إلى الجسر، فحمل على المشركين في سبعين من بكر بن وائل أصحاب خيل مقدحة، كان يعدها للطلب والغارة في بلاد العدو فقاتلهم حتى ارتفع عنهم المشركون وانضموا إلى إخوانهم من المسلمين، ونظر عروة بن زيد الخيل وقد أحيط به وهو في عشرين فرسا ـ إلى خيل المسلمين تطارد المشركين فقال لمن
١٨٤ أ معه: أرى في // المسلمين بقية، فاحملوا على من بيننا وبين أصحابنا، فحملوا وأفرجوا لهم حتى وصلوا إلى المسلمين، وكان عروة يومئذ على فرس كميت أغر ذنوب، فأبلى أحسن بلاء، كان يشد عليه المنسر من مناسر العجم وهو وحده فإذا غشوه كر عليهم فيتصدعون حتى عرف مكانه، وتعجب الناس يومئذ من عروة لما رأوا من بلائه، فقال المثنى: إن البأس ليس له بمستنكر، ومضى الناس

---

(١) شلوه: جسده.

(٢) تجرثم: أمسك بمعظمه.

نحو الجسر، وحماهم المثنى وعروة بن زيد الخيل والكلح الضبي وعاصم بن عمرو الأسدي وعامر بن الصلت السلمى ونادى المثَنى: أيها الناس، أنا دونكم فاعبروا على هيئتكم ولا تدهشوا فإنا لن نزول حتى نراكم من ذلك الجانب، ولا تفرقوا أنفسكم. فانتهى الناس إلى الجسر وقد سبق إليه عبد الله بن مرثد الثقفي أو غيره فقطعه وقال: قاتلوا عن دينكم، فخشع الناس واقتحموا الفرات فغرق من لم يصبروا، وأسرع المشركون فيمن صبروا، وأتاهم المثنى بن حارثة فأمر بالسفينة التي قطعت فوصلت بالجسر وعبر الناس، وقال المثنى للرجل الذي قطع الجسر: ما حملك على ما صنعت؟ قال: أردت أن يصبر الناس، ويقال إن سليط ابن قيس كان من آخر من قتل عند الجسر.

وأصيب يومئذ من المسلمين ألف وثمانمائة منهم ثلاثمائة من ثقيف فيهم ثمانون خاضباً، واستحر القتل يومئذ ببني عوف بن عقدة رهط أبي عبيد فابيد منهم: أبو عبيد وأمراؤه الذين أمّر، وغيرهم. ويقال: قتل يومئذ معه اثنان وعشرون رجلا ممن هاجر، وقتل من المشركين ألفان.

وقتل أكثر من ذلك فيما ذكره سيف، قال: خبط الفيل أبا عبيد، وقد أسرعت السيوف في أهل فارس، وأصيب منهم ستة آلاف في المعركة، ولم يبق إلا الهزيمة، فلما خبط أبو عبيد، وقام عليه الفيل جال المسلمون جولة، ثم تموا عليها، وركبهم أهل فارس.

وقال أبو عثمان النهدي: هلك يومئذ - يعني من المسلمين - أربعة آلاف بين قتيل وغريق، وهرب ألفان، وبقي ثلاثة آلاف.

ولما فرغ الناس بالعبور عبر المثنى وحمى جانبه، واضطرب عسكره ورماهم ذو الحاجب فلم يقدر عليهم، وقطع المسلمون الجسر بعد عبورهم، فعبره المشركون.

قالوا (١) : وخرج جابان، ومردانشاه في ألف من الأساورة منتخبين ليسبقوا

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٥٨ - ٤٥٩.

المسلمين إلى الطريق، وبلغ ذلك المثني، فاستخلف على الناس عاصم بن عمرو، وخرج يريدهما في جريدة خيل، فاعترضاه يظنانه هارباً، فأخذهما أسيرين فضرب أعناقهما، وقال: أنتما كذبتما أميرَنا واستفززتماه.

وخرج أهل أليس على أصحابها، فأخذوهم فجاءوا بهم إلى المثنى، فضرب أعناقهم، وعقد بذلك لأهل أليس ذمة ثم رجع إلى عسكره.

وقيل: بل لقيهم المثنى فقتل مردانشاه في المعركة وأسر جابان فضرب المثنى رقبته، وقد تقدم في ذكر ملتقى أبي عبيد بجابان بين الحيرة والقادسية أن أكتل ابن شماخ العكلي أسر مردانشاه ثم ضرب عنقه، وأسر مطر بن فضة جابان فخدعه وافتدي منه، وأحد الأمرين هو الصحيح في قتل مردانشاه، فالله أعلم.

وانهزم المشركون، ومضى المثنى إلى أليس، وتفرق بنو تميم إلى بواديهم، ومضى أهل المدينة وأسد وغطفان فنزلوا الثعلبية. وكان لعروة بن زيد الخيل من حسن الغناء في يوم الجسر ما تقدم ذكره، فقال له المثنى: يا عروة، أما والله لو أن معي مثلك ألف فارس من العرب ما تهيبت أن أصبح ابن كسرى في مدائنه وما كنت أكره أن ألقي مثل هذا الجمع الذي فل المسلمين مصحرا ولرجوت أن يظفرني الله بهم، فهل لك في المقام معي لا أوثر عليك نفسي ولا أحداً من قومي؟ قال: لا، إني كنت مع هذا الرجل ـ يعني أبا عبيد ـ وقد أصيب، فأرجع إلى عمر فيرى رأيه. فلما نزل الناس الثعلبية سألوا عروة أن يأتي عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بكتابهم، فكتبوا إليه: إنا لقينا عدو الإسلام من أهل فارس بمكان يقال له قس الناطف فقتل أميرنا أبو عبيد وأمراء أمّرهم أبو عبيد، وسليط ابن قيس ورجال من المسلمين منهم من تعرف، ومنهم من تنكر، وتولى أمر الناس المثنى بن حارثة أخو بني شيبان فحماهم في فوارس ـ جزاهم الله عن الإسلام خيراً ـ فكتبنا إليك وقد نزلنا الثعلبية فرارا من الزحف لا نرى إلا أنّا قد هلكنا، وقد بعثنا إليك فارس المسلمين عروة يخبرك عنا ويأتينا بأمرك، فلما قرأ عمر الكتاب فانتهى إلى قوله: منهم من تعرف ومنهم من تنكر بكى وقال:

ما ضر قوماً عرفهم الله أن ينكرهم عمر، لكن الله لا يخفى عليه من عباده المحسنون، يا عروة ارجع إليهم فأعلمهم أنهم ليسوابفرار، وإنما انحازوا إليّ، وأنا لهم فئة، وسيفتح الله عليهم تلك البلاد إن شاء الله، يرحم الله أبا عبيد لو انحاز إلينا واعتصم بالحيف لكنا له فئة.

وكتب عمر مع عروة إلى المثنى بن حارثة: أما بعد، فإن الله كتب القتل على قوم فلم يكن مماتهم ليكون إلا قتلاً، وكتب على قوم الموت فهم يموتون موتاً، فطوبى لمن قتل في سبيل الله محتسبا نفسه صابراً، وقد بلغني عنك ما كنت أحب أن تكون عليه، فالزم مكانك الذي أنت به، وادع من حولك من العرب، ولا تعجل إلى قتال إلا أن تُقَاتَل، أو ترى فرصة حتى تأتيك أمداد المسلمين، وَكأنْ قد أتتك على الصعبة والذلول.

فقدم عروة بن زيد على المثنى بكتاب عمر، ورجع أهل الحجاز وأسد وغطفان إلى بلادهم، وأقام المثنى حتى قدمت الأمداد.

ويقال: إن أول خبر تحدث به عن أهل الجسر بالمدينة أن رجلا قدمها من الطائف فجلس إلى حَذَّاء فقال: مالي لا أسمع أهل المدينة يبكون قتلاهم؟ فقال له الحذاء: ومن قتل؟ قال:

قتل أبو عبيد بن مسعود، وسليط بن قيس، فأخذ الحذاء بتلابيبه حتى أتى به عمر فأخبره بما قال، فقال له عمر: ما تقول ويلك! قال: يا أمير المؤمنين إنّا منذ ليال بفناء من أفنية الطائف إذ سمعنا أصوات نساءٍ من ناحية باب شهار يقلن: يا أبا عبيداه، ويا سليطاه، وسمعنا قائلاً يقول:

إن بالجسر فتيةً سعداءَ   صُبُراً صادقين يوم اللقاءِ
كم تَقِيٍّ مجاهدٍ كان فيهم   خاشعَ القلب مستجابَ الدعاءِ
يَجْأَرُ الليلَ كلَّه بعويلٍ   ونحيب وزفرة وبكاءِ
(الخفيف)

قال[1] : فلما انقضى حديثه حتى قدم عبد الله بن زيد الخطمي، وكان أول
١٨٤ ب من // قدم بخبر الجسر ممن شهده فمر بباب حجر عائشة، ويقال: أتى عمر وهو على المنبر فلما دخل المسجد ورآه عمر قال: ما عندك يا ابن زيد؟ قال: أتاك الخبر يا أمير المؤمنين، ثم صعد إليه فأخبره، فقالت عائشة: ما رأينا رجلاً حضر أمراً فحدث عنه كان أثبتَ حديثاً من عبد الله بن زيد ولا أخفي فزعا.

ولما قدم أهل المدينة المدينة وأخبروا عمن سار منهم إلى البادية استحياءً من الهزيمة، اشتد ذلك على عمر - رحمه الله - فرق للناس ورحمهم، وقال: اللهمّ إن كلّ مسلم في حلّ منـي، أنا فئة كلّ مسلم، من لقي العدو ففظع بشيء من أمره فأنا له فئة؛ يرحم الله أبا عبيد، لو كان انحاز إليّ لكنت له فئة.

وكان معاذ القارىء ممن شهدها وفر يومئذ، وكان يصلي بالناس في شهر رمضان على عهد عمر، فكان بعد إذا قرأ: **﴿ومَنْ يُوَلِّهم يومئذ دُبُرَهُ إلا متحرِّفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله﴾** (١٦: الأنفال)، خنقته العبرة وبكى، فكان عمر يقول: أنا لكم فئة.

وكان عمر - رضي الله عنه - قد رأى في النوم أن أبا عبيد وأصحابه انتهوا[2] إلى ضرس من الحيرة فتحيروا ولم يجدوا مخرجا، فرجعوا فلم يجدوا طريقاً، فرفعوا إلى السماء، فقال عمر: هذه شهادة، فليت شعري ما فعل عدوهم؟ فكان يتوقع الخبر حتى قدم عبد الله بن زيد الخطمي فأخبره، فبكى وقال: ما وجهت أحداً وجهاً أكْرَهَ إليَّ من الوجه الذي توجه إليه أبو عبيد.

وقال أبو محجن بن حبيب بن عمرو بن عبيد يرثي أبا عبيد ومن أصيب معه، وهو ابن عم أبي عبيد وأخو بني حبيب الثلاثة المقتولين معه من أمرائه:

أَنَّـى تَهَـدَّتْ نحونـا أم يـوسُـفِ ... ومِنْ دون مَسْراها فيافٍ مَجَاهـلُ
إلى فتيـةٍ بالطَّفِّ نِيلَـتْ سَـرَاتُهـم ... وغُـرِّيَ أفـراسٌ بها ورواحـلُ
وأضحى بَنُو عَمْرو لدَى الجسْرِ منهمُ ... الى جانِب الأبيـات حَـزْمٌ ونـابـلُ

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٥٩.
(٢) في الأصل: أنهوا.

وأضحى أبو جَبْر خلا ببيوته ... بما كان تغدوه الضعاف الأرامل
ألا قد علَتْ قلبي الهمومُ الشواغلُ ... وراجَعَت النفسَ الأمورُ القواتلُ
سيعلم أهلُ الغيِّ كيف عزيمتي ... ويعلم وُدَّادي الذين أواكل
غناي وأخذي بالذي أنا أهْلُهُ ... اذا نَزَلَتْ بي المعضلاتُ العضائل
فما رُمْتُ حتى خرَّقوا برماحهم ... ثيابي وجادَتْ بالدماء الأباجلُ
وما رُمْتُ حتى كنت آخرَ راجع ... وصُرِّعَ حولي الصالحون الأماثلُ
وقد غادروني في مَكَرِّ جيادِهمْ ... كأنِّي غادتني من الراح شامل
وأمسى على سيفي نزيفٌ ومُهْرتي ... لدى الفيل تدمى نحرها والشواكل
فما لمْتُ نفسي فيهمُ غير أنها ... إلى أجل لم يأتها وهو عاجل
مررت على الأنصار وَسْطَ رحالهمْ ... فقلت لهم: هل منكم اليوم قافلٌ؟
ألا لعن الله الذين يسرُّهمْ ... رداي وما يدرون ما الله فاعلُ

(الطويل)

وقال أبو محجن أيضاً:

يا عين جودي على جَبْرٍ ووالدِهِ، ... إذا تحطَّمَتْ الراياتُ والحلَقُ
يوم بيوم أتى جبْرٌ وإخوته ... والنفسُ نفسان منها الهوْل والشَّفَقُ
يا خل سلِّ المنايا ما تَركْنَ لنا ... عزا ننوء به ما هَدْهَدَ الورقُ

(البسيط)

وقال حسان بن ثابت يرثي سليط بن قيس ومن أصُيب من قومه:

لقد عَظُمَتْ فينا الرزيةُ أننا ... جِلاَدٌ على ريْبِ الحوادث والدهْرِ
لدى الجِسْر يَوْمَ الجسر لهفي عليهمُ ... غداةً إذا ما قد لَقِينَا على الجسر (1)
يقول رجالٌ: ما لحسَّانَ باكيا ... وحقَّ لي التبكاء بالنحْبِ والغَزْر
أبَعْدَ أبي قيسٍ سليطٍ تلومُني ... سفاهاً أبي الأيتام في العُسْر واليُسْرِ؟

---

(1) البيتان الأول والثاني في البدء والتاريخ للبلخي ج ٥ص ١٧٠، والأبيات غير مثبتة في ديوان حسان بن ثابت ط. بيروت.

فقـل لْلأُلَى: أمْسَـوْا أسرُّوا شماتـةً   بـه كنْتُـمُ يـوم النـزال على بـدْرِ
(الطويل)

وقالت امرأة من ثقيف:

أضحـت منـازلُ آل عمْـرو قفْـرةً   بعـد الجزيـل ونـائـلٍ مبـذولِ
وكـأنما كـانـوا لموقـف سـاعـة   قَـرَداً زَفَتْـهُ الريـحُ كـلَّ سبيـلِ
(الكامل)

* * *

حديث البويب ووقعة مهران [1]

ولما بلغ عمر ـ رضي الله عنه ـ أمر الجسر، وأتاه كتاب المسلمين بالخبر استخلف على المدينة علي بن أبي طالب، وخرج فنزل بصرار يريد أرض فارس، وقدم طلحة بن عبيد الله فنزل الأعوص، فدخل عليه العباس بن عبد المطلب وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف فأشاروا عليه بالمقام، وقالوا: شاور الناس، فكتب إلى علي وطلحة فقدما عليه، فجمع الناس فقال: إني نزلت منزلي هذا وأنا أريد العراق فصرفني عن ذلك قوم من ذوي الرأي منكم، وقد أحضرت هذا الأمر من خلفت ومن قدمت، فأشيروا عليّ، فقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أرى أن ترجع إلى المدينة وتكتب إلى من هناك من المسلمين أن يدعوا من حولهم ويحذروا على أنفسهم، وقد قدم قوم من العرب يريدون الهجرة فوجههم إليهم فتكون دار هجرة حتى إذا كثروا وليت أمرهم رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل السابقة والقدم في الإسلام، فانصرف عمر إلى المدينة وكتب إلى المثنى بأن يدعو من حوله ولا يقاتل أحداً حتى يأتيه المدد، وقدم من الأسد وبارق وغامد وكنانة سبعمائة أهل بيت، فقال لهم عمر: أين تريدون؟ فقالوا: سلفنا بالشام. قال: أو غير ذلك، أرضا تبتذونها إن شاء الله ويغنمكم الله كنوزها، أخوار فارس. فقال مخنف بن سليم الغامدي: مرنا بأحب الوجهين إليك. قال: العراق. قال: فامضوا على بركة الله، فأمر عمر على الأزد رجلاً منهم، وعلى كنانة غالب بن عبد الله الليثي فشخصوا إلى

---

(١) راجع: البلاذري. فتوح البلدان ص ٣١٠ ـ ٣١٢، الطبري ج ٣ ص ٤٦٠ ـ ٤٧٢، ابن الأثير. الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٣٠٣ ـ ٣٠٦، النويري. نهاية الأرب ج ١٩ ص ١٨٥ ـ ١٨٧، ابن كثير. البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٩ ـ ٣٠.

أرض الكوفة، فقدموا على المثنى بن حارثة، فأقبل بهم حتى نزلوا العذيب.

وفيما ذكره سيف[1] أن الأزْد وكنانة لما سألوا الشام قال لهم عمر: ذلك وجه قد كُفيتموه، العراق العراق إذْرُوا بلدة قد فلّ الله شوكتها وعدوها، واستقبلوا جهاد قوم قد حوَوْا فنون العيش، لعل الله أن يرث بكم قسطكم من ذلك فتعيشوا مع من عاش من الناس، فقال غالب الليثيّ وعرفجة البارقي، كلّ واحد منهما لقومه: ياعشيرتاه أجيبوا أمير المؤمنين إلى ما أراد، فقال كل فريق لصاحبهم: إنا قد أطعناك وأجبنا أمير المؤمنين إلى ماأراد، فدعا لهم عمر بخير، وأمّر على كنانة غالبا وسرحه فيهم، وأمّر على الأزد عرفجة بن هَرْثمة البارقي - وعامتهم من بارق - وفرحوا برجوعَ عرْفجة إليهم. فخرج هذا في قومه وهذا في قومه حتى قدما على المثني، وكان عرفجة هذا حليفا في بجيلة لأمر عرض له في قومه أخرجه عنهم، ومن قدمته هذه رجع الى قومه ونسبه حسب ما
١٨٥ أ يذكر / / بعد إن شاء الله تعالى.

وقدم بعدهم أربعمائة أهل بيت من كندة والسكون، فيهم الأشعث بن قيس ومعاوية بن حديج وشرحبيل بن السمط، فقالوا: ياأمير المؤمنين قدمنا نريد سلفنا بالشام، فنظر إليهم وعليهم الحلل فأعرض عنهم، فكلموه - أيضاً - فلم يأمرهم بشيء، فقيل له: ما يمنعك؟ قال: إني لمتردد فيهم منقبض عنهم، لا ينزل هؤلاء بلداً إلا فتنوا أهله، وما قدم أحد المدينة أكره إليّ منهم، فأمضي نصفهم إلى الشام، عليهم معاوية بن حديج، ونصفهم إلى العراق عليهم شرحبيل بن السمط.

وقدم من مذحج المدينة ألف بيت فيهم ثلاثمائة أهل بيت من النخع، فقال عمر: سيروا إلى أرض فارس، قالوا: لا، ولكنا نسير إلى الشام، فقال يزيد بن كعب النخعي: أنا أخرج فيمن أطاعني، فخرج في ثلاثمائة أهل بيت من النخع، وقال هند الجُملي: أنا أخرج فيمن أطاعني، فخرج في

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٦٣.

خمسمائة أهل بيت من مراد، فكان عمر يقول بعد ذلك: سيد أهل الكوفة سمي المرأة هند الجملي.

ثم قدم المدينة أهل ألف بيت من همدان، فقالوا لعمر: خر لنا. قال: أرض العراق. قالوا: بل الشام، قال: بل العراق، فصرفوا ركابهم إلى العراق.

وقد كانت قدمت بجيلة فيهم جرير بن عبد الله، وسيدهم عرفجة بن هرثمة البارقي - حليف لهم - فقال عمر: اخرجوا إلى العراق، وأمر عليهم عرفجة، فقال جرير لبجيلة: أخبروا عمر أنه ولي عليكم رجلاً ليس منكم، وكانت بجيلة قد غضبت على عرفجة في أمر عرض بينهم وبينه، فكلموا عمر في ذلك واستعفوه منه، فقال: لا أعفيكم من أقدمكم هجرة وإسلاما، وأعظمكم بلاءً واحساناً، فلما أعلموه أنه ليس منهم، قال لعرفجة: إن هؤلاء استعفوني منك، وزعموا أنك لست منهم، فما عندك؟ قال: صدقوا، لست منهم وما يسرني أنني منهم، أنا امرؤ من الأزد من بارق في كثف لا يحصى عدده، وحسب غير مؤتشب[1]. فقال عمر: نعم الحي الأزد، يأخذون نصيبهم من الخير والشر.

وقال عرفجة: إنه كان من شأني أن الشر تفاقم فينا، ودارنا واحدة، وأصبنا الدماء، ووتر بعضنا بعضاً فاعتزلتهم لما خفتهم، فكنت في هؤلاء أسودهم وأقودهم، فحفظوا عليّ لأمر دار بيني وبين دهاقنتهم، فحسدوني وكفروني، فقال: لا يضرك فاعتزلهم إذ كرهوك.

وقيل: إن عمر قال: اثبت على منزلتك ودافعهم، قال: لست فاعلاً، ولا سائراً، فأمر عليهم جرير بن عبد الله، وقيل: إن جريراً كان إليه من بجيلة بعضها، فجمعها إليه عمر، وقال له جرير: يا أمير المؤمنين إن قومي متفرقون في العرب، فأخرجهم وأنا أغزو بهم أرض فارس، وكانوا متفرقين في هوازن وغطفان وتميم وفي أزد شنوءة والطائف وجرش، فكتب عمر إلى القبائل التي فيها

---

(١) غير مؤتشب: مخلوط غير صريح في نسبه.

بجيلة: أي نسب تواصل عليه الناس قبل الإسلام فهو النسب ليس لأحد أن يدعه، وليس له أن ينتقل إلى غير ما كان يعرف به، فمن كان من بجيلة لم ينتسب إلى غيرهم حتى جاء الإسلام فلا تحولوا بينهم وبين الرجوع إلى قومهم، فخرج قيس كبة وشحمة وعرينة من هوازن وغيرها من القبائل، وخرج العتيل والفتيان من بني الحارث وخرج علي وذبيان من الأزد بالسراة، ولما أعطى عمر - رضي الله عنه - جريراً حاجته في استخراج بجيلة من الناس فأخرجهم، أمرهم بالموعد بين مكة والمدينة، ولما تتاموا قال لجرير: اخرج حتى تلحق بالمثنى، فكره ذلك جرير ومال إلى الشام، فقال له عمر: قد علمتم ما لقي إخوانكم بأرض فارس، فاخرجوا فإني أرجو أن يورثكم الله أرضهم وديارهم، ولك الربع من كل شيء بعد الخمس، وقيل: بل جعل له ولقومه ربع الخمس مما أفاء الله عليه في غزاتهم هذه، له ولمن اجتمع إليه ومن أخرج له من القبائل، استصلحهم عمر - رضي الله عنه - بذلك، إذ كان هواهم الشام، فأبى هو عليهم إلا العراق، وقال لهم: اتخذونا طريقا، فقدموا المدينة وهم أربعة آلاف، وقيل: ألفان، ثم فصلوا منها إلى العراق ممدين للمثنى، فقال عمر: لو ضممت إلى هؤلاء من الجبين من ابني نزار - يعني تمياً وبكراً فوجه معهم قوما منهم، ثم تتابعت الأمداد.

وكان أول من نزل العذيب بالعيال من قبائل اليمن والحجاز الأزد ثم حضرموت وكندة ثم النخع ومراد ثم همدان ثم بجيلة، ثم جاءت قبائل الحجاز وأهل البوادي من تميم وبكر، وجاءت طيء عليها عدي بن حاتم، وجاءت أسد، وجاءت قيس عليهم عبد الله بن المعتم العبسي، وجاءت الرباب وعلى تيم وعدي هلال بن عُلّفة، وعلى ضبة المنذر بن حسان، وجاءت حنظلة وعمرو، وطوائف من سعد، وجاءت النمر بن قاسط عليهم أنس بن هلال بن عقة، وبعث عمر أيضا - عصمة بن عبد الله الضبي فيمن تبعه من بني ضبة، وكان قد كتب إلى أهل الردة يأذن لهم في الجهاد ويستنفرهم إليه، فلم يوافقه أحد منهم إلا رمى به المثنى.

وذكر المدائني أن يزدجرد وجه مهران بعد وقعة الجسر وأمره أن يبث

المسالح إلى أداني أرض العرب، ويقتل كل عربي قدر عليه.
وفيما ذكره الطبري عن سيف أن رستم والفيرزان(١) هما اللذان رأيا انفاذ مهران بعد أن طالعا برأيهما في ذلك بوران ابنة كسرى، وذلك عندما علما بتوافي أمداد العرب إلى المثنى، فخرج مهران في الخيول وجاء يريد الحيرة، وبلغ المثنى الخبر وهو معسكر بمرج السباخ ـ ما بين القادسية وخفان ـ فاستبطن فرات بادقلي، وأرسل إلى جرير ومن معه: أنه جاءنا أمر لن نستطيع معه المقام حتى تقدموا علينا، فعجلوا اللحاق بنا، وموعدكم البويب. وكتب إلى عصمة وإلى كل قائد أظله (٢) بمثل ذلك، وقال: خذوا على الجوف، فسلكوا القادسية وسلك المثنى وسط السواد، فطلع على النهرين ثم على الخورنق، وطلع عصمة ومن سلك معه طريقه على النجف، وطلع جرير ومن سلك معه على الجوف، فانتهوا إلى المثنى وهو على البويب، ومهران من وراء الفرات بازائه، فاجتمع عسكر المسلمين على البويب مما يلي موضع الكوفة اليوم، وعليهم المثنى، وهم بازاء مهران وعسكره، فقال المثنى لرجل من أهل السواد: ما يقال لهذه الرقعة التي فيها مهران وعسكره؟ فقال: بسوساً، فقال: أكدي مهران وهلك، ونزل منزلا هو البسوس، وأقام بمكانه حتى كاتبه مهران: إما أن تعبروا إلينا، وإما أن نعبر إليكم، فقال المثنى: اعبروا فعبر مهران، فنزل على شاطىء الفرات معهم في الملطاط، فقال المثنى لذلك السوادي: ما يقال لهذه الرقعة(٣) التي نزلها مهران وعسكره؟ فقال: شوميا ـ وذلك في // رمضان ـ فنادى المثنى في الناس: انهدوا ١٨٥ ب
لعدوكم، فتناهدوا، ومهران في ثلاثة عشر ألفاً معه ثلاثة فيلة، فقدموا فيلتهم واستعدوا للحرب، فأقبلوا إلى المسلمين في ثلاثة صفوف، مع كل صف فيل، ورجلهم أمام فيلهم، وجاءوا ولهم زجل. فقال المثنى للمسلمين: إن الذي تسمعون فشل، فالزموا الصمت وائتمروا همساً، والمسلمون أربعة آلاف، ألفان وثمانمائة من اليمن، وألف ومائتان من سائر الناس، ويقال: كانوا ستة آلاف، ألف

(١) في الأصول: الفيرزاد، والتصويب من الطبري.
(٢) في الأصل: أضله.
(٣) في الأصول: الرنقة، والرسم من الطبري.

ومائتان من تميم وقيس وبكر، وسائرهم من اليمن.

وتنازع جرير والمثنى الإمارة يومئذ، فقال له المثنى: إنما بعثك أمير المؤمنين مددا لي، وقال جرير: بل استعملني، فقيل: صار الأمر بينهما إلى ما قال المثنى، فكان هو الأمير، وقيل: صار جرير أميراً على من قدم معه والمثنى أميراً على من قدم قبل ذلك، ومن قال هذا زعم أن المثنى قال لجرير عندما نهدوا للعدو: خلني وتعبئة الناس، ففعل جرير وعبأ المثنى الجيش فصير مضر وربيعة في القلب، وصير اليمن ميمنة، وميسرة، وقال المثنى: يا معشر المسلمين، إني قد قاتلت العرب والعجم، فمائة من العرب كانوا أشد عليّ من ألف من العجم، ويقال: إنه قال لهم: قاتلت العرب والعجم في الجاهلية والإسلام والله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشد عليّ من ألف من العرب، ولمائة من العرب اليوم أشد عليّ من ألف من العجم، إن الله قد أذهب مصدوقتهم، ووهن كيدهم، فلا يهولنكم سوادهم، إن للعجم قِسِيّاً لجاً، وسهاماً طوالاً هي أغنى سلاحهم عندهم فلو قد لقوكم رموكم بها، وإذا أعجلوا عنها أو فقدوها، فهم كالبهائم أينما وجهتموها توجهت، فتترسوا والزموا مصافكم واصبروا لشدة أو شدتين، ثم أنتم الظاهرون إن شاء الله تعالى.

وركب يومئذ فرساً ذنوباً أدهم يُدْعى الشموس للين عريكته وطهارته، وكان لا يركبه إلا لقتال ويدعه ما لم يكن قتال، ومر على الرايات يحض القبائل، فقال له شرحبيل بن السمط: ما أنصفتنا يا مثنى، جعلت معدك وسطاً وجعلتنا ميمنة وميسرة، قال: إذاً أنصفكم، الله ما أريد لهم شيئاً من الخير إلا وأنا أريد لكم مثله، وما عهدي بمعد يدري بالناس من البأس، ثم صير تميما مع الأزد في الميمنة، وصير ربيعة مع كندة في الميسرة، وصفوا صفوفهم، وقال: الزموا الصمت فإني مكبر ثلاث تكبيرات، فإذا كبرت الثالثة فاحملوا، فنظر إلى سعد ابن عبيد الأنصاري قد نصل من الصف، فقال: من أنت؟ قال: سعد بن عبيد، فررت يوم الجسر من الزحف، فأردت أن أجعل توبتي من فرتي أن أشري نفسي لله. فقال له: إن خيراً مما تريد أن تقف مع المسلمين فتناضل عن دينك.

وقال جرير: يا معشر بجيلة، إن لكم في هذه البلاد إن فتحها الله لكم حظا ليس لغيركم، فاصبروا التماس إحدى الحسنيين: الشهادة فثوابها الجنة أو النصر ففيه الغني من العيلة، ولا تقاتلوا رياءً ولا سمعةً، بحسب امرىء من خساسته حظا[1] أن يريد بجهاده وعدوه حَمْدَ أحد من الخلق.

ومر المثنى على الرايات راية راية يحرضهم ويهزهم بأحسن ما فيهم، ولكلهم يقول: إني لأرجو أن لا تؤتى العرب اليوم من قبلكم، والله، ما يسرني اليوم لنفسي شيء إلا وهو يسرني لعامتكم، فيجيبونه بمثل ذلك، وأنصفهم المثنى في القول والفعل، وخالط الناس في المكروه والمحبوب، فلم يستطع أحد منهم أن يعيب له قولا ولا عملا، ووقف على أهل الميمنة فنظر إلى رجل من العنبر على فرس عتيق رائع، فقال: يا أخا بني العنبر، إنك لمن قوم صدق في اللقاء، أما والله يا بني تميم إنكم لميامين في الحرب، صبر عند البأس، إني لأرجو أن يعز الله بكم دينه. وقال للأزد: اللهم صبحهم برضوانك، وادفع عنهم عين الحاسد، أنتم والله الأنجاد الأمجاد الحسان الوجوه، وإني لأرجو أن يأتي العرب اليوم منكم ما تقر به أعينهم، ونظر إلى فوارس من قيس في القلب فقال: نعم فتيان الصباح أنتم، اللهم جللهم عافيتك وافرغ عليهم الصبر، يوماً كبعض أيامكم، ونظر إلى ناس من طيء في القلب، فقال: جزاكم الله خيرا، فنعم الحي أنتم في اللقاء وعند العطاء، فإنه ليحضهم إذ شدت كتيبة من العجم على الميسرة وفيها بكر وكندة فصبروا لهم، ثم شدت عليهم الثانية فانكشفت بكر وكندة، فقال المثنى: إن الخيل تنكشف ثم تكر، يا معشر طيء الزموا مصافكم وأغنوا ما يليكم، واعترض الكتيبة التي كشفتهم بخيل كانت معه فمنعهم من اتباعهم وقاتلهم، فثارت عجاجة بينهم ورجع أهل الميسرة، وأقبلت الميمنة نحو المثنى وقد انكشف العدو عنه، وسيفه بيده وقد جرح جراحات وهو يقول: اللهم عليك تمام النصر، هذا منك، فلك الحمد، فقال له مخنف بن سليم الغامدي: الحمد لله الذي عافاك، فقد كنت

---

(١) في الأصل: حظ.

أشفقت عليك. قال: كم من كربة قد فرجها الله، هل منعم عليه يكافيء ربه بنعمة من نعمه!!.

وكانت هزيمة المشركين، فاتبعهم المسلمون حتى انتهوا إلى نهر بني سليم، ثم كروا على المسلمين وركدت الحرب بينهم ملياً، فلا يسمع إلا هرير الرجال، وقد كان أنس بن هلال النمري قدم ممدا للمثني في أناس من النمر نصارى، وابن مردي الفهري الثعلبي في ناس من قومه كذلك، وقالوا حين رأوا نزول العجم بالعرب: نقاتل مع قومنا، فلما طال القتال يومئذ واشتد عمد المثنى إلى أنس بن هلال، فقال: يا أنس، إنك امرؤ عربي، وإن لم تكن على ديننا، فإذا رأيتني قد حملت على مهران فاحمل معي، وقال لابن مردي الفهري مثل ذلك، فأجاباه، فحمل المثنى على مهران فأزاله حتى دخل في ميمنته، ثم خالطوهم، واجتمع القلبان، وارتفع الغبار والمجنبات تقتتل، لا يستطيعون أن يفزعوا لنصر أميرهم، لا المسلمون ولا المشركون، وقد كان المثنى قال لهم: إذا رأيتمونا أصبنا فلا تدعوا ما أنتم فيه، فإن الجيش ينكشف ثم ينصرف، فالزموا مصافكم وأغنوا عنا من يليكم، وأوجع قلب المسلمين قلب المشركين، ووقف المثنى حتى أسفر الغبار وقد فني قلب المشركين، والمجنبات قد هز بعضها بعضا، فلما رآه المسلمون وقد أزال القلب وأفنى أهله قويت مجنبات المسلمين على المشركين
١٨٦ أ // وجعلوا يردون الأعاجم على أدبارهم، وجعل المسلمون والمثنى في القلب يدعون لهم بالنصر، ويرسل إليهم من يذمرهم ويقول لهم: إن المثنى يقول لكم عادتكم في أمثالهم، انصروا الله ينصركم، حتى هزم القوم.

وكانت راية الأزد مع عبد الله بن سليم، فجعل يتقدم بها، فقال له رجل: لو تأخرت قليلاً، فقال:

أقسمت بالرحمن أن لا أبرحا ... أو يصنع الله لنا فيفتحا

(الرجز)

وقاتل حتى قُتل، وتقدم أبو أمية عبد الله بن كعب الأزدي وهو يقول: اللهم إليك أسعى لترضى، وإياك أرجو فاغفر ذنبي، ثم تقدم فقاتل حتى قتل ـ رحمه الله ـ

فحمل أبو رملة بن عبد الله بن سليم ـ وكانت عنده الرباب ابنة عبد الله بن كعب ـ فقتل قاتل عبد الله بن كعب واحتز رأسه، فأتى به ابنه ـ وهو غلام مراهق ـ فقال: دونك رأس قاتل أبيك، فعض الفتى بأنفه، ومر به رجل من بكر بن وائل يقال له عجل، فقال: يا فتى ما أشجعك على الأموات فحمى الفتى واعترض العدو، فأتبعه عمه جندب وهو يقول: يا عجل، قتلت ابن أخي، فلحقه وقد قتل رجلاً، فرده، وقتل حصين بن القعقاع بن معبد بن زرارة، فأخذ الراية مولي لهم أو مولي للأزد يقال له خصفة، فقاتل حتى قتل، ودارت بينهم رحى الحرب، وأخذت جرير الرماح فنادى: واقوماه، أنا جرير، فقاتلت عنه جماعة من قيس ليس معهم غيرهم حتى خلص، وشدت جماعة على مسعود بن حارثه وهو معلم بعصابة خضراء وهو يفري فريا، فطعن رجلا فقتله، وطعن آخر فانكسر رمحه فاختلفا بسيفيهما ضربتين فقتل كل واحد منهما صاحبه، فوقف عليه أخوه المثنى فقال: هكذا مصارع خياركم، وقيل: إنه ارتث يومئذ فمات بعد في اناس من الجرحى من أعلام المسلمين ماتوا كذلك، منهم خالد بن هلال، فصلى عليهم المثنى وقدمهم على الأسنان والقرآن، وقال: والله إنه ليهون عليّ وجدي أن شهدوا البويب، أقدموا وصبروا، ولم يجزعوا ولم يتكلموا، وإن كان في الشهادة لكفارة لبحور الذنوب، ولما ارتث مسعود بن حارثة يومئذ فتضعضع من معه رأى ذلك وهو دنف فقال: يا معشر كعب بن وائل، ارفعوا رايتكم رفعكم الله، لا يهولنكم مصرعي، وقتل جرير وغالب بن عبد الله الليثي وحنظلة بن ربيعة الأسدي وعروة بن زيد الخيل كل واحد منهم عشرة.

وقال ربعي بن عامر ـ وشهدها يومئذ مع أبيه: احصي مائة رجل من المسلمين قتل كل واحد منهم عشرة في المعركة. وذكر أن غالباً وعروة وعرفجة في الأزد كانوا من أصحاب التسعة، فالله أعلم.

وقال يومئذ لعروة رجل من قومة ـ ورآه يقدم: أهلكت قومك يا عروة، فقال:

يــا قــوم لا تعنفــوني قــومــي لا تكثروا عَـذْلِـي ولا من[1] لومي

لا تَعدُونـي النصـر بعـد اليـوم

(الرجز)

وسمع رجل يومئذ من مهران يرتجز وهو يقول:

إن تسألـوا عني فــإني مهــران أنــا لمن أنكــرني ابــن بــاذان[2]

(السريع)

فعجب من أن يتكلم بالعربية، فقيل له إنه ولد باليمن، ويقال إنه عربي نشأ مع أبيه باليمن، وكان أبوه عاملا لكسرى.

وأبصر جرير بن عبد الله - مهران يقاتل، فحمل عليه جرير والمنذر بن حسان فقتلاه، طعنه المنذر فأداره عن دابته وقد وقذه فنزل إليه جرير فاحتز رأسه وتنازعا سلبه ثم أخذ جرير سلاحه، وأخذ المنذر حليته وثيابه وبرذونه، وقيل في قتله غير هذا، وهو مما حدثت به أم ولد لزيد بن صوحان أن زيداً أخرجها معه إلى العسكر حتى لقوا مهران صاحب كسرى، فجعل النـاس يحيدون عن مهران، فقال زيد: ما شأن الناس يحيدون عن هذا؟ قيل: كرهوه، فنزل زيد فمشى إليه فاختلفا ضربتين، فأطن مهران يده، فرجع فأخذ عمامتي فشقها ثم لفها على يده ثم عاوده فنسف ساقيه بالسيف فقتله، فابتدر المسلمون سلبه، فلم يأخذ زيد من سلبه إلا السيف، نفله إياه الأمير، فكان زيد يقول: من يشتري سيفا وهذا أثره، ويخرج يده الجذماء فيريها، وقد قيل إن غلاماً نصرانياً من بني تغلب هو الذي قتل مهران، فالله أعلم.

وهزم المشركون فأتوا الفرات، وأتبعهم المسلمون، فانتهوا إلى الجسر، وقد عبرت طائفة من المشركين الجسر، فحالوا بين الباقين وبينه، فأخذوا يميناً وشمالاً، فقاتلهم المسلمون حتى أمسوا، واقتحم طائفة الفرات فغرق بعضهم ونجا بعض، ورجع المسلمون عنهم حين أمسوا، فعبر من بقي منهم الجسر، ثم قطعوه فأصبح المسلمون فعقدوه واتبعوهم حتى بلغوا بيوت ساباط، ثم انصرفوا وصلبوا مهران على الجسر.

---

(١) في الأصل: ما.

(٢) البيت في الطبري ج ٣ ص ٤٧٢.

ويقال: إن المثنى قطع الجسر أولا ليمنع أهل فارس العبور، ثم ندم على ذلك وقال: لقد عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتي إياهم إلى الجسر وقطعه حتى أحرجتهم، فإني غير عائد فلا تعودوا ولا تعتدوا بي أيها الناس، فإنما كانت زلة، لا ينبغي إخراج أحد إلا من لا يقوى على الامتناع.

ولما افترق الأعاجم على شاطىء الفرات مصعدين ومصوبين واعتورتهم خيول المسلمين أكثروا القتل فيهم حتى جعلوهم جثاء، فما كانت بين العرب والعجم وقعة كانت أقوى رمة منها.

حدث أبو روق قال: والله إن كنا لنأتي البويب - يعني بعد ذلك بزمان - فنرى ما بين السكون وبني سليم عظاما بيضاء تلولا تلوح من هامهم وأوصالهم نعتبر بها. قال: وحدثني بعض من شهدها أنهم كانوا يحرزونها مائة ألف.

واقتسم المسلمون ما أفاء الله عليهم، ونفلت بجيلة وجرير ما جعل لهم عمر بن الخطاب وحمل الخمس أو باقي الخمس، وجلس المثنى للناس يحدثهم ويحدثونه لما فرغوا، وكلما جاء رجل فتحدث قال له المثنى: أخبرني عنك، فقال قرط بن جماح العبدري، قتلت رجلاً فوجدت منه رائحة المسك فقلت: مهران، ورجوت أن يكون إياه، فإذا هو شهريرار صاحب الخيل فوالله ما رأيته إذ لم يكن مهران شيئاً. وكان قرط قد قاتل يومئذ حتى دَقَّ قَنىً وقطع أسيافاً.

وقال ربعي وهو يحدث المثنى: لما رأيت ركود الحرب واحتدامها قلت: تترسوا بالمجان // فإنهم شادُّون عليكم فاصبروا لشدتين وأنا زعيم لكم بالظفر في ١٨٦ ب
الثالثة، فأجابوني فولي الله كفالتي.

وقال ابن ذي السهمين محدثا: قلت لأصحابي إني سمعت الأمير يقرأ ويذكر في قراءته الزحف، فما ذكره إلا لفضل فيه، فاقتدوا برايتكم ولتحمي[1] خيلكم رجلكم، وازحفوا فما لقول الله من خلف، فأنجز الله لهم وعده كما رجوت.

وقال عرفجة محدثا: حزنا كتيبة منهم إلى الفرات، ورجوت أن يكون الله قد

(١) في الأصل: ولتحم.

أذن في غرقهم وأن يسلينا بها عن مصيبة الجسر، فلما حصلوا في حد الإحراج كروا علينا فقاتلناهم قتالاً شديداً حتى قال بعض قومي: لو أخذت رايتك، فقلت عليّ اقدامها، وحملت بها على حاميتهم فقتلته فولوا نحو الفرات فما بلغوه ومنهم أحد فيه الروح.

وقد كان المثنى قال يومئذ: من يتبع آثار المنهزمة حتى يبلغ السيب؟ فقام جرير في قومه فقال: يا معشر بجيلة إنكم وجميع المسلمين ممن شهد هذا اليوم في السابقة والفضيلة سواء، وليس لأحد منهم في هذا الخمس غداً من النفل مثل الذي لكم منه، نفلاً من أمير المؤمنين، فلا يكونن أحد أسرع إلى هذا العدو ولا أشد عليه منكم للذي لكم منه إلى ما ترجون، فإنما تنتظرون إحدى الحسنيين الشهادة والجنة أو الظفر والغنيمة والجنة.

ومال المثنى على الذين أرادوا أن يستنثلوا بالأمس من منهزمة يوم الجسر فقال: أين المستنثل بالأمس وأصحابه؟ انتدبوا في آثار هؤلاء القوم إلى السيب وابلغوا من عدوكم ما تغيظونهم به فهو خير لكم وأعظم أجراً، واستغفروا الله إن الله غفور رحيم.

وكان هذا المستنثل ـ أو هو إن شاء الله سعد بن عبيد الأنصاري ـ قد أراد الخروج بالأمس من صف المسلمين إلى العدو، فقيل للمثنى: ألا ترى إلى هذا الرجل الذي يريد أن يستنثل، فركض إليه، فقال: يا أبا عبد الله، ما تريد أن تصنع؟ قال: فررت يوم أبي عبيد، فأردت أن تكون توبتي وانتصاري أن أمشي إليهم فأقاتل حتى أقتل، قال: إذن لا تضر عدوك ولا تنفع وليك، ولكن أدلك على ما هو خير لك، تثبت على صفك وتجزي قرنك وتواسي أخاك بنفسك وتنصره وينصرك فتكون قد نفعت المسلم وضررت العدو، فأطاعه وثبت مكانه، فكان يومئذ أول منتدب.

فأمر المثنى أن يعقد لهم الجسر ثم أخرجهم في أثر القوم، واتبعتهم بجيلة وخيول المسلمين بعد من كل فارس، ولم يبق في العسكر جسري إلا خرج في الخيل، فانطلقوا في طلب العدو حتى بلغوا السيب، فأصابوا من البقر والسبي

وسائر الغنائم شيئاً كثيراً فقسمه المثنى عليهم، وفضل أهل البلاء من جميع القبائل، ونفل بجيلة يومئذ ربع الخمس بينهم بالسوية وبعث بثلاثة أرباعه إلى عمر - رضي الله عنه - وألقى الله الرعب في قلوب أهل فارس، وكتب القواد الذين قادوا الناس في الطلب إلى المثنى، وكتب إليه عاصم وعصمة وجرير: إن الله قد كفى رستم ووجه لنا ما رأيت، وليس دون القوم شيء، فأذن لنا في الإقدام، فأذن لهم فأغاروا حتى بلغوا ساباط، وتحصن أهلها منهم، واستباحوا القريات دونها وراماهم أهل الحصن عن حصنهم بساباط ثم انكفئوا راجعين إلى المثنى.

قالوا: وكان المثنى وعصمة وجرير أصابوا في أيام البويب على الظهر نزل مهران غنما ودقيقا وبقرا، فبعثوا بها إلى عيالات من قدم من المدينة وقد خلفوهن بالقوادس، وإلى عيالات أهل الأيام قبلهم وهن بالحيرة، وكان دليل الذين ذهبوا بنصيب العيالات اللواتي بالقوادس عمرو بن عبد المسيح بن بقيلة، فلما رفعوا للنسوة فرأين الخيل تصايحن وحسبنها غارة فقمن دون الصبيان بالحجارة والعمد، فقال عمرو: هكذا ينبغي لنساء هذا الجيش، وبشروهن بالفتح.

ولما أهلك الله - عز وجل - مهران استمكن المسلمون من الغارة على السواد فيما بينهم وبين دجلة، فمخروها لا يخافون كيداً ولا يلقون فيها مانعاً، وانتفضت مسالح العجم فرجعت إليهم واعتصموا بالساباط، وسرهم أن يتركوا ما وراء دجلة، ونزل جرير والمثنى الحيرة وبثا المسالح فيما بين الأنبار وعين التمر إلى الطف، فمن كان أقام على صلحه قبلوا ذلك منه، ومن نقض أغاروا عليه، فكان أهل الحيرة وبانيقيا وغيرهم على صلحهم.

وكانت وقعة البويب في رمضان من سنة ثلاث عشرة.

وتنازع - أيضاً - المثنى وجرير الإمارة، وكان المثنى أحب إلى نزار، وجرير أحب إلى اليمانية، فكتب إلى عمر - رحمه الله - في ذلك، فكان من مشورته فيه

وعمله ما سيأتي بعد ذكره.

وشخص المثنى عند ذلك فنزل أَلّيْس، ويقال شراف ـ وهو وجع من جراحات به ـ وارتحل معه عامة النزارية، فلما رأى ذلك جرير تحول فنزل العذيب مع العيال، ومعه أخلاط الناس وهو الأمير عليهم في قول بعضهم، وفي هذه الإمارات كلها اضطراب من نقلة الأخبار واختلاف بين القبائل، فبنو شيبان تقول: كان [جرير] الأمير يوم قتل مهران المثنى، وبجيلة تقول: كان الأمير يوم ذلك وقبل وبعد، والأظهر مما تقدم من الأخبار أن المثنى كان الأمير في تلك الحرب، إلا أن يكون جرير على من معه كما قد قيل، فالله تعالى أعلم.

وقد قال الأعور الشني (1) فلم يذكر لغير المثنى يومئذ إمارة:

هاجت عليك ديارُ الحرب أحزانا (2) ... واستبدَلَتْ بعد عبد القيسَ همْذانا
وقد أرانا بها والشمْلُ مجتمعٌ ... أدْنَى النخيلة(3) قتلى جُنْدِ مهرانا
كَأن الأميرُ المثنَّى يوم راجفةٍ ... مهرانَ أشجع من ليث بَخفَّانا (4)
أزمانَ سار المثنَّى بالخيول لهم (5) ... فقتَّل الزحْفَ منَ رجْلَى (6) وركبانا
سما لمهرانَ والجيش الذي مَعَهُ (7) ... حتى أبادهُمُ مَثْنَى ووحْدَانا
إذْ لا أميَر أراه بالعراق لنا (8) ... مِثْلَ المثنى الذي من آل شيبانا

(البسيط)

---

(1) هذه الأبيات منسوبة في الأخبار الطوال ـ ص ١١٥ ـ لعروة بن زيد الخيل، وهي ليست في ديوانه ط. بيروت، على حين نسبها الطبري ج٣ ص ٤٧١، وابن كثير في البداية والنهاية ج٧ ص ٣٠ للأعور العبدي.

(2) في الأخبار الطوال: هاجت لعروة دار الحي أحزانا.

(3) في الأخبار الطوال: إذ بالنخيلة.

(4) ترتيبه في الأخبار الطوال الأخير، وصيغته كالتالي:

إن المثنى الأمير القرم لا كذب ... في الحرب أشجع من ليث بخفانا

(5) في الأخبار الطوال: أزمان سار:..

(6) في الأخبار الطوال: رجل.

(7) في الأخبار الطوال: سما لأجنادِ مهران وشيعته.

(8) في الأخبار الطوال: ما إن رأينا أميرا بالعراق مضى.

حديث غارة المثنى على سوقي الخنافس وبغداد [1]

ذكر سيف عن شيوخه أن المثنى لما نزل أليس - قرية من قرى الأنبار - وهذه الغزاة تدعى غزاة الأنبار الآخرة، وغزاة أليس الآخرة، وقد مخر السواد وخلف بالحيرة بشير بن الخصاصية، وأرسل جريرا إلى ميسان، وهلال بن علقمة إلى دست ميسان [2] / / وأذكى المسالح بعصمة بن فلان الضبي، ١٨٧ أ
وبالكلح الضبي، وبعرفجة البارقي وأمثالهم من قواد المسلمين، ألز [3] به رجلان: أحدهما أنباري والآخر حيري، يدله كل واحد منهما على سوق، فأما الأنباري فدله على سوق الخنافس، وأما الحيري فدله على بغداد. فقال المثنى: أيتهما قبل صاحبتها؟ فقالوا: بينهما أيام، فقال: أيهما أعجل؟ قالوا [4]: سوق الخنافس يتوافى إليها الناس، ويجتمع إليها ربيعة وقضاعة يخفرونهم. فاستعد لها المثنى، حتى إذا ظن أنه يوافيهم يوم سوقها ركب نحوهم، فأغار على الخنافس يوم سوقها، وبها خيلان من ربيعة وقضاعة وهم الخفراء، فانتسف السوق وما فيها، وسلب الخفراء، ثم رجع عوده على بدئه حتى تطرق دهاقين الأنبار طروقا في أول يومه فتحصنوا منه، فلما عرفوه نزلوا إليه فأتوه بالأعلاف والزاد، وأتوا بالأدلاء على بغداد، وكان وجهه إلى سوق بغداد فصبحهم.

وقال المثنى [5] في غارته على خنافس:

---

(١) راجع: الطبري ج٣ ص ٤٧٢ - ٤٧٦، الخطيب البغدادي. تاريخ بغداد ج١ ص ٢٥ - ٢٧، ابن الأثير. الكامل في التاريخ ج٢ ص ٣٠٦ - ٣٠٧، النويري. نهاية الأرب ج١٩ ص ١٨٧ - ١٨٩.

(٢) دست ميسان: بفتح أوله وسين مهملة ساكنة وتاء مثناة وميم مكسورة، كورة بين واسط والبصرة والأهواز - ياقوت. معجم البلدان ج٢ ص٤٥٥.

(٣) ألزّا به: لصقا.

(٤) في الأصول: قال.

(٥) الأبيات في ياقوت. معجم البلدان ج٢ ص٣٩١.

صبَحْنـا في الخنـافس جَمْعَ بكـرٍ وحَيًّا من قضاعـة غيُـرَ مِيـلِ
بفتيـان الوغـى مـن كـلِّ حَـيٍّ تبـارى في الحوادث كـلَّ جيـلَ
نسفْنَـا سـوقَهُـمْ والخيـل زورٌ مـن التطـواف والشـدَّ البجيـلَ
(الوافر)

وذكر الخطيب أبو بكر بن ثابت البغدادي في تاريخه[1] أن بغداد كانت في أيام مملكة العجم قرية يجتمع فيها رأس كل سنة التجار، ويقوم بها للفرس سوق عظيمة. فلما توجه المسلمون إلى العراق وفتحوا أول السواد، ذكر للمثنى بن حارثة أمر سوق بغداد، ثم أورد بإسناد له عن ابن إسحق أن أهل الحيرة قالوا للمثنى، وذكره سيف[2] من طريق آخر أن رجلاً من أهل الحيرة قال للمثنى، واللفظ في الحديثين متقارب - وقد دخل حديث أحدهما في حديث الآخر - قالوا: ألا ندلك على قرية يأتيها تجار مدائن كسرى وتجار السواد ويجتمع بها في كل سنة من الناس مثل خراج العراق، وهذه أيام سوقهم التي يجتمعون فيها، فإن أنت قدرت على أن تعبر إليهم وهم لا يشعرون أصبت بها مالا يكون غناءً للمسلمين وقوة على عدوهم، وبينها وبين مدائن كسرى عامة يوم، فقال لهم: فكيف لي بها؟ قالوا: إن أردتها فخذ طريق البر، حتى تنتهي إلى الأنبار، ثم تأخذ رءوس الدهاقين، فيبعثون معك الأدلاء، فتسير سواد ليلة من الأنبار حتى تأتيهم ضحى.

قال: فخرج من النخيلة ومعه أدلاء الحيرة، حتى دخل الأنبار، فنزل بصاحبها فتحصن منه، فأرسل إليه: ما يمنعك من النزول؟ فأرسل إليه: إني أخاف، فأرسل إليه: انزل فإنك آمن على دمك وقريتك، وترجع سالما إلى حصنك، فتوثق عليه ثم نزل، فأطمعه المثنى، وخوفه واستكتمه، وقال: إني أُريد أن أغير فابعث معي الأدلاء إلى بغداد، حتى أغير منها إلى المدائن، قال: أنا أجيء معك، قال المثنى: لا أريد أن تجيء معي، ولكن ابعث معي من يعرف الطريق، ففعل وأمر لهم بزاد وطعام وعلف، وبعث معهم دليلاً، فأقبل حتى إذا

(١) تاريخ بغداد ج١ ص ٢٥ - ٢٧.
(٢) الطبري ج٣ ص ٤٧٣ - ٤٧٥.

بلغ المنصف قال له المثنى: كم بيننا وبين هذه القرية؟ قال: أربعة فراسخ أو خمسة، وقد بقي عليك ليل، فقال لأصحابه من ينتدب للحرس فانتدب له قوم، فقال لهم: اذكوا حرسكم، ثم نزل وقال للناس: أنزلوا فاقضوا واطعموا وتوضأوا وتهيأوا وابعثوا الطلائع فلا يلقون أحداً إلا حبسوه، ثم سار بهم فصبحهم في أسواقهم، فوضع فيهم السيف، فقتل وأخذ الأموال، وقال لأصحابه: لا تأخذوا إلا الذهب والفضة، ومن المتاع ما يقدر الرجل منكم على حمله على دابته، وهرب الناس، وتركوا أمتعتهم وأموالهم، وملأ المسلمون أيديهم من الصفراء والبيضاء والحُرّ من كل شيء، ثم كر راجعاً، ثم نزل بنهر السيلحيين من الأنبار، فقال للمسلمين: أحمدوا الله الذي سلمكم وغنمكم، وانزلوا فاعلفوا خيلكم من هذا القصب، وعلقوا عليها، وأصيبوا من أزوادكم، فسمع القوم يهمس بعضهم إلى بعض أن القوم سراع الآن في طلبنا، فقال: تناجوا بالبر والتقوى ولا تتناجوا بالإثم والعدوان، قبح الله من يتناجون به، انظروا في الأمور وقدروها ثم تكلموا، تحسبونهم الآن في طلبكم، فوالله لو كان الصريخ قد بلغهم الآن إنه لكبير، ولو كان الصريخ عندهم لبلغهم من رعب غارتنا عليهم إلى جنب مدائنهم ما يشغلهم عن طلبنا حتى نلحق معسكرنا وجماعتنا، إن للغارات روعات تنتشر عليها يوماً إلى الليل، ولو كان بهم من القوة ما يحملهم على طلبنا ثم جهدوا وجهدهم ما أدركونا، نحن على الجياد العراب وهم على المقارف البطاء، ولو أنهم طلبونا فأدركونا لم نقاتلهم إلا التماس الثواب ورجاء النصر، فثقوا بالله، وأحسنوا به الظن، فقد نصركم الله عليهم وهم أكثر منكم وأعز، وسأخبركم عني وعن انكماشي والذي أريد من ذلك، أن خليفة رسول الله ـ ﷺ ـ أبا بكر أوصانا أن نقل العرجة[1] ونسرع الكرة في الغارات، ونسرع في غير ذلك الأوبة، فأقبلوا ومعهم دليلهم حتى انتهوا إلى الأنبار، فاستقبلهم صاحبها بالكرامة، فوعده المثنى بالإحسان إليه لو استقام أمرهم، ورجع المثنى إلى عسكره.

(١) العرجة: المقام..

حديث السرايا من الأنبار [1]

قالوا: لما رجع المثنى من بغداد إلى الأنبار سرح المضارب العجلي وزيداً إلى الكباث، ثم خرج في أثرهم، فقدم الرجلان الكباث، وقد ارْفَضَّ عنه أهله وأخلوه، وكانوا كلهم من بني تغلب، وكان عليهم فارس العناب التغلبي يحميهم، فركب المسلمون آثارهم يتبعونهم، فأدركوا أخرياتهم، فحماهم فارس العناب ساعة ثم هرب، وقتلوا في أخرياتهم فأكثروا، ورجع المثنى إلى عسكره بالأنبار، فسرح فرات بن حيان وكان خلفه في عسكره، وسرح معه عتيبة بن النهاس، وأمرهما بالغارة على أحياء من تغلب والنمر بصفين، ثم أتبعهما وخلف على الناس عمرو بن أبي سلمى الهجيمي، فلما دنوا من صفين، فر أهلها فعبروا الفرات إلى الجزيرة، وتحصنوا، وفارق المثنى فراتاً وعتيبة، فأرمل[2] المثنى وأصحابه من الزاد، حتى نحروا رحلهم إلا ما لابد لهم منه فأكلوها حتى أخفافها وعظامها وجلودها. ثم أدركوا عيراً من أهل دياف[3] وحوران، فقتلوا العلوج
١٨٧ ب وأصابوا ثلاثة نفر من بني تغلب خفراء، // فأخذوا العير، وكان ظهراً فاضلاً وقال لهم: دلوني، فقال له أحدهم: أمنوني على أهلي ومالي، وأدلكم على حي من بني تغلب غدوت من عندهم اليوم، فآمنه المثنى وسار معه يومه، حتى إذا كان العشي هجم عليهم فإذا النعم صادرة عن الماء، والقوم جلوس بأفنية البيوت، فبعث غارته فقتلوا المقاتلة، وسبوا الذرية، وانتسفوا الأموال، وإذا هم بنو ذي

---

(١) الخبر منقول عن الطبري ج ٣ ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦، وهو في الأخبار الطوال للدينوري ص ١١٦، والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٣٠٧، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ١٨٨ ـ ١٨٩.

(٢) الإرمال: الفقر، وذهاب الزاد ـ أبو هلال العسكري. التلخيص ص ١٨٠.

(٣) في الأصول: دبا، والتصويب من الطبري.

الرويحلة، فاشترى من كان من ربيعة السبايا بنصيبهم من الفيء، فأعتقوا سبيهم، وكانت ربيعة لا تسبى، إذ العرب يتسابون في جاهليتهم.

وأخبر المثنى أن جمهور من سلك البلاد قد انتجعوا شاطىء دجلة، فسرح في آثارهم حذيفة بن محصن - وكان على مقدمته في غزواته كلها بعد البويب - ثم أتبعه فأدركوهم دون تكريت يخوضون الماء، فأصابوا ما شاءوا من النعم، حتى أصاب الرجل خمساً من السبي وخمساً من النعم، وجاء المثنى بذلك حتى نزل على الناس بالأنبار، ومضى فرات وعتيبة في وجهها، حتى أغارا على صفين وبها النمر وتغلب متساندين، فأغاروا عليهم، ونقبوهم، فرموا بطائفة منهم في الماء، فناشدوهم وجعلوا ينادون: الغرق الغرق، فلم يقلعوا عنهم، وجعل عتيبة والفرات يذمرون الناس، وينادونهم: تغريق بتحريق - يذكرونهم يوماً من أيام الجاهلية أحرقوا فيه قوماً من بكر بن وائل في غيضة من الغياض - ثم انطلق المسلمون راجعين إلى المثنى وقد غرقوهم.

فلما تراجع الناس إلى عسكرهم بالأنبار وتوافت بها البعوث والسرايا، انحدر بهم المثنى إلى الحيرة، فنزل بها. وكانت لعمر - رحمه الله - في كل جيش عيون يتعرفون الأخبار من قبلهم، فكتب إليه بما كان في تلك الغزاة، وأبلغ الذي قال عتيبة والفرات - يوم بني تغلب والماء - فبعث إليهما فسألهما، فأخبراه أنهما قالا ذلك على وجه المثل، وأنهما لم يفعلا ذلك على وجه طلب بذحل في الجاهلية، فاستحلفهما، فحلفا ما أرادا بذلك إلا المثل، وإعزاز الإسلام، فصدقهما وردهما إلى المثنى.

ذكر ما هيج حرب القادسية على ما ذكره سيف عن أشياخه (١)

قالوا: قال أهل فارس لرستم والفيزران - وهما عميدا أهل فارس: أين يذهب بكما لم يبرح بكما الإختلاف حتى وهنتما أهل فارس، وأطمعتما فيهم عدوهم وإن لم يبلغ من خطركما أن تقركما فارس على هذا الرأي، وأن تعرضاها للهلكة، ما تنتظرون،.والله ما تنتظرون إلا أن ينزل بنا ونهلك، ما بعد ساباط وبغداد وتكريت إلا المدائن، والله ما جرأ علينا هذا غيركم، ولولا أن في قتلكم هلاكنا لعجلنا لكم القتل الساعة، ولئن لم تنتهوا لنهلكنكم ثم نهلك وقد اشتفينا منكم.

قالوا: فقال الفيزران ورستم لبوران ابنة كسرى: اكتبي لنا نساء كسرى وسراريه ونساء آل كسرى وسراريهم. ففعلت، وأخرجت ذلك إليهم في كتاب، فأرسلوا في طلبهن فلم تبق امرأة منهن إلا أتوا بها، فوضعوا عليهن العذاب يستدلونهن على ذكر من آل كسرى، فلم يوجد عند واحدة منهن أحد منهم، وقلن، أو من قال منهن: لم يبق منهم إلا غلام يدعى يزدجرد من ولد شهريار (٢) بن كسرى، وأمه من أهل داريا (٣)، فأرسلوا إليها فأخذوها به، فدلتهم عليه، وكانت قد دفعته إلى أخواله في أيام شيري (٤) حين جمعهن في القصر الأبيض فقتل الذكور، واعدتهم ثم دلته إليهم في زبيل (٥) فأرسلوا إليه

(١) راجع: الطبري ج ٣ ص ٤٧٧ - ٤٧٩، والكامل لابن الأثيرج ٢ ص ٣٠٨ - ٣٠٩.
(٢) في الأصول: شهريرار، والتصويب من الطبري.
(٣) قرية مشهورة من قرى غوطة دمشق - ياقوت. معجم البلدان ج ٢ ص ٤٣١.
(٤) في الأصول: «شيرين»، والرسم من الطبري.
(٥) الزبيل: الجُراب أو الوعاء.

فجاءوا به وهو ابن إحدى وعشرين سنة فملكوه، واجتمعوا عليه، واطمأنت فارس واستوثقوا [1]، وتبارى الرؤساء في طاعته ومناصحته ومعونته، فسمى الجنود لكل مسلحة كانت لكسرى، أو موضع ثغر، وبلغ ذلك من أمرهم واجتماعهم على يزدجرد المثنى والمسلمين، فكتبوا بذلك إلى عمر ـ رحمه الله ـ بما ينتظرون ممن بين ظهرانيهم، فلم يصل الكتاب إلى عمر حتى كفر أهل السواد، من كان له منهم عهد ومن لم يكن له. فخرج المثنى على حاميته حتى ينزل بذي قار، وينزل الناس بذي الطف في عسكر واحد، فكتب إليهم عمر:

أما بعد، فاخرجوا من بين ظهراني الأعاجم، وتفرقوا في المياه التي تليهم على حدود أرضكم وأرضهم، ولا تدعوا في ربيعة ومضر أحداً من أهل النجدات، ولا فارساً إلا اجلبتموه، فإن جاء طائعا وإلا حشدتموه، احملوا العرب على الجد إذا جد العجم، لتلقوا جدهم بجدكم.

فنزل المثنى بذي قار، ونزل الناس بالجل وشراف إلى غضي - وغضي جبال البصرة - وكان جرير بن عبد الله بغضي وسبرة بن عمرو العنبري ومن أخذ أخذهم فيمن معهم إلى سلمى فكانوا في أمواه العراق من أولها إلى آخرها مسالح ينظر بعضهم إلى بعض، ويغيث بعضهم بعضا إن كان كون، وذلك في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة.

وعادت مسالح كسرى وثغوره وهم في ملك فارس هائبون مشفقون، والمسلمون يتدفقون قد ضروا بهم كالأسد يثأر عن فريسته، ثم يعاود الكر وأمراؤهم يكفكفونهم، لأن عمر ـ رحمه الله ـ كان أمرهم أن لايقاتلوا إلا أن يقاتلوا حتى يأتيهم أمره وتصلهم أمداد المسلمين.

---

(١) في الأصل: استوسقوا

تأمير عمر ـ رضي الله عنه ـ سعد بن أبي وقاص على العراق وذكر الخبر عن حرب القادسية(*)

ذكر المدائني بإسناده إلى رجال من أهل العلم يزيد بعضهم على بعض أن عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان يخير من قدم عليه من العرب بين الشام وبين العراق، فكانت مضر تختار العراق وتختار أهل اليمن الشام، فقال عمر: اليمن أشد تعاطفا يحنون إلى سلفهم، ونزار كلهم سلف نفسه، ومضر لا تحن إلى سلفها، ولم يكن أحد من العرب أشد إقداما على أرض فارس من ربيعة، فبلغ عمر اختلاف المثنى بن حارثة وجرير بن عبد الله في الإمارة، فاستشار الناس، فقال المغيرة بن شعبة: يا أمير المؤمنين تداركهم برجل من المهاجرين واجعله بدرياً، فقال: أشيروا عليّ برجل، فقال عبد الرحمن بن عوف: قد وجدته، قال: من هو؟ قال سعد بن أبي وقاص، قال: هو لها، فكتب عمر إلى المثنى: لم أكن لأستعملك على رجل من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ وكتب إلى جرير والمثنى: إني موجه سعداً إليكما، فاسمعا له وأطيعا.

(*) الخبر مثبت في: البلاذري. فتوح البلدان ص ٣٠٣ ـ ٣٢٠، الدينوري. الأخبار الطوال ص ١١٩ ـ ١٢٧، البلخي. البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٧٠ ـ ١٧٤، المسعودي. مروج الذهب ج ١ ص ٥٢٧ ـ ٥٣٢، ابن أعثم الكوفي. كتاب الفتوح ج ١ ص ١٩٥ ـ ٢١٤، ابن الأثير. الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٣٠٩ ـ ٣٣٨، الدواداري. كنز الدرر ج ٣ ص ١٩٦ ـ ١٩٨، النويري. نهاية الأرب ج ١٩ ص ١٨٩ ـ ٢١٩، أبو الفدا. المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٦١، ابن الوردي. تتمة المختصر ج ١ ص ٢٢١ ـ ٢٢٢، ابن كثير. البداية والنهاية ج ٧ ص ٣٧ ـ ٤٧، تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٣١٣ ـ ٣٢١.

وذكر الطبري (١) وغيره في هذا // الموضع من تحرك عمر - رضي الله عنه - ١٨٨ أ
للخروج إلى العراق بنفسه واستدعائه وجوه المهاجرين والأنصار للمشورة عليه فيه، بعد أن خرج بذلك الرسم فنزل صرارا، وقدم بين يديه طلحة بن عبيد الله فنزل الأعوص، وخلف بالمدينة علي بن أبي طالب والياً عليها، وإشارة أولي الرأي عليه بالرجوع إلى المدينة، والاستخلاف على ذلك الوجه، واستنفار العرب له - ما قد فرغنا من ذكره في صدر وقعة البويب من خبر الجسر (٢) - حيث ذكره المدائني، ولعل ذلك الموضع أولى به، فإن يكن كذلك فقد ذكرناه حيث ينبغي، وإن يكن موضعه هذا فقد نبهنا عليه ليعرف ما وقع فيه من الاختلاف بين المؤلفين في هذا الشأن، بحسب ما تأدي إليهم من جهة النقل، والأمر في ذلك قريب، والاختلاف في المنقولات غير مستنكر، والله تعالى أعلم.

وقد كان أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - استعمل سعد بن أبي وقاص على صدقات هوازن بنجد، فأقره عمر عليها، فلما أتاه اجتماع فارس، وقيام يزدجرد في قول من جعل قيامه بعد وقعة البويب، خلافاً لما ذكره المدائني وآخرون معه، من قيامه قبل ذلك، حسب ما قدمناه. كتب عمر إلى المسلمين بما عملوا به قبل انتهاء كتابه إليهم من الوقوف على حدود أرضهم، وأن يستخرجوا كل ذي سلاح وفرس ممن له رأي ونجدة فيضموه إليهم حتى يأتيهم أمره، وكتب إلى عمال العرب على الكور والقبائل وذلك في ذي الحجة سنة ثلاث عشرة مخرجه إلى الحج يأمرهم - أيضاً - بانتخاب الناس أولى الخيل والسلاح والنجدة والرأي، ويستعجلهم في توجيههم إليه، وكتب بمثل ذلك إلى سعد بن أبي وقاص، فجاءه كتاب سعد:

إني قد انتخبت لك ألف فارس مرد كلهم له نجدة ورأي، يحوط حريم قومه، ويمنع زمارهم، إليهم انتهت أحسابهم وآراؤهم، فشأنك بهم.

---

(١) الطبري ص ٤٨٠ وما بعدها.

(٢) راجع ص ٤٨ وما بعدها من هذا الجزء.

فوافق وصول كتاب سعد بهذا مشاورة عمر الناس في رجل يوجهه إلى العراق، فقالوا: قد وجدته، قال: من؟ قالوا: الأسد عادياً، سعد بن مالك، فانتهى إلى رأيهم، وأرسل إليه، فقدم عليه، فأمّره على حرب العراق وأوصاه، فقال: ياسعد، سعد بني وهيب [1]، عليك بتقوى الله؛ فإن الله لا يمحو السيء بالسيء. ولكن يمحو السيء بالحسن، ولا يغرنك أن يقال صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإن الله - عز وجل - ليس بينه وبين أحد سبب إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده، يتفاضلون بالعاقبة، ويدركون ما عنده بالطاعة، ألم تسمع لقول الله - تبارك وتعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ (٨٤ :القصص)، و :﴿من جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار﴾ (٩٠ : النمل) وقد رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مذ بعثه الله حتى قبضه إليه، فالزم ما رأيته عليه، وإني موجهك إلى أرض فارس فسر على بركة الله فقد استعملتك على من مررت به من القبائل، ممن سقط إليكم من العرب، فاندبهم إلى الجهاد ورغبهم فيه واعلمهم ما أعد الله لأهله، فمن تبعك منهم فأحسن إليه، وارفق [2] بهم، واجعل كل قبيلة على منزلها، ومن لم يبلغ أن تستنفره بمن معه من قبيلة فاجعله مع من أحب، وانزل فيداً حتى يأتيك أمري.

وفي رواية أنه قال لما أراد أن يسرحه:

إني قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتي،فإنك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلص منه إلا الحق، فعود نفسك ومن معك الخير، واستفتح به. واعلم أن لكل عادة عتادا، وعتاد الخير الصبر، فالصبر الصبر تجتمع لك به خشية الله. واعلم أن خشية الله تجتمع لك في أمرين: في طاعته واجتناب معصيته، وإنما أطاعه من أطاعه بحب الآخرة وبغض الدنيا، وعصاه من عصاه بحب الدنيا

---

(١) في الأصول: أهيب، والتصويب من الطبري.

(٢) في الأصول: ورافق.

وبغض الآخرة، وللقلوب حقائق ينشئها الله ـ عز وجل ـ انشاء، منها السر والعلانية، فأما العلانية فأن يكون حامده وذامه في الحق سواء، وأما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه، وبمحبة الناس إليه، فلا تزهد في التحبب فإن النبيين قد سألوا محبتهم، وإن الله ـ تعالى ـ إذا أحب عبداً حببه إلى خلقه، وإذا أبغض عبداً بغضه إليهم، فاعتبر منزلتك عند الله ـ عز وجل ـ بمنزلتك عند الناس، ممن يسرع معك في أمرك.

وذكر المدائني أن عمر ـ رضي الله عنه ـ كتب لسعد مع ما أوصاه به عهداً يقول له فيه:

أوصيك بتقوى الله والرغبة فيما عنده، فادع الناس إلى الله، فمن أجابك فهو أولى بماله وأهله وولده، وليس لك منه إلا زاد بلاغ إن احتجت، وعظ نفسك وأصحابك ولا تكثر عليهم فيملوا، واجعلهم رفقاء أخوانا، وألن لهم جناحك، وحطهم بنفسك كنفسك، واعلم أن المسلمين في جوار الله، وأن المسلم أعظم الخلق عند الله حرمة، ولا يطلبنك الله بخفرته في أحد منهم، واحذر عليهم واحفظ قاصيتهم، وعد مريضهم، وانصف مظلومهم، وخذ لضعيفهم من قويهم، واصلح بينهم، وألْزِمْهم القرآن وخوفهم بالله، وامنعهم من ذكر الجاهلية وما كان فيها، فإنها تورث الضغينة وتذكرهم الذحول، واعلم أن الله قد توكل من هذا الأمر بما لا خلف فيه، فاحذر أن يصرف الله ذلك عنك بذنب ويستبدل بكم غيركم، واحذر من الله ما حذركم من نفسه، فإنك تجد ما قدمت يداك من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً (*).

ثم سرحه فيمن اجتمع إليه بالمدينة من نفير المسلمين، فخرج سعد بن أبي وقاص من المدينة قاصداً للعراق في أربعة آلاف، ثلاثة آلاف من أهل اليمن والسراة، وألف من سائر الناس.

(*) ذلك مقتبس من قوله تعالى: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا، ويحذركم الله نفسه، والله رءوف بالعباد﴾ (٣٠: آل عمران).

قالوا: [1] وشيعهم عمر ـ رحمه الله ـ من صرار إلى الأعواص، ثم قام في الناس خطيباً فقال:

إن الله تعالى إنما ضرب لكم الأمثال، وصرف لكم القول ليحيي بذلك القلوب، فإن القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها الله تعالى، من علم شيئاً فلينتفع به، وإن للعدل أمارات وتباشير، فأما الأمارات: فالحياء والسخاء والهين واللين[2]، وأما التباشير فالرحمة، وقد جعل الله لكل أمر باباً، ويسر لكل باب مفتاحاً، فباب العدل الإعتبار ومفتاحه الزهد، والإعتبار ذكر الموت بتذكر الأموات، والاستعداد له بتقديم الأعمال، والزهد أخذ الحق إلى كل أحد له حق، ولا يصانع في ذلك أحداً، // ويكتفي بما يكفيه من الكفاف، فإن لم ١٨٨ ب
يكفه الكفاف لم يغنه شيء، إني بينكم وبين الله ـ وليس بيني وبين الله أحد، وإن الله ـ عز وجل ـ قد ألزمني دفع الدعاء عنه، فأنهوا شكاتكم إلينا، فمن لم يستطع فإلى من يبلغناها نأخذ له الحق غير متعتع.

فسار سعد في عام غيداق[3] خصيب، حتى نزل فيداً فأقام بها أشهراً، وجعل عمر لا يأتيه أحد من العرب إلا وجهه إليه، ثم كتب إليه أن يرتفع بالناس إلى زرود[4]، فأتاها وأقام بها، وأتاه من حولها من بني تميم من حنظلة، وأتته سعد والرباب وعمرو، فكان ممن أتاه عطارد ولبيد بن عطارد والزبرقان ابن بدر وحنظلة بن ربيعة الأسدي وربعي أبو شبيب بن ربعي الرياحي وهلال ابن علقمة التميمي والمنذر بن حسان الضبي، فقالت رؤساء حنظلة: يا بني تميم قد نزل بكم الناس، وهم قبائل الحجاز واليمن وأهل العالية، وقد لزمكم قراهم، فشاطروهم الرّسل، ففعلوا، فمن كان له منحتان قصر إحداهما عليهم، ومن كان له أكثر فعلى حساب ذلك، فقروهم شتوة بزرود.

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٨٥.

(٢) الهين: التسهيل والسكينة والوقار، واللين: ضد الخشونة وفي الأصول: «الهون واللون».

(٣) الغدق محركة: الماء الكبير، والغيداق: الناعم الكريم.

(٤) زرود: رمال بين الثعلبية والخزيمية بطريق الحاج من الكوفة، سميت بذلك لابتلاعها المياه التي تمطرها السحاب - ياقوت. معجم البلدان ج ٣ ص ١٣٩.

وكان عمر أمد سعداً بعد خروجه - فيما ذكر سيف[1] عن أشياخه - بألفي يماني[2] وألفي نجدي مُرْدٍ من غطفان وسائر الناس، فنزلوا معه زرود في أول الشتاء وتفرقوا فيما حولها. وأقام سعد ينتظر اجتماع الناس وأمر عمر، وانتخب من بني تميم والرباب أربعة آلاف، منهم ألف من الرباب، وانتخب من بني أسد ثلاثة آلاف، وأمرهم أن ينزلوا على حد أرضهم بين الحزن والبسيطة، فأقاموا هنالك بين سعد بن أبي وقاص وبين المثنى بن حارثة، والمثنى بذي قار، ويقال بأليس، وقال بعضهم: بشراف، وجرير ومن معه من أخلاط الناس متفرقون فيما بين العذيب إلى خصي، ويقال: غضي.

وكان المثنى في ثمانية آلاف من ربيعة، منهم ستة آلاف من بكر بن وائل، وألفان من سائر ربيعة، منهم أربعة آلاف ممن كان المثنى انتخبه بعد فصول خالد عنه إلى الشام، وأربعة آلاف كانوا معه ممن بقي يوم الجسر. وكان معه من أهل اليمن ألفان من بجيلة، وألفان من قضاعة وطيء ممن انتخب إلى ما كان قبل ذلك، على طيء عدي بن حاتم، وعلى قضاعة عمرو بن وبرة، وعلى بجيلة جرير بن عبد الله، فبينا الناس كذلك، سعد يرجو أن يقدم عليه المثنى، والمثنى يرجو أن يقدم عليه سعد، انتقضت بالمثنى جراحاته التي كان أصيب بها يوم الجسر، فمات - رحمه الله - ولما أحس بالموت استخلف على الناس بشير بن الخصاصية، وكتب إلى سعد:

كتبت إليك وأنا لا أراني إلا لما بي، فإن أهلك أو أسلم فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله - ﷺ - وأن الجنة مأوى المتقين، وأن النار مثوى الكافرين، ولا أخال العجم إلا سيجمعون على حربك، فهم لاقوك بجمع لم يلقونا بمثله وقد أراني الله إن كان قضى بينك وبينهم حرباً أن تقاتلهم على أدنى حجر من بلادك، على حد أرضهم، فإن ظفرتم فلكم ما وراءهم، وإن كانت

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٨٦.

(٢) في الأصول: يمان.

الأخرى ـ ولا أراها الله المسلمين ـ كنتم أعلم بسبيلكم وأجرأ على طريقكم وأجرأ على أرضكم، وانحزتم إلى فئتكم إلى أن يرد الله لكم الكرة عليهم.

وكان مع بشير بن الخصاصية عندما استخلفه المثنى وجوه أهل العراق، ومع سعد وجوه أهل العراق الذين قدموا على عمر ـ رحمه الله ـ فيهم فرات بن حيان العجلي وعتيبة بن النهاس، فردهم مع سعد.

فمن أجل ذلك اختلف الناس في عدد أهل القادسية، فمن قال: هم أربعة آلاف فلمخرجهم مع سعد من المدينة، ومن قال: ثمانية آلاف فلاجتماعهم بزرود، ومن قال: تسعة آلاف فللحاق القيسيين، ومن قال: اثنا [1] عشر ألفاً فلدفوف بني أسد من فروع الحزن بثلاثة آلاف. وقدم عليه بعد ذلك ناس كثير مع الأشعث بن قيس وغيره.

قالوا: فجميع من شهد القادسية بضعة وثلاثون ألفاً.

وكتب سعد إلى عمر ـ رحمه الله ـ بموت المثنى، فكتب إليه: أن سر حتى تنزل بشراف، وأحذر على من معك من المسلمين، وعليك بالإصلاح ما استطعت.

فارتحل سعد عن زرود ومعه تميم وقيس واليمن وغيرهم، وفيهم رجالة فحمل بنو تميم ضعفاءهم حتى قدموا شراف فنزلها، فأتاهم بشير بن الخصاصية وجرير ومن كان معه بفروع الحزن، وقدم عليه المعنى بن حارثة ـ أخو المثنى ـ وقدمت معه زوج المثنى، سلمى بنت خصفة من بني تيم اللات بوصيته إلى سعد، وكان قد أوصى بها وأمرهم أن يعجلوها عليه بزرود، فلم يفرغوا لذلك، وشغلهم عنه قابوس بن قابوس بن المنذر إلى أن انقضى ذلك، كما نذكره بعد عند ذكر مقتل قابوس على ما ذكره المدائني. فقدم حينئذ المغنى وسلمى على سعد بوصية المثنى ورأيه، فترحم عليه سعد عندما انتهى ذلك إليه، وأمّر أخاه المعنى على عمله، وأوصى بأهل بيته خيراً، وخطب سلمى فتزوجها وبنى بها، وبنى مسجداً

(١) في الأصل: اثنى.

بشراف، فقال بعض التميميين يذكر نفيرهم إلى سعد وقراهم له وحملانهم:

فَنَفَرْنا إليهمُ باحتسابٍ | لم نُعرِّجْ ولم نَذُقْ تغميضا
وَقَرَيْناهُمُ ربيعا من الرِّسْل | حقينا مثملا وغريضا
وحملنا رجالَهم من زرودٍ | إذْ تَعَايَوْا فلم يطيقوا النهوضا

(الخفيف)

وكتب سعد إلى عمر حين نزل شراف يخبره بمكانه فقال: لأرمين فارس وابناءها بالمهاجرين وأبناء المهاجرين، فوجه ألفاً ومائة منهم ممن شهد بدراً نيف وأربعون رجلاً وسائرهم ممن شهد بيعة الرضوان إلى الفتح، وحضهم عمر ـ رحمه الله ـ فقال: إن أحب عباد الله إلى الله وأعظمهم عنده منزلة أتقاهم له وأشدهم منه رجلاً، فعليكم بتقوى الله والإصلاح ما استطعتم، وما التوفيق إلا بالله، الزموا الطاعة يجمع الله لكم ما تحبون من دينكم ودنياكم، واوفوا بالعهد لمن عاهدتم، وإياكم والغدر والغلول فإنه من يغلل يأت بما غل يوم القيامة، ومن غدر أدال الله منه عدوه، ووهن كيده، فافهموا ما توعظون به، واعقلوا على الله أمره، ولا تكونوا كالجفاة الجاهلية.

وعن سيف[1] أن عمر ـ رحمه الله ـ قال: والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب، فلم يدع رئيساً، ولا ذا رأي، ولا ذا شرف، ولا ذا سلطة، ولا // ١٨٩ أ
خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به، فرماهم بوجوه الناس وغررهم.

وكتب عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى أبي عبيدة وهو بالشام أن يمد سعداً بمن كان عنده من أهل العراق، وكانوا ستة آلاف، ومن اشتهى أن يلحق بهم، وكتب إلى المغيرة بن شعبة أن يسير إلى سعد من البصرة، وكتب إلى سعد بمثل رأي المثنى الذي أشار به على سعد:

أما بعد، فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين، وتوكل على

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٨٧.

الله، واستعن به على أمرك كله، واعلم أنك تقدم على أمة عددهم كثير، وعدتهم فاضلة، وبأسهم شديد، وعلى بلد وإن كان سهلا كؤود لبحوره وفيوضه ودآدئه، فإذا لقيتم القوم أو أحدا منهم فابدءوهم الضرب والشد، وإياكم والمناظرة لجموعهم، ولا يَخْدَعُنَّكم، فإنهم خدعة مكرة، أمركم غير أمرهم، إلا أن تجادوهم، فإذا انتهيت إلى القادسية - والقادسية باب فارس في الجاهلية، وهي أجمع تلك الأبواب لما تريد ويريدون، وهو منزل رحيب خصيب حصين دونه قناطر وأنهار ممتنعة - فتكون مسالحك على أنقابها، ويكون الناس بين الحجر والمدر على أقصى حجر من أرض العرب، وأدنى مدرة من أرض العجم، ثم الزم مكانك فلا تبرحه، فإنهم إذا أحسوك أنقضتهم ورموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم، فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم بقتالهم، رجوت أن تنصروا عليهم، ثم لا يجمع لكم مثلهم أبدا إلا أن يجتمعوا، وليست معهم قلوبهم، وأن تكن الأخرى كان الحجر في أدباركم، فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم، ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل، حتى يأتيكم الله بالفتح، ويرد لكم الكرة، وليكن منزلك الذي تنزله رحيبا خصيبا، وإذا نزلت منزلا فلا تستأخر عنه، فإن ذلك وهن عليك وجرأة لعدوك، وأذك العيون واتبع الغرض ولا تأمنن قريبا ولا بعيدا، وصف لي منزلك الذي تنزله، وكم بينك وبين أول عدوك وآخره، وكيف مأتاهم، وسم لي المنزل، فإنه قد ألقى في روعي أنكم ستفتحون فارس، وأنكم الأعلون.

وفي رواية أنه كتب إليه باليوم الذي يرتحل فيه من شراف، وأين ينزل بالناس فيما بين عذيب والهجانات، وعذيب والقوادس، وأن يشرق بالناس ويغرب بهم. فارتحل سعد عن شراف يريد أن ينزل منزلا على ما كتب به إليه عمر، فانتهى إلى المغيثة[1] فأقام وبنى مسجدا بين الفرعاء والمغيثة، وقدم بين

---

(١) المغيثة: ركية بين القادسية والعذيب، بينها وبين القادسية أربعة وعشرون ميلا - ياقوت. معجم البلدان ج ٥ ص ١٦٣.

يديه زهرة بن عبد الله بن قتادة بن الجوية يرتاد له منزلا ، فأقبل زهرة حتى انتهى إلى العذيب ، وكتب إلى سعد فأقبل في أثره فنزل المسلمون ما بين العذيب إلى القادسية ، وهي أحساء ، فقال في ذلك النعمان بن مقرن المزني ، وتروى لغيره :

نزلنا بـأحْسـاء العـذيـب ولم تكـنْ   لنـا همـةُ إلا اختيـارَ المنـازلِ
لنخْـوِيَ أرضـا أو ننـاهِـبَ غـارةً   يضـج لها مـابين بُصْرَى وبَـابِـلِ
(الطويل)

ونزل زهرة القادسية بين العتيق والخندق بحيال القنطرة وقديس ، وهي يومئذ أسفل منها بميل ، وكتب سعد إلى عمر : إنا نزلنا من القادسية والعذيب منزلا خصيبا رحيبا على أقصى حجر من أرضنا وأدنى مدرة من أرض عدونا ، فأما عن يسار القادسية فبحر أخضر لاج إلى الحيرة بين طرفين ، أما أحدهما فعلى الظهر ، وأما الآخر فعلى شاطىء نهر يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق والحيرة ، وأما عن يمين القادسية ففيض من فيوض مياههم . وبيننا وبين أدنى عدونا منا خمسة عشر ميلا ، ولم يبلغني من الذي أسندوا إليه أمرهم إلى أن كتبت إليك ، ومتى يبلغني ذلك أكتب به إليك إن شاء الله ، ونحن متوكلون على الله راجعون له .

ولما بلغ أهل فارس اجتماع العرب لهم ، وكثرة من انثال على سعد من رؤسائهم ووجوههم ، عظم ذلك عليهم ، ورعبهم .وزادهم نزولهم القادسية رعبا وضيقاً ، فعج أهل السواد إلى يزدجرد بن شهريار وأرسلوا إليه : أن العرب قد نزلوا القادسية بأمر ليس يشبه إلا الحرب ، وأن فعلهم منذ نزلوها لا يبقى عليه شيء ، وقد أخربوا ما بينهم وبين الفرات ، فليس هنالك أنيس إلا في الحصون ، وقد ذهبت الدواب وكل شيء لم تحتمله الحصون من الأطعمة ، ولم يبق إلا أن يستنزلونا ، فإن أبطأ عنا الغياث أعطيناهم بأيدينا . وكتب إليه بذلك الملوك الذين لهم الضياع بالطَّفِّ ، وأعانوهم عليه .

ولما كثرت الإستغاثة من أهل السواد على يزدجـرد خشعت نفسه واتقى

الحرب برستم فأرسل إليه، فدخل عليه، فقال: إني أريد أن أوجهك في هذا الوجه، وإنما يعد للأمور على قدرها، وأنت رجل أهل فارس اليوم، وأنت لها، وقد ترى ما جاء أهل فارس من أمر لم يأتهم منذ ولى آل أردشير (١).

فأراه رستم أن قد قبل منه، وأثنى عليه، فقال له الملك: قد أحببت أن أنظر فيما لديك لأعلم ما عندك، فصف لي العرب وفعلهم، وصف لي العجم وما يلقون منهم. فقال رستم: صفة ذئاب صادفت غرة من رعاء فأفسدت. فقال: ليس كذلك، إنما سألتك رجاء أن تعرف صفتهم فأقويك لتعمل على قدر ذلك فلم تصب، فافهم عني، إنما مثلهم ومثل أهل فارس كمثل عقاب أوفت على مرقب عند جبل تأوي في ذراة الطير تبيت في أوكارها، فإذا أصبحت الطير تجلت، فأبصرت العقاب ترقبها، فخافتها فلم تنهض، وطمعت العقاب، فلم تَرِمْ، وجعلت كلما شذ منها طائر انقضت عليه فاختطفتها، حتى أفنتها، فلو نهضت بأجمعها نهضة واحدة لنجت، وأشد شيء يكون في ذلك أن تنجو كلها إلا واحدا، فهذا مثلهم ومثل الأعاجم، فاعمل على قدر ذلك، فإني أريد أن أوجه إلى هؤلاء القوم جمعا أستأصلهم به.

فسجد له رستم، وقال: الملك أفضل رأيا، وأيمن أمرا، وأسعد جدا، وإن أذن لي تكلمت.

قال: قل. قال: هزيمة جيش بعد جيش أمثل وأبقى من هزيمة الجماعة التي ليس بعدها مثلها، فأبى عليه يزدجرد إلا أن يجمع // له الناس ويوجهه بهم إلى
١٨٩ ب العرب، فقال له رستم: أيها الملك دعني فإن العرب لاتزال تهاب العجم ما لم تضربهم بي، ولعل دولة تكون فيكون الله قد كفى، ونكون قد أصبنا المكيدة ورأي الحرب، فإن الرأي فيها والمكيدة أنفع من بعض الظفر، فألح (٢) يزدجرد وترك الرأي، وكان ضيقا لجوجا، وقال لرستم: امض حتى يأتيك أمرى، فخرج حتى ضرب عسكره بساباط ووجه إليه الملك المرازبة والقواد والأساورة واستحثه

(١) في الأصول: يزد شير.
(٢) في الأصل: فلح.

في المسير، فأعاد عليه رستم كلامه، وقال: أيها الملك إن هزيمتي لهم دونها ما بعدها وعليكم دونها ما بعدها، ولقد اضطرني تضييع الرأي إلى اعظام نفسي وتزكيتها، ولوأجد من ذلك بدا لم أتكلم به، فأنشدك الله في أهلك ونفسك وملكك، دعني أقم بعسكري وأسرج الجالينوس، فإن تكن لنا فذاك، وإلا فأنا على رجل وأبعث غيره، حتى إذا لم نجد بداً ولا حيلة صبرنا لهم، وقد وهناهم وحسرناهم ونحن جامون، موفورون. فأبى إلا أن يسير.

ولما نزل رستم بساباط وجمع أداة الحرب وآلاتها، بعث على مقدمته الجالينوس في أربعين ألفا، وخرج هو في ستين ألفا، وساقته في عشرين ألفا، وعليها الفيرزان، وعلى ميمنته الهرمزان، وعلى الميسرة مهران بن بهرام الرازي، وقال رستم: ليشجع الملك إن فتح الله علينا هؤلاء القوم فهو وجهنا إلى ملكهم في داره حتى نشغلهم في أهلهم وبلادهم، إلا أن يقبلوا المسالمة ويرضوا بما كانوا يرضون به.

وقال سيف عن أشياخه (١) : خرج رستم في عشرين ومائة ألف كلهم متبوع، فكانوا بأتباعهم أكثر من مائتي ألف، ثم أن رستم رأى رؤيا فكرهها، وأحس لها الشر، وكره لها الخروج ولقاء القوم، واختلف عليه رأيه واضطرب، وسأل الملك أن يمضي الجالينوس، ويقيم حتى ينظر ما يصنعون، وقال: إن غناء الجالينوس كغنائي، وإن كان أسمي أشد عليهم من اسمه، فإن ظفر فهو الذي نريد، وإن تكن الأخرى وجهنا مثله، ودافعنا هؤلاء القوم إلى يوم ما، فإني لا أزال مرجوا في أهل فارس ما لم أهزم، ولا أزال مهيباً في صدور العرب، ولا يزالون يهابون الإقدام ما لم أباشرهم، وإن باشرتهم اجترءوا آخر دهرهم، وانكسر أهل فارس آخر دهرهم.

قالوا: ولما أبى الملك إلا مسير رستم، كتب رستم إلى أخيه وإلى رءوس بلاده: من رستم بن البندوان إلى مرزبان الباب وسهم أهل فارس، الذي كان يعد لكل عظيمة، فيفض الله به الجموع، ويفتح به الحصون، ومن قبله من عظماء أهل

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٥٠٥ وما بعدها.

فارس والمرازبة والأساورة، فرموا حصونكم، وأعدوا واستعدوا، فكأنكم بالعرب هذه الأمة الذليلة كانت عندكم الخسيسة المنزلة الضيقة المعيشة قد وردوا بلادكم، وقارعوكم على أرضكم وأبنائكم، وانتزعوا ما في أيديكم، وكان من رأيي مدافعتهم ومطاولتهم حتى تعود نجومنا فأبى الملك.

ويقال: إن رستم عندما أمره يزدجرد بالنهوض إلى ساباط كتب إلى أخيه بنحو الكتاب الأول وزاد فيه: أن السمكة قد كدرت الماء، وأن النعائم قد حبست، وحسنت الزهرة، واعتدل الميزان، وذهب بهرام، ولا أرى هؤلاء القوم إلا سيظهرون علينا، ويستولون على ما قبلنا، وأن أشد ما رأيت أن الملك قال: لتسيرن إليهم أو لأسيرن إليهم بنفسي. وأنا سائر إليهم.

وكان الذي جرأ يزدجرد على إرسال رستم غلام جابان منجم كسرى، وكان من أهل فرات بادقلي، فأرسل إليه وقال: ما ترى في مسير رستم وحرب العرب اليوم؟ فخافه على الصدق فكذبه، وكان رستم يعلم نحوا من علمه، فثقل عليه مسيره لأجل ذلك، وخف على الملك لما غره منه، وقال الملك للغلام: إني أحب أن تخبرني بشيء أراه أطمئن به إلى قولك، فقال الغلام لزرنا[1] الهندي: (أخبره. فقال:)[2] سلني، (فسأله)[3] فقال: أيها الملك، يقبل طائر فيقع على إيوانك، فيقع منه شيء في فيه هاهنا ـ وخط دائرة ـ فقال الغلام: صدق، والطائر غراب، والذي في فيه درهم. فيقع منه على هذا المكان.

وبلغ جابان أن الملك طلبه، فأقبل حتى دخل عليه، فسأله عما قال غلامه، فحسب، فقال: صدق ولم يصب، إنما الطائر عقعق، والذي في فيه درهم، فيقع منه على هذا المكان، وكذب زرنا. يندر[4] الدرهم من هاهنا فيستقر هاهنا، ودور دائرة أخرى ـ فما قاموا حتى وقع على الشرفات عقعق، فسقط منه درهم في الخط الأول، فنزا[5] فسقط في الخط الآخر، ونافر الهندي جابان حيث

(١) في الأصول: درنا.
(٢ ـ ٣) مضاف من الطبري.
(٤) ندر: سقط.
(٥) نزا: تحرك.

خطأه، فأتيا ببقرة نتوج، فقال الهندي: سخلتها[1] غراء سوداء، فقال جابان: كذبت، بل سوداء صبغاء، فنحرت البقرة فاستخرجت سخلتها، فإذا ذنبها أبيض، وهو بين عينيها، فقال جابان: من هاهنا أتى، وشجعاه على إخراج رستم، فأمضاه.

ولما فصل رستم من ساباط، لقيه جابان على القنطرة، فشكا إليه، وقال: ألا ترى ما أرى؟ فقال رستم: أما أنا فأقاد بخشاش[2] وزمام، ولابد من الإنقياد، وأمر الجالينوس بالتقدم إلى الحيرة، فمضى نحوها حتى اضطرب عسكره بالنجف، وخرج رستم بعده حيث ينزل بكوثى، وأمر الجالينوس عندما قدمه أن يصيب له رجلاً من العرب من جند سعد، فخرج هو والآزاذمرد ـ مرزبان الحيرة ـ في سرية حتى انتهيا إلى القادسية فأصابا دون قنطرتها رجلا، فاختطفاه، ونفر الناس فأعجزوهم إلا ما أصاب المسلمون في أخرياتهم، فلما انتهيا إلى النجف سرحا به إلى رستم، وهو بكوثى؛ فقال له رستم: ما جاء بكم؟ وماذا تطلبون؟ قال: جئنا نطلب موعود الله ـ عز وجل ـ قال: وما موعود الله ـ عز وجل؟ قال: أرضكم وأبناؤكم ودماؤكم إن أنتم أبيتم أن تسلموا. قال رستم فإن قتلتم قبل ذلك؟ قال: في موعود الله ـ عز وجل ـ من قتل منا قبل ذلك أدخله الله الجنة، وأنجز لمن بقي منا ما قلت لك، فنحن من ذلك على اليقين. فقال له رستم: قد وضعنا إذا في أيديكم، فقال: ويحك يا رستم إن أعمالكم وضعتكم فاسلمكم الله بها، فلا يغرنك ما ترى حولك، فإنك لست تحاول الإنس، إنما تحاول القضاء والقدر فاستشاط، فأمر به فضربت عنقه ـ رحمه الله.

١٩٠ أ وارتحل رستم من كوثي وكأنه يقاد بزمام حتى // إذا كان ببرس أفسد أصحابه وغصبوا الناس أموالهم ووقعوا على نسائهم، فضج العلوج إلى رستم، وشكوا إليه

---

(١) سخلتها: ولدها الذي هو في بطنها ـ هنا.

(٢) الخشاش بالكسر: ما يدخل في عظم أنف البعير من خشب.

ما يلقون من أصحابه، فجمع المرازبة والرؤساء فقام فيهم فقال: يا معشر أهل فارس، والله لقد صدق العربي، والله ما أسلمتنا إلا أعمالنا، والله للعرب في هؤلاء وهم لهم ولنا حرب أحسن سيرة منكم. إن الله - عز وجل - إنما كان ينصركم على العدو، ويمكن لكم في البلاد بالعدل وحسن السيرة، فأما إذ تحولتم عن ذلك، فأظهرتم البغي، وسارعتم في الفساد، فلا أرى الله - عز وجل - إلا مغيرا ما بكم، وما أنا بآمن أن ينزع الله سلطانه منكم، فإنه لم يفعل هذا قوم إلا نزع عنهم النصر، وسلط عليهم العدو.

ثم بعث الرجال، فلقطوا بعض الذين شُكُوا فضربت أعناقهم، ثم نادى في الناس بالرحيل، فسار حتى نزل بجبال دير الأعور، ودعا أهل الحيرة وسرادقه إلى جنب الدير، فأوعدهم وهم بهم، وقال: يا أعداء الله، فرحتم بدخول العرب علينا بلادنا، وكنتم عيونا لهم علينا، وأعنتموهم بالأموال فاتقوا بابن بقيلة، وقالوا له: كن أنت الذي تكلمه، فتقدم إليه ابن بقيلة فقال له: لا تجمع علينا أمرين: العجز عن نصرنا واللآئمة لنا في الدفع عن أنفسنا وبلادنا، أما قولك أنا فرحنا بمجيئهم، وبأي ذلك من أمرهم نفرح؟ إنهم يزعمون أنا عبيد لهم، وما هم على ديننا، وأنهم ليشهدون علينا أنا من أهل النار، وأما قولك أنا كنا لهم عيوناً فما احتاجوا إلى العيون، لقد ترك أصحابك لهم البلاد حتى كانت خيولهم تذهب حيث شاءت، وأما أعانتهم بالأموال، فإنا صانعناهم بها إذ لم تمنعونا مخافة أن نسبي ونخرب، وتقتل مقاتلتنا وقد عجز عنهم من لقيهم منكم، فكنا نحن أعجز منهم، ولعمري لأنتم أحب إلينا منهم، فامنعونا نكن لكم، فإنما نحن بمنزلة علوج السواد، عبيد من غلبنا. فقال لهم رستم: صدقكم الرجل.

قال الرفيل: ورأى رستم بالدير أن ملكا هبط من السماء حتى دخل عسكر فارس، فأخذ سلاحهم فختم عليها، ثم رفعها، فأصبح كئيبا، وقد أيقن أن ملكهم قد ذهب. ثم ارتحل حتى نزل النجف فعادت عليه الرؤيا، فرأى ذلك الملك ومعه النبي - ﷺ - وعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فأخذ الملك سلاح أهل فارس، فختمه، ثم دفعه إلى النبي - ﷺ - فدفعه النبي - ﷺ - إلى

عمر، فأصبح رستم وقد ازداد جزعا، فلما رأى الرفيل ذلك رغبه في الإسلام، فأسلم، وماكان داعيته إليه إلا ذلك.

وكان رستم قد أرسل إلى قابوس بن المنذر، وقال بعضهم: ابن النعمان بن المنذر: اكفنا ما كانت آباؤك تكفينا من العرب، وعقد له على أربعة آلاف وقدمه إلى العذيب، فلما قدم سعد بن أبي وقاص بين يديه زهرة بن الجوية يرتاد له منزلا قدم زهرة أمامه بكر بن عبد الله الكناني، وقال بعضهم عبد الله بن بكير، فانتهى إلى العذيب، ووافاه زهرة هنالك، فطرقوا قابوس بياتا في حصن العذيب فقتلوه وتفرق أصحابه منهزمين حتى وصلوا إلى رستم، هكذا ذكر المدائني.

وفي كتاب سيف[1] أن الآزادمرد بن الأزاذبة هو الذي بعث قابوس إلى القادسية وقال له: ادع العرب، فأنت على من أجابك، وكن كما كان آباؤك، فلما نزل القادسية كاتب بكر بن وائل بمثل ماكان النعمان يكاتبهم به مقاربة ووعدا، فلما انتهى خبره إلى المعنى بن حارثة أسرى من ذي قار حتى بيته فأنامه ومن معه، ثم رجع، فخرج إلى سعد بن أبي وقاص بزوجة المثنى ووصيته، وهذا الوجه الذي خرج إليه هو الذي شغله عن تعجيل القدوم على سعد بوصية أخيه ـ حسب ما ذكرناه قبل.

وعن كريب بن أبي كرب العكلي ـ وكان في المقدمات أيام القادسية ـ قال[2]: قدمنا سعد من شراف، فنزلنا في عذيب الهجانات ثم ارتحل، فلما نزل علينا ـ وذلك في وجه الصبح ـ خرج زهرة بن الجوية في المقدمات، فلما رفع لنا العذيب ـ وكانت من مسالحهم ـ استبنا على بروجه ناسا، فما نشاء أن نرى على برج من بروجه رجلا أو بين شرفتين إلا رأيناه، وكنا في سرعان الخيل [3]، فأمسكنا حتى تلاحق بنا كثف [4] ونحن نرى أن فيها خيلا، ثم أقدمنا على

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٨٩.

(٢) نفسه ج ٣ ص ٤٩٣ ـ ٤٩٥.

(٣) أوائلها.

(٤) جماعة.

العذيب، فلما دنونا منه، خرج منه رجل يركض نحو القادسية، فانتهينا إليه، فدخلنا فإذا ليس فيه أحد، وإذا ذلك الرجل هو الذي تراءى لنا على البرْوج وبين الشرف مكيدة، ثم انطلق بخبرنا، فطلبناه فأعجزنا، وسمع بذلك زهرة فلحق بنا، وخلفنا وأتبعه، وقال: إن أفلت الذي أتاهم الخبر. فلحق بالخندق فطعنه فجدّ له فيه، وكان أهل القادسية يعجبون من شجاعة ذلك الرجل، وعلمه بالحرب، ولم تر عين قط أثبت منه ولا أربط جأشا لولا بعد غايته لم يلحق به زهرة، ووجد المسلمون رماحا ونشابا وأسفاطا من جلود وغيرها، انتفع المسلمون بها.

ولما أمسى زهرة بن الجوية بعث سرية في جوف الليل، وأمّر عليهم بكير بن عبد الله الليثي ـ وكانوا ثلاثين معروفين بالنجدة والبأس وفيهم الشماخ القيسي الشاعر ـ وأمرهم بالغارة على الحيرة، فساروا حتى جازوا السيلحين، وقطعوا جسرها يريدون الحيرة، فسمعوا جلبة، فأحجموا عن الإقدام، وأقاموا كميناً حتى يتبينوا، فما زالوا كذلك حتى جازت بهم خيول، تقدم تلك الغوغاء، فتركوها فنفذت لطريق الصين، وإذا هم لم يشعروا بهم، وإنما ينتظرون ذلك العين الذي قتله زهرة، وإذا أخت الآزاذمرد ـ مرزبان الحيرة ـ تزف إلى صاحب الصين ـ وكان من أشراف العجم ـ وتلك الخيل تبلغها مخافة ما هو دون الذي لقوا، فلما انقطعت الخيل عن الزواف [1]، والمسلمون كمين في النخل وحاذت[2] بهم الأثقال، حمل بكير على شيراز[3] بن الأزاذبة أخي الآزاذمرد، وهو بين أخته وبين الخيل، فقصم بكير صلبه، وطارت الخيل على وجوهها، وأخذوا الأثقال وابنة الآزاذبة في ثلاثين امرأة من الدهاقين ومائة امرأة من التوابع، ومعهم ما لا يدرى قيمته، ثم عاج واستاق ذلك كله، فصبح سعداً

---

(١) الزواف: الاسترخاء في المشية.

(٢) في الطبري: وجازت، وفي الأصول: حاقت، والمقصود: حتى إذا ضمت إليهم.

(٣) شيراز: مكرر في الأصول والتصويب من الطبري.

بعذيب الهجانات بما أفاء الله//- عز وجل - على المسلمين، فكبروا تكبيرة ١٩٠ ب
شديدة. فقال سعد: أقسم بالله لقد كبروا تكبيرة عرفت فيها العز، فقسم ذلك سعد على المسلمين، ونفل من الخمس، وأعطى المجاهدين بقيته، فوقع منهم موقعاً، ووضع سعد بالعذيب خيلاً تحوط الحريم، وانضم إليها حاطة[1] كل حريم، وأمّر عليهم غالب بن عبد الله الليثي، ونزل سعد القادسية، فنزل في قديس، ونزل زهرة بحيال قنطرة العتيق في موضع القادسية اليوم، وكتب سعد إلى عمر - رحمه الله - يعلمه بقتل الآزاذبة على يدي بكير بن عبد الله، وقال فيما كتب به إليه:

وأنا مقيم بالقادسية على أمرك، ومنزلنا خصيب الجناب، ونحن ننتصف فيه من عدوان نزل بنا في الخصب ننال من ذلك أفضل الذي نريد، وهو يَوْمَ كتبْتَ لك مباح لنا لا يدفعوننا عنه إلا بالاعتصام بمعاقلهم، ولن يزال عندك منا كتاب بما يحدث إن شاء الله.

فأقام سعد شهرا، ثم كتب بمثلها إلى عمر - رحمهما الله: نحن وعدونا على ما كتبت إليك، لم يوجهوا إلينا أحدا، ولا أسندوا حربا إلى أحد علمناه، ومتى يبلغنا ذلك نكتب به، فاستنصروا الله لنا، فإنا بمنحاة دنيا عريضة، دونها بأس شديد، وقد تقدم الله إلينا في الدعاء إليهم، فقال تعالى: ﴿**ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد**﴾ (١٦: الفتح).

فكتب إليه عمر: أما بعد، فإن أبا بكر - رحمه الله - كان رشيدا موفقا، محفوظا معانا أكرمه الله وأعانه حتى قبضه إليه راضيا مرضيا عنه، وقد ابتلينا بالذي ولينا مما لاطاقة لنا بحفظه والقيام عليه إلا بتحنن القوى ذي العزة والعظمة، وقد علمت أن فارس ستقبل إليك بمرازبتها وبأسها وعددها، فإياك والمناظرة لجموعهم، والقادسية على ما وصفت لي منزل جامع، والجد الجد على الذي أنت عليه، واكتب إليّ بجمعهم الذي زحفوا إليك به، ومن رأسهم الذي يسندون إليه أمرهم، وكم بين أدنى عدوك منك وبين ملكهم، واجعلني من أمرهم

---

(١) الحاطة: المحافظون.

على الجلية، فإنك بحمد الله على أمر الله وليه وناصره، والله ناصر من نصره، وقد توكل لهذا الأمر بما لا خلف له، والله متم أمره، ومن يرد الله به صلاحا يلهمه رشده فيما أعطاه، ويبصره الشكر لنعمته، والعمل بطاعته، والعرفان لأداء حقوقه، ومن يكن بتلك المنزلة يعنه الله على حسن نيته، ويعطه أفضل رغبته، وإنما يستوجب كرامة الله بتمام نعمته من عصم له دينه، وإنما يصلح الله النية لمن رغب فيما عنده وأذعن لطاعة ربه، وإن منازل عباد الله عنده على نياتهم، فأكثر ذكر الله، وكن منه على الذي رغبك إليه وفيه، فإن في ذلك رواحا للمستريح ونجاحا تجد فيه غدا نفع ما قدمت، فإنك ممن أرغب له في الخير ويعنيني أمره للمكان الذي أنت فيه من عدو الإسلام، نسأل الله لنا ولك إيمانا صادقا، وعملا زاكيا.

فكتب إليه سعد وقد علم بأن رستم هو الذي تعين لحرب العرب وقود جيوش فارس، وأنه قد زحف إلى المسلمين ودنا منهم، إذ كان سعد وجه عيونا إلى الحيرة فرجعوا إليه بالخبر. فكتب به فيما أجاب به عمر - رضي الله عنهما:

أتاني كتابك بما ذكرت من أبي بكر - رحمة الله عليه - ولم يكن أحد يذكر من أبي بكر شيئاً إلا وقد كان أفضل من ذلك، فبوأه الله غرف الجنة، وعرّف بيننا وبينه، وإنك عامل من عمال الله، فاستعن بالله وشمر، وليس شيء أهم عندي ولا أنا أكثر ذكرا لما نحب أن نكون عليه من الذي أمرتنا به، والله ولي العون على ذلك، وقد قدم علينا عظيم من عظمائهم يقال له رستم بالخيل والفيول والعدد والعدة والقوة، فيما يرى الناس، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وبيننا وبينه خمسة عشر ميلا، وبينه وبين ابن كسرى بأبيض المدائن نيف على ثلاثين فرسخا، ولنا من عدونا النصف إن شاء الله، ولن يزال منا عندك كتاب يخبرنا إن شاء الله، فاستنصروا الله لنا بالدعاء والتضرع خفية وجهرا، فإن الله يعطي من سعة ويأخذ بقدرة ويفعل ما يشاء.

وكان عمر - رحمه الله - قد أمر بموالاة الكتب إليه بكل شيء، فكان سعد

يكتب إليه في كل يوم.

وكتب إليه عمر:

أتاني كتابك تذكر مكان عدوك ونزولك حيث نزلت، ومسافة ما بينك وبين ابن كسرى، وأنه من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، فارسل إلى ابن كسرى من يدعوه إلى الإيمان أو إعطاء الجزية أو الحرب، فإن أسلم فله ما لكم وعليه ما عليكم، وإن اختار أعطاء الجزية ولم يسلم فله ما كسب وعليه ما اكتسب وقد حقن دمه وأحرز أرضه، ولا سبيل عليه إلا في حق عليه، فإن أبى الإسلام واعطاء الجزية فلا يعظم عندك حربه ولا يكربنك ما يأتيك عنهم، ولا ما يأتوك به، فاستعن بالله واستنصره وتوكل عليه، وإذا لقيت عدوك فقدم أهل البأس والنجدة في غير إهانة لهم ولا تغرير بهم، وعليكم بالصبر فإنه ينزل النصر، فإذا ظهرت فأكثر القتل في دبر المشركين، واقتل المقاتلة، واستبق النساء والصبيان، ثم لا تتركن أحدا من العدو وراءك، وإن أعطوك الصلح فلا تصالح إلا على الجلاء، إلا أن تترك فيها من لا كيد له ولا نكاية، وأحط بأمري، وخذ بعهدي.

وفي رواية أنه قال له - فيما كتب به إليه: وابعث إليهم رجالا من أهل المنظر والرأي والجلد يدعونهم، فإن الله عز وجل جاعل دعاءهم توهينا لهم، وفلجا عليهم.

ولما انتهى إلى سعد أمر عمر - رضي الله عنه - بالتوجه إلى يزد جرد، جمع نفرا لهم نجار، ولهم آراء، ونفرا لهم منظر وعليهم مهابة.

فأما الذين لهم نجار ولهم آراء واجتهاد: فالنعمان بن مقرن، وبسر بن أبي رهم، وجبلة بن جوية الكناني، وحنظلة بن الربيع الأسدي، وفرات بن حيان العجلي، وعدي بن سهيل، والمغيرة بن زرارة بن النباش بن حبيب.

وأما الذين لهم منظر لأجسامهم، وعليهم مهابة، ولهم آراء: فعطارد بن حاجب، والأشعث بن قيس، والحارث بن حسان، وعاصم بن عمرو، وعمرو

ابن معدي كرب، وغيرهم ممن سماه سيف في كتابه [1].

وخالفه المدائني في بعضهم، فلم يذكرهم، وذكر معهم ممن لم يذكره سيف: طليحة بن خويلد، وزهرة بن جوية، ولبيد بن عطارد، وشرحبيل بن السمط.

قال المدائني: فأتوا الحيرة، فأرسل إليهم رستم: أين تريدون؟ قالوا: نريد ابن كسرى. فأرسل معهم أساورة فجوزوهم إلى المدائن، فوقفوا ببابه.

وقال سيف: إنهم طووا رستم، حتى انتهوا إلى باب يزد جرد، فوقفوا على خيول عراب معهم جنائب، وكلها صهال، فاستأذنوا فحبسوا، وبعث يزدجرد إلى وزرائه ووجوه أرضه ليستشيرهم فيما يصنع بهم، ويقول لهم، وسمع بهم الناس فحضروهم ينظرون إليهم، وعليهم المقطعات والبرود، وفي أيديهم سياط رقاق، وفي أرجلهم النعال. فلما اجتمع رأيهم أذن لهم فدخلوا عليه.

قال بعض من حضر هذا اليوم ممن سبي في القادسية ثم حسن إسلامه: لما
١٩١ أ كان//هذا اليوم الذي قدم فيه وفود العرب على يزدجرد ثاب إليهم الناس ينظرون إليهم، فلم أر عشرة قط يعدلون في الهيئة بألف غيرهم، وخيلهم تخبط ويوغر بعضها بعضا. وجعل أهل فارس يسوؤهم ما يرون من حالهم وحال خيلهم، فلما دخلوا على يزدجرد أمرهم بالجلوس، وكان سيء الأدب، فكان أول شيء دار بينه وبينهم أن قال لترجمانه: سلهم ما يسمون هذه الأردية؟ فسأل النعمان بن مقرن - وكان على الوفد: ما تسمي رداءك؟ قال: البرد. قال: فتطير لموافقة هذا الإسم اسم شيء متطير به عندهم، وتغيرت ألوان فارس، وشق ذلك عليهم. ثم قال: سلهم عن أحذيتهم، فسأله. فقال: النعال، فتطير - أيضا - لمثل ذلك، ثم سأله عن الذي في يده، فقال: سوط، والسوط بالفارسية الحريق، فقال: أحرقوا فارس أحرقهم الله، وكان تطيره على أهل فارس، ثم قال لترجمانه: سلهم ما جاء بكم، وما دعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا؟ أمن أجل أنا أجممناكم، وتشاغلنا عنكم، اجترأتم علينا؟ فقال لهم النعمان بن مقرن: إن شئتم أجبت

(١) المصدر السابق.

عنكم، ومن شاء آثرته. قالوا: بل تكلم، وقالوا للملك: كلام هذا الرجل كلامنا. فتكلم النعمان، فقال إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير ويأمرنا به، ويعرفنا الشر وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة، فلم يدع لذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين: فرقة تقاربه، وفرقة تباعده، ولايدخل معه في دينه إلا الخواص. فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث، ثم أمر أن ينبذ إلى من خالفه من العرب، ويبدأ بهم ففعل، فدخلوا معه جميعا على وجهين: مكره عليه فاغتبط، وطائع أتاه فازداد، فعرفنا جميعا فضل ما جاءنا به على ما كنا عليه من العداوة والضيق، ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوهم إلى ديننا، وهو دين حسّن الحسن وقبّح القبيح، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون ما آخر شر منه الجزاء، فإن أبيتم فالمناجزة، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله، وأقمناكم عليه، وعلى أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، فإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا منكم ومنعناكم، وإلا قاتلناكم.

قال[1]: فتكلم يزد جرد، فقال: إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوننا كم لا نغزوكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم، فإن كان عدد لحق فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتا وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم، وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم.

فأسكت القوم. فقام المغيرة بن زرارة النباش الأسدي، فقال: أيها الملك، إن هؤلاء رءوس العرب ووجوههم، وهم أشراف يستحيون من الأشراف، وإنما يكرم الأشراف الأشراف، ويعظم حقوق الأشراف الأشراف، وتفخم الأشراف الأشراف، وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه، وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك، فجاوبني لأكون الذي

---

(١) تسميتهم في الطبري ج ٣ ص ٤٩٦.

أبلغك، ويشهدون على ذلك، أنك قد وصفتنا، فأما ما ذكرت من سوء الحال، فما كان أحد أسوأ حالا منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات، فنرى ذلك طعاما. وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم، ديننا أن يقتل بعضنا بعضا، ويغير بعضنا على بعض، فإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامنا، فكانت حالتنا قبل اليوم على ما ذكرت لك، وبعث الله إلينا رجلاً معروفاً، نعرف نسبه، ونعرف وجهه ومولده، فأرضه خير أرضنا، وحسبه خير أحسابنا، وبيته أعظم بيوتنا، وقبيلته خير قبائلنا، وهو بنفسه كان خيرنا في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمنا، فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد، أول من ترب له [1] كان الخليفة من بعده [2]، فقال وقلنا، وصدق وكذبنا، وزاد ونقصنا، فلم يقل شيئا إلا كان، فقذف الله في قلوبنا اتباعه والتصديق له، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين، فما قال لنا فهو قول الله، وما أمرنا به فهو أمر الله، فقال لنا: إن ربكم يقول: إني أنا الله وحدي لا شريك لي، كنت إذ لم يكن شيء وكل شيء هالك إلا وجهي، وأنا خلقت كل شيء وإليّ مصير كل شيء، وأن رحمتي أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي، ولأحلكم داري، دار السلام، فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الله، وقال: من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ما عليكم، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية، ثم أمنعوهم مما تمنعون منه أنفسكم، ومن أبى فقاتلوه، فأنا الحكم بينكم. فمن قتل منكم أدخلته الجنة، ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناوأه، فاختر إنْ شئتَ الجزيَة عن يد وأنت صاغر، وإن شئت فالسيف، أو تسلم فتنجو بنفسك. فقال: أتستقبلني بمثل هذا؟ فقال: ما استقبلت إلا من كلمني، ولو كلمني غيرك لم أستقبلك به. فقال: لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم، لا شيء لكم عندي، وقال: ائتوني بوقر

(١) المقصود: لازمه.

(٢) في الطبري: فدعانا إلى أمر، فلم يجبه أحد قبل ترب كان له، وكان الخليفة من بعده.

من تراب، واحملوه على أشرف هؤلاء، ثم سوقوه حتى يخرج من أبيات المدائن، ارجعوا إلى صاحبكم وأعلموه أني مرسل إليهم رستم حتى يدفنه وجنده في خندق القادسية، ومنكل بهوبكم من بعده[1]، ثم أورده بلادكم، حتى أشغلكم في أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور.

ثم قال: من أشرفكم؟ فسكت القوم، فقال: عاصم بن عمرو: أراد لنأخذ التراب، أنا أشرفهم، أنا سيد هؤلاء فحملنيه، قال: أكذلك؟ قالوا: نعم، فحمله على عنقه، فخرج به من الإيوان والدار حتى أتى راحلته فحمله عليها، فقال له أصحابه: حملت ترابا؟ قال: نعم، الفأل، قد أمكنكم الله من أرضهم، فلم يزل معه حتى قدم به على سعد فأخبره الخبر. فقال سعد: أبشروا، فقد والله أعطانا الله أقاليد ملكهم، وجعل المسلمون يزدادون في كل يوم قوة، ويزداد عدوهم في كل يوم وهنا، واشتد على جلساء الملك ما صنع، وما صنع المسلمون من قبول التراب، وراح رستم من ساباط إلى الملك يسأله عما كان من أمره وأمرهم، وكيف رآهم، فقال الملك: ما كنت أرى أن في العرب مثل رجال رأيتهم دخلوا عليّ، والله ما أنتم بأعقل منهم، ولا أحسن جوابا، وأخبره بكلام متكلمهم، وقال: لقد صدقني القوم، لقد وعدوا أمرا ليدركنه أو ليموتن عليه، على أني وجدت أفضلهم أحمقهم، لما ذكروا الجزية أعطيته ترابا يحمله على رأسه فخرج به، ولو شاء اتقى بغيره، وأنا لا أعلم.

191 ب // قال: أيها الملك، أخذ التراب أعقلهم، وما أخذه إلا تطيراً، وأبصرها دون أصحابه وخرج رستم من عنده كئيبا غضبان، فبعث في أثر الوفد، وقال لبعثه: آن أدركتموهم تلافينا أرضنا، وإن أعجزوكم سلبكم الله أرضكم، فرجع إليه من كان وجه أثرهم من الحيرة فأعلمه بفواتهم، فقال: ذهب القوم بأرضكم غير ذي شك، ما كان من شأن ابن الحجامة الملك ذهب القوم بمفاتيح أرضنا، فكان ذلك مما زاد الله به فارس غيظا، وأغار ابعد ما خرج الوفد إلى يزدجرد إلى أن جاءوا (صيادين قد اصطادوا سمكا، وسار)[2]، سواد بن مالك التميمي إلى

(١) في الأصل: من بعدكم.

(٢) ساقط من الأصول، مضاف من الطبري.

النجاد والفراض إلى جنبها، فاستاق ثلاثمائة دابة من بين بغل وحمار (وثور)[1]، فأوقروها سمكا، واستاقوها، فصبحوا بها العسكر، فقسم سعد السمك بين الناس، وقسم الدواب، ونفل الخمس إلا ما رد منه على المجاهدين، وأسهم على السبي، وهذا يوم الحيتان، وكان الآزاذمرد الازاذبة قد خرج في الطلب، فعطف عليه سواد وفوارس معه، فقاتلهم على قنطرة السيلحين، حتى عرفوا أن قد نجت الغنيمة، ثم أتبعوها حتى أبلغوها المسلمين، وكانوا إنما يقرمون[2] إلى اللحم، وأما الحنطة والشعير والتمر، فكانوا قد اكتسبوا منه ما اكتفوا به لوأقاموا زمانا، فكانت السرايا إنما تسري للحوم، ويسمون أيامها بها، كيوم الأباقر ويوم الحيتان. وخرج - أيضا - مالك بن ربيعة بن خالد - من تيم الرباب - ومعه المسافر بن النعمان التميمي[3] في سرية أخرى، فأغاروا على الفيوم[4] فأصابوا أبلا لبني تغلب والنمر فشلوها[5] ومن فيها، فغدوا بها على سعد، فنحرت الإبل في الناس، وأخصبوا.

ولما كتب سعد إلى عمر - رحمه الله - يخبره بأمر ابن كسرى، واعداده للمصادمة، وأن من كان صالح المسلمين من أهل السواد قد صاروا إلْباً عليهم لأهل فارس، قال: وأمر الله بعد ماض، وقضاؤه مسلم إلى ما قدر لنا وعلينا، فنسأل الله خير القضاء، وخير القدر في عافية. كتب إليه عند ذلك عمر - رحمه الله:

قد جاءني كتابك وفهمته، فأقم مكانك حتى ينغض الله لك عدوك، (واعلم أن لها ما بعدها)[6]، فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن، فإنه خرابها إن شاء الله.

---

(١) ساقط من الأصول: مثبت من الطبري.
(٢) القرم محركة: شدة شهوة اللحم.
(٣) في الطبري: المساور.
(٤) الفيوم: موضع بالعراق قريب من هيت - ياقوت. معجم البلدان ج ٤ ص ٢٨٦.
(٥) شلوها: انتزعوها.
(٦) الإضافة من الطبري ج ٣ ص ٤٩٢.

وجعل عمر يدعو لسعد خاصة، وللمسلمين عامة، ويدعون له معهم.

وفيما ذكر سيف عن رجاله[1] قالوا: كان بين خروج رستم من المدائن وعسكرته بساباط وزحفه عنها إلى أن لقي سعدا أربعة أشهر، لا يقدم ولا يقاتل - رجاء أن يضجروا بمكانهم، وأن يجهدوا فينصرفوا، وكان يكره القتال مخافة أن يلقي ما لقي من قبله، ويحب المطاولة له لولا أن الملك جعل يستعجله وينهضه ويقدمه حتى أقحمه.

وكتب عمر - رضي الله عنه - إلى سعد:

إنه (قد) ألقى في روعي أنكم[2] إذا لقيتم العدو وهزمتموهم، فاطرحوا الشك، وآثروا عليه اليقين، فمن لاحن منكم أحدا من العجم بأمان بإشارة أو بلسان ولا يدري الأعجمي ما كلمتموه به، وكان عندهم أمانا، فأجروا ذلك مجرى الأمان، وآثروا اليقين والنية على الشك، وإياكم والمحك، وعليكم بالوفاء، فإن الخطأ مع الوفاء له بقية، والخطأ بالغدر هلكة، وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم، وإياكم أن تكونوا شيناً على المسلمين، وسبباً لتوهينهم.

وكتب إليه سعد يستمده، فكتب إليه عمر:

أتستمدني وأنت في عشرة آلاف، ومعك مالك بن عوف وحنظلة بن ربيعة وطليحة بن خويلد وعمرو بن معدي كرب في أمثالهم من فرسان العرب، ومن معك من أهل الحسبة والرغبة في الجهاد، فتوكل على الله واستعنه وناهض عدوك، ولا تهيب الناس، واستفتحوا بحسن النية والحسبة والزهد في الدنيا والإنصاف، والصبرّ الصبرّ، والصدْقَ الصدْقَ، فإن النصر ينزل مع الصبر،

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٥٠٩.

(٢) في الأصول: إنه، والمثبت من الطبري ج ٣ ص ٤٩٢.

والأجر على قدر الحسبة، واحذر على المسلمين، وتحرز من البيات، وأكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، واندب الناس إلى القتال، ونفل أهل البلاء، ومن قتل قتيلا فنفله سلبه، ونكل على المعصية، واجعل الناس أسباعا، واستعمل على كل سبع رجلا - وقال بعضهم: أعشارا - وقد كتبت إلى المغيرة بن شعبة أن يشخص إليك في طائفة ممن قبله بالبصرة، وكتبت إلى أبي عبيدة أن يمدك بجمع من الشام، فإذا قدموا عليك فناهض عدوك، وإن رأيت فرصة قبل ذلك فاغتنمها، ولا تؤخر ذلك إن شاء الله، ولا تستوحشن لقلة من معك، ولا تهن لكثرة عدوك، فكثيرا ما ينصر القليل ويخذل الكثير، وقبلك طليحة بن خويلد، وعمرو بن معدي كرب، وحنظلة بن ربيعة، وأوس بن معدان، وابن زيد الخيل، فلا تؤمرن أحدا منهم على أكثر من مائة، وشاور عمرا وطليحة في الحرب، ولا تولهما جمعاً.

فانتهى سعد - رحمه الله - إلى كل ما أمره به عمر - رضي الله عنه - من تهيئة الناس أسباعا أو أعشارا، وقدم عليه المغيرة في ثمانمائة، ويقال في ألف وخمسمائة، والمسلمون في ضيق، فقال المغيرة - رحمه الله: من آسى أخوانه بطعامه وزاده وبناقته وجمله، فنحروا لهم وأخرجوا أطعماتهم فأصابوا منها ووقوا، وأشار المغيرة على سعد أن يوجه السرايا فيصيبوا الطعام والعلف، فقبل سعد مشورته، وبث السرايا، فأصابوا من الأطعمة ماكانوا يكتفون به زمانا.

وقد روي عن الشعبي أن عمر - رحمه الله - كتب إلى سعد مرتحله من زرود: أن ابعث إلى فرج الهند رجلا ترضاه يكون بحياله، ردءاً لك من شيء إن أتاك من تلك التخوم، فبعث إليه المغيرة بن شعبة في خمسمائة، فكان بحيال الأبلة من أرض العرب، فأتى غضباً، ونزل على جرير، وهو يومئذ هنالك، فلما نزل سعد بشراف كتب إلى عمر بمنزله ومنزل الناس، فكتب إليه عمر:

إذا جاءك كتابي هذا فعشر الناس وعرف عليهم، وأمر على أجنادهم، (وعبئهم)[٢]، ومر رؤساء المسلمين أن يشهدوا، وقدرهم وهم شهود، ثم وجههم

(١) في الأصل: فيصيبون.
(٢) الإضافة من الطبري.

إلى أصحابهم، وواعدهم القادسية، واضمم إليك المغيرة في خيله، واكتب إليّ بالذي يستقر عليه أمرهم.

فبعث سعد إلى المغيرة، فانضم إليه وإلى رؤساء القبائل، فأتوه، فقدر الناس، وعبأهم بشراف، فأمر أمراء الأجناد، وعرف العرفاء، على كل عشرة رجلا، كما كانت العرافات أزمان النبي - ﷺ - وكذلك كانت إلى أن فرض العطاء، وأمر على الرايات رجالا من أهل النباهة [1]، وأمّر على الأعشار رجالا من الناس لهم وسائل في الإسلام، وولى الحرب رجالاً، فولى على مقدماتها // ١٩٢ أ ومجنباتها وساقتها ومجردتها وركبانها وطلائعها، فلم يخرج من شراف إلا عن تعبئة، ولا فصل منها إلا بكتاب عمر وإذنه.

قالوا فيما ذكر سيف عن رجاله: وبعث عمر - رحمه الله - الأطبة، وبعث على قضاء الناس عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي، وجعل إليه الأقباض [2] وقسمة الفيء، وجُعل داعيهم ورائدهم سلمان الفارسي. فكان أمراء التعبئة يلون الأمير والذين يلون أمراء التعبئة أمراء الأعشار، والذين يلون أمراء الأعشار أصحاب الرايات، والذين يلون أصحاب الرايات والقواد رؤساء القبائل، فلما فرغ سعد من تعبئته وأعد لكل شيء من أمره جماعات ورؤساء كتب بذلك إلى عمر - رحمه الله - ولا خفاء بما بين مقتضى هذا الحديث وبين ما قبله من الاختلاف بالتأخر أو التقدم، والله - تعالى - أعلم.

وبعث سعد في مقامه بالقادسية إلى أسفل الفرات عاصم بن عمرو فسار حتى أتى ميسان، فطلب بقرا وغنما فلم يقدر عليها، وتحصنوا منه في الأفدان، وأوغلوا في الآجام، فضرب حتى أصاب رجلا على طف أجمة، فسأله واستدله على البقر والغنم، فحلف له، وقال: ما أعلم، وإذا هو راعي ما في تلك الأجمة، فصاح منها ثور: كذب والله وها نحن أولاء، فدخل فاستاق الثيران وأتى بها العسكر، فقسم ذلك سعد على الناس، فأخصبوا أياماً، وهذا اليوم هو يوم الأباقر.

---

(١) تسميتهم في الطبري ج ٣ ص ٤٨٨.

(٢) الأقباض: جمع قبض، وهو ماجمع من الغنائم.

وذكر المدائني أن حنظلة بن الربيع الأسيدي هو صاحب هذه الغارة، وأنه أتى أسفل الفرات فلم يصب مغنما ولم يلق كيدا، فرجع، فلقوا رجلا، فقالوا له: هل تعلم مكان أحد من عدونا بحضرتك؟ قال: لا، قد رغبتموهم فخلوا عن مساكنهم، قالوا: فتعلم مكان طعام، أو شاء، أو بقر؟ قال: لا، وسمعوا خوار ثور من غيضة، فدخلوها، فأصابوا بقرا وغنما.

قال: وقال الحجاج لرجل من بني أسد: أشهدت القادسية؟ قال: نعم، قرمنا إلى اللحم فخرجت في رجال من المسلمين نلتمس اللحم، فأخفقنا، فلما انصرفنا إذا بصوت عن أيماننا: ادخلوا الغيضة فإن فيها غنيمة وأجرا، فدخلنا غيضة قريبا منا فإذا عشرة من الأعاجم، وإذا طعام وبقر وغنم، فقاتلونا عما في أيديهم، فاستشهد منا رجلان، وقتلنا منهم ثمانية، وأسرنا رجلين فقتلناهما صبرا، وحملنا الطعام، واستقنا الشاء والبقر، فقسم سعد ذلك بين المسلمين، ونفل كل رجل منا قتل رجلا سلبه. فقال الحجاج: هذه بشرى من الله لأوليائه، لا يكون ذلك حتى يكون الجمع بَرًّا تقياً. فكيف كانوا؟ قال: لا تسأل عن صدق قول، ووفاء بالعهد، وأداء للأمانة، وصبر عند البأس، والله أعلم ما يسرون، فأما الظاهر فإنا لم نر قوما قط أزهد في دنيا ولا أشد لها بغضا، ما اعتد على رجل منهم في يوم بواحدة من ثلاث: لا بجبن، ولا بغدر، ولا بغلول، أشداء على الكفار، رحماء بينهم. قال الحجاج: هذه صفة الأبرار.

وكتب عمر إلى سعد - رضي الله عنهما: أخبرني عن الناس وبلائهم، أتفاضلت القبائل فيه، أو خرجوا على السواء؟ فكتب إليه: إن القبائل لم تزل إلى أن كتبت إليك متساوية في كل غارة، ومناهبة في جميع ما أعدوا، وقسم ما ناهبوا، ولم يفترقوا إلا في ثلاث، لما نزلنا بلاد القوم وعسكرنا بالقادسية، قرمت العرب إلى طعامهم، وعاموا إلى شرابهم، فانتدب لهم من مضر عاصم بن عمرو، وسواد بن مالك، ومالك بن ربيعة، والمساور بن النعمان، وغالب بن عبد الله، وعبيد الله بن وهب، وعبيد الله بن عمير الأشجعي، وعمرو بن الهذيل الأسدي، وعمرو بن ربيعة، والحارث بن ذي البردين، فألحموا الناس

وألبنوهم حتى تفرغوا لحربهم، وانتدب من ربيعة: عبد الله بن عامر بن حجية، وأبجر بن جابر، وخالد بن المعمر، وعائذ بن أبي مرضية، ويزيد بن مسهر، وسمى آخرين، فأنكحوا الناس واخدموهم بنات فارس، وبنيهم، فرغبوا في حربهم. وانتدب من أهل اليمن: خولى بن عمرو، والحارث بن الحارث، وعمرو ابن خوثعة، والقاسم بن عقيل، وخميصة بن النعمان، وسمى غيرهم، فحملوا الناس على خيول وبغال وحمير، ودعوا الخيل العراب.

وأقام سعد بالمسلمين في منزله من القادسية، ورستم بالحيرة، وكف رستم عن القتال، وطمع أن يضجر المسلمون بمكانهم، وكف سعد عنهم والمسلمون، وصبروا، رجاء أن يصالحوا عن بلادهم ويعطوا الجزية ويسلموا.

وكان عمر - رحمه الله - قد عرف أن القوم سيطاولونهم فلذلك ما عهد إلى سعد والمسلمين أن ينزلوا على حدود أرضهم وأن يطاولوهم أبداً حتى ينقضوهم، فحينئذ نزلوا القادسية وقد وطنوا أنفسهم على الصبر، وأبى الله إلا أن يتم نوره، وإذا أراد الله أمرا أصابه، فأقاموا واطمأنوا، فكانوا يغيرون على السواد، فانتسفوا مايليهم فحووه، وأعدوا للمطاولة، أو يفتح عليهم.

وكان عمر - رضي الله عنه - يمدهم بالأسواق إلى ما يصيبون، فلما رأى ذلك يزدجرد من أمرهم، وعلم أنهم غير منتهين، وأنه إن أقام لم يتركوه، وشكا إليه عظماء أهل فارس من نزولهم القادسية، وإخرابهم البلاد بالغارات، ورستم كاف عنهم، مقيم بإزائهم، أمر رستم بالشخوص لمناجزتهم، ورأى رستم أن ينزل بينهم وبين العتيق، ثم يطاولهم مع المنازلة، ورأى أن ذلك أمثل ما هم عاملون، حتى يصيبوا من الإحجام حاجتهم وتدور لهم سعود.

وعن سيف (١) عن رجاله، قالوا: وجعلت السرايا تطوف، ورستم بالنجف، والجالينوس بين النجف والسيلحين، وذو الحاجب بين رستم والجالينوس، وقال

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٥١٠.

الناس لسعد: قد ضاق بنا المكان فأقدم، فزجر من كلمه بذلك، وقال: إذا كفيتم الرأي فلا تكلفوا، فإنا لن نقدم إلا على رأي ذوي الرأي، فاسكتوا ما سكتنا عنكم.

وعن أبي عثمان النهدي [1] أن سعداً ـ رحمه الله ـ لما نزل رستم النجف بعث الطلائع، وأمرهم أن يصيبوا رجلا ليسأله عن أهل فارس، فأخرج طليحة في خمسة، وعمرو بن معدي كرب في خمسة، وذلك صبيحة قدم رستم الجالينوس وذا الحاجب وهم لا يشعرون بفصولهم من النجف، فلم يسيروا إلا فرسخا وبعض آخر حتى رأوا مسالحهم وسرحهم على الصفوف قد ملؤها، فقال بعضهم: ارجعوا إلى أميركم فإنه سرحكم وهو يرى أن القوم بالنجف فأخبروه الخبر، وقال
١٩٢ ب بعضهم: ارجعوا لا ينذر بكم // عدوكم. فقال عمرو لأصحابه: صدقتم، وقال طليحة لأصحابه: كذبتم، ما بعثتم لتخبروا عن السرح، أو ما بعثتم إلا للخبر، قالوا: فما تريد؟ قال: أريد أن أخالط عسكر القوم أو أهلك، قالوا: أنت رجل في نفسك غرر، ولن تفلح بعد قتل عكاشة بن محصن، فارجع معنا، فأبى. وأتى سعد الخبر برحيل فارس، فبعث قيس بن هبيرة، وأمّره على مائة، وعليهم أن لقيهم، فانتهى إليهم وقد افترقوا، وفارقهم طليحة، فرجع بهم قيس فأخبروا سعدا بقرب القوم، ومضى طليحة حتى دخل عسكر رستم، وبات فيه يجوسه وينظر ويتوسم، فلما أدبر الليل أتى أفضل من توسم في ناحية العسكر، فإذا فرس لم ير في خيل القوم مثله، وفسطاط أبيض لم ير مثله، فانتضى سيفه، فقطع مقود الفرس، ثم ضمه إلى مقود فرسه، وحرك فرسه فخرج يعدو به، ونذر به القوم، فتنادوا وركبوا الصعبة والذلول، فخرجوا في طلبه، فلحقه وقد أصبح فارس من الجند، فلما غشيه وبوّأ له الرمح ليطعنه عدل طليحة فرسه، فبدر الفارسي بين يديه، فكر عليه طليحة فقسم ظهره بالرمح، ثم لحق به آخر ففعل به مثل ذلك، ولحق به آخر وقد رأى مصرع صاحبيه، وهما ابنا عمه، فازداد حنقاً ففعل معه طليحة كما فعل معهما، ثم كر عليه ودعاه إلى الإسار، فعرف الفارسي أنه قاتله،

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٥١٢ ـ ٥١٤.

فاستأسر، وأمره طليحة أن يركض بين يديه، ففعل، ولحق الناس، فرأوا فارسي الجند قد قتلا وأسر الثالث، وقد شارف طليحة عسكر المسلمين، فأحجموا ونكصوا، وأقبل طليحة حتى غشي العسكر، وهم على تعبئة، فأفزع الناس، وجوزوه إلى سعد، فلما انتهى إليه قال: ويحك ما وراءك قال: دخلت عساكرهم وجستها، وقد أخذت أفضلهم توسماً، وما أدري أصبت أو أخطأت وها هو ذا فاستخبره. فأقيم الترجمان بين سعد وبين الفارسي، فقال الفارسي: أتؤمنني على دمي إن صدقتك؟ قال: نعم، والصدق في الحرب أحب إلينا من الكذب، قال: أخبركم عن صاحبكم هذا قبل أن أخبركم عمن قبلي، باشرت الحرب وغشيتها، وسمعت بالأبطال ولقيتها مذ أنا غلام إلى أن بلغت ما ترى، فلم أر ولم أسمع بمثل هذا، أن رجلا قطع عسكرين لا يجترىء عليهما الأبطال إلى عسكر فيه سبعون ألفا يخدم الرجل منهم الخمسة والعشرة إلى ما هو دون ذلك، فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فارس الجند وهتك أطناب بيته، وطلبناه فأدركه الأول وهو فارس الناس، يعدل بألف فارس، فقتله، ثم أدركه الثاني، وهو نظيره فقتله، ثم أدركته ولا أظنني خلفت بعدي من يعدلني، وأنا الثائر بالقتيلين [1]، وهما ابنا عمي، فرأيت الموت فاستأسرت ثم أخبره عن أهل فارس، أن الجند عشرون ومائة ألف، وأن الأتباع مثلهم خدام لهم. وأسلم الرجل وسماه سعد مسلما، وعاد إلى طليحة فقال: لا والله ما تهزمون ما دمتم على ما أرى من الوفاء والصدق والإصلاح والمواساة، لا حاجة لي في صحبة فارس، فكان من أهل البلاء يومئذ.

وعن موسى بن طريف [2] أن سعدا بعث طليحة وعمرو بن معدي كرب، فأمر طليحة بعسكر رستم، وأمر عمرا بعسكر الجالينوس، فخرج في عدة، وخرج طليحة وحده، فبعث قيس بن هبيرة في آثارهما، وقال: إن لقيت قتالا فأنت عليهم، فخرج حتى تلقى عمرا، فسأله عن طليحة، فقال: لا علم لي به،

---

(١) في الأصول: بالقبيلتين، والتصويب من الطبري.

(٢) الطبري ج ٣ ص ٥١١.

فلما انتهيا إلى النجف قال له قيس: ماتريد ؟ قال: أن أغير على أدنى عسكرهم، قال: في هؤلاء قال: نعم، قال: لا أدعك والله وذاك أتعرض المسلمين لما لا يطيقون قال: وما أنت وذاك قال: إني أمرت عليك، ولو لم أكن أميرا لم أدعك. فقال عمرو بعد أن شهد لقيس نفر باستعمال سعد إياه عليه وعلى طليحة: والله ياقيس، إن زمانا تكون عليّ فيه أميرا لزمان سوء، لأن أرجع عن دينكم هذا إلى ديني الذي كنت عليه وأقاتل عليه حتى أموت أحب إليّ من أن تؤمر عليّ ثانية، ولئن عاد صاحبك الذي بعثك لمثلها لنفارقنه، قال: ذلك إليك بعد مرتك هذه، فرده، فرجع إلى سعد بالخبر وبأعلاج وأفراس، وشكا كل واحد منهما صاحبه، أما قيس فشكا عصيان عمرو، وأما عمرو فشكا طاعة قيس، فقال سعد: يا عمرو، الخير وسلامة مائة أحب إليّ من مصاب مائة تقتل ألفا، أتعمد إلى حلبة فارس فتصادمهم بمائة؟ إن كنت لأراك أعلم بالحرب مما أرى. فقال له عمرو: إن الأمر لكما قلت، وخرج طليحة حتى أتى النجف فدخل عسكر رستم في ليلة مقمرة، فتوسم فيه، فهتك أطناب بيت رجل عليه واقتاد فرسه، ثم خرج حتى مر بعسكر ذي الحاجب، فهتك على آخر بيته وحل فرسه، ثم دخل على الجالينوس عسكره، فهتك عن آخر بيته وحل فرسه، ثم خرج حتى أتى الخرار وأتبعه هؤلاء، فكان أولهم لحاقا به الجالينوس ثم الحاجبي ثم النخعي، فأصاب الأولين وأسر الآخر، وأتى به سعدا فأخبره، وأسلم فسماه سعد مسلما، ولزم طليحة فكان معه في تلك المغازي كلها.

وعن موسى بن طريف[1] ـ أيضاً ـ قال: قال: سعد لقيس بن هبيرة: أخرج يا عاقل، فإنه ليس وراءك من الدنيا شيء تحنو عليه حتى تأتيني بخبر القوم، فخرج، وسرح معه عمرو بن معدي كرب وطليحة، فلما جاز القنطرة لم يسر إلا يسيراً حتى انتهى إلى خيل عظيمة منهم بحيالها ترد عن عسكرهم، وإذا رستم قد ارتحل من النجف فنزل منزل ذي الحاجب، وارتحل الجالينوس فنزل ذو الحاجب منزله،

---

(١) المصدر السابق.

ونزل الجالينوس بطيزناباذ [1]، وقدم تلك الخيل، فقال قيس: قاتلوا عدوكم يا معشر المسلمين. فأنشب القتال، وطاردهم ساعة، ثم حمل عليهم، فكانت هزيمتهم، وأصاب منهم اثني عشر رجلا، وأسر ثلاثة، وأصاب أسلابا، فأتوا سعدا بالغنيمة وأخبروه الخبر، فقال: هذه بشرى إن شاء الله، إذا لقيتم جمعهم الأعظم وحدهم، فلهم أمثالها، ودعا عمرا وطليحة، فقال: كيف رأيتما قيسا؟ فقال طليحة: رأيناه أكيس منا، وقال عمرو: الأمير أعلم بالرجال منا، فقال سعد: إن الله أحيا بالإسلام قلوبا كانت ميتة، وأمات به قلوبا كانت حية، وإني أحذركما أن تؤثرا أمر الجاهلية على أمر الإسلام، فتموت قلوبكما وأنتما
١٩٣ أ // حيان، الزموا السمع والطاعة والإعتراف بالحقوق، فما رأى الناس كأقوام أعزهم الله بالإسلام.

قالوا: ولما انتهى رستم إلى العتيق، وقف عليه بحيال عسكر سعد، ونزل الناس، فما زالوا يتلاحقون وينزلهم فينزلون، حتى أعتموا من كثرتهم.

وقال المدائني: مكثوا ليلتهم كلها يتحدرون، ومن غد إلى قريب من نصف النهار بعده تجب منها القلوب.

وقال قيس بن أبي حازم، وكان شهد القادسية: كان مع رستم ثمانية عشر فيلا، ومع الجالينوس خمسة عشر فيلا.

وقال غيره: كان في جملتها فيل سابور الأبيض، وكانت الفيلة تألفه، وكان أعظمها وأقدمها.

وقال الرفيل: كانت ثلاثة وثلاثون [2]، في القلب ثمانية عشر، وفي المجنبتين خمسة عشر.

قال: ولما نزل رستم العتيق وبات به، أصبح غاديا على التصفح والتحرز [3]،

---

(١) طيزناباذ: بكسر أوله وسكون ثانيه ثم زاي مفتوحة ثم نون.. موضع بين الكوفة والقادسية على حافة الطريق، بينها وبين القادسية ميل - ياقوت. معجم البلدان ج ٤ ص ٥٤ - ٥٥.

(٢) في الأصول: وثلاثين.

(٣) التصفح: التأمل، والحرز: التخمين.

فساير العتيق نحو خفان، حتى أتى على مقطع عسكر المسلمين، ثم صعد حتى انتهى إلى القنطرة، فتأمل القوم، حتى أتى على تل يشرف عليهم، فلما وقف على القنطرة أرسل زهرة بن جوية ـ وكان هناك مسلحة لسعد ـ فخرج إليه حتى واقفه، فأراده [1] على أن يصالحهم، ويجعل له جعلاً على أن ينصرفوا عنه، وجعل يقول فيما يقول: إنكم جيراننا وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا، فكنا نحسن جواركم، ونكف الأذى عنكم، ونوليهم المرافق الكثيرة، ونحفظهم في أهل باديتهم، فنرعيهم مراعينا، ونميرهم من بلادنا ولا نمنعهم التجارة في شيء من أرضنا، فقد كان لهم في ذلك معاش ـ يعرض له بالصلح ولا يصرح ـ فقال له زهرة: صدقت، قد كان ما تذكر، وليس أمرنا أمر أولئك ولا طلبتنا طلبتهم. إنا لم نأتكم لطلب الدنيا، إنما طلبتنا وهمتنا الآخرة، كنا كما ذكرت، يدين لكم من قدم عليكم منا، ويضرع إليكم يطلب ما في أيديكم، ثم بعث الله ـ عز وجل ـ إلينا رسولاً، فدعانا إلى دينه فأجبناه، فقال لنبيه ﷺ: إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني، فأنا منتقم بهم منه، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به وهو دين الحق، لا يرغب عنه أحد إلا ذل، ولا يعتصم به أحد إلا عز.

قال رستم: وما هو؟ قال: أما عموده الذي لا يصلح منه شيء إلا به، فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، والإقرار بما جاء به من عند الله تعالى.

قال: ما أحسن هذا وأي شيء أيضاً؟

قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى.

قال: حسن، وأي شيء أيضاً؟

قال: والناس بنو آدم وحواء، أخوة لأب وأم.

فقال: ما أحسن هذا ثم قال (له) رستم: أرأيت لو أني رضيت هذا الأمر وأجبتكم إليه، ومعي قومي كيف يكون أمركم أترجعون؟

قال: أي والله، ثم لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة.

---

(١) في الأصل: فأداره.

قال: صدقتني والله، أما أن أهل فارس منذ ولي أردشير لم يدعوا أحدا يخرج من عمله من السفلة، كانوا يقولون إذا خرجوا من أعمالهم: تعدوا طورهم، وعادوا أشرافهم.

فقال له زهرة: نحن خير الناس (للناس)، ولا نستطيع أن نكون كما تقولون، نطيع الله في السفلة، ولا يضرنا من عصى الله فينا.

فانصرف عنه، ودعا رجال فارس فذاكرهم هذا فحموا منه، وأنفوا، فقال: أبعدكم الله وأسحقكم أخزى الله أجزعنا وأجبننا.

وعن سيف[1] عن رجاله، قالوا: أرسل سعد إلى المغيرة وبسر بن أبي رهم وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محسن وربعي بن عامر وقرفة بن أبي زاهر التيمي الوائلي ومذعور بن عدي العجلي والمضارب بن يزيد وسعيد بن مرة [2] ـ وهما من بني عجل ـ أيضاً ـ وكان سعيد[3] من دهاة العرب، فقال لهم سعد: إني مرسلكم إلى هؤلاء، فما عندكم؟

قالوا: نتبع ما تأمرنا به، وننتهي إليه، فإذا جاء أمر لم يكن منك فيه شيء نظرنا أمثل ما ينبغي وأنفعه للناس، فكلمناهم به.

قال سعد: هذا فعل الحزمة، اذهبوا فتهيئوا.

فقال ربعي بن عامر: إن الأعاجم لهم آراء وأدب، ومتى نأتهم جميعا يرون أنا قد احتفلنا لهم فلا تزدهم على رجل، فمالئوه جميعا على ذلك، فقال: فسرحني، فسرحه، فخرج ربعي بن عامر ليدخل على رستم عسكره، فاحتبسه الذي على القنطرة، وأرسل إلى رستم بمجيئه، فاستشار عظماء أهل فارس، فقال: ما ترون؟ أنباهي أم نتهاون؟ فاجتمع ملؤهم على المباهاة[4]، فأظهروا الزبرج، وبسطوا البسط والنمارق، ولم يتركوا شيئاً، ووضعوا لرستم سرير الذهب، وألبس زينته، من

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٥١٨.

(٢ ـ ٣) كذا في الأصول، وفي الطبري: معبد بن مرة.

(٤) في الطبري: على التهاون، وهو مالا يستقيم معه المعنى.

الأنماط والوسائد المنسوجة بالذهب. وأقبل ربعي يسير على فرس له زباء [١] قصيرة، معه سيف له مشوف [٢] وغمده لفافة ثوب خلق، ورمحه معلوب [٣] بقد، معه حجفة [٤] من جلود البقر، على وجهها أديم أحمر مثل الرغيف، ومعه فرسه ونبله. فلما انتهى إلى أدنى البسط، قيل له: انزل، فحمل فرسه عليها، فلما استوت على البسط نزل عنها وربطها بوسادتين فشقهما، ثم أدخل الحبل فيهما، فلم يستطيعوا أن ينهوه، وإنما أروه التهاون، وعرف ما أرادوا، فأراد استحراجهم، وعليه درع له كأنه أضاة [٥]، ويلمقة [٦] عباءة بعيره، قد جابها [٧] وتدرعها، وشدها على وسطه بسلب [٨]، ولرأسه أربع ضفائر، قد قمن قياما، كأنهن قرون الوعول، وكان أكثر العرب شعرة. فقالوا له: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم، أنتم دعوتموني، فإن أحببتم أن آتيكم كما أريد وإلا رجعت. فأخبروا رستما، فقال: أئذنوا له، هل هو إلا رجل فأقبل يتوكأ على رمحه، وزجه نصل يقارب الخطو، ويزج النمارق والبسط، فما ترك لهم نمرقة ولا بساطا إلا أفسده وتركها متهتكة مخرقة، فلما دنا من رستم تعلق به الحرس، وجلس على الأرض، وركز رمحه في البساط، فقالوا: ما حملك على هذا؟ قال: أنا لا نستحب القعود على زينتكم. فقال له رستم: ماجاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا، وجاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى، ومن ضيق الدنيا
١٩٣ ب إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان / / إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبله قبلنا ذلك منه، ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها

---

(١) زباء: طويلة الشعر كثيرته.

(٢) المشوف: المجلو.

(٣) أي حزم مقبض رمحه بعلباء البعير، وهو عنقه.

(٤) الحجفة: الترس.

(٥) الأضاة: الغدير.

(٦) اليملق: القباء.

(٧) جابها: قورها.

(٨) السلب: ليف المقل. وفي الأصل: «بسبب».

دوننا، ومن أبى قاتلناه أبدا، حتى نفضي إلى موعود الله. قال: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي. قال رستم: قد سمعنا مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا قال: نعم، كم أحب إليك؟ أيوم أم يومان؟ قال: لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. فقال: إن مما سن لنا رسول الله - ﷺ - وعمل به أئمتنا، ألا نمكن الأعداء من بداتنا، ولا نؤجلهم عند الإلتقاء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثا، فانظر في أمرك واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل، اختر الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزاء فنقبل ونكف عنك، وإن كنت عن نصرنا غنيا تركناك منه، وإن كنت إليه محتاجا منعناك، أو المنابذة في اليوم الرابع، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا، أنا كفيل لك بذلك على جميع من ترى. قال: أسيدهم أنت؟ قال: لا، ولكن المسلمين فيما بينهم كالجسد بعضهم من بعض، يجير أدناهم على أعلاهم. فخلص رستم برؤساء أهل فارس، فقال: ما ترون؟ هل سمعتم كلاما قط أوضح نصرا ولا أعز من كلام هذا الرجل؟ قالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك لهذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه فقال: ويحكم لا تنظروا إلى الثياب، ولكن انظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إن العرب تستخف باللباس و المأكل ويصونون الأحساب، ليسوا مثلكم في اللباس، ولا يرون فيه ما ترون. وأقبلوا إليه يتناولون سلاحه، ويزهدونه فيه، فقال لهم: هل لكم أن تروني فأريكم؟ فأخرج سيفه من خرقة كأنه شعلة نار. ثم رمى ترسا ورموا حجفته، فخرق ترسهم وسلمت حجفته. فقال: يا أهل فارس، إنكم عظمتم الطعام والشراب، وأنا صغرناهما، ثم رجع إلى أن ينظروا إلى الأجل، فلما كان الغد بعثوا · أن ابعث إلينا ذلك الرجل، فبعث إليهم سعد حذيفة بن محصن، فأقبل في نحو ذلك الزي، حتى إذا كان على أدنى البساط، قيل له: أنزل، قال: ذلك لو جئتكم في حاجتي، فقولوا لملككم: أله حاجة أم لي؟ فإن قال لي فقد كذب، ورجعت عنه، وتركتكم، وإن قال له، لم آته إلا على ما أحب. فقال: دعوه، فجاء حتى وقف عليه ورستم على سريره،

فقال له: انزل، قال: لا أفعل، فلما أبى سأله: ما بالك جئت ولم يجيء صاحبنا بالأمس؟ قال: إن أميرنا يحب أن يعدل بيننا في الشدة والرخاء، فهذه نوبتي. قال: ما جاء بكم؟ قال: الله عز وجل مَنَّ علينا بدينه، وأرانا آياته حتى عرفناه وكنا له منكرين. ثم أمرنا بدعاء الناس إلى واحدة من ثلاث، فأيها أجابوا إليه قبلناه: الإسلام وننصرف عنكم،أو الجزاء ونمنعكم إن احتجتم إلى ذلك، أو المنابذة. فقال: أو الموادعة إلى يوم. فقال: نعم، ثلاثا من أمس. فلما لم يجد عنده إلا ذلك رده، وأقبل على أصحابه فقال: ويلكم ألا ترون ما أرى؟ جاءنا الأول بالأمس فغلبنا على أرضنا، وحقر ما نعظم، وأقام فرسه على زبرجنا وربطه به، فهو في يمن الطائر، ذهب بأرضنا وما فيها إليهم، مع فضل عقله. وجاءنا هذا اليوم فوقف علينا، فهو في يمن الطائر سيقوم على أرضنا دوننا، فرادّه أصحابه الكلام حتى أغضبوه وأغضبهم، فلما كان من الغد أرسل: ابعثوا إلينا رجلا، فبعثوا إليه المغيرة بن شعبة.

قالوا: فلما جاء إلى القنطرة يعبرها إلى أهل فارس حبسوه واستأذنوا رستما في إجازته، فأذن في ذلك، فأقبل المغيرة والقوم في زيهم في الأمس، لم يغيروا شيئا من شارتهم، تقوية لتهاونهم، عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب، وبسطهم على غلوة [1] لا يصل إلى صاحبهم حتى يمشي عليها غلوة، وجاء المغيرة وله أربع ضفائر[2] يمشي، حتى جلس معه على سريره وشارته، فوثبوا إليه فنتروه وأنزلوه ومغثوه [3]، فقال: إنه كانت تبلغنا عنكم أحلام، ولا أرى قوما أسفه منكم، إنا معشر العرب سواء، لا يستعبد بعضنا بعضا إلا أن يكون محاربا لصاحبه، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه، ولم آتكم ولكنكم دعوتموني - زاد المدائني - وليس ينبغي لكم إذا أرسلتم إليّ

---

(١) الغلوة: قدر رجعة السهم.

(٢) في الأصول: ظفائر.

(٣) مغثوه: ضربوه ضربا ليس بالشديد.

أن تمنعوني من الجلوس حيث أردت، وما أكلمكم إلا وأنا جالس معه، اليوم علمت أنكم مغلوبون، وأن ملكا لا يقومَ على هذه السيرة، ولا على هذه العقول.

فقالت السفلة: صدق و الله العربي، وقالت الدهاقين: والله لقد رمى بكلام لايزال خولنا والضعفاء منا ينزعون إليه، قاتل الله أولينا، ما كان أحمقهم حين يصغرون أمر هذه الأمة فمازحه رستم ليمحو ما صُنع به، فقال له: يا عربي، إن الحاشية قد تصنع مالا يوافق الملك، فيتراخى عنها مخافة أن يكسرها عما ينبغي من ذلك، والأمر على ما تحب من الوفاء وقبول الحق، وليس ما صنعوا بضائرك ولا ناقصك عندنا، فاجلس حيث شئت، فأجلسه معه، ثم قال: ما هذه المغازل التي معك؟ - يعني السهام - قال: ما ضر الجمرة أن لاتكون طويلة ثم راماهم، ثم قال له رستم: تكلم أو أتكلم؟ فقال المغيرة: أنت الذي بعثت إلينا، فتكلم. فأقام الترجمان بينهما، وتكلم رستم، فحمد قومه، وعظم الملك والمملكة، وقال: لم نزل متمكنين في البلاد، ظاهرين على الأعداء، أشرافاً في الأمم، ليس لأحد من الملوك مثل عزنا وشرفناوسلطاننا، ننصر على الناس ولا ينصرون علينا إلا اليوم أو اليومين أو الشهر أو الشهرين، لأجل الذنوب، فإذا انتقم (الله) منا فرضي رد إلينا عزنا، ثم إنه لم تكن في الناسَ أمة أصغر عندنا أمرا منكم، كنتم أهل قشف ومعيشة سيئة، لا نراكم شيئا ولا نعدكم، وكنتم إذا قحطت أرضكم وأصابتكم السنة استغثتم بناحية أرضنا فنأمر لكم بشيء من التمر والشعير ثم نردكم، وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من الجهد في بلادكم، فأنا آمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم، وآمر لكل واحد منكم بوقر من تمر وبثوبين، وتنصرفون عنا، فإني لست أشتهي أن أقتلكم، ولا آسركم.

فتكلم المغيرة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله - سبحانه - خالق كل شيء ورازقه، يرفع من يشاء ويضع من يشاء، فمن صنع شيئا فإن الله - تبارك اسمه وتعالى - هو يصنعه والذي صنعه. وأما الذي ذكرت به نفسك وأهل

بلادك من الظهور على الأعداء والتمكين في البلاد وعظم السلطان في الدنيا، فنحن نعرفه ولا / / ننكره، والله صنعه لكم، ووضعه فيكم، وهو له دونكم، وأما ما ذكرت فينا من سوء الحال، وضيق المعيشة، واختلاف القلوب، فنحن نعرفه، والله ابتلانا بذلك، وصيرنا إليه، والدنيا دول، ولم يزل أهل شدائدها يتوقعون الرخاء حتى يصيروا إليه، وأهل رخائها يتوقعون الشدة حتى تنزل بهم، ويصيروا إليها، ولو كنتم فيما آتاكم الله دوننا أهل شكر، لكان شكركم يقصر عما أوتيتم، ولأسلمكم ضعف الشكر إلى تغير الحال، ولو كنا فيما ابتلينا به أهل كفر، كان عظيم ما تتابع علينا مستجلبا من الله رحمة يرفه بها عنا، ولكن الشأن غير ما تذهبون إليه، إن الله تعالى بعث فينا رسولا، فكذبه مكذبون وصدقه منا آخرون، وأظهر الله دعوته، وأعز دينه على كره ممن كذبه وحاده، حتى دخلوا في الإسلام طوعا وكرها، فأمرنا أن ندعو من خالفنا إلى ديننا، فمن أباه قاتلناه.

١٩٤ أ

وذكر نحو ما تقدم من الكلام في الأحاديث المتقدمة من دعائه إلى الإسلام، وقال له: فإن أبيث فكن لنا عبدا تؤدي الجزية عن يد وأنت صاغر، وإلا السيف إن أبيت.

فنخر رستم عند ذلك نخرة واستشاط غضبا، ثم حلف بالشمس لا يرتفع لكم الضحى غدا حتى أقتلكم أجمعين.

فانصرف المغيرة، وخلص رستم بأشراف فارس، فقال: أين هؤلاء منكم؟ ما بعد هذا؟ ألم يأتكم الأولان فجسراكم واستخرجاكم، ثم جاءكم هذا فلم يختلفوا، وسلكوا طريقا واحدا، ولزموا أمرا واحدا، هؤلاء والله الرجال، صادقين أو كاذبين، والله لئن كان بلغ من رأيهم وصونهم أمرهم أن لا يختلفوا، ما قوم أبلغ فيما أرادوا منهم، وإن كانوا صادقين ما يقوم لهؤلاء شيء فلجوا وتجلدوا، فقال: والله إني لأعلم أنكم تصغون إلى ما أقول لكم، وإن هذا منكم رياء، فازدادوا لجاجا.

وفي بعض الروايات أن مما قال المغيرة لرستم وقد توعد المسلمين بأنهم مقتولون، قال: هو الذي نتمنى، أن المقتول منا صائر في الجنة، والهارب في النار، وللباقي الصابر الظفر بحديث صادق ووعد لاخلف له، وقد أصبنا في بلادكم حبة كأنها قطع الأوتار، فأكلنا منها وأطعمنا أهالينا، فقالوا، لا صبر لنا حتى تنزلونا هذه البلاد.

قال رستم: أما لنقرننكم في الجبال.

قال المغيرة: أما وبنا حياة فلا.

قال رستم: ارجع إلى أصحابك واستعدوا للحرب، فليس بيننا وبينكم صلح، ولنفقأن عينك غدا.

فقال المغيرة: وأنت ستقتل غدا إن شاء الله، وإن ما قلت لي ليسرني، لولا أن أجاهدكم بعد اليوم لسرني أن تذهبا جميعا.

ورجع المغيرة فتعجبوا من قوله. فقال رستم: ما أظن هذا الملك إلا قد انقضى، وأن أجمل بنا ألا يكون هؤلاء أصبر منا، ولقد وعدوا وعدا ليموتن أو ليدركنه، ولقد حذروا وخوفوا من الفرار خوفا لا يأتونه، وقد رأيت ليلتي هذه كأن القوس التي في السماء خرت، وكأن الحيتان خرجن من البحر، وأن هؤلاء القوم سيظهرون عليكم، فهل لكم أن تقبلوا بعض ما عرضوا عليكم؟ قالوا: لا.

قال: فأنا رجل منكم، وكتب إلى يزد جرد بما كلمه به المغيرة، فقال شاهين الأزدي: لو لم يكن إلا ساسة دوابنا لأخذناهم بهم. فكتب إليه يأمره بقتالهم، وقال: إذا لقيتهم فضع الرجال فيما بيني وبينك، على كل ربوة رجلا، فكلما حدث أمر نادى به بعضهم بعضا حتى يفضي الخبر إليّ.

وحدث سيف (١) عن رجاله، قالوا: أرسل إليهم سعد بقية ذوي الرأي

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٥٢٥ ـ ٥٢٨.

جميعاً، وحبس الثلاثة، فخرجوا حتى أتوه، فقالوا له: إن أميرنا يقول (لك): إن الحرب تحفظ الولاة، وإني أدعوك إلى ما هو خير لنا ولك، وهي العاقبة بأن تقبل منا ما دعاك الله ـ عز وجل ـ إليه، ونرجع إلى أرضنا، وترجع إلى أرضك وبعضنا من بعض، إلا أن داركم لكم، وأمركم فيكم، وما أصبتم مما وراءكم كان زيادة لكم دوننا، وكنا لكم عونا على أحد إن أرادكم أو قوي عليكم. واتق الله يا رستم، ولا يكونن هلاك قومك على يديك، فإنه ليس بينك وبين أن تغتبط إلا أن تدخل فيه وتطرد به الشيطان عنك.

فقال رستم: إني قد كلمت منكم نفرا، ولو أنهم فهموا عني رجوت أن تكونوا قد فهمتم، وإن الأمثال أوضح من كثير من الكلام، وسأضرب لكم مثلكم. إنكم كنتم أهل جهد في المعيشة، وقشف في الهيئة، لا تمتنعون ولا تنتصفون، فلم نسيء جواركم، ولم ندع مواساتكم، تقتحمون المرة بعد المرة، فنميركم ثم نردكم، وتأتوننا أجراء وتجارا فنحسن إليكم، فلما تطعمتم طعامنا، وشربتم شرابنا، وأظلكم ظلنا، وصفتم ذلك لقومكم، ثم دعوتموهم فأتيتمونا بهم، وإنما مثلكم في ذلك ومثلنا كمثل رجل كان له كرم، فرأى فيه ثعلبا، فقال: وما ثعلب فانطلق الثعلب، فدعا الثعالب إلى ذلك الكرم، فلما اجتمعت عليه سد عليها صاحب الكرم مدخلها فقتلها، وقد علمت أن الذي حملكم على هذا الحرص والطمع مع الجهد، فارجعوا عنا عامكم هذا، وامتاروا حاجتكم، ولكم العود كلما احتجتم، فإني لا أشتهي أن أقتلكم، وقد أصاب أناس كثير منكم ما أرادوا من أرضنا، ثم كان مصيرهم القتل والمهرب، ومن سن هذا لكم خير منكم وأقوى، وقد رأيتم أنتم كلما أصابوا شيئا أصيب بعضهم ونجا بعضهم، وخرج مما كان أصاب، ومن أمثالكم فيما تصنعون مثل جرذان ألفت جرة فيها حب، وفي الجرة ثقب، فدخل الأول فأقام فيها، وجعلت الأخر ينقلن منها ويرجعون ويكلمنه في الرجوع، فيأبى، فانتهى سمن الذي في الجرة، فاشتاق إلى أهله ليريهم حسن حاله، فضاق عليه الجحر، ولم يطق الخروج، فشكى القلق إلى أصحابه، وسألهم المخرج، فقالوا: ما أنت بخارج منها حتى تعود كما كنت قبل

أن تدخل، فكف وجوع نفسه، وبقي في الجرة، حتى إذا عاد كما كان أتى عليه صاحب الجرة فقتله، فاخرجوا أو ليكونن هذا لكم مثلا.

وقال لهم ـ أيضا ـ فيما قال: لم يخلق الله خلقا أولع من ذباب، ما خلاكم يا معشر العرب، ترون الهلاك ويدليكم فيه الطمع، ومثلكم في هذا مثل الذباب إذا رأى العسل طار، وقال: من يوصلني إليه وله درهمان حتى يدخله؟ لا ينهاه[1] أحد إلا عصاه، فإذا دخله غرق ونشب، وقال: من يخرجني وله أربعة دراهم؟ وضرب للقوم أمثالا غير هذه نحوا منها [2].

قالوا: فتكلم القوم، فقالوا: أما ما ذكرت من سوء حالنا فيما مضى، وانتشار أمرنا، فلم نبلغ كنهه يموت الميت منا إلى النار، ويبقى الباقي منا في بؤس، فبينا نحن في أسواء ذلك، بعث الله ـ عز وجل ـ فينا رسولا من أنفسنا إلى الأنس والجن، رحمة رحم بها من أراد رحمته، ونقمة ينتقم بها ممن رد كرامته، فبدأ بنا قبيلة قبيلة، فلم يكن أحد أشد عليه // ولا أشد إنكاراً لما جاء به، ولا أجهد على قتله ورد ماجاء به من قومه، ثم الذين يلونهم، حتى طابقناه على ذلك كلنا، فنصبنا له جميعا، وهو وحده فرد ليس معه إلا الله ـ تعالى ـ فأعطى الظفر علينا، فدخل بعضنا طوعا وبعضنا كرها، ثم عرفنا جميعا الحق والصدق لما أتى به من الآيات المعجزة، وكان مما أتى به من عند ربنا ـ عز وجل ـ جهاد الأدنى فالأدنى، فصرنا في ذلك فيما بيننا، نرى أن الذي قال لنا ووعدنا لا نخرج عنه ولا ننقص منه، حتى اجتمعت العرب على هذا، وكانوا من الاختلاف فيما لا يطيق الخلائق بالتفهم معه، ثم أتيناكم بأمر ربنا، نجاهد في سبيله، وننفذ لأمره، ونستنجز موعوده، وندعوكم إلى الإسلام وأحكامه، فإن أجبتمونا تركناكم ورجعنا، وخلفنا فيكم كتاب الله ـ عز وجل ـ وإن أبيتم لم يحل لنا (إلا) أن نعاطيكم القتال أو تفتدوا بالجزاء، فإن فعلتم وإلا فإن الله ـ عز وجل ـ قد أورثنا أرضكم وأبناءكم وأموالكم. فاقبلوا نصيحتنا، فوالله لإسلامكم أحب إلينا ١٩٤ ب

(١) في الأصل: «لا ينهه».

(٢) راجع الطبري ج ٣ ص ٥٢٧.

من غنائمكم، ولقتالكم بعد أحب إلينا من صلحكم، وأما ما ذكرت من رثاثتنا وقلتنا فإن إرادتنا الطاعة، وقتالنا الصبر وأما ما ضربتم لنا من الأمثال، فإنكم ضربتم للرجال وللأمور الجسام وللجد الهزل، ولكنا سنضرب لكم مثلا، إن مثلكم مثل رجل غرس أرضا، واختار لها الشجر والحب، وأجرى لها الأنهار، وزينها بالقصور، وأقام فيها فلاحين يسكنون قصورها، ويقومون على جناتها، فخلفه الفلاحون في القصور بما لا يحب، وفي الجنان بمثل ذلك، فأطال نظرتهم، فلما لم يستحيوا من تلقاء أنفسهم، استعتبهم فكابروه، فدعا إليهم غيرهم، فأخرجهم منها، فإن ذهبوا عنها تخطفهم الناس، وإن أقاموا صاروا خولاً لهم يملكونهم ويسومونهم الخسف أبداً، ووالله لو لم يكن ما نقول لكم حقاً، ولم تكن إلا الدنيا، لما كان لنا عما ضربنا به من لذيذ عيشكم، ورأينا من زبرجكم من صبر، ولقارعناكم أو نغلبكم عليه.

فقال رستم: أتعبرون إلينا أو نعبر إليكم؟ فقالوا: بل اعبروا إلينا، فخرجوا من عنده عشيا، فأرسل سعد إلى الناس أن يقفوا مواقفهم، وأرسل إليهم: شأنكم والعبور، فأرادوا القنطرة، فأرسل إليهم: لا ولا كرامة أما شيء قد غلبناكم عليه فلن نرده عليكم، تكلفوا معبرا غير القناطر، فباتوا يسكرون العتيق حتى (الصباح) بأمتعتهم.

وذكر المدائني أن رستم وجه الجالينوس ليعبر القنطرة، فوقف بحيال زهرة بن جوية، وكان عليها، وقال: ليخرجن إليّ الموكل بهذا الموضع، فخرج زهرة على فرس كميت أغر ذنوب، معه رمح معلوب، وسيف رث الجفن، فقال له الفارسي: إنك لم توضع هذا الموضع إلا وانت ركن من أركان أصحابك، وأرى سيفك رث الجفن، قال: إن يكن رث المنظر فإنه حديد الضربة، وقرب إليه الفارسي بالصلح ولم يصرح، ومناه، وقال: نحسن جواركم ونرفقكم في معايشكم. فقال زهرة: إنا لم نأتكم نطلب الدنيا بغير آخرة، إنما أتيناكم ندعوكم إلى ديننا، فإن أبيتموه فدنياكم التي تعرضون علينا لنا إن شاء الله، فقال له الفارسي: فخلوا لنا الطريق فنعبر إليكم فنناجزكم، قال: لا. قال: ولم وأنتم تمنون

لقاءنا، قال: نكره أن نرد عليكم شيئا قد غلبناكم عليه، فرجع إلى رستم فأخبره، فأعظم ذلك، فانصرف الجالينوس، فجلس رستم يفكر فيما أخبره، وغلبته عيناه فنام فانتبه ويده في كتف جارية قاعدة بين يدي فراشه، فقال: مالك؟ قالت: مالت يدك فرفعتها، فقال: أشفقت أن سقطت من فراش ديباج علي بساط ديباج؟ فكيف بها غداً إذا انعفرت في التراب ووطئتها الخيل؟ قالت: وما يضطرك إلى ذلك؟ وقد أعطوك مالك فيه نصف ونجاة: إما أن تدخل في دينهم فتكون مثلهم، وإما أن تفتدي منهم بشيء تعطيهم ويبقى لك أمرك، وإما أن تذهب إلى مأمنك من الأرض؟ فقال: إن في عنقي حبلاً أقاد به إلى مصرعي، لا أقدر على الإمتناع.

وبات الأعاجم ليلتهم يسكرون العتيق بالقصب والتراب والبراذع حتى جعلوه طريقا، واستتم بعدما ارتفع النهار من الغد.

قالوا [1] : ورأى رستم من الليل أن ملكا نزل من السماء فأخذ قسى أصحابه فختم عليها، ثم صعد بها إلى السماء، فاستيقظ مهموما حزينا، فدعا خاصته وقصها عليهم، وقال: إن الله - عزوجل - ليعظنا، لو أن فارس تركوني أتعظ[2]، أما ترى النصر قد رفع عنا وترى الريح مع عدونا وأنا لا نقوم لهم في فعل ولا منطق؟

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٥٢٩.

(٢) في الأصل: «أتعض».

(يوم أرماث)

ولما تم السكر عبروا بأثقالهم حتى نزلوا على ضفة العتيق، ولما عبر أهل فارس أخذوا مصافهم، وجلس رستم على سريره، وضربت عليه طيارة، وعبأ في القلب ثمانية عشر فيلا، عليها الصناديق والرجال، وفي المجنبتين ثمانية وسبعة عليها الصناديق والرجال، وأقام الجالينوس بينه وبين ميمنته والبيزران[1] بينه وبين ميسرته، وبقيت القنطرة بين خيلين من خيول المسلمين والمشركين.

وأخذ المسلمون - أيضا - مصافهم، وكانت التعبئة التي تقدم بها سعد قبل انفصاله عن شراف بإذن عمر - رضي الله عنه - أن جعل على المقدمة زهرة بن الجوية، وعلى الميمنة عبد الله بن المعتم - وكان من أصحاب النبي ﷺ، وأحد التسعة الذين قدموا عليه فتممهم طلحة بن عبيد الله عشرة في العرافة - وعلى الميسرة شرحبيل بن السمط الكندي - وكان شابا قد قاتل أهل الردة على الردة، ووفي الله عز وجل، فعرف ذلك له - وعلى الساقة عاصم بن عمرو السعدي، وعلى الطلائع سواد بن مالك التميمي، وعلى المجردة سلمان بن ربيعة الباهلي، وعلى الرجال حمال بن مالك الأسدي، وعلى الركبان عبد الله بن ذي السهمين الخثعمي، فلما تصافوا يومئذ جعل سعد زهرة وعاصما بين عبد الله بن المعتم، وبين شرحبيل بن السمط، ووكل صاحب الطلائع بالطرد، وخلط بين الناس في القلب والمجنبات، ونادى مناديه: ألا إن الحسد لا يحل إلا على الاجتهاد في أمر الله - تعالى - يا أيها الناس، فتحاسدوا وتغايروا على الاجتهاد.

وذكر المدائني أنه كان على الميمنة يوم القادسية شرحبيل بن السمط، وعلى

---

(١) في الأصول: الفيزران، والتصويب من الطبري.

الميسرة هاشم بن عتبة، وعلى الخيل قيس بن مكشوح، وعلى الرجلِّ المغيرة بن شعبة، فالله ـ تعالى ـ أعلم.

وكان سعد يومئذ لا يستطيع أن يركب ولا يجلس، كان به عرق النسا ودماميل، وإنما هو على وجهه وفي صدره وسادة، وهو مكب عليها، مشرف على الناس من القصر، يرمي بالرقاع فيها أمره ونهيه إلى خالد بن عرفطة، وهو أسفل منه، // وكان الصف إلى جانب القصر، وكان خالد كالخليفة لسعد لو ١٩٥ أ
لم يكن سعد شاهداً مشرفاً.

وقيل: بل استخلفه على الناس لأجل شكواه، فاختلف عليه الناس، فقال سعد: احملوني، فأشرفوا به على الناس، فارتقوا به، فأكب مطلعا عليهم، والصف في أصل حائط قديس، حيث كان سعد يأمر خالدا فيأمر خالد الناس، وكان ممن شغب عليه وجوه من وجوه الناس، فهم بهم سعد وشتمهم، وقال: أما والله لولا أن عدوكم بحضرتكم لجعلتكم نكالاً لغيركم فحبسهم في القصر وقيدهم، منهم أبو محجن الثقفي.

وقال جرير يومئذ: أما أني بايعت رسول الله ـ ﷺ ـ على أن أسمع وأطيع لمن ولي الأمر وإن كان عبداً حبشيا.

وقال سعد: والله لا يعود أحد بعدها يحبس المسلمين عن عدوهم ويساغبهم وهم بإزائهم إلا سننت فيه سنة يؤخذ بها من بعدي.

وذكر المدائني أنه أتى رستما رجل من أهل الحيرة ليلا، فقال له: أمير المسلمين وجع، وهو في قصر العذيب مع العيال، ولو طرقته خيل لقتل لا يشعر به أصحابه، فانتخب رستم خمسمائة فارس، فوجههم إليه، فترفعوا عن العسكرين وقطعوا الوادي، وأخذوا في خفضٍ من الأرض، وجاء رجل من العجم إلى المسلمين مستأمناً، فأخبرهم، فانتدب حنظلة بن الربيع الأسيدي في خمسمائة من تحت الليل، فسار إلى العذيب، وقال لأصحابه: إنه ليطيب نفسي أن عبد الله بن سبرة عند سعد، فانتهى إلى سعد عند طلوع الفجر ولم تصل إليهم الفرس،

فأنذروه وأصبحوا فإذا الأساورة متحدرون من ناحية وادي السباع، فتلقاهم عبد الله بن سبرة الواقفي - أحد بني حرملة بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة - في سرعان الناس، معه عشرة فوارس وغلام له رومي يقال له يزيد - كان أصابه يوم اليرموك - وأتبعهم حنظلة في أصحابه، فقتل عبد الله بن سبرة قبل أن تتام إليه الخيل اسوارين.

وقال مرة الهمداني - وكان مع حنظلة: لما دنونا من معتركهم سمعنا صوتا منكرا شديدا، فقال حنظلة: صوت ابن الكندية ورب الكعبة، بعض هنات أبي قيس، فانتهينا إليهم فإذا عبد الله بن سبرة يذمر أصحابه وهو يقول لغلامه يا يزيد: ثكلتك أمك إن فاتك أحد، وقد انكسر رمحه، وهو يضربهم بعمود ما يضرب به رجلا إلا قتله، ولا دابة إلا عقرها، وإن غلامه ليذودهم عليه بالرمح، فلما غشيهم حنظلة وأصحابه انهزموا، فما تشاء أن تجد الخمسة والستة من المسلمين يخفقون اسوارا بأسيافهم إلا وجدته، فقتل منهم ثلاثون، ويقال مائة، وأفلت الآخرون أكثرهم جريح، فرجعوا إلى رستم، فطلب الحيري ليقتله وظن أنه عين دس له فلم يقدر عليه، وتحول سعد فنزل مع جماعة الناس.

وفيما حكاه سيف عن رجاله[1]: أن سعدا - رحمه الله - بعدما تهدم على الذين اعترضوا على خالد بن عرفطة خطب من يليه يومئذ فحمد الله وأثنى عليه. وقال: إن الله وهو الحق، وقوله الحق، لا شريك له في الملك، وليس لقوله خلف، قال: ﴿**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون**﴾ (١٠٥: الأنبياء)، إن هذا ميراثكم وهو موعد ربكم، وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج، وأنتم تطعمون منها وتأكلون، وتقتلون أهلها، وتجبونهم وتسبونهم إلى هذا اليوم، بما نال منه أصحاب الأيام منكم، وقد جاءكم منهم هذا الجمع، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم، وخيار كل قبيلة، وعز من وراءكم، فإن تزهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة يجمع الله لكم الدنيا والآخرة، ولا يقرب ذلك أحدا إلى أجله، وأن تفشلوا وتهنوا وتضعفوا تذهب ريحكم وتوبقوا آخرتكم.

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٥٣١ - ٥٣٢.

وكتب سعد إلى أهل الرايات: إني قد استخلفت عليكم خالد بن عرفطة، وليس يمنعني أن أكون مكانه إلا وجعي الذي كان يعودني، وما بي من جبون، وإني مكب على وجهي وشخصي لكم باد، فاسمعوا (له)، وأطيعوا، فإنه إنما يأمركم بأمري، ويعمل برأيي. فقريء على الناس فزادهم خيراً، فانتهوا إلى رأيه، وقبلوا منه، وتحاثوا على السمع والطاعة، وأجمعوا على عذر سعد والرضا بما صنع.

قالوا:[1] وأرسل سعد للذين انتهى إليهم رأي الناس، والذين انتهت إليهم نجدتهم، (وأصناف الفضل منهم)[2] إلى الناس، فقال: انطلقوا فقوموا في الناس بما يحق عليكم وعليهم عند مواطن البأس، فإنكم من العرب بالمكان الذي أنتم به، وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم، فسيروا فيهم، وحرضوهم على القتال. فساروا فيهم.

فقال قيس بن هبيرة: أيها الناس، احمدوا الله على ما هداكم له وأبلاكم يزدكم، واذكروا آلاء الله، وارغبوا إليه في عادته، فإن الجنة والغنيمة أمامكم، وإنه ليس وراء هذا القصر إلا العراء، والأرض القفر، والظراب الخشن، والفلوات التي لا تقطعها الأدلة.

وقال غالب بن عبد الله الليثي: أيها الناس، احمدوا الله على ما أبلاكم، وسلوه يزدكم، وادعوه يجبكم، يا معشر معد، ما علتكم اليوم وأنتم في حصونكم - يعني الخيل - ومن لا يعصيكم معكم - يعني السيوف؟ فاذكروا حديث الناس في غد، فإنه بكم غدا يبدأ، وبمن بعدكم يثني.

وقال ابن الهذيل الأسدي: يا معشر معد، اجعلوا حصونكم السيوف، وكروا عليهم كأسودالأجم، وتربدوا[3] إليهم تربد النمور، وادرعوا العجاج،

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٥٣٣ - ٥٣٤.

(٢) الإضافة من الطبري.

(٣) تربدوا: تعبسوا وغضبوا.

وثقوا بالله ـ تعالى ـ وغضوا الأبصار، فإذا كلت السيوف فإنها مأمورة، فأرسلوا عليهم الجنادل، فإنها يؤذن لها فيما لا يؤذن للحديد فيه.

وقال بسر بن أبي رهم: احمدوا الله، وصدقوا قولكم بفعل، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، انصروا الله ينصركم، ولا يكونن شيء بأهون عليكم من الدنيا، فإنها تأتي من تهاون بها، ولا تميلوا إليها فتهرب منكم.

وقال عاصم بن عمرو: يا معشر العرب، إنكم أعيان العرب، وقد صمدتم[1] لأعيان العجم، إنما تخاطرون بالجنة، ويخاطرون بالدنيا، فلا يكونُنَّ على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم. لا تحدثن اليوم أمراًتكونون به شيناً على العرب غداً.

وقال ربيع السعدي: يا معشر العرب، قاتلوا للدين والدنيا، **﴿سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾** (١٣٣ : آل عمران)، فإن عظم الشيطان عليكم الأمر، فاذكروا الأخبار عنكمْ بالمواسم ما دام للأخبار أهل.

وتقدم كل واحد من أولئك الذين بعثهم سعد من وجوه الناس بمثل هذا الكلام، وتواثق الناس، وتعاهدوا، واهتاجوا لكل ما ينبغي لهم.

وفعل أهل فارس ـ فيما بينهم ـ مثل ذلك، وتعاهدوا وتواصوا، واقترنوا
١٩٥ ب بالسلاسل، وكان المقترنون // ثلاثين ألفاً.

وقال سعد للناس: الزموا مواقفكم، لا تحركوا شيئاً حتى نصلي الظهر، (فإذا صليتم الظهر) فإني مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا، واعلموا أن التكبير لم يعطه أحد قبلكم، وإنما اعطيتموه تأييداً، فإذا سمعتم الثانية فكبروا، ولتستتموا عدتكم، فإذا كبرت الثالثة فكبروا، ولينشط فرسانكم الناس ليبرزوا ويطاردوا، فإذا كبرت الرابعة فازجفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم، وقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) صمدتم لهم: قصدتم إليهم صابرين.

ويروى أنه لما نادى منادي سعد بالظهر، نادى رستم: أكل عُمَرُ كَبِدِي أحرق الله كبده علم هؤلاء حتى علموا.

وقيل: إن رستم قال نحواً من هذا عندما نزل بين الحصن والعتيق، وقد أذن مؤذن سعد الغداة، ورأى الناس يتخشخشون[1]، فنادى في أهل فارس: أن اركبوا، فقيل له: ولم؟ قال: أما ترون إلى عدوكم قد نودي فيهم فتخشخشوا لكم؟ فقال له رجل قد كان رستم بعثه قبل ذلك عيناً إلى عسكر المسلمين فانغمس فيهم وعرف حالهم، وانصرف إليه: فأخبره أن ذلك تخشخشهم للصلاة. فقال رستم بالفارسية ما تفسيره: أتاني صوت عند الغداة، وإنما هو عمر الذي يعلم الكلاب العقل، فلما سمع الأذان بالصلاة قال: أكل عمر كبدي.

قالوا: ولما صلى سعد الظهر أمر غلاماً كان عمر - رحمه الله - ألزمه إياه، وكان من القراء - بقراءة سورة الجهاد، وكان المسلمون كلهم إذ ذاك يتعلمونها، فقرأها على الكتيبة التي تليه، وقرئت في كل كتيبة، فهشت قلوب الناس وعرفوا السكينة مع قراءتها.

قال مصعب بن سعد: وكانت قراءتها سنة، يقرأها رسول الله - ﷺ - عند الزحوف، ويستقرئها، فعمل الناس بذلك.

قالوا: ولما فرغ القراء، كبر سعد فكبر الذين يلونه، وكبر بعض الناس بتكبير بعض، فتخشخش الناس، ثم ثنى فاستتم الناس، ثم ثلث فبرز أهل النجدات فأنشبوا القتال، وخرج أمثالهم من فارس، فاعتوروا الطعن والضرب، وخرج غالب بن عبد الله الليثي وهو يقول:

قد عَلِمَتْ واردة المسالح ذاتُ البنانِ واللَّبانِ[2] الواضحِ

---

(١) الخشخشة: صوت السلاح وكل شيء يابس إذا حك بعضه بعضاً، والمعنى: ينزلون في سلاحهم ودروعهم، وفي القاموس: الخشخاش: الجماعة في سلاح ودروع.

(٢) اللبان: الصدر.

أني سمامُ البطـلِ المُشَـايِـحِ[1] وفـارجُ الأمْـرِ المهـمِّ الفـادحِ[2]

(الرجز)

فخرج إليه هرمز - وكان من ملوك الباب، وكان متوجاً - فأسره غالب أسراً، فجاء به فأدخل إلى سعد، وانصرف غالب للمطاردة.

وذكر المدائني أن رستم أمر هرمز فتقدم في كتيبة، فشد عليه غالب وزهرة ابن جوية، فسبق إليه غالب في خيل فقتله.

قالوا: وخرج عاصم بن عمرو وهو يقول:

قد علمت صفراءُ بيْضَاءُ اللَّبَبْ[3] مثـل اللُّجَيْـن يتغشَّـاهُ الذهَـبْ

أنّـي أمـرٌّ الأمْـرَ إمـرار السبَبْ مثلي على مِثْلِكِ يُعْدِيـهِ الكَثَبْ[4]

(الرجز)

فطارد رجلاً من أهل فارس، فهرب منه وأتبعه، حتى إذا خالط صفهم والتقى بفارس معه بغل، فترك الفارس البغل، واعتصم بأصحابه فحموه، واستاق عاصم البغل والرحل، حتى آوى به إلى الصف، وإذا الفارس خباز الملك، وإذا الذي كان معه لطف الملك: الأخبصة والعسل المعقد، فنفل ذلك سعد أهل موقف عاصم، وبعث إليهم ليأكلوه وهم في موقفهم.

وجال عمرو بن معدي كرب بين الصفين يحرض الناس، ويقول: إن الرجل من هذه الأعاجم إذا ألقي من فرسه فإنما هو تيس.

قال قيس بن أبي حازم: فبينا هو كذلك يحرضنا إذ خرج إليه رجل من الأعاجم، فوقف بين الصفين فرماه بنشابة فما أخطأت سية قوسه وهو متنكبها،

---

(١) المشايح: المقاتل.

(٢) الأبيات في الطبري ج ٣ ص ٥٣٦، والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٣٢٥.

(٣) اللبب بالتحريك: موضع القلادة من الصدر.

(٤) الأبيات في الطبري ج ٣ ص ٥٣٦، والكامل ج ٢ ص ٣٢٦.

فالتفت إليه ثم حمل عليه، فاعتنقه، ثم أخذ بمنطقته فاحتمله فوضعه بين يديه، فجاء به حتى إذا دنا منا كسر عنقه، ثم وضع سيفه على حلقه فذبحه، ثم ألقاه. وقال: هكذا فافعلوا بهم. فقلنا: من يستطيع يا أبا ثور أن يصنع كما تصنع؟

وقال بعضهم: وأخذ سواريه ومنطقته ويلمق ديباج كانت عليه. ثم تكتبت الكتائب من هؤلاء وهؤلاء.

وذكر المدائني أن رستم ظاهر يومئذ بين درعين، وقرب له فرس فنزا عليه، ولم يمسه بيده، وقال: اليوم ندق العرب دقاً. فقال له رجل: قل إن شاء الله. قال: إن شاء وإن لم يشأ، وقدم كتيبة عليها [1] الدروع والمغافر والأداة الكاملة، فدفعوا إلى جعفي، وهم حديثو عهد بالشرك، فنازلوهم فلم تحك سيوفهم في جنبهم، فظنوا أن الحديد لا يحك فيهم، حتى حمل رجل منهم على أسوار فطعنه فقتله، ونادى: يا آل جعفي، السلاح تنفذ فيهم فشأنكم بهم، ونحو هذا قول عمرو بن معدي كرب في ذلك اليوم، وقد رماه رجل من أهل العجم بنشابة، فوقعت في كتفه، وعليه درع حصينة، فلم تنفذ، وحمل هو على الرجل فعانقه ثم صرعه فقتله، وقال:

أنا أبو ثور وسيفي ذو النون　　　أضربهم ضرب غلام مجنون
يا زيد إنهم يموتون

(السريع)

ولم يكن عمرو ولا قومه يجهلون أن القوم يموتون، ولكنه الشعر تحسن فيه هذه المآخذ، ويملح بهذه المقاصد.

ومثله قول الآخر:

القوم أمثالكم لهم شعر　　　في الرأس لا ينشرون أن قتلوا
(المنسرح)

ويفوق هذا كله قول الله سبحانه، ولكتابه المثل الأعلى: ﴿ولا تهنوا في

---

(١) في الأصل: عليهم.

ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون، وكان الله عليماً حكيماً﴾ (١٠٤ : النساء).

وقد بعدنا عما كنا بسبيله، فلنعد إليه.

قالوا: لما تكتبت الكتائب بعد الطراد، وتزاحف الناس، صرفت الأعاجم فيولها نحو المسلمين، فوجهت إلى الوجه الذي فيه بجيلة ثلاثة عشر فيلاً، وصفوا على سائر الناس سبعة عشر، ولما حمل أصحاب الفيلة تفرقت الكتائب، وابذعرت (١) الخيل، وكادت بجيلة تؤكل، فرت خيلها نفاراً، فأرسل سعد إلى بني أسد: يا بني أسد ذببوا (٢) على بجيلة ومن لافها من الناس، فخرج طليحة بن خويلد، وحمال بن مالك الأسدي وغالب بن عبد الله والرفيل بن عمرو في كتائبهم فباشروا الفيلة، حتى عزلها ركبانها، وإن على كل فيل يومئذ عشرين رجلاً.

وقال موسى بن طريف: قام طليحة في قومه حين استصرخهم سعد، فقال: يا عشيرتاه، إن المنوه باسمه، الموثوق به، أنتم، وإن هذا - يعني سعدا - لو علم أن أحداً أحق بإغاثة هؤلاء منكم لاستغاثهم، ابدؤهم الشدة، وأقدموا عليهم إقدام الليوث الحربة، فإنما سميتم أسدا لتفعلوا فعلهم، شدوا ولا تصدوا، وكروا ولا تفروا، لله در ربيعة أي فَرِيٍّ يفرون وأي قرن يغنون هل يوصل إلى مواقفهم فاغنوا عن مواقفكم أعانكم الله، شدوا عليهم باسم الله. فقام المعرور بن سويد وشقيق، فشدوا والله عليهم فما زالوا يضربونهم ويطعنونهم حتى حبسنا الفيلة عنهم، وخرج إلى طليحة عظيم منهم فبارزه، فما ألبثه طليحة أن قتله.

قالوا (٣): وقام الأشعث بن قيس، فقال: يا معشر // كندة، لله در بني أسد ١٩٦ أ

---

(١) ابذعروا: تفرقوا وفروا.

(٢) ذبوا: دافعوا.

(٣) الطبري ج ٣ ص ٥٣٩ - ٥٤٠.

أي فَرِي يفرون[1] وأي هذ يهذون[2] عن موقفهم منذ اليوم أغنى كل قوم ما يليهم، وأنتم تنظرون من يكفيكم البأس، أشهد ما أحسنتم اسوة أخوانكم من العرب، وأنهم ليقتلون ويقتلون، وأنتم جثاة على الركب، فوثب إليه منهم عشرة، فقالوا: عثر جدك إنك لتؤبسنا[3] يا هذا، نحن أحسن الناس موقفاً! فمن أين خذلنا قَومنا العرب واسأنا أسوتهم؟ فها نحن معك، فنهد ونهدوا، فأزالوا الذين بإزائهم.

ولما رأى أهل فارس ما تلقى الفيلة من كتيبة بني أسد رموهم بجدهم؛ وبدر المسلمون الشدة عليهم، وهم ينتظرون التكبيرة الرابعة من سعد، فاجتمعت حلبة فارس - فيهم ذو الحاجب والجالينوس - على بني أسد ومعهم تلك الفيلة، وقد ثبتوا لهم، وكبر سعد التكبيرة الرابعة، فزحف إليهم المسلمون ورحى الحرب تدور على بني أسد، وحملت الفيول في الميمنة والميسرة على الخيول، فكانت الخيول تحجم عنها وتحيد، وألح فرسانهم على الرجل، وجد المقاتلة مع الفيلة، فقال بعض الأسديين: والله لأموتن أو لأطعنن عيني بعض هذه الفيلة، فقصد لأعظمها فيلاً فقاتل حتى وصل إليه، وعلى كل فيل قوم يقاتلون، فطعن في عين ذلك الفيل بسيفه، وضربه سائس الفيل بعمود فهشم وجهه، وأدبر الفيل فخبط من حوله، واشتد القتال عند فيل منها، فقال حبيش الأسدي لبشر بن أبي العوجاء الطائي: أرى القتال قد اشتد عند هذا الفيل، فتبايعني على الموت فنحمل على حماته فنكشفهم أو نُقتل دونه. قال: نعم، فحملا فضرب حبيش رجلاً من الفرس من حماة الفيل فقتله، ودنوا من الفيل، فضرب حبيش مشفره فرمى به وضرب الطائي ساقه فبرك الفيل، وانطوت الفرس على بني أسد، فقتل حبيش.

وأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو، (فقال): يا معشر بني تميم، ألستم أصحاب

---

(١) الفريّ: الأمر العظيم، يقال: فلان يفري الفري، إذا كان يأتي بالعجب في عمله.

(٢) الهذ: القطع السريع.

(٣) تؤبسنا: تحقر أمرنا.

الإبل والخيل؟ أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة، قالوا: بلى والله، ثم نادى عاصم في رجال من قومه رماة وأخر أهل ثقافة، فقال: يا معشر الرماة، ذبوا ركبان الفيلة عنا، ويا معشر أهل الثقافة، استدبروا الفيلة فقطعوا وضنها[1]، وخرج يحميهم والرحى دائرة على بني أسد، وقد جالت الميمنة والميسرة غير بعيد، وأقدم أصحاب عاصم على الفيلة، فأخذوا بأذنابها وذباب توابيتها فقطعوا وضنها، فلما بقي لهم يومئذ فيل إلا أعرى، وقتل أصحابها، وتقاتل الناس ونُفس عن بني أسد، وردوا عنهم الفرس إلى مواقفهم، فاقتتلوا حتى غربت الشمس. ثم حتى ذهبت هدأة من الليل، ثم رجع هؤلاء وهؤلاء، وأصيب من بني أسد تلك العشية خمسمائة، وكانوا رِدءاً للناس، وكان عاصم عادية الناس وحاميتهم، فهذا يوم القادسية الأول، وهو يوم أرماث.

وقال عاصم بن عمرو التميمي في ذلك:

ألم يأتيك والأنباء تَسْرِي بما لا قَيْتُ في يوم النزال
ولما أن تَزَايَلَ مقرفوهُمْ عصينا القوم بالأَسَلِ الطوالِ
وعُرِّيَتْ الفيُول من التوابي وعُطِّلَتْ الخيولُ من الرجالِ
ولولا ذَبُّنَا عَمَّنْ يلينا للَجَّ الجمْع في فعل الضلالِ
حمينا يوم أرماثٍ حمانا وبعْضُ القوم أولَى بالحمالِ

(الوافر)

وقال عمرو بن ساس الأسدي:

فلا وأبيك لاينفكُّ فينا من السادات حَظٌّ ما بقينا
ألسنا المانحين لدى قديس جموعَ الفرس مرداةً طحونا
ولسنا مِثْلَ من لا طَرْقَ فيهِ ولكنْ غثُّنَا يُلْفَى سمينا
ونحن إذا يريحُ الليلُ أمْراً يهم النَاسّ عِصْمَةُ مَنْ يَلينا
ومرقصة منعناها إذا ما رأت دون المحافظة التقينا
نذكرها إذا ولهت بنيها ونحميها إذا نحمي بنينا

---

(١) الوضين: بطان عريض منسوج من سيور أو شعر.

إذا افْتَرِشَ النواحي بالنواجي . وكان القوم في الأبدان جونا
إذا ثار الغبار كَأنَّ فيه إذا اصطَفَّتْ عجاجتهُ طحينا
وقد علمت بنو أسَدٍ بأنا نضارب بالسيوف إذا غُشِينَا
ونحن فوارسُ الهيجا إذا ما رأيت الخيل مسندة عَرِينَا

(الوافر)

وذكر المدائني خبر هذا اليوم، وقد أورد كثيرا مما أورده، في تضاعيف الأخبار المتقدمة وفي بعض ما ذكره أن المسلمين هم الذين عبروا إلى الفرس، خلافا لما تقدم ذكره: أنه لما عزم الفريقان على اللقاء أرسل سعد إلى جرير والمغيرة وحنظلة، فقال: إنكم قد أصبحتم في دار قد أذل الله لكم أهلها، فأنتم تطئونهم منذ سنتين، وقد أتوكم في جمع لا أظنهم يريدون أن يزايلوكم حتى يفصل بينكم، ولستم وهم سواء في دنيا تقاتلون عنها، وقد خلفوا مثلها، فإن فروا فروا إلى مثلها وأنتم تقاتلون عن دينكم، فإن فررتم فررتم عنه إلى فيافي لا خير فيها، وأنتم غرر قومكم، إنكم إن ظهرتم عليهم كان لكم أبناؤهم ونساؤهم، وإن تواكلتم لم يبقوا منكم باقية مخافة أن تعودوا عليهم، والأرض من وراءكم قفر بسابس، ليس لكم فيها معقل ولا ملجأ، فاتقوا الله واصبروا، وحضوا المسلمين وواسوهم وتنجزوا موعود الله، فإنه قال: ﴿**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون**﴾ (١٠٥ : الأنبياء)، وقد وليت الحرب خالد بن عرفطة، فالزموا السمع والطاعة، ولا تهنوا ولا تفشلوا فتذهب ريحكم، فخرجوا من عند سعد وقد استعد المشركون لقتالهم، وهم وقوف يهابون العبور والإقدام، فأرسل سعد إلى الناس: لا تعبروا حتى آذن لكم، وقد أخذ الناس العدة للقتال، فوقفوا ينتظرون الإذن من سعد، وحض رؤساء القبائل عشائرهم، فلما طال وقوفهم ولم يأتهم إذن سعد، قال جرير بن عبد الله: أيها الناس، ما تنتظرون، أما تريدون أن تقاتلوهم إن لم يقاتلوكم، وعبر النهر في بجيلة، فقال قيس بن مكشوح: يا معشر مذحج، قد تقدمكم أخوانكم فسابقوهم، فوالله لا يسبق أحد اليوم إلا

أعطاه الله غدا على قدر سبقه في الدنيا، وعبر قيس، وعبر بعده عمرو بن معدي كرب، وقال زهرة بن جوية: يا بني تميم، ما تنتظرون وقد مضى أخوانكم، وعبروا، واتبع الناس بعضهم بعضا. فقال سعد: اللهم أنهم عبروا ولم يستأمروني فاقض لهم بالنصر، فصف المسلمون، على ميمنتهم شرحبيل بن السمط، وعلى ميسرتهم هاشم بن عتبة، وعلى الخيل قيس بن مكشوح، وعلى
١٩٦ ب الرجالة المغيرة بن شعبة، والمسلمون عشرة آلاف، ويقال// ما بين السبعة الآلاف إلى الثمانية، عامة جثهم[١] براذع الرحال، قد عرضوا فيها الجريد يتسترون بها، وعلى رؤوسهم أنساع[٢] الرجال، يطوي الرجل نسعة رحله على رأسه، والمشركون ستون ألفاً، وقيل أكثر.

وظاهر رستم بين درعين، وقدم كتيبة عليهم الدروع والمغافر والأداة الكاملة، فدفعوا إلى جعفي - وقد تقدم خبرهم - وأخرج رستم بعد ذلك كتيبة فيها الجالينوس، فتقدم الجالينوس وقد اعتصب بعصابة ديباج، معه ترس مذهب، فتلقاه طليحة، واختلفا ضربتين، فوقعت ضربة الجالينوس في جحفة طليحة، ووقع سيف طليحة في رأس الجالينوس، فهشم البيضة وندرت عن رأسه وقد جرحه، فولوا منهزمين إلى رستم، فعظموا أمر العرب ليعذرهم، وأخذ طليحة البيضة فنفلها، فكانت قيمتها أربعمائة مثقال، وأقبل قيس بن مكشوح - يومئذ - فوقف على المغيرة فقال: ما رأيت كاليوم عديدا ولا حديدا، فقال المغيرة: إن هذا زبد من زبد الشيطان، والله جاعل بعضه على بعض، وحض المغيرة الناس وقال: إن الكلام عند القتال فشل، فالزموا الصمت، ولا يزولن أحد منكم عن مركزه، فإذا حركت رايتي فاحملوا، فقال له رجل: ما تنتظر؟ قال: اجلس، فقال له رجل من بني مجاشع: الله أكبر، إني لأرى الأرض من خلل صفهم، فكبروا واحملوا، فقال له المغيرة: اجلس، وأقبل المغيرة على قيس بن مكشوح فقال: احمل يا قيس فإني حامل، ونكبني خيلك، لا

(١) كذا في الأصول، ولم أقف على معناه.

(٢) النسع بالكسر: سير ينسج عريضا على هيئة أعنة النعال تشد به، والقطعة منه نسعة.

أعرفنك إذا غلبت رجالي فيهم إن تجاوزها خيلك، فإذا عضك السلاح رددتها على أعقابها في وجوه رجالي، فيكون أشد عليهم من عدوهم، وهز المغيرة رايته، وحمل، وأتبعه قيس، فما وصلوا كتيبته حتى رجع فيهم. طعنتين، فقال طليحة: يا بني أسد، ما تستحيون، الناس يقاتلون وأنتم وقوف، فحمل فقالت امرأة من بني أسد لبنيها وهم أربعة: يا بني، والله ما نبت بكم دار ولا أفحمتكم سنة، ولقد أسلمتم طائعين، وهاجرتم راغبين، وجئتم بأمكم عجوزا كبيرة فوضعتموها بين يدي أهل فارس، فقاتلوا عن دينكم وأمكم، فوالله إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، فاشهدوا أشــد القتال، فحملوا، فقالت: اللهم احفظ فيّ بني.

وروى الشعبي أن هذه المرأة كانت من النخع، وذكر حديثها بنحو ما تقدم إلى قولها: كما أنكم بنو امرأة واحدة، وزاد هاهنا: ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، انطلقوا فاشهدوا أول القتال وآخره، فأقبلوا يشتدون، فلما غابوا عنها رفعت يديها إلى السماء وهي تقول: اللهم ادفع عن بني، فرجعوا إليها وقد أحسنوا القتال، فما كلم رجل منهم كلما.

قال الشعبي: فرأيتهم بعد ذلك يأخذون ألفين ألفين من العطاء، فيأتون أمهم فيلقونه في حجرها، فترده عليهم، وتقسمه فيهم على ما يصلحهم.

وقد ذكر الزبير بن بكار نحو هذا عن الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمية في بنين لها أربعة شهدت معهم حرب القادسية، فقالت لهم من أول الليل: يا بني، إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، وذكرت من صونها لنسبهم نحو ما ذُكر قبل، ثم قالت لهم: وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، فإذا أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها واضطرمت لظاها على سباقها وجللت نارا على أرواقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عنداحتدام

حميسها [١] ، تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة، فخرج بنوها قابلين لنصحها، فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم، وأنشأ أولهم يقول:

يا اخوتي إن العجوز الناصحه   قد نصحتنا إذْ دعتْنا البارحه
مقالة ذاتَ بيانٍ واضحه   فباكروا الحرْبَ الضروسَ الكالحه
وإنما تلْقَوْنَ عند الصالحه   من آل ساسانَ كلاباً نابحه
قد أيقنوا منكم بوقْعِ الجائحه   وأنتمُ بين حياةٍ صالحه

أو موتة تورث غنما رابحه

(الرجز)

وتقدم فقاتل حتى قتل - رحمه الله، ثم حمل الثاني وهو يقول:

إن العجوز ذاتَ حزم وجلدْ   والنظر الأوفق والرأي السَّدَدْ
قد أمرتْنا بالسداد والرشدْ   نصيحةً منها وبرا بالولدْ
فباكروا الحرْبَ حماةً في العدَدْ   إما لفوز باردٍ على الكبد
أو ميتة تورثكم عِزَّ الأبَدْ   في جنة الفردوس والعيش الرَّغَدْ

(الرجز)

فقاتل حتى استشهد - رحمه الله، ثم حمل الثالث وهو يقول:

والله لا نعصي العجوزَ حرْفا   قد أمرتْنا حَدَباً وعطفا
نصحا وبرا صادقا ولطفا   فبادروا الحرْب الضروس زحْفا
حتى تلفوا آل كسرى لَفّاً   وتكشفوهم عن حماكم كشْفا

(الرجز)

فقاتل حتى استشهد - رحمه الله، وحمل الرابع وهو يقول:

لست لخنساء ولا لاخْزَم   ولا لعْمرٍ وذي السناء الأقدَمِ

---

(١) الحميس: التنور.

إنْ لم أردْ في الجيش جيش العجَمِ ... ماض على الهول خَضمَّ خضْرَمِ
أمـا لفـوز عـاجـل ومغنمِ ... أو لـوفـاة في السبيـل الأكـرَمِ
(الرجز)

فقاتل حتى قتل - رحمة الله عليه وعلى أخوته - فبلغ الخبر أمهم، فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته، فكان عمر - رضي الله عنه - يعطي الخنساء بعد ذلك أرزاق أولادها الأربعة، لكل واحد مائتي درهم، حتى قبض - رحمه الله.

فهذا ما ذكره الزبير بن بكار[1] ، والذي قبله ذكره المدائني -رحمها الله - ولعل الخبرين صحيحان، والله أعلم أي ذلك كان.

ثم ذكر المدائني - بعد - من حسن بلاء بني أسد وانطواء الفرس عليهم في مجال الفيلة ما قد ذكرناه قبل في موضعه.

وذكر - أيضا - أن الأشعث بن قيس قال عندما اشتد قتالهم: لله در بني أسد، أيَّ فَرِيَّ يفرون، وأنتم تنظرون، يا معشر كندة.

وقال زهرة بن جوية: يابني تميم، قد صبر أخوانكم من بني أسد، وأحسنوا فذودوا عنهم الفيلة وحماتها، فحمل زهرة في بني تميم، وجرير في بجيلة، فكشفوا المشركين // عن بني أسد، وقد استشهد منهم خمسون رجلاً، وتحاجزوا قريباً من ١٩٧ أ
العصر، فجمعوا بين الصلاتين ثم عاودوا[2] القتال مطاردة ومشاولة[3] حتى غابت الشمس.

---

(١) الأبيات في الاستيعاب لابن عبد البر مع قصتها ص ١٨٢٨ وما بعدها، والخزانة للبغدادي ج ١ ص ٣٩٥، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ٢١٦ - ٢١٨، والإصابة لابن حجر ج ٧ ص ٦٦٥ - ٦٦٦، وقصتها في ابن أعثم الكوفي. كتاب الفتوح ج ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

(٢) في الأصول: عاودهم.

(٣) شاوله: دافعه، شاوله وشاول به: دافع، قال عبد الرحمن بن الحكم:

فشاول بقيس في الطعام ولا تكن ... أخاها إذا ما المشرفية سلت

ابن منظور. لسان العرب ص ٢٣٦٤.

والتقى حنظلة بن الربيع الأسيدي وذو الحاجب فاختلفا طعنتين، فصارا جميعا إلى الأرض، فضرب حنظلة ذا الحاجب على رأسه فصرعه، فحامت عنه الأساورة، حتى ركب، وحامى عن حنظلة القعقاع بن عمرو ـ أحد بني يربوع ـ وذريح ـ أحد بني تيم اللات ـ حتى ركب، فقال ذريح:

لما رأيت الخيل شك نحورها ... رماح ونشَّاب صبَرْت جناحا
على الموت حتى أنزل اللهُ نصْرَهُ ... وود جناحٌ لو قَضَى فأراحا
كأنَّ سيوفَ الهند حول لَبَانِهِ ... بوارقُ غيثٍ من تِهَامَةَ لاحا
(الطويل)

قال: وأصيبت يومئذ عين المغيرة بن شعبة، وتحاجزوا حين أمسوا، فرجع المسلمون إلى عسكرهم، ورجع رستم إلى عسكره. هذا ما ذكره المدائني.

ويقال: إن القعقاع لم يشهد يوم أرماث هذا، وإنما قدم من الشام بعد انقضائه، فشهد سائر الأيام وأبلى فيها، وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله.

وذكر سيف عن بعض رجاله أن سعدا كان قد تزوج سلمى بنت خصيفة، امرأة المثنى بن حارثة ـ كما تقدم ـ فنزل بها القادسية، فلما كان يوم أرماث، وجال الناس، جعل سعد يتململ ويجول جزعا فوق القصر، وكان لايطيق جلوسا إلا على بطنه، فلما رأت سلمى ما يصنع أهل فارس قالت: وامثنياه ولا مثنى للخيل اليوم ـ وهي عند رجل قد أضجره ما يرى من أصحابه ومن نفسه ـ فلطم وجهها، وقال: أين المثنى من هذه الكتيبة التي تدور عليها الرحى! ـ يعني أسدا، وعاصما، وبجيلة ـ فقالت: أغيرة وجبنا؟ قال: والله لا يعذرني أحد اليوم إذا أنت لم تعذريني وأنت ترين مابي، فالناس أحق ألا يعذروني!

فلما ظهر المسلمون لم يبق شاعر إلا اعتد بها عليه، وكان غير جبان ولا ملوم ـ رضي الله عنه.

وكانت القادسية في شوال سنة خمس عشرة، وابتداء أيامها يوم الاثنين لثلاث ليال خلون من شوال أو لأيام بقين منه، وقيل كانت في المحرم سنة أربع عشرة، والأول أصح وأولى بالصواب إن شاء الله تعالى.

ذكر اليوم الثاني من أيام القادسية، وهو يوم أغواث

قالوا [1]: ولما أصبح الناس من الغد - يعنون الغد من يوم أرماث - أصبحوا على تعبئة، وقد وكل سعد رجالا بنقل الشهداء إلى العذيب ونقل الرثيث [2]. فأما الرثيث فَأسْلِمُوا إلى النساء يقمنَ عليهم حتى يقضي الله فيهم قضاءه، وأما الشهداء فليدفنوهم هنالك على مشرّق - وادٍ بين العذيب وبين عين شمس في عدوتيه جميعا - وفي ذلك يقول سعد - رحمه الله:

جزى الله أقواما بجَنْب مشرق   غداة دعا الرحمنُ مَنْ كان داعيا
جِناناً من الفردوس والمنزلَ الذي   يحل به ذو الخير ما كان باقيا
(الطويل)

وانتظر الناس بالقتال حمل الرثيث والأموال،فلما استقلت بهم الإبل موجهة نحو العذيب طلعت عليهم نواصي الخيل من نحو الشأم - وكان عمر - رضي الله عنه - قد أمر أبا عبيدة بن الجراح لما انقضى شأن اليرموك وفتح دمشق بصرف أهل العراق أصحاب خالد الذين قدم بهم عليه إلى العراق، ولم يذكر له عمر خالدا، فضن أبو عبيدة بخالد فحبسه، وقد قيل إن عمر أمر بحبسه، فأمسكه وسرح الجيش وهم ستة آلاف، ألف من أبناء العرب من أهل الحجاز، وسائرهم من ربيعة ومضر، وأمّر عليهم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو - أي التميمي - فعجله أمامه، وجعل على إحدى مجنبتيه قيس بن مكشوح المرادي - ولم يكن شهد الأيام، وإنما أتاهم وهم باليرموك حين صرف أهل العراق فصرف معهم - وعلى المجنبة الأخرى الهزهاز بن

(١) الطبري ج ٣ ص ٥٤٢ وما بعدها.

(٢) الرثيث: الجريح وبه رمق.

عدي العجلي، فطوى القعقاع وتعجل، فقدم على الناس صبيحة يوم أغواث، وقد عهد إلى أصحابه أن ينقطعوا أعشاراً، وهم ألف ، فكلما بلغ عشرة مد البصر سرح في آثارهم عشرة، وتقدم هو في عشرة، فأتى الناس فسلم عليهم، وبشرهم بالجنود، وقال: ياأيها الناس، إني قد جئتكم في قوم، والله لو كانوا بمكانكم، ثم احسوكم لحسدوكم حظوتها، وحاولوا أن يطيروا بها دونكم، فاصنعوا كما أصنع، فتقدم ثم نادى: من يبارز؟ فسكن الناس إليه، وقالوا لقول أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - لا يهزم جيش فيهم مثل القعقاع، فخرج إليه ذو الحاجب، فقال (له القعقاع): من أنت؟ فقال: أنا بهمن جاذوية، فنادى: يالثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب يوم الجسر. فاجتلدا، فقتله القعقاع، وجعلت خيله ترد قطعا، ومازالت ترد إلى الليل وتنشط الناس، وكأن لم تكن بالناس مصيبة، وكأنما استقبلوا قتالهم بقتل الحاجبي وبلحاق القطع، وانكسرت الأعاجم لذلك.

وكان أول القتال قبل أن يقدم القعقاع المطاردة، فلما قدم قال: أيها الناس اصنعوا كما أصنع، فنادى: من يبارز؟ فبرز له ذو الحاجب فقتله، وآخر فقتله، وخرج الناس من كل ناحية، وبدأ الضرب والطعان، ونادى القعقاع - أيضاً: من يبارز؟ فخرج إليه رجلان، أحدهما البيزران[1] والآخر البندوان، فانضم إلى القعقاع الحارث بن ظبيان - أحد بني تيم اللات - فبارز القعقاع البيزران[2]، فضربه فأذرى رأسه، وبارز ابن ظبيان البندوان، فضربه فأذرى رأسه، وحمل بنو عم القعقاع - يومئذ - عشرة (عشرة) من الرجال، على إبل قد ألبسوها، فهي مجللة مبرقعة، وأطافت بهم خيولهم، وأمروا أن تحمل تلك الإبل على خيل الفرس يشبهون بالفيلة التي أرسلت عليهم الفرس بالأمس، فجعلت تلك الإبل لا تصمد لقليل ولا لكثير إلا نفرت بهم خيلهم، وركبتهم خيول المسلمين. فاستنوا بهم، فلقي أهل فارس من الإبل يوم أغواث أعظم مما لقى المسلمون من الفيلة يوم أرماث.

(١ - ٢) في الأصول: الفيزران، والتصويب من الطبري.

ولم يقاتلوا في هذا اليوم على فيل، كانت توابيتها قد تكسرت بالأمس، واستأنفوا علاجها حين أصبحوا فلم ترتفع حتى كان من الغد، ولم ير أهل فارس في هذا اليوم شيئا يعجبهم، وأكثر المسلمون فيهم القتل.

وقالوا: قتل القعقاع يوم أغواث ثلاثين في ثلاثين حملة، كلما حمل حملة قتل فيها، وآزر القعقاع ـ يومئذ ـ ثلاثة من بني يربوع، وجعل القعقاع كلما طلعت قطعة كبر وكبر المسلمون ويحمل ويحملون، وقدم ذلك اليوم رسول لعمر
١٩٧ ب ـ رضي الله عنه ـ بأربعة أفراس // ، وأربعة أسياف ليقسمها سعد فيمن انتهى إليه البلاء، إن كان لقي حرباً، فدعا حمال بن مالك والرفيل بن عمرو بن ربيعة الوالبيين وطليحة بن خويلد الفقعسي ـ وكلهم من بني أسد ـ وعاصم بن عمرو التميمي، فأعطاهم الأسياف، ودعا القعقاع [بن عمرو التميمي] واليربوعيين وهم: نعيم بن عمرو بن عتبان وعتاب بن نعيم بن عتاب، وعمرو بن شبيب بن زنباع ـ أحد بني زيد ـ فحملهم على الأفراس، فأصاب ثلاثة من بني يربوع ثلاثة أرباعها، وأصاب ثلاثة من بني أسد ثلاثة أرباع السيوف، فقال الرفيل [١] في قطعة يذكر السيوف:

لقد علم الأقوام أني أحقهم ... إذا حصلوا بالمرهفات البواتر
((الطويل)

وقال القعقاع في شأن الخيل:

[و] لم تعرف الخيل العراب سواءنا ... عشية أغواثٍ بجنب القوادس [٢]
(الطويل)

وذكر المدائني حرب هذا اليوم فخالف بعض ماتقدم، وقال: إن الناس لما اصبحوا غداة الثلاثاء عبر رستم إلى المسلمين بجنوده وفيلته من حين طلعت

---

(١) في الطبري ج ٣ ص ٥٤٥ ـ الربيل، والبيت فيه متبوع بالبيتين التاليين:

وما فتئت خيلي عشية أرمثوا ... يذودون رهوا عن جموع العشائر
لدن غدوة حتى أتى الليل دونهم ... وقد أفلحت أخرى الليالي الغوابر

(٢) البيت في الطبري ج ٣ ص ٥٤٥ ـ وهو متبوع فيه بقوله:

عشية رحنا بالرماح كأنها ... على القوم ألوان الطيور الرسارس

الشمس إلى قريب من نصف النهار، وأخذوا عدة الحرب، وصافهم المسلمون، وعلى الميمنة عبد الله بن المعتم، وعلى الميسَرة هاشم بن عتبة، وعلى الخيل المغيرة ابن شعبة، وعلى الرجالة سلمة بن حديم، فقال سعد بن عبيد الأنصاري: يا أيها الناس، إن الدنيا دار زوال وفتنة، وأنتم منقلبون إلى دار الجزاء، فلا يكونن شيء أحب إليكم من فراقها، فإن ماعند الله خير للأبرار، وتقدم أمام الناس، فبرز له شهريار [1] السجستاني، فقتل كل واحد منهما صاحبه، ثم طاردت الفرسان واقتتلوا حتى زالت الشمس، وتحاجزوا، وصلى المسلمون ثم عادوا إلى مصافهم، فنصل من عسكر المشركين رجل يسأل المبارزة، فبرز له زهرة بن جوية فقتله، وحمل فوارس من المشركين على زهرة فعقروا به، وندر سيفه من يده، فقاتلهم راجلا يحثو في وجوههم التراب حتى توافت إليه خيل المسلمين، فكشفوهم عنه، وقد ذهبوا بسيفه، فقال:

[فـ]إن تأخذوا سيفي فإني مُحَرَّبُ خَرُوجُ من الغماء مُحْتَضَرُ النصْرِ
وإني لحامٍ من وراء عشيرتي أطاعن فيهم بالمثقفة السُّمْرِ

(الطويل)

وقد روى غير المدائني هذا الشعر والخبر للأعرف بن الأعلم العقلي في هذا اليوم.

وقال عمرو بن معدي كرب لقومه: يابني زبيد، إني مخالط الجمع، فانظروني قدر نحر جزور وتعسيرها، ثم اطلبوني، فإنكم تجدوني وسيفي في يدي أقاتل به قدما لا أزول - وفي رواية: فإن تأخرتم عني فقد فقدتم أبا ثور، وأين لكم مثل أبي ثور - وحمل حتى خالطهم، فستره الغبار، فقال بعض الزبيديين: أيا بني زبيد، علام تدعون صاحبكم وقد توسط جمع المشركين، والله ما أرى أن تدركوه حيا، وإن فقدتموه فقد المسلمون فارسهم، فحملوا وحمل الناس حملة واحدة فانتهوا إليه وقد رمى فرسه بنشابة فسب [2] فصرعه وعار [3]، وأخر عمرا

---

(١) في الأصول: شهريراز.

(٢) سبه: قطعه وطعنه في السبة، أي الإست.

(٣) العائر: كل ما أعل العين فعقر، سمى بذلك لأن العين تغمض له ولا يتمكن صاحبها من النظر، لأن العين كأنها تعور - ابن منظور. لسان العرب ص ٣١٦٥.

عنه المشركون، وذلك بعدما طعنوه، وإن سيفه لفي يده يضاربهم به، فلما رأى أصحابه أخذ برجل فرس اسوار فاحتبسه، وإن الفارسي ليضرب فرسه فما يتحرك، فلما غشيه الجمع رمى بنفسه وخلا فرسه فركبه عمرو، وقال: أنا أبو ثور كدتم تفقدونني، وثبت عمرو يقاتل فارسا وراجلا، إذا قاتل راجلا شد مقود فرسه في وسطه وقاتل.

وتزاحف الناس فقال رجل من المسلمين لرجل من الأنصار: أعرني ترسك، قال: مابي عنه غنى، ولكن أي أتراس العجم تريد أتيتك به إن شاء الله، فأشار له إلى ترس مذهب، فحمل فلم يزل يقاتل حتى خلص إلى صاحب الترس فقتله واستلب ترسه، فأتى به صاحبه، فقال: دونك.

وصار الناس إلى السيوف، فقاتلوا حتى أعتموا وتحاجزوا عند العتمة[1] عن قتلى وجرحى كثير في الفريقين، وقتل يومئذ رجل من طيء يكني أبا كعب رجلا من المشركين، وأخذ قلنسوته فلبسها، وأقبل يعدو به فرسه وهو يقاتل، فنظر إليه رجل من بجيلة يقال له مضرس، وهو يقاتل، فظن أنه من الفرس فطعنه، فقال: بسم الله، قتلتني، فقال مضرس: إنا لله وعانقه، فقال: غفر الله لك يأخي، فبكى مضرس واحتمل أبو كعب، فقال سعد: الشهادة لاتقاد، ولا كل ميتة مظنون غيرها، ولكن من أحب أخذ الدية، فكان مضرس يأتيه يعوده فيبكي حتى تبل دموعه لحيته، ويقول أبو كعب: غفر الله لك يأخي.

وقال أبو كعب:

لعمري لقد ثارت رماح مُضَرَّسٍ بعِلْجٍ هوى في الصف من آل فارسِ

(الطويل)

ثم مات أبو كعب بعد أيام من تلك الطعنة، وصفح وليه عن الدية.

ويروى أنه عرض مثل هذا بعينه لرجل آخر من طيء ـ أيضا ـ يقال له

---

(١) في الأصول: عتمة.

بجير بن عميرة، وكان أحمر شبيها بالعجم، فاستلب رجلا من أهل فارس رايته فأقبل بها، فبصر به رجل من كندة يدعى فروة، فحمل عليه فطعنه، فأصاب مقتله، فنادى بجير: بسم الله، فاعتنقه فروة، فأتيا سعدا، فقال لهما: إن الشهادة لا ثواب لها في الدنيا، ولكن كفوا العجلات.

وخرج يومئذ رجل من أهل فارس ينادي: من يبارز، فبرز له علباء بن جحش العجلي، فبعجه علباء، فأصاب سحره[1]، وبعج الفارسي علباء فخرق أمعاءه، وخرا جميعا، فأما الفارسي فمات من ساعته، وأما الآخر فانتثرت أمعاؤه، فلم يستطع القيام، فعالج ادخالها فلم يتأت له حتى مر به رجل من المسلمين فقال له: ياهذا أعني على بطني، فأدخله له، فأخذ بصفاقيه ثم زحف نحو صف فارس ما يلتفت إلى المسلمين، فأدركه الموت على رأس ثلاثين ذراعا من مصرعه إلى صف فارس. فقال:

أرجو بها من ربنا الثوابا قد كنت ممن يُحْسِنَ الضرابا

(الرجز)

قالوا[2]: وقاتلت الفرسان يوم الكتائب فيما بين أن أصبحوا إلى انتصاف الليل، فكانت ليلة أرماث تدعى ليلة الهدأة، وليلة أغواث تدعى ليلة السواد، والنصف الأول يدعى السواد، ثم لم يزل المسلمون يرون في يوم أغواث الظفر على فارس، وقتلوا فيه عامة أعلامهم، وجالت فيه خيل القلب، وثبت رجلهم، فلولا أن خيلهم كرت أخذ رستم أخذا، فلما ذهب السواد تفايأ الناس وباتوا على مثل
ما بات // القوم عليه ليلة أرماث، ولم يزل المسلمون ينتمون لدن أمسوا إلى أن ١٩٨ أ
تفايأوا. فلما أمسى سعد وسمع ذلك نام، وقال لبعض من عنده: إن تم الناس على الإنتماء فلا توقظوني، فإنهم أقوياء على عدوهم، وإن سكتوا ولم ينتم الآخرون فلا توقظوني، فإنهم على التساوي، فإن سمعتم ينتمون فأيقظني، فإنما انتماؤهم من السوء.

(١) السحر: الرئة.
(٢) الطبري ج ٣ ص ٥٤٦ ـ ٥٤٧.
(٣) ـ في الأصول: سمعتهم.

قالوا [1] : ولما اشتد القتال بالسواد، وكان أبو محجن قد حبس وقيد، فهو في القصر، صعد حين أمسى إلى سعد يستعفيه ويستقيله، فزبره سعد ورده فنزل، وأتى سلمى بنت خصفة، فقال لها: يابنت خصفة، هل لك إلي خير؟ قالت: وما ذاك؟ قال: تخلين عني وتعيرنني البلقاء، فلله عليّ إن سلمني الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلي في قيدي، وإن أصبت وخشيت هذا فما أكثر من يفلت ويجرب صاحبه. فقالت: وما أنا وذاك فرجع يرسف في قيوده ويقول:

كفى حَزَنا أنَ تَرْدىَ الخيل بالقنا ... وأترك مشدودا عليّ وثاقيا

إذا قمت عنّاني الحديدُ وأغلقَتْ ... مصاريع من دوني تُصمُّ المناديا

وقد كنت ذا مال كثير وأخْوَةٍ ... فقد تركوني واحداً لا أخَا لِيَا

ولله عهدُ لا أَخيسُ بعهدِهِ ... لئنْ فُرِجَتْ أن لا أزور الحوانيا [2]

(الطويل)

فقالت سلمى: إني استخرت الله ورضيت بعهدك، فأطلقته، وقالت: أما الفرس فلا اعيرها، ورجعت إلى بيتها، فاقتاد أبو محجن الفرس فأخرجها من باب القصر الذي يلي الخندق فركبها ـ قيل بسرجها، وقيل عريا ـ ثم ذبب [3] عليها حتى إذا كان بحيال الميمنة كبر، ثم حمل على ميسرة القوم يلعب برمحه وسلاحه بين الصفين، ثم رجع من خلف المسلمين إلى الميسرة، فكبر وحمل على ميمنة القوم ـ يلعب بين الصفين برمحه وسلاحه ـ ثم رجع من خلف المسلمين إلى القلب فبرز أمام الناس، فحمل على القوم يلعب بين الصفين برمحه وسلاحه، وكان يقصف الناس لَيْلتئذٍ قصفاً منكراً ويعجب الناس منه وهم لا يعرفونه ولم يروه من النهار، فقال بعضهم: أوائل أصحاب هاشم بن عتبة أو هاشم نفسه.

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٥٤٨ ـ ٥٥٠.

(٢) الأبيات مع قصتها في: فتوح البلدان للبلاذري ص ٣١٩، الأغاني للاصفهاني ط. ساسي ج ٢١ ص ١٣٩ ـ ١٤٠، مروج الذهب للمسعودي ج ١ ص ٥٢٨ ـ ٥٣٠، الطبري ج ٣ص ٥٤٨، الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٢ ص ٣٣٠، نهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ٢١٠، وانظر: ابن أعثم الكوفي. كتاب الفتوح ج ١ ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩.

(٣) ذبب: عجل.

وجعل سعد يقول وهو مشرف على الناس مكب من فوق القصر: والله لولا محبس أبي محجن الثقفي لقلت: إن هذا أبو محجن وهذه البلقاء. وقال بعض الناس: إن كان الخضر يشهد الحروب فنظن أن صاحب البلقاء الخضر، وقال آخرون: والله لولا أن الملائكة لا تباشر (القتال) لقلنا: ملك بيننا، ولا يذكر الناس أبا محجن ولا يأبهون له، لمبيته في محبسه، فلما انتصف الليل حاجز أهل فارس وتراجع المسلمون، وأقبل أبو محجن حتى دخل من حيث خرج، فوضع عن نفسه وعن دابته، وأعاد رجله في قيده، وقال:

لقد علمت ثقيفٌ غيْرَ فخْرٍ بأنا نحن أكثرهُم سيوفا
وأكثرهم دروعا سابغاتٍ وأصبرُهم إذا كرهوا الوقوفا
وأنا وفدهم في كل يوم فإن عَيُّوا فسلْ بهمُ عَروفا
وليلة قادس لم يشعروا بي ولم أشْعِرْ بمَخْرجَي الزحوفا
فإن أحبَسْ فذلكمُ بلائي وإن أتْركْ أذيقُهم الحتوفا
(الطويل)

فقالت له سلمى، في أي شيء حبسك هذا الرجل؟ قال: أما والله ما حبسني لحرام أكلته ولا شربته، ولكني كنت صاحب شراب في الجاهلية، وأنا امرؤ شاعر يدب (الشعر) في لساني، وينبعث على شفتي، فيساء لذلك ثنائي، فعلى ذلك حبسني. قلت:

إذا مت فادفني إلى جنْبِ كرمةٍ تُرَوِّي عظامي بعد موتي عروقُها
ولا تدفنني بالفلاة فإنني أخاف إذا ما مت أن لا أذوقُها
(الطويل)

ولم تزل سلمى مغاضبة لسعد عشية أرماث، وليلة الهدأة، وليلة السواد، حتى إذا أصبحت أتته فصالحته وأخبرته خبرها وخبر أبي محجن، فدعا به فأطلقه، وقال: اذهب فما أنا بمؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله، قال: لا جرم، والله لا أجيب لساني إلى صفة قبيح أبدا.

حديث يوم عماس، وهو اليوم الثالث من أيام القادسية

قالوا (1): وأصبح المسلمون من اليوم الثالث، وهم على مواقفهم، وأصبحت الأعاجم كذلك، وبين هؤلاء وهؤلاء قدر ميل في عرض ما بين الصفين، وقد قتل من المسلمين ألفان بين رثيث وميت، ومن المشركين عشرة آلاف. وقال سعد: من شاء غسل الشهيد الميت والرثيث، ومن شاء فليدفنهم بدمائهم، وجعلهم المسلمون وراء ظهورهم، وأقبل الذين يحملونهم إلى القبور، يتبعون القتلى ويبلغون الرثيث إلى النساء، وكان النساء والصبيان يحفرون المقابر في اليومين: يوم أرماث ويوم أغواث، بعدوتي مشرّق، وكان في الطريق أصل نخلة بين القادسية والعذيب، ليس بينهما يومئذ نخلة غيرها، فكان الرثيث إذا انتهى بهم إليها وأحدهم يعقل سألهم أن يقفوا به تحتها يستروح إلى ظلها، فمر حاجب بن يزيد، وكان على الشهداء بتلك النخلة مع بعض الشهداء وولاتهم، ورجل من الجرحى من طيء يدعى بجيرا يقول وهو مستظل بظلها:

ألا يا آسلمى (2) يا نخلةً بين قادسٍ وبين العذيب لا يُجَاوِرِكَ النخْلُ
(الطويل)

وآخر من بني ضبة (أو من بني ثور) يدعى غيلان، وهو يقول:

ألا يا آسلمى (3) يا نخلةً فوق جرعةٍ يجاورك الجمّان والرمْثُ والرغل (4)
(الطويل)

---

(1) الطبري ج ٣ ص ٥٥٠.

(2) في مروج الذهب (ج ١ ص ٥٣١): فاسلمي.

(3) في الأصول: يا سلمى.

(4) الجمان والرغل: نباتان.

قالوا (١): وبات القعقاع ليلته كلها يسرب أصحابه إلى المكان الذي فارقهم فيه بالأمس، ثم قال: إذا طلعت لكم الشمس، فأقبلوا مائة مائة، وكلما توارت عنكم مائة فليتبعها مائة، فإن جاء هاشم فذاك وإلا جددتم للناس رجاء وجدا، ففعلوا، ولا يشعر بذلك أحد، وكان مكانهم مما صنع الله للمسلمين، فلما ذر قرن الشمس والقعقاع يلاحظ الخيل، طلعت نواصيها، فكبر وكبر الناس، وقالوا: جاء المدد.

وقد كان عاصم بن عمرو أمر أن يصنع مثلها، فجاءوا من قبل خفان، فتقدم الفرسان وتكتبت الكتائب، فاختلف الطعن والضرب، ومدد المسلمين متتابع، فما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى انتهى إليهم هاشم، وقد طوى في سبعمائة، فأخبروه برأي القعقاع وما صنع في يومه، فعبَّأ أصحابه سبعين سبعين، فلما نجز آخر أصحاب القعقاع خرج هاشم في سبعين معه، فيهم قيس بن هبيرة المرادي، وهو ابن المكشوح، فأقبل هاشم حتى إذا خالط القلب، كبر وكبر المسلمون، وقد أخذوا مصافهم، وقال هاشم: أول القتال المطاردة ثم المراماة، فأخذ قوسه، // فوضع سهماً ثم نزع فرفعت فرسه رأسها، فخل (٢) أذنيها، فضحك وقال: ١٩٨ ب
واسوأتاه من رمية رجل ينتظره كل من رآه، أين ترون سهمي كان بالغا؟ فقيل العتيق. فنزقها (٣) وقد نزع السهم عن أذنيها، ثم ضربها حتى وقفت على العتيق، ثم ضربها فأقبلت تخرقهم حتى عاد إلى موقفه، وقيل: إنه نزل عن فرسه وفعل ذلك راجلا، فالله أعلم.

وما زالت مقانبه تطلع وقد بات المشركون في علاج توابيتهم حتى أعادوها على الفيلة، فأصبحوا على مواقفهم، وأقبلت الفيلة معها الرجالة يحمونها أن تقطع وضنها، ومع الرجالة فرسان يحمونهم، إذا أرادوا كتيبة دلفوا (٤) إليها بفيل

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٥٥١ - ٥٥٢.
(٢) يقال: خل الشيء، أي ثقبه ونفذه.
(٣) نزق الفرس: ضربه حتى ينزو وينزق (أي يتقدم خفة).
(٤) الدليف: المشي الرويد، دلف: إذا مشى وقارب الخطو.

وأتباعه، لينفروا بهم خيلهم، فلم يكن ذلك منهم كما كان بالأمس، لأن الفيل إذا كان وحده ليس معه أحد كان أوحش، وإذا طافوا به كان آنس، فكان الفيل كذلك حتى عدل النهار.

ولما قدم قيس بن المكشوح مع هاشم، قام فيمن يليه فقال: يا معشر العرب، إن الله -عز وجل- قد من عليكم بالإسلام، وأكرمكم بمحمد -ﷺ- فأصبحتم بنعمته أخوانا، دعوتكم واحدة وأمركم واحد، بعد إذ أنتم يعدو بعضكم على بعض عدو الأسد، ويختطف بعضكم بعضا اختطاف الذئاب، فانصروا الله ينصركم، وتنجزوا من الله -تعالى- فتح فارس، فإن أخوتكم من أهل الشام قد أنجز الله -تعالى- لهم فتح الشام، وانتثال[1] القصور الحمر والحصون الحمر.

وخرج يوم عماس رجل من العجم حتى إذا كان بين الصفين هدر وشقشق ونادى: من يبارز؟ فخرج إليه رجل من المسلمين يقال له شبر[2] بن علقمة -وكان قصيرا دميما- فقال: يامعشر المسلمين، قد أنصفكم الرجل، فلم يجبه أحد، ولم يخرج إليه أحد، فقال: أما والله لولا أن تزدروني لخرجت إليه، فلما رأى أنه لا يمنع أخذ سيفه وجحفته[3]، ثم تقدم، فلما رآه الفارسي هدر، ثم نزل إليه فاحتمله، فألقاه ثم جلس على صدره ثم أخذ سيفه ليذبحه، ومقود فرسه مشدود بمنطقته، فلما استل السيف حاص[4] الفرس حيصة فجذبه المقود فقلبه عنه، فقام إليه وهو يسحب فافترسه، فجعل أصحابه المسلمون يصيحون به، فقال: صيحوا مابدا لكم، فوالله لا أفارقه حتى أقتله ثم أسلبه، فذبحه وسلبه، ثم أتى سعدا بالسلب فنفله إياه، فباعه باثنى عشر ألفا.

---

(١) أي استخراج مافيها.

(٢) في الأصول: بسر.

(٣) الجحفة: الترس من جلد بلا خشب ولا عقب.

(٤) حاص: عدل وحاد.

قالوا [1] : ولما رأى سعد الفيلة تفرق الناس، وعادت لفعلها يوم أرماث، سأل: هل لها مقاتل؟ فقيل له: نعم، المشافر والعيون لا تنتفع بها بعدها، فأرسل إلى القعقاع وأخيه عاصم: أن اكفياني الفيل الأبيض، وكان بإزائهما، فأخذ القعقاع وعاصم رمحين أصمين لينين ودنوا في خيل ورجل، وقالا: اكتنفوه لتحيروه، وفعل الآخران [2] مثل ذلك، فلما اكتنف الفيلان نظر كل واحد منهما يمنة ويسرة وهما يريدان أن يتخبطا، فحمل القعقاع وعاصم والفيل الأبيض متشاغل بمن حوله فوضعا رمحيهما معا في عينيه، وقبع ونفض رأسه فطرح سائسه ودلّى مشفره، فنفحه القعقاع ورمى به ووقع لجنبه، وقتلوا كل من كان عليه، وقال حمال لصاحبه وقد قصدا إلى الفيل الأجرب: إما أن تضرب المشفر وأطعن في عينه، أو تطعن في عينه وأضرب مشفره، فاختار صاحبه الضرب، فحمل عليه حمال وهو متشاغل بملاحظة من اكتنفه، لا يخاف سائسه إلا على بطانه فطعنه في عينه، فأقعى، ثم استوى فنفحه الآخر، فأبان مشفره، وبصر به السائس ففقر [3] أنفه وجبينه بفأسه.

ويروى أن الفيلين صاحا عند ذلك صياح الخنزير، ثم ولى الأجرب الذي عور فوثب في العتيق، فأتبعته الفيلة فخرقت صف الأعاجم، فعبرت العتيق في أثره فبيتت المدائن في توابيتها وهلك من فيها.

وقيل: إنه بقي منها الفيل الأبيض، لم يبق في المعركة غيره، وإن الناس رشقوا مشافر الفيلة، فعند ذلك انبعث الفيل الآخر فلم تنته عن المدائن، وكانت تفعل بالناس الأفاعيل فاستقام للناس بعدها وجه القتال، وخلصوا بأهل فارس، فاجتلدوا على جرد بالسيوف حتى أمسوا وهم في ذلك على السواء.

فكان يوم عماس من أوله إلى آخره شديدا، العرب والعجم فيه على السواء،

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٥٥٥ - ٥٥٦.

(٢) هما: حمال، والربيل - الطبري ج ٣ ص ٥٥٥.

(٣) فقر: شقه.

ولا يكون بينهم لفظة إلا تقاولها الرجال بالأصوات حتى تبلغ يزد جرد بالمدائن، إذ كان قد أمر رستم بأن يرتب الرجال على الطريق بينها ليبلغه بالتنادي ما يطرأ في العسكر من حينه، فيرسل إليهم أهل النجدات ممن بقي عنده فيتقوون بهم، وأصبحت عنده للذي لقي بالأمس الأمداد على البرد، فلولا الذي صنع الله للمسلمين في الذي ألهم إليه القعقاع في اليومين، وما أتاح لهم بهاشم لكسر ذلك المسلمين.

وأصيب يومئذ مؤذن سعد بن أبي وقاص فتشاح الناس على الأذان، حتى كادوا يجتلدون بالسيوف، فأقرع بينهم سعد.

قالوا[1]: ولما أمسى الناس من يومهم ذلك، وأظعنوا إلى الليل، واشتد القتال فصبر الفريقان، فخرجا على السواء فلم يسمع إلا الغماغم من هؤلاء وهؤلاء، فسميت ليلة الهرير، لم يكن بعدها قتال بليل في القادسية.

وجدد المشركون في تلك الليلة تعبئة، وأخذوا في أمر لم يكونوا عليه في الأيام الثلاثة، وبقي المسلمون على تعبئتهم، فخرج مسعود بن مالك الأسدي، وقيس بن هبيرة المرادي - وهو ابن المكشوح - وأشباههم فطاردوا القوم وحركوهم للقتال، فإذا هم فيه أمة[2] لايشهدون ولا يريدون إلا الزحف، فقال قيس بن مكشوح لمن يليه، ولم يشهد شيئا من لياليها إلا تلك الليلة: إن عدوكم قد أبى إلا المزاحفة، والرأي رأي الأمير، وليس بأن تحمل الخيل ليس معها الرجال، فإن القوم إذا زحفوا وطاردهم عدوهم على الخيل لا رجال معهم عقروا بهم، ولم يطيقوا أن يقدموا عليهم، فتيسروا للحملة.

وقال دريد بن كعب النخعي، وكان معه لواء النخع: إن المسلمين قد تهيئوا للمزاحفة، فاسبقوا المؤمنين الليلة إلى الله والجهاد، فإنه لا يسبق الليلة أحد إلا كان ثوابه على قدر سبقه، فنافسوهم في الشهادة، وطيبوا بالموت أنفسا، فإنه لا

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٥٥٧.

(٢) في الطبري: فإذا القوم لمة لا يشدون - ج ٣ ص ٥٥٩.

نجاء من الموت إن كنتم تريدون الحياة، وإلا فالآخرة ما أردتم.

وقال الأشعث بن قيس: يامعشر العرب، إنه لا ينبغي أن يكون هؤلاء أجرأ على الموت ولا أسخى أنفسا عن الدنيا منكم، تنافسوا ولا تجزعوا من القتل فإنه أماني الكرام، ومنايا الشهداء، وترجل.

وقال حنظلة بن الربيع وأمراء الأعشار: ترجلوا أيها الناس، وافعلوا كما نفعل، ولا تجزعوا مما لابد منه، فالصبر أنجى من الجزع.

وفعل طليحة وغالب أهل النجدات من جميع القبائل مثل // ذلك. ١٩٩ أ

وقال أنس بن الجليس: شهدت ليلة الهرير، فكان صليل الحديد فيها كضرب القيون ليلتهم حتى الصباح، أفرغ عليهم الصبر افراغا.

وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها، ورأى العرب والعجم أمرا لم يروا مثله قط، وانقطعت الأصوات والأخبار عن سعد ورستم، فبعث سعد في تلك الليلة نجاداً ـ وهو غلام ـ إلى الصف، إذ لم يجد رسولا، فقال: انظر ماذا ترى من حالهم، فرجع إليه فقال: ما رأيت يابني؟ فقال: رأيتهم يلعبون، فقال: أو يجدون. فأقبل سعد على الدعاء، حتى إذا كان في وجه الصبح، انتمى الناس فاستدل سعد بذلك على أنهم الأعلون، وأن الغلبة لهم.

قال بعضهم: أول شيء سمعه سعد ليلتئذ مما يستدل به على الفتح في نصف الليل الباقي صوت القعقاع بن عمرو وهو يقول:

نحن قتلنا معشرا وزائدا ... أربعةً وخَمْسَةً وواحدا
تحسب فوق البلد الأساودا ... حتى إذا ماتوا دعوت واحدا[1]
الله ربي واحترزت جاهدا

(الرجز)

---

(١) الأبيات في الطبري، وعجز البيت الثاني فيه على النحو التالي:
« حتى إذا ماتوا دعوت جاهدا ».

فاستدل سعد بهذا، وربما سمع معه من غير القعقاع من الإنتماء، واتسع له الرجاء، فسمع عمرو بن معدي كرب يقول: أنا ابن أسلة، وطليحة يقول: أنا ابن ليلى، وسعد بن عمارة يقول: أنا ابن أروى، ثم سمع الانتساب من كل ناحية: خذها وأنا الغلام الجرمي من النخع، خذها وأنا الغلام المالكي من بني أسد، خذها وأنا الغلام الأسعدي من عجل، فأصبحوا والناس على مواقفهم متحاجزين، فصلى المسلمون الغداة وقضوا من شأنهم.

خبر اليوم الرابع من أيام القادسية

وهذا هو آخر أيامها، ويسمى من بينها: يوم القادسية، وفيه قتل الله رستم، وأتم الفتح للمسلمين.

قالوا [1]: وأصبح الناس ذلك اليوم حسرى، لم يغمضوا ليلتهم كلها، فسار القعقاع في الناس، فقال: إن الدبرة بعد ساعة لمن بدأ اليوم، فاصبروا واحملوا، فإن النصر مع الصبر. فاجتمع إليه هلال بن علفة، ومالك بن ربيعة، والكلح الضبي، وضرار بن الخطاب، وابن الهذيل، وغالب، وطليحة، وعاصم بن عمرو ابن ذي البردين، وأمثالهم ممن اختصر ذكره، ومعهم عشائرهم. ثم صمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه مع الصبح.

ولما رأت ذلك القبائل قام فيهم رجال منهم، فقالوا: لا يكونن هؤلاء أجد في أمر الله ـ تعالى ـ منكم، ولا أسخى نفسا عن الدنيا، تنافسوها. فحملوا مما يليهم حتى خالطوا الذين بإزائهم.

وقام في ربيعة عتيبة بن النهاس، وفرات بن حيان، والمعنى بن حارثة، وسعيد بن مرة، في أمثالهم، فقالوا: أنتم أعلم الناس بفارس وأجرؤهم عليهم فيما مضى، فمايمنعكم اليوم أن تكونوا أجرأ مما كنتم.

واقتتل الناس إلى أن انفرج قلب المشركين حين قام قائم الظهيرة، وقد ركد عليهم النقع، واشتد الحر، وسقفتهم الشمس، فهبت ريح عاصف، فقلعت طيارة رستم عن سريره، فهوت في العتيق، فانتهى القعقاع وأصحابه إلى السرير فعثروا به، وقد قام رستم عنه حين طارت الريح بالطيارة إلى بغال قدمت عليه يومئذ

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٥٦٣.

بمال فهي واقفة، فاستظل في ظل بغل منها وحمله، وضرب هلال بن علفة العدل الذي على البغل الذي رستم تحته، فقطع حباله، فوقع عليه أحد العدلين، ولا يراه هلال ولا يشعربه، فأزال من ظهره فقارا، ويضربه ضربة فنفحت مسكا، ومضى رستم نحو العتيق فرمى بنفسه فيه، فاقتحمه عليه هلال، فتناوله وقد عام، فأخرجه ثم ضرب جبينه بالسيف حتى قتله، ثم جاء به فرمى به بين أرجل البغال، وصعد السرير، ثم نادى: قتلت رستما ورب الكعبة، إليَّ إليَّ، فأطافوا به ما يحسون السرير وما يرونه، وكبروا وتنادوا، وانبت[1] قلب المشركين عندها وانهزموا، وقام الجالينوس على الردم، ونادى أهل فارس إلى العبور، وانسفى الغبار، فأما المقترنون فإنهم خشعوا فتهافتوا في العتيق، فوخزهم المسلمون برماحهم فما أفلت منهم مخبر، وهم ثلاثون ألفا.

وأخذ ضرار بن الخطاب «درفش كابيان» - راية كسرى - فعوض عنها ثلاثين ألفا، وكانت قيمتها ألف ألف ومائتي ألف، وقتلوا في المعركة من الليل - يعني ليلة الهرير - عشرة آلاف سوى من قتلوا في تلك الثلاثة الأيام

وأكب المسلمون على من ثبت لهم وعلى من سفل منهم عن الردم ومن ارتفع عنه فقتلوا منهم ستين ألفا، فقتلوا يوم القادسية مائة ألف سوى من قتلوا في الأيام قبله.

قالوا: فلما انكشف أهل فارس، فلم يبق منهم بين الخندق والعتيق أحد، وطبقت القتلى ما بين قديس والعتيق أمر سعد زهرة بن جوية باتباعهم، فنادى زهرة في المقدمات وساروا، وأمر سعد القعقاع بمن سفل، وشرحبيل بمن علا، وأمر خالد بن عرفطة بسلب القتلى وبدفن الشهداء، فدفن شهداء ليلة الهرير ويوم القادسية - ألفين وخمسمائة، وقيل ثلاثة آلاف - من وراء العتيق بحيال مشرق، ودفن شهداء الأيام الثلاثة قبل ذلك على مشرق، ويقال: كانوا ألفين وخمسمائة، وجمعت الأسلاب والأموال، فجمع منها شيء لم يجمع قبله ولا بعده،

---

(١) انبت: انقطع وانكسر.

وأرسل سعد إلى هلال بن علفة فدعا له، فقال: أين صاحبك؟ يعني رستما. قال: رميت به تحت بغل، فقال: اذهب فجيء به، فذهب فجاء به. فقال له سعد: جرده إلا ما شئت، فخذ سلبه، فلم يدع عليه شيئا، ويقال: إنه باع الذي سلبه بسبعين ألفا، وكان قد تخفف حين وقع في الماء، ولم توجد قلنسوته، وكانت قيمتها مائة ألف.

وجاء نفر من العباد حتى دخلوا على سعد، فرأوا رستما ببابه مطروحا، فقالوا: أيها الأمير، رأينا جسد رستم على باب قصرك وعليه رأس غيره، وكان الضرب قد شوهه، فضحك سعد، وخرج زهرة في آثار أهل فارس، فانتهى إلى الردم وقد تبعوه ليمنعوهم به من الطلب، فقال زهرة لبكير بن عبد الله الليثي ـ وهو الذي يقال له فارس أطلال، وهو اسم فرس له كان يعرف بها: يابكير، أقدم، وكان يقاتل على الإناث، فضرب فرسه، وقال: ثبي أطلال، فتجمعت وقالت: وثبا وسورة البقرة ثم وثبت ووثب زهرة ـ وكان على حصان ـ وتتابع ذلك ثلاثمائة فارس، فلحق زهرة بالقوم والجالينوس في آخرهم يحميهم، فشاوله زهرة، فاختلفا ضربتين، فقتله زهرة، وأخذ سلبه، وقتل أولئك الفرار ما بين الخرارة إلى السيلحين إلى النجف، ورجع زهرة في أصحابه حين أمسوا، فباتوا بالقادسية، ولما رجع القعقاع وشرحبيل إلى سعد، قال لشرحبيل: أغد // في طلب القعقاع، وقال للقعقاع: أغد في طلب شرحبيل فعلا ١٩٩ ب
هذا، وسفل هذا، حتى بلغا مقدار الخرارة من القادسية.

قال الشعبي: خرج القعقاع وأخوه وشرحبيل في طلب من ارتفع وسفل، فقتلوهم في كل قرية وأجمة وشاطىء نهر، ورجعوا، فوافوا صلاة الظهر، وهنأ الناس أميرهم، وأثنى على كل حي خيرا، وذكره منهم.

وقال في ذلك هلال بن علفة:

جدَعْتُ أنوفَ العُجْم يوم لقيتَهمْ ... برسْتُمَ والجمعان في أشغَلِ الشغْلِ
فضضْتُ به رضَّ الصفوف فقوّضَتْ ... صفوفُهُمُ والحرْب جاحمةٌ تغلي
(الطويل)

وقال الشماخ في قصيدة يرثي بكير بن عبد الله - فارس أطلال - ويذكر ماكان من فرسه في وثبتها المذكورة قبل:

وغيّب عن خيل بموقانَ أسلمَتْ بكير بني الشدَّاخ فارس أطلالِ
غداة اقتحام القوم مِنْ بعد نُطْقها وحَلْقَتِها عرض العتيق بادلال
(الطويل)

ولما قتل زهرة الجالينوس وأخذ سلبه، جاء به إلى سعد فعرفه الأسارى الذين كانوا عند سعد، وقالوا: هذا سلب الجالينوس، وكان سيدا من ساداتهم، وعظيما من عظمائهم، فقال سعد لزهرة: هل أعانك عليه أحد؟ قال: نعم. قال: من؟ قال: الله عز وجل. فنفله إياه.

وقيل: إنما جاء بالسلب وقد لبسه، فانتزعه منه سعد، وقال: ألا انتظرت إذني، وكتب فيه إلى عمر - رضي الله عنه - فكتب إليه عمر: أن يمضي لزهرة ذلك السلب، وعاتب سعدا في كتابه، وقال له: تعمد إلى مثل زهرة وقد صلى بما صلى به وبقي عليك ما بقي من حربك، تكسر قرنه وتفسد قلبه.

ويروى أن سعداً استكثر له السلب، فكتب فيه إلى عمر، فكتب إليه: إني قد نفلت من قتل رجلا سلبه، فدفعه إليه سعد، فباعه بسبعين ألفا.

وقال زهرة في قتل الجالينوس:

تبعْنا جيوَش الجالينوس وقد رأى بعينيه أمراً ذا إياس منكرا
لحقنا به نرْمي الكرانيف سادرا ويعجب إذ خلى الجموحَ وشمَّرا
فولّيته لما التقينا مصمما أراه محيا الموت أحمر أصفرا
(الطويل)

وقال سيف[1] عن رجاله: ثبت بعد الهزيمة بضع وثلاثون كتيبة، استحيوا من الفرار، فصمد لهم بضعة وثلاثون من رؤساء المسلمين، لكل كتيبة منها رأس

(١) الطبري ج ٣ ص ٥٦٩ - ٥٧٠.

(من رؤساء المسلمين) فأباد الله تلك الكتائب يومئذ.

وقال سعيد بن المرزبان[1]: أصاب أهل فارس يومئذ بعدما انهزموا ما أصاب الناس قبلهم، قتلوا حتى أن كان الرجل من المسلمين ليدعو الرجل منهم فيأتيه حتى يقوم بين يديه فيضرب عنقه، وحتى أنه ليأخذ سلاحه فيقتله به، وحتى أنه ليأمر أحد الرجلين منهم بقتل صاحبه.

وقال بعض من شهدها: أبصر سلمان بن ربيعة الباهلي أناسا من الأعاجم تحت راية لهم قد حفروا لها وجلسوا تحتها، وقالوا: لا نبرح حتى نموت، فحمل عليهم فقتلهم وسلبهم، وكان سلمان فارس الناس يوم القادسية، وأحد الذين مالوا بعد الهزيمة على من ثبت، وكذلك أخوه عبد الرحمن بن ربيعة، ذو النور، مال على آخرين قد تكتبوا ونصبوا للمسلمين، فطحنهم بخيله.

وقال الشعبي[2]: كان يقال لَسَلْمَانُ أَبْصَرُ بالمفاصل من الجازر بمفاصل الجزور.

وقال بعض بني معرض: ما رأينا مثل أهل القادسية، هزمناهم فأتبعناهم وهم على خيولهم كأنها في طين، ونحن على أرجلنا كأنا ظباء، ولقد أدركنا رجلا يعدو به فرسه فصحنا به، فلم يتحرك، فأخذناه أسيرا.

قال أبو وائل ـ وشهدها: لقد سمعت الفرس يقولون ما تقطع سيوفنا الشعر، ولقد نزع منا النصر.

وقال الأسود النخعي[3]: شهدت القادسية، فلقد رأيت غلاما منا من النخع يسوق ستين أو ثمانين رجلا من أبناء الأحرار، وأتى رجل سعدا فقال: تجعل لي ثلث ما أجيئك به؟ قال: نعم. فأتاه بأساورة قد أسرهم، فقال له سعد: كيف

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٥٦٩.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه ج ٣ ص ٥٧٦.

أخذت هؤلاء وحدك؟ قال: صحت بهم وهم منهزمون فوقفوا لم يمتنع منهم أحد، فجعل سعد يتعجب.

وكان سعد أجرأ الناس وأشجعهم، إنه نزل قصرا غير حصين يشرف منه على الناس ويرى قتالهم، وصف المسلمين إلى أصل حائط القصر، ولو أعراه الصف فواق ناقة أخذوا برمته. فوالله ماكربه هول تلك الأيام، ولا أغلقه. ودخل إليه في اليوم الرابع رجل من بجيلة فقال: أبا اسحق إن الناس قد جبنوك وقالوا: لم يمنعك من الخروج الوجع، قال: ما أخاف ذلك على نفسي، أوما ترى مابي، وسأخرج، وكان به حبون [1] ودماميل لا يستطيع أن يقر لها إلا مكبا على صدره، فركب فرسا فانتهى إلى باب القصر وقد تبوأ فيه حمام، فَطِرْنَ فنفر الفَرَسُ فشَبَّ، فانفجر ماكان من قروحه وخرج، فوقف وحض المسلمين وقال: لا تكون هذه الأعاجم أصبر على المقارعة منكم، واعلموا أن القوم ملوا إن كنتم مللتم، فنشط الناس.

وفي حديث غير هذا أن جريرا البجلي قال في ذلك اليوم:

أنا جرير كنيتي أبو عَمْرو ... قد نصر الله وسعد في القَصِرْ [2]

(الرجز)

وقال رجل من المسلمين - أيضاً:

نقاتل حتى أنزل الله نصرَهُ ... وسعدَ بباب القادسية معصمُ

فأبْنا وقد أمت نساء كثيرة ... ونسوةُ سعْدِ ليس فيهن أيِّم [3]

(الطويل)

---

(١) الحبن محركة: داء في البطن يعظم منه ويرم.

(٢) البيت في البدء والتاريخ للبلخي ج ٥ ص ١٧٦، والطبري ج ٣ ص ٥٧٧.

(٣) وردا في المعارف لابن قتيبة (ص ٢٤٢) والشطر الأول من البيت الأول - فيه - على النحو التالي: «ألم تر أن الله أظهر دينه»، وهما في البدء والتاريخ للبلخي ج ٥ ص ٢٧٦، والطبري ج ٣ ص ٥٧٧، والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٣٢٤ - ٣٢٥، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ٢٠٣، ومعجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٢٩١، وقد طابقت روايته لهما رواية ابن قتيبة. =

فلما بلغ ذلك من قولها سعدا خرج إلى الناس فاعتذر إليهم وأراهم مابه من القروح في فخذيه، فعذره الناس، وقال سَعد يجيب جريرا من أبيات:

وما أرجو بجيلة غير أني ... أؤمل أجْرَهُمُ يومَ الحساب [١]

(الوافر)

وفي حديث يروى عن قيس بن أبي حازم [٢]، وكان شهد تلك الحرب أن الفرس لما انهزموا لحقوا بدير قرة وما وراءه، ونهض سعد بالمسلمين حين نزل بدير قرة على من هناك من الفرس، وقدم عليه بالدير عياض بن غنم في ألف رجل من الشام مددا لهم، فأسهم لهم سعد مع المسلمين فيما أصابوا بالقادسية، ثم أن الفرس هربت من دير قرة إلى المدائن يريدون نهاوند، واحتملوا معهم الذهب والفضة والديباج والفرند والحرير والسلاح وثياب كسرى، وخلوا ما سوى ذلك، وأتبعهم سعد الطلب، فبعث خالد بن عرفطة ووجه معه عياض بن غنم في أصحابه، وجعل على مقدمة الناس هاشم بن عتبة، وعلى ميمنتهم جرير بن

= وفي كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي [ج ١ ص ٢٨٠]: «وأقبل سعد بن أبي وقاص حتى دخل حلوان، فأنشأ عبد الله بن قيس الأزدي يقول - شعر:

فأبلغ أبا حفص بأن خيولنا ... بحلوان أضحت بالكماة تجمجم
ونحن دهمناها صباحا بفيلق ... جرير علينا في الكتيبة معلم
ونحن أبدنا الفرس في كل موطن ... بجمع كمثل الليل والليل مظلم
نقاتل حتى أنزل الله نصره ... وسعد بباب القادسية معصم
فأبنا وقد أيمت نساء كثيرة ... ونسوة سعد ليس فيهن أيم
أولئك قومي إن سمعت بمعشري ... وموضع أيساري إذا نيل مغنم»

(١) البيت في الطبري ج ٣ ص ٥٧٧، والبدء والتاريخ للبلخي ج ٥ ص ١٧٦، وفتوح البلدان للبلاذري ص ٣١٩، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ٢٠٣:

فقد لقيت خيولهم خيولا ... وقد وقع الفوارس في ضراب
وقد دلفت بعرضتهم فيولا ... كأن زهاءها ابل جراب

(الوافر)

ويلحظ أن في البيت الثاني: افواه.

(٢) الطبري ج ٣ ص ٥٧٨.

عبد الله وعلى الميسرة زهرة بن جوية، وتخلف سعد لما به من الوجع، فلما أفاق
٢٠٠ أ من وجعه أتبع الناس بمن بقي // معه من المسلمين حتى أدركهم دون دجلة، فلما وضعوا على دجلة العسكر والأثقال طلبوا المخاضة فلم يهتدوا لها، حتى أتى سعداً علجٌ من أهل المدائن فقال: أدلكم على طريق تدركونهم قبل أن يمعنوا، فخرج بهم على مخاضة بقطر بل، فكان أول من خاضها هاشم، وأتبعه خيله، ثم جاز خالد بن عرفطة بخيله وتتابع الناس فخاضوا حتى جاوزوا، فزعموا أنه لم يهتد لتلك المخاضة بعد، ثم ساروا حتى انتهوا إلى مظلم ساباط، فأشفق الناس أن يكون به كمين للعدو، فتردد الناس وجبنوا عنه، فكان أول من دخله بجيشه هاشم، فلما جاز ألاح للناس بسيفه، فعرف الناس أن ليس به شيء يخافونه، فأجاز بهم خالد بن عرفطة، ثم لحق سعد بالناس حين انتهوا إلى جلولاء وبها جماعة من الفرس، فكانت وقعة جلولاء بها، فهزم الله الفرس وأصاب المسلمون بها أفضل مما أصابوا بالقادسية، وأصيبت ابنة لكسري، يقال لها منجانة [1]، ويقال: ابنة ابنه، وقال شاعر من المسلمين:

يــارُبَّ مهـرٍ حسَـنٍ مطهَّـمِ يحمـل أثقـال الغـلام المسلمِ
ينجـو إلى الرحمن مـن جهنم يـوم جلـولاء ويـوم رستـم
ويـوم زحـف الكـوفـة المقـدَّم ويـوم لا في حَتفَـةَ [2] مُهَـزَّمِ
وخرَّ دينُ الكافرين للفمِ

(الرجز)

وفي كتاب المدائني عن أبي وائل قال: هزمناهم - يعني يوم القادسية - حتى انتهوا إلى الفرات فقاتلونا عليه، فهزمناهم حتى انتهوا إلى الصراة فقاتلونا عليها، فهزمناهم حتى انتهوا إلى المدائن فدخلوها ونزل المسلمون دير السباع، فجعلنا

(١) في الأصول: هجانة، والتصويب من الطبري.
(٢) في الطبري: ضيقة.

نغاديهم فنقاتلهم، فقال المسلمون: هؤلاءِ في البيوت ونحن في الصحراء، اعبروا إليهم، فعبرنا إليهم فحصرناهم في الجانب الشرقي حتى أكلوا الكلاب والسنانير، فخرجوا على حامية معهم الأثقال والعيال حتى نزلوا جلولاء الوقيعة، وتبعناهم فقاتلوا بها قتالا شديدا عن العيال والذراري، فجال المسلمون جولة فناداهم سعد: يا معشر المسلمين، أين أين أما رأيتم ما خلفكم؟ أتأتون عمر منهزمين فعطفوا، وهزم الله المشركين، وسميت جلولاء الوقيعة فتح الفتوح، وسيأتي ذكر فتح جلولاء والمدائن على التمام بعد انقضاء بقايا الأخبار عن شأن القادسية ومغانمها إن شاء الله تعالى.

قال الشعبي: بلغ الفيء بالقادسية ستمائة ألف ألف، وكان خمسها عشرين ومائة ألف ألف، وكان الملك يزدجرد بن كسرى قد حمل نصف الأموال إلى أهل فارس بالقادسية ليتوردوا بها بلاد العرب، وليغزوا عمر - رضي الله عنه - في داره وقراره، فعل مقتدر مغرور، وأمر الجنود أن يحضروا الحرب بأموالهم، وأن يختلفوا ليكون أجدّ لهم في الامتناع والمخاطرة لدنياهم، فاجتمعت معهم من الأموال والزين والشارات على قدر أحسابهم مالا يحصى، وكان سبب ذلك ما قضى الله - عز وجل - للمسلمين، فساقه إليهم، وكان يزدجرد قد استبقى النصف من الأموال وأقره في بيت المال على حاله، فأفاءه الله على المسلمين يوم المدائن.

وذكر المدائني أن المسور بن مخرمة أصاب يوم القادسية ابريق ذهب عليه ياقوت، فقال له بعض الفرس آخذه منك بعشرة آلاف، فأبى وأتى به سعدا، فباعه بمائة ألف.

وقال مخنف بن سليم: إني لفي طلب المشركين يومئذ إذ لحقت رجلين أحدهما على فرس والآخر على بغل، ثم ذكر حديثا انتهى فيه إلى أن فاته صاحب الفرس ولحق بصاحب البغل فأخذه، قال: وأنا أريد أن آتي به سعدا وما من رأي أن أنظر إليه، فجاء مولى لي وأنا أصلي فحط الثقل واستخرج سفطا فنظر إليه وقال

لي: أتدري ما معك؟ قلت: لا، قال: بعض كنوز كسرى، فنظرت فإذا ناقة ذهب عليها رجل ذهب وبطان ذهب وزمام ذهب، وإذا ذلك كله مكلل بالجوهر عليه مثال رجل من فضة، فأتيت بها سعدا، فقال: أبشر بأفضل منه من ثواب الله، وولاني مغانم القادسية، ومعي غيري، فجاء رجل بسفط آخر فألقاه في المغانم، وقال: أما والله لولا خوف الله ما أديته، فإذا الذي جئت به لا يقارب ما جاء به الرجل، فقلت: من أنت؟ قال: والله ما أخبرك لتحمدني أنت ولا أحد من الناس، وأصاب الناس رثة ومتاعا كبيرا.

وقال طلحة بن مصرف: أمروا مما وجدوا من الطيب للنساء ببعضه، فأصاب كل امرأة مع الناس يومئذ ثلاثة وثلاثون مثقالا من عنبر، ومثلها من مسك، واشرك صبيان الذين استشهدوا في ذلك، فأما الكافور فلم يعبأوا به شيئاً، وبعضهم استبدل منه بالملح كيلا بكيل، وأصاب الرجل من المسلمين خمسة آلاف ونيف من سهمه، وصيرالله - عز وجل - العدة والأداة إلى المسلمين، فلم يبق أحد إلاّ أردى، وركب، وفضل عنهم حتى جنبوا الجنائب.

وذكر سيف عن رجاله قالوا: وقسم سعد الفيء بالقادسية على تسعة وثلاثين ألفا أو يزيدون، وكان من شهدها أكثر من تسعة وثلاثين ألفا وأقل من الأربعين، فأصيب منهم خمسة آلاف ومائتان، وقيل وخمسمائة، ثم لحق في الأيام الثلاثة بعد الوقعة عدد من استشهد فقسم الفيء على تلك العدة التي هي أقل من أربعين ألفا. قالوا: واعطى الناس المتاع بالقيمة في سهم الرجل.

قال ابراهيم بن يزيد: كانوا لَيُقَوِّمون الشيء الثمين بالشيء اليسير.

وقال الشعبي: لم يقسم يومئذ لأكثر من فرسين، ولا يقسم لأكثر منهما، قالوا: فبلغ سهم الفرسين وصاحبهما سبعة وعشرين ألفا، للرجل خمس ذلك وللفرسين سائر ذلك، وللفرس الواحد بحساب ذلك عشرة آلاف ونيف، وسهم الرجل الواحد خمسة آلاف ونيف، وسهم الرجل الفارس ذي الفرس الواحد خمسة عشر

ألفا ونيف، وكان القاسم بين الناس والمميز للخيل والذي يلي الأقباض سلمان بن ربيعة الباهلي.

قال المدائني: فجاء عمرو بن معدي كرب بفرسين يقودهما، فقال سلمان لأحد الفرسين: هذا هجين، فقال عمرو: الهجين يعرف الهجين، فأغلظ له سعد عند ذلك وهدده. فقال عمرو:

إذا قُتِلْنا ولا يبكي لنا أحدٌ قالت قريشٌ: ألا تلك المقاديرُ
نعطي السويةَ مِنْ طَعْنٍ له نَهَلُ ولا سوية إذْ تُعْطَى الدنانيرُ
ونحن في الصف قد تَدْمَى حواجبُنا نُعْطَى السويَّةَ مما أخْلَصَ الكيرُ
(البسيط)

قالوا [١]: وكتب سعد بالفتح إلى عمر - رحمه الله - وبعدة من أصيب // من المسلمين جملة، وسمى له منهم من كان عمر يعرفه، وكان كتابه إليه: ٢٠٠ ب

أما بعد، فإن الله - عز وجل - نصرنا على أهل فارس، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم، بعد قتال طويل وزلزال شديد، وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثل زهوها [٢] فلم ينفعهم الله بذلك، بل سلبهموه ونفله عنهم إلى المسلمين، وأتبعهم المسلمون يقتلونهم على الأنهار وعلى صفوف الآجام [٣] وفي الفجاج، وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القاريء، وفلان وفلان، ورجال من المسلمين لا تعلمهم، الله بهم عالم، كانوا إذا جن عليهم الليل يدوون بالقرآن دوي النحل، وهم آساد من الناس لا تشبههم الأسود، ولم يفضل من مضى منهم على من بقي إلا بفضل الشهادة، إذ لم تكتب لهم.

ولما أتى عمر الكتاب بالفتح قام في الناس فقرأه عليهم، وكان رضي الله عنه

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٥٨٣.

(٢) عددها ومقدارها.

(٣) في الطبري: طفوف الآجام.

لما أتاه الخبر بنزول رستم القادسية يستخبر الركبان عن أهل القادسية من حين يصبح إلى انتصاف النهار، ثم يرجع إلى بيته، فلما لقيه البشير سأله من أين جاء، فأخبره، فقال: ياعبد الله، حدثني، قال: هزم الله العدو، وعمر - رضي الله عنه - يخب معه ويستخبره، والآخر يسير على ناقته وهو لا يعرفه حتى دخل المدينة، فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين، فقال الرجل: فهلا أخبرتني - رحمك الله - أنك أمير المؤمنين وجعل عمر يقول له: لا عليك ياأخي.

وقال عمر للناس عندما قرىء عليهم الفتح: إني حريص على أن لا أدع حاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض، فإذا عجز ذلك عنا تأسينا حتى نستوي في الكفاف، إني والله ما أنا بملك فأستعبدكم، ولكني عبد الله عرض عليّ الأمانة، فإن أبيتها ورددتها عليكم وأتبعتكم حتى تشبعوا وترووا في بيوتكم سعدت، وإن أنا حملتها واستتبعتكم إلى بيتي شقيت، ففرحت قليلا وحزنت طويلا، وبقيت لا أقال ولا أرد فأستعتب.

وكتب سعد - أيضاً - إلى عمر في ثلاثة أصناف من المسلمين اجتمعوا إليه يسأله عنهم، عمن أسلم بعدما فتح الله - تعالى - عليهم ممن كان له عهد ومعونة، وعمن أعتق الجند من رقيقهم بعد الفتح، وعمن جاء بعدما فتح الله عليهم وأخبره أنه ممسك عن القسم حتى يأتيه رأيه.

قالوا: وكانت طائفة من الديلم ورؤساء أهل المسالح قد استجابوا للمسلمين واختاروا عهودهم على عهد فارس، وقاتلوا مع المسلمين على غير الإسلام، وكانوا حشوة فيمن أسلم منهم، فلما فتح الله تعالى على المسلمين قال أولئك الذين لم يكونوا أسلموا: إخواننا الذين سبقونا دخلوا في هذا الأمر من أول الشأن خير وأصوب رأيا، والله لا يفلح أهل فارس بعد رستم إلا من دخل في هذا الأمر منهم، فأسلموا، فهم الصنف الأول من الذين سأل عنهم سعد عمر - رضي الله عنهما - قالوا: وتتابع أهل العراق من أصحاب الأيام الذين شهدوا اليرموك

ودمشق ورجعوا ممدين لأهل القادسية ، فتوافوا بها من الغد ومن بعد الغد جاء أولهم يوم أغواث وآخرهم من بعد الغد من يوم الفتح ، وقدمت أمداد فيها مراد وهمدان ومن أبناء الناس ، فهذا الصنف الثاني ممن كتب فيهم سعد .

وأقام المسلمون في انتظار أمر عمر ـ رضي الله عنه ـ يقومون أقباضهم ، ويحزرون جندهم ويرمون أمورهم ويجددون حربهم ، حتى جاءهم جواب عمر :

أما بعد ، فالغنيمة لمن شهد الوقعة ، والمواساة لمن أغاث في ثلاث بعد الوقعة ، فاشركوهم ومن أعانكم في حربكم من أهل عهدكم ، ثم أسلم بعد الحرب في ثلاث ، ومن شهد حربكم من مملوك ثم عتق في ثلاث بعدها فأشركوا هؤلاء الأصناف الثلاثة فيما أفاء الله عليكم .

وكانوا كتبوا إليه ـ أيضاً ـ يسألونه عمن احتلم بعد الوقعة ممن شهدها ، فأجابهم عن ذلك :

أما بعد فمن أدرك الحلم ممن شهد الوقعة في ثلاث بعدها فأشركوهم وألحقوهم ، وأقسموا لهم ولمن لحق في ثلاث أو أسلم في ثلاث ، فإن الله لن يزيدكم[1] بذلك إلا فضلاً ، وليست في الفيوء أسوة بعد الخمس إلا لهؤلاء الطبقات .

وكتبوا إلى عمر ـ أيضاً ـ أن أقواما من أهل السواد ادعوا عهودا ، ولم يقم على عهد الأيام لنا ، ولم يف به أحد علمناه إلا أهل بانقيا وبسما وأهل أليس الأخيرة ، وادعى سائر أهل السواد أن فارس أكرهوهم وحشروهم ، فلم يخالفوا إلينا ، ولم يذهبوا في الأرض .

وكتبوا إليه ـ أيضاً ـ في كتاب آخر : أن أهل السواد جلوا ، فجاءنا من تمسك بعهده ولم يجلب علينا ، فتممنا لهم على ما كان بين المسلمين وبينهم قبلنا ، وزعموا أن أهل الأرض قد لحقوا بالمدائن ، فأحدث إلينا فيمن أقام وفيمن جلا وفيمن ادعى أنه استكره وحشر فهرب ولم يقاتل ، أو استسلم ، فإنا بأرض رغيبة ،

---

(١) في الأصول : يزدكم .

والأرض خلاء من أهلها، وعددنا قليل، وقد كثر أهل صلحنا، وإن أعْمَرَ لها وأوْهَنَ لعدونا تألّفُهم.

فلما انتهى ما كتبوا به إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ قام في الناس فقال: إنه من يعمل بالهوى والمعصية يسقط حظه ولا يضر إلا نفسه، ومن يتبع السنة وينته إلى الشرائع ويلزم السبيل النهج ابتغاء ما عند الله لأهل طاعته أصاب أمره وظفر بحظه، وذلك أن الله عز وجل يقول: ﴿ **ووجدوا ما عملوا حاضرا، ولا يظلم ربك أحداً** ﴾ (٤٩: الكهف)، وقد ظهر أهل الأيام والقوادس بما يليهم، وجلا أهله، وأتاهم من أقام على عهدهم، فما رأيكم فيمن زعم أنه استكره وحشر، وفيمن لم يدَّعِ ذلك ولم يقم وجلا، وفيمن أقام ولم يدَّع شيئا، ولم يَجْلُ، وفيمن استسلم.

فأجمعوا على أن الوفاء لمن أقام وكف، وأن من ادعى وصدق بمنزلتهم، ومن كذب نبذ إليهم وأعادوا صلحهم، وأن يجعل أمر من جلا إلى المسلمين، فإن شاءوا وَادَعُوهم وكانوا لهم ذمة، وإن شاءوا أتموا على منعهم من أرضهم، ولم يعطوهم إلا القتال، وأن يخيروا من أقام واستسلم بين الجزاء والجلاء، وكذلك الفلاح.

فكتب عند ذلك عمر - رضي الله عنه - جوابا عما كتبوا إليه في ذلك.

أما بعد، فإن الله عز وجل أنزل في كل شيء رخصة في بعض الحالات إلا في أمرين: العدل في السيرة، والذكر. فأما الذكر فلا رخصة فيه في حالة، ولم يرض منه إلا بالكثير، وأما العدل فلا رخصة فيه في قريب ولا بعيد، ولا في شدة ولا رخاء، - والعدل وإن رئي لنا - (فهو) أقوى وأطفأ للجور، وأقمع للباطل من الجور، وإن رئي شديداً // (فهو انكس للكفر)، فمن تم على عهده ٢٠١ أ
من أهل السواد ولم يعن عليكم بشيء فله الذمة وعليهم الجزية، وأما من ادعى أنه استكره ممن لم يخالفهم أو يذهب في الأرض فلا تصدقوهم بما ادعوا من ذلك إلا أن تشاءوا، وإن لم تشاءوا فانبذوا إليهم، وأبلغوهم مأمنهم، ومن أقام ولم يجل وليس له عهد فلهم ما لأهل الذمة بمقامهم لكم وكفهم عنكم إجابة، والفلاحون إذا فعلوا ذلك، وكل من ادعى شيئاً فصدق فلهم الذمة. وإن كذبوا نبذ إليهم، وأما

من أعان وجلا فذلك أمر جعله الله إليكم، فإن شئتم فادعوهم إلى أن يقوموا لكم في أرضكم، ولهم الذمة وعليهم الجزية، فإن كرهوا ذلك فاقتسموا ما أفاء الله عليكم منهم.

فلما قدمت كتب عمر على سعد بن مالك والمسلمين عرضوا على من يليهم ممن جلا وتنحى من أهل السواد أن يتراجعوا، ولهم الذمة وعليهم الجزية، وتراجعوا وصاروا ذمة كمن تم ولزم عهده إلا أن خراجهم[1] أثقل، وأنزلوا من ادعى الاستكراه وهرب منزلتهم، وعقدوا لهم، وأنزلوا من أقام منزلة ذي العهد، وكذلك الفلاحون، ولم يدخل في الصلح ما كان لآل كسرى، ولا ماكان لمن خرج معهم، ولم يجب إلى الإسلام ولا إلى الجزية. فصارت فيئا لمن أفاء الله عليه كالصوافي في الأول، وسائر السواد لهم ذمة، وأخذوهم بخراج كسرى، وكان على رءوس الرجال وما بأيديهم من الحصة[2] والأموال، وكان مما أفاء الله عليهم ما كان لآل كسرى ومن صوب معهم وعيالهم وعيال من قاتل معهم وماله، وماكان لبيوت النيران والآجام ومستنقع المياه، وما كان للسكك، فلم يتأت قسم ذلك الفيء الذي كان لآل كسرى ومن صوب معهم، لأنه كان متفرقا في كل السواد، فكان يليه لأهل الفيء من وثقوا به وتراضوا عليه.

قالوا: وأدلى جرير وبجيلة يوم القادسية بمثل ما كان عمر جعل لهم من ربع الخمس مما أفاء الله يوم البويب، فكتب سعد إلى عمر بذلك، فأجابه: قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين، إني إنما كنت جعلت لهم ربع الخمس مما أفاء الله على المثنى حين أمددته بهم في وجههم ذلك إلى البويب نفلا، فقد أخذوه أيام البويب، ثم لم يمضوا ولكن رجعوا إلى أرض العرب، فعنفهم بما ادعوا مما ليس لهم ولا لي وقل لهم: والله لولا أني قاسم مسئول لبلغت منكم. فلما بلغ الكتاب سعدا أمر جريرا بجمع بجيلة، فجمعهم له، فقرأ عليهم سعد الكتاب، فقال جرير: صدق والله عمر وأسأنا، وتتابع على ذلك قومه إلا امرأة يقال لها أم

---

(١) في الأصول: أخراجهم.

(٢) في الأصول: الصحة.

كرز ، فإنها قالت : كذبت والله ياجرير ، وجعل جرير يقول لها : حلا يا أم كرز ، فتعود له بالتكذيب ، فلا يزيد على أن يقول : حلا يا أم كرز .

وخالف المدائني ما ذكره سيف في قصة جرير وقومه ، وقال : إن سعدا لما جمع الغنائم وعزل الخمس ، وأراد قسمة الباقي ، قال له جرير : إن أمير المؤمنين جعل لنا الربع ، وقال بعضهم : الثلث بعد الخمس من كل شيء ، فبعث سعد بالخمس إلى عمر ، وكتب إليه بقول جرير ، فقال عمر : صدق جرير ، قد جعلت له ولقومه ما قال من السواد ، فخيروهم ، فإن شاءوا اعطوا وكان قتالهم للجعالة ، وإن شاءوا فلهم سهم المسلمين وقتالهم ، فخيرهم سعد فاختاروا سهام المسلمين . فالله أعلم أي ذلك كان .

وذكر المدائني ـ أيضا ـ أنه كان فيمن قدم على عمر مع الخمس الأسدي الذي طعن الفيل فضربه سائسه على وجهه فهشم وجهه ، فقال له عمر : من أنت ؟ وما هذه ؟ ـ يعني الضربة التي في وجهه ـ قال : أصابني قدر من قدر الله ، فأخبر القوم عمر خبره ، فعانقه عمر وقال : أبشر فهي نور لك يوم القيامة ، فهل لك من حاجة ؟ قال : تكتب إلى سعد يعطيني محتلما يخدمني وفرسي ، فكتب إلى سعد : أعطه محتلمين ، ففعل ذلك سعد .

قال الشعبي : وأمر عمر ـ رضي الله عنه ـ في الأعشار بخمسمائة فرس نفلا من خيل فارس لتقسم في أهل البلاء ، فأصاب كل عشر خمسون فرسا ، فأصاب النخع عشرون ، وقيل خمسة وعشرون ، وأصاب سائرها ، سائر مذحج .

قالوا : وكتب عمر ـ رحمه الله ـ إلى سعد : أنبئني أي فارس كان يوم القادسية أفرس ، وأي راجل[1] كان أرجل ، وأي راكب كان أثبت . فكتب إليه : إني لم أر فارسا مثل القعقاع بن عمرو حمل في يوم ثلاثين حملة ، فقتل في كل حملة كميا ، ولم أر راجلا مثل يعفور بن حسان الذهلي إنه جاء في يوم بخمسة

---

(١) في الأصول : رجل .

فوارس، يَخْتِلُ الفارسَ منهم حتى يردفهِ، ثم يغلبه على عنانه حتى يأتي به سلما، ولم أر راكبا مثل الحارث بن قرم البهزي، إنه جاء ببعيره يرفعه، ثم ركب الكراديس ففرق بينها[1]، فإذا نفر بالفارس انحط عنه فعانقه، ثم قتله، ثم يثب على بعيره من قيام.

وكتب عمر إلى سعد ـ أيضا: أنبئني من وجدت أصبر ليلة الهرير؟ فكتب إليه: إن الحس سكن عني، حتى إذا كان في وجه الصبح سمعت انتماء في مضر وانتماء في ربيعة ثم انتسابا في اليمن، فوجدت المنتمين من تميم وأسد وقيس والمنتمين من بكر وحلفائها والمنتسبين في أهل اليمن من مذحج وكندة.

وفي كتاب المدائني أن عمر كتب إلى سعد يسأله: أي الناس كان أصبر بالقادسية؟ فكتب إليه سعد: إن الحرب ركدت ليلة، فلم أسمع إلا هماهم الرجال، وهريرهم، ووقع الحديد، فلما كان قبيل الفجر سمعت الانتماء من كل: أنا ابن معدي كرب، أنا الجذامي، أنا المالكي من أسد، أنا الأشعري، ثم صار الأنتماء قصره في جذيمة، فلما انجلت الحرب رأيت جماعة قتلى في ربضة، فقلت: من هؤلاء؟ قالوا: من جذيمة النخع، اصيبوا من آخر الليل وهم ينتمون، فنفلهم عمر خمسة وعشرين فرسا ـ يعني بني جذيمة.

وحكى المدائني عن الشعبي قال: كان السبي بالقادسية وجلولاء مائة ألف رأس، وقد قيل: أقل من هذا، وقول الشعبي أكثر وأشهر.

ويروى أنه لما كان العطاء فضل من أهل البلاء بالقادسية بخمسمائة خمسمائة في أعطياتهم خمسة وعشرون رجلا، منهم زهرة بن الجوية وعصمة الضبي والكلح الضبي، وأما أهل البلاء قبلهم ففرض لهم العطاء على ثلاثة آلاف، فضلوا على أهل // القادسية. ٢٠١ ب

وذكر سيف بن عمر عن رجاله، قالوا: كانت العرب توقع وقعة العرب وأهل فارس في القادسية يرون أن ثبات ملكهم وزواله بها، وكانت في كل بلدة

---

(١) في الأصول: «بينهما».

مصيخة إليها، تنظر ما يكون من أمرها، حتى أنْ كان الرجل لَيُريدُ الأمر فيقول: لا أنظر فيه حتى أرى ما يكون من أمر القادسية، فلما كانت وقعتها سارت بها الجن[1] إلى ناس من الإنس فسبقت أخبار الإنس إليهم، قالوا: فبرزت امرأة ليلا على جبل بصنعاء، لايدرى من هي، وهي تقول:

حُيِّيتِ عنا عِكْرِمَ ابنَةَ خالدِ … وما خيرزاد بالقليل المُصَرَّدِ
وحيتْكِ عني الشمسُ عند طلوعها … وحياك عني كلَّ ناجٍ مُفَرَّدِ
وحيتك عني عصبةٌ حنفيةٌ … حِسَانُ الوجوه آمنوا بمحمد
أقاموا لكسرى يضربون جنوده … بكل رقيق الشفرتين مهنَّدِ

(الطويل)

وسمع أهل اليمامة مجتازا يغني بهذه الأبيات:

وجدنا الأكثرين بني تميم … غداة الروع أصبَرَهم رجالا
هُمُ ساروا بأرعَنَ مكفهِرٍّ … إلى لجب يوازنهم رعالا
بحور للأكاسر من رجال … كأسد الغاب تحسبهم جبالا
همُ تركوا بقادس عزَّ فخْرٍ … وبالنَّجَفَين[2] أياما طوالا
مقطعة أكُفُّهُمُ وسوقٌ … بِمَرْدى حيث قابَلتْ الجبالا[3]

(الوافر)

وسمع أهل البحرين راكبا يقول:

ألا حييا أفناء بِكْرِ بْنِ وائلِ … فقد تركوا جمع الأعاجم واجما
همُ صدقوا يوم القوادس فارسا … بأسيافهم ضرْبا يَبُلّ القوائما
أناخوا لهم في عَرْصَة الدار وانتموا … إلى باذخٍ يعلو الذرى والجماجما

(الطويل)

---

(١) هذه الأبيات المنسوبة للجن في الطبري ج ٣ ص ٥٨٢.
(٢) في الطبري: بالخيفين.
(٣) في الطبري: الرجالا.

وسمع سامع بعمان قائلا :

ألا إن عبد القيس كانوا بأسرهم غداة قديس كالأسود الشداقم
وإذا هُمُ مِنْ تغلب ابنة وائل كتائب تردى بالقنا والقوائم
هم فرقوا جمع الأعاجم وابتَنَوا قرارَهُمُ بالمقربات السواهم
فقولا لعبد الله أهلا ومرحبا وتغلب إذ فضوا هوادي الأعاجم
وأشقوا رءوس العجم بالبيض وانتموا لأكرم أنساب العريب الأكارم
(الطويل)

وذكر الرواة أنهم سمعوا نحو هذا بالمدينة ومكة ونجران، وأنشدوا ما سمع في كل موضع منها، تركت ذكر ذلك اختصارا.

ومما قيل - أيضاً - في فتح القادسية من الشعر الذي لم يزل العلماء قديما يروونه، قول بشر بن ربيعة الخثعمي:

تذكر هداك الله وقْعَ سيوفنا بباب قديس والمكرُّ ضرير
عشية ود القوم لو أن بعضهم يَعَارُ جَنَاحَيْ طائر فيطير
إذا ما فرغنا من قراع كتيبة برزنا لأخرى كالجبال تسير
ترى القوم منها واجمين كأنهم جمال بأحمال لهن زفير
وعند أبي حفص عطاءٌ لراحل وعند المُعَنى فضة وحرير
(الطويل)

وقال القعقاع بن عمرو يذكر شدة ذلك اليوم وما لقيت الفيول فيه وتأثيره فيها:

حضض قومي مضر حي بن يعمر (١) فلله قومي حين هزوا العواليا
وماخام عنها يوم سادت جموعنا لأهل قديس يمنعون المواليا
فإن كنت قاتلت العدو بنية فإني لألقى في الحروب الدواهيا

---

(١) ورد هذا الشطر مكسورا هكذا في الأصول، وفي الطبري، والكامل لابن الأثير (حاشية).

فُيُولا أراهــا كــالليــوث مغيرة — أسمــل أعيــانــا لها ومــآقيــا

(الطويل)

وقال حمال الأسدي في مثل ذلك:

ألا هــل أتــاهــا يــوم أعماسَ أنني — أمــارُس آســاداً لها وفيــولا
أُمِارِسُ فيلاً مثْـلَ كعبــة أبْهَــر — تــرى دونــه رجــراجــة وخيــولا
طعنْـتُ بـرمحي عينَــه فــرددتــه — يُـرشِّـح بــولا خشيــةً وجفــولا

(الطويل)

وقال الشماخ بن ضرار:

ويــوم بجَوِّ القــادسيــة إذْ سَمَــوْا — فَعُجْتُ بقصَّابٍ مـن الهنـد نـافـح
أجــالــدهــم والحي حــولي كــأنهم — رجــال تلاقــوا بينهــم بـالسـوافـح
وإني لمن قـــوم على أن ذممتهـــم — إذا أولموا لم يــولموا بــالأنــافــح
وأنــك مــن قــوم تحن نســاؤهــم — إلى الجانــب الأقصى حنين المنـائـح

(الطويل)

وقال أيضاً:

فليـت أبــا حفـص رآنــا ووقْعَنَــا — بباب قديس بعدمــا عُـدُلُ الصـفَّ
حملنــا على الآســاد آســادِ فــارسٍ — كحملـة هـرمـاسٍ يجرّبـه الصرف

(الطويل)

وقال عاصم بن عمرو:

شاب المفارقُ والأعراض فالتمعَـتْ — من وقعـة بقـديس جـرَّهــا العجَـمُ
جاب الكتائب والأوزاع وانشمـرت — مــن صكــة صكهــا ديـانها الحكــم
بينــا بجيلـــة قـــد كدت[1] سراتهم — سالت عليهم بأيـدي النـاصر العصم
سرنــا إليهــم كــأنــا عــارض بــرد — تُـزْجِـي تَــوَاليَــه الأرواحُ والديم

---

(١) في الأصل: «كضت».

كان العتيق لهم مثوى ومعركة ... فيها الفرائص والأوصال واللمم
(البسيط)

وقال أبو بجيد، نافع بن الأسود التميمي يمدح قومه، ويذكرهم أثرهم في الجاهلية والإسلام:

وقال القضاة من مَعَدٍّ وغيرها ... تميمك أكفاء الملوك الأعاظمِ
هُمُ أهل عز ثابت وأرومةٍ ... وهمْ مِنْ مَعَدٍّ في الذرى والغلاصم
وهم يضمنون المال للجار ماثوى ... وهم يُطْعمون الدهر ضربة لازم
سَدِيفَ الذرى من كل كَوْماء بازلٍ ... مقيماً لمن يعفوهم غَيْرَ جارم
فكيف تناحيها الأعاجم بعدما ... عَلَوْا لجسيم المجد أهل المواسم
وبذْل الندى للسائلين إذا اعتفوا ... وكبَّ المتالي في السنين الأوازِم
ومدهم الأيدي إلى غاية العلى ... إذا اقْصرَتْ عنها أكف الألائم
وإرسالهم في النائبات تلادَهم ... لفكّ العُناةِ أو لكشف المغارم
وقوْدهم الخيلَ العتاق إلى العدى ... ضواريَ تَرْدى في لجاجِ المخارم
مجنبة تشكو النسورَ من الْوجَىَ ... يعانْدن أعناق المطِّي الرواسم
لتنقض وترا أو لتحوي مغْنما ... كذلك قُدْماهم حماة المغانم
وكائنْ أصابوا من غنيمة قاهرٍ ... حدائقَ من نخل بَقَّرانَ ناعم
وكان لهذا الحي منهم غنيمة ... كما أحرزوا المرباع عند المقاسم
كذلك كان الله شرّف قومنا ... بها في الزمان الأول المتقادم
وحين أتى الإسلام كانوا أئمةً ... وقادوا مَعَدًّا كلّها بالخزائم
إلى هجرة كانت سناء ورفعةً ... لباقيهمُ فيهم وخير مراغم
إذا الريف لم ينزل عريف بصحْبه ... وإذ هو تكفيه ملوك الأعاجم
فجاءت تميم في الكتائب نصرةً ... يسيرون صفا كالليوث الضراغم
على كل جرداء السَّراة وملهب ... بعيد مدى التقريب عَبْلِ القوائم
عليهم من الماذيِّ زغْفٌ مضاعَفٌ ... له حُبُكٌ من شكة المتلازم
// فقيل لكم مجد الحياة فجاهدوا ... فأنتم حماة الناس عند العظائم ٢٠٢ أ

فصفـوا لأهـل الشرك ثم تكبكبـوا وطاروا عليهم بالسيـوف الصـوارم
فما بـرحـوا يعصـونهم بسيـوفهـم على الهام منهـم والأنـوف الرواغـم
لدُنْ غـدوةٍ حتى تَـوَلّـوا تسـوقهـم رجـال تميم ذخْلهـا غير نـائـم
من الراكبين الخيل شعثاً إلى الوغـى بصم القنـا والمرهفـات القـواصم
فتلك مساعي الأكرمين ذوي النـدى تميمـك لا مسعـاة أهـل الألائـم

(الطويل)

ذكر فتح المدائن[1] وما نشأ بينه وبين القادسية من الأمور

والمدائن على مسافة بعض يوم من بغداد، ويشتمل مجموعها على مدائن متصلة مبنية على جانبي دجلة شرقاً وغرباً، ودجلة تشق بينها، ولذلك سميت المدائن. فالمدينة الغربية منها تسمى بهرسير، والمدينة الشرقية تسمى العتيقة، وفيها القصر الأبيض الذي لا يدرى من بناه، ويتصل بهذه المدينة العتيقة المدينة الأخرى التي كانت الملوك تنزلها وفيها الإيوان، إيوان كسرى العجيب الشأن، الشاهد بضخامة ملك بني ساسان، ويقال: إن سابور ذا الأكتاف منهم هو الذي بناه، وهو من أكابر ملوكهم، وقد بنى ببلاد فارس وخراسان مدناً كثيرة ذكرها أبو بكر بن ثابت الخطيب في صدر كتابه في تاريخ بغداد[2]، قال: وكان الإسكندر أجل ملوك الأرض، وقيل: إنه ذو القرنين الذي ذكره الله في كتابه، فقال: ﴿**إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً فأتبع سبباً**﴾ (٨٤ - ٨٥: الكهف)، حتى بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وله في كل إقليم أثر، فبنى بالمغرب الإسكندرية، وبخراسان العليا على ما يقال سمرقند، ومدينة الصغد، وبخراسان السفلى مرو وهراة، وبناحية الجبل جيّ ومدينة أصبهان، وبنى مدناً

---

(١) راجع بشأن ذلك: البلخي. البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٧٧ - ١٧٨، البلاذري. فتوح البلدان ص ٣٢٢ - ٣٢٣، الطبري ج ٣ ص ٦١٩ وما بعدها، ابن الأثير. الكامل ج ٢ ص ٣٥٢ - ٣٦١، ياقوت. معجم البلدان ج ٥ ص ٧٥، النويري. نهاية الأرب ج ١٩ ص ٢١٩ - ٢٢٩، ابن كثير. البداية والنهاية ج ٧ ص ٦١، ٦٤ - ٦٩، الحميري. الروض المعطار ص ٥٢٦ - ٥٢٩.

(٢) الخطيب البغدادي. تاريخ بغداد ج ١ ص ١٢٨.

أخرى[1] كثيرة في نواحي الأرض وأطرافها، وجال الدنيا كلها ووطئها، فلم يختر منها منزلاً سوى المدائن فنزلها. وبنى بها مدينة عظيمة، وجعل عليها سوراً أثره باق، وهي المدينة التي تسمى الرومية في جانب دجلة الشرقي، وأقام بالإسكندرية راغباً عن بقاع الأرض كلها وعن بلاده ووطنه.

وذكر بعض أهل العلم أنها لم تزل مستقرة منذ نزلها حتى مات بها. وحمل منها فدفن بالإسكندرية لمكان والدته، فإنها كانت إذ ذاك باقية هناك.

وقد كان ملوك الفرس لهم حسن التدبير والسياسة والنظر في المالك واختيار المنازل، فكلهم اختار المدائن وما جاورها لصحة تربتها وطيب هوائها واجتماع مصب دجلة والفرات بها.

ويذكر عن الحكماء أنهم كانوا يقولون: إذا أقام الغريب على دجلة من بلاد الموصل تبين في بدنه قوة، وإذا أقام بين دجلة والفرات بأرض بابل تبين في عقله زيادة وفي فطنته ذكاء وحدة، وذلك الذي أورث أهل بغداد الاختصاص بحسن الأخلاق والتفرد بجميل الأوصاف. وقل ما اجتمع اثنان متشاكلان، وكان أحدهما بغدادياً إلا كان هو المقدم في لطف الفطنة، وحسن الحيلة، وحلاوة القول، وسهولة البذل، ووجد ألينهما جانباً، وأجملهما معاشرة.

وكان حكم المدائن إذ كانت عامرة آهلة هذا الحكم. ولم تزل دار مملكة الأكاسرة، ومحل كبار الأساورة، ولهم بها آثار عظيمة، وأبنية قديمة، منها الإيوان الذي لم ير في معناه أحسن منه صنعة، ولا أعجب عملاً، وقد أحسن في وصفه أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري[2] في قصيدة له على روي السين يقال إنه ليس للعرب سينية مثلها، ووصف ـ أيضاً ـ معه القصر الأبيض، وما كان مصوراً فيه من الصور[3] العجيبة والتماثيل البديعة والصنائع الغريبة فأبدع في وصف ذلك وأحسن ما شاء، فقال:

---

(١) في الأصل: «أخر».

(٢) ديوان البحتري ص ١١٥٢ - ١١٦٢.

(٣) في الروض المعطار: الصخور.

حَضَرَتْ رحْلِيَ الهمومُ فوجَّهْـ ... تُ إلى أبيـض المدائـن عَنْسِ
أتسلَّى عن الحظوط وآسَى ... لِمَحَلٍّ مِنْ آل ساسان دَرْسِ
أذكـرتنيهُم[1] الخطوبُ التوالي ... ولقدتُذْكِرُ الخطوبُ وتُنْسِ
وهُمُ خافضون في ظلِّ عالٍ ... مُشْرِفٍ يحسر[2] العيونَ ويُخْسِ
حلل لم تكن كأطلال سعدى ... في قفارٍ من البسابس مُلْسِ
ومساعٍ لولا المحاباةُ مني ... لم تُطِقْها[3] مَسْعاةُ عنْسٍ وعبسِ
لو تراه علمْتَ أن الليالي ... جعَلَتْ فيه مأتماً بعد عُرْسِ
وهو يُنْبِيكَ عن عجائبِ قوم ... لا يُشابُ البيانُ فيهم بلَبْسِ
وإذا[4] ما رأيت صورة أنطاكيـ ... ـة ارتعْتَ بين روم وفُرْسِ
والمنايا مواثلُ وأنو شِرْ ... وانَ يُزْجِي الصفوفَ تحت الدِّرَفْسِ
في اخضرارٍ من اللباس على أصـ ... ـفرَ يختالُ في صبيغَةِ وَرْسِ
وعِراكُ الرجالِ بين يديْهِ ... في خفوتٍ منهمْ وإغماضِ جرْسِ
مِنْ مُشيحٍ يَهْوِي بعامل رمْحٍ ... ومليحٍ من السنان بتُرْسِ
تَصِفُ العينُ أنهم جِدُّ أحيا ... ءٍ لهم بينهم إشارةُ خُرْسِ
يغْتلي فيهمُ ارتيابِيَ حتى ... تتقرّاهمُ يدايَ بلَمْسِ
حلُمُ مُطْبِقُ على الشك عيني ... أم أمانٍ غيَّرْن ظنّي وحدْسِ
وكأن الإيوان من عَجَبِ الصَّنْـ ... ـعَة جَوْبٌ في جَنْبِ أرعَنَ جَلْسِ
يُتَظَنَّى من الكآبة إذْ يبْـ ... ـدو لعيْنَيْ مُصَبِّحٍ أو مُمَسِّ
مُزْعِجاً بالفراق عن أُنْسِ إلْفٍ ... عَزَّ أو مُرْهَقاً بتطليقِ عرسِ
عكستْ حظَّه الليالي وبات الْـ ... ـمشتري فيه وهو كوكبُ نحسِ
فهو يُبْدِي تَجلُّداً وعليه ... كلكل من كلاكل الدهر مُرْسِ
لم يَعِبْه أنْ بُزَّ من بُسُطِ الديبـ ... ـاج واسْتُلَّ من ستور الدِّمَقْسِ

(١) في الأصول: ذكرتنيهم.
(٢) في الأصول: يحبس.
(٣) في الأصول: تطعها.
(٤) في الأصول: فإذا.

مشْمَخِرٌّ تعلو له شرفاتٌ رُفِعَتْ في رءوس رَضْوى وقدْسِ
لابساتٍ من البياض فما تُبْـ ـصِرُ منها إلا جلائلَ برسِ
لست تدري أصنْعُ إنسٍ لجنٍّ صنعوه أم صنعُ جنٍّ لإنْسِ
غير أني أراه يشهد أنْ لم يك بانيه في الملوك بنكْسِ

(الخفيف)

ولا أعلم أحداً من الشعراء وصف القصر الأبيض وهذا الإيوان بأبدع من هذا الوصف ولا أشجى ولا أوقع.

ويروى أن أبا جعفر المنصور ـ رحمه الله ـ لما أفضت إليه الخلافة هم بنقض هذا الإيوان، واستشار في ذلك جلساءه وذوي الرأي عنده من رجاله، فكلهم وافقه على رأيه وأشار عليه بما يطابق هواه إلا خالد بن برمك، فإنه قال له: لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنه آية الإسلام، وإذا رآه من يأتي في مستقبل الزمان علم أن أصحاب مملكته لم يغلبوا عليه إلا بأمر من عند الله وبتأييد أمد به المسلمين الذين قهروهم، وبقاؤه فخر لكم وذكر، ومع هذا فالمؤونة في هدمه أكثر من العائد عليه [1]، فاستغشه المنصور في ذلك، وقال له: يا خالد، أبيت إلا
٢٠٢ ب ميلاً // مع العجمية، ثم أمر بنقض الإيوان، فبلغت النفقة في نقض الشيء اليسير منه مبلغاً عظيماً، فكتب إليه بذلك فعزم على تركه، وقال لخالد بن برمك: قد صرنا إلى رأيك، فقال له خالد: إن رأيي الآن أن تبلغوا به الماء، فقال له المنصور: وكيف ذلك؟ قال: لأني آنف لكم أن يكون أولئك بنوا بناء تعجزون أنتم عن هدمه والهدم أسهل من البناء. ففكر المنصور في قوله فعلم أنه قد صدق، ثم نظر فإذا هدمه يتلف الأموال فأمر بالإمساك عنه. وكان بعد يقول: لقد حبّب إليّ هذا البناء أن لا أبني إلا بناء جليلاً يصعب هدمه.

وقد بشر رسول الله ﷺ أصحابه بالاستيلاء على مملكة فارس ووعدهم بافتتاح المدائن، فضرب يوم الخندق بمعول أخذه صخرة عظيمة اعتاصت عليهم في الخندق، فكسر ثلثها بضربة، وقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله

(١) في الروض المعطار: أكثر من العائد منه.

إني لأبصر قصورها الحمر الساعة»، ثم ضربَ الثانية فكسر ثلثها الثاني وقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض»، ثم ضرب الثالثة فكسر بقية الحجر وقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأرى أبواب صنعاء من مكاني هـذا السـاعة» فصدق الله وعده وأنجز لمحمد ﷺ ما بشرهم به واستأصل بهم مملكة فارس، وفتح عليهم المدائن في زمان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر سيف بن عمر عمن سماه من رجاله [١] وربما زدت في تضاعيفه من حديث غيره، قالوا: عهد عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى سعد حين أمره بالمسير إلى المدائن أن يخلف النساء والعيال بالعتيق، ويجعل معهم كثفا [٢] من الجند ففعل، وعهد إليه أن يشركهم في كل مغنم ما داموا يخلفون المسلمين في عيالاتهم قالوا: وكان مقام سعد بالقادسية بعد الفتح شهرين في مكاتبة عمر ـ رضي الله عنه ـ في العمل بما ينبغي، فقدم سعد زهرة بن جوية نحو اللسان، وهو لسان البحر الذي أدلعه في الريف، وعليه الكوفة اليوم، وكانت عليه قبل اليوم الحيرة، وكان النخيرجان معسكراً به فأرْفضَّ ولم يثبت حين سمع بمسيرهم إليه، ولحق بأصحابه. ثم أمر سعد عبد الله بن المعتم أن يتبع زهرة وأمر شرحبيل بن السمط أن يتبع عبد الله ثم أتبعهم هاشم بن عتبة وولاه خلافته التي كان عليها قبل خالد ابن عرفطة، وجعل خالداً على الساقة، ثم ارتحل سعد يتبعهم بعد فراغه من أمر القادسية كله، وكل المسلمين [٣] فارس مؤد قد نقل الله ـ عز وجل ـ إليهم ما كان في عسكر فارس من سلاح وكراع ومال، فسار زهرة حتى ينزل الكوفة ـ والكوفة كلها حصباء ورملة حمراء مختلطتين ـ ثم نزل عليه عبد الله وشرحبيل، فارتحل زهرة عند ذلك نحو المدائن، فلما انتهى إلى برس لقيه بها بصبهري في جمع فناوشهم زهرة فهزمهم، وهربوا إلى بابل وبها فالة القادسية

(١) الطبري ج٣ ص ٦١٨ وما بعدها.

(٢) الكثف: الجماعة.

(٣) في الأصول: وكان كل المسلمين.

وبقايا رؤسائهم، وكان زهرة قد طعن بصبهري يوم برس فمات من طعنته بعدما لحق ببابل، وأقبل عند ذلك بسطام دهقان برس فاعتقد من زهرة وعقد له الجسور، وأتاه بخبر الذين اجتمعوا ببابل. وقدموا على أنفسهم الفيرزان، فكتب بذلك زهرة إلى سعد فأتاه الخبر وقد نزل بالكوفة على من بها مع هاشم بن عتبة، فقدمهم ثم أتبعهم حتى نزل برس فقدم منها زهرة وأتبعه الآخرين، ثم أتبعهم حتى نزلوا على الفيرزان ببابل فاقتتلوا فهزموا المشركين في أسرع من لفت الرداء فانطلقوا على وجهين، ولم تكن لهم همة إلا الإفتراق، فخرج الهرمزان نحو الأهواز، وخرج الفيرزان معه حتى طلع على نهاوند، وبها كنوز كسرى، فأخذها وأكل الماهين[1]، وصمد النخيرجان ومهران الرازي للمدائن، حتى عبرا بهرسير إلى جانب دجلة الآخر، ثم قطعا الجسر وخلفا شهريار دهقانا من دهاقين الباب في جمع بكوثى، فقدم سعد - زهرة بن جوية ثم أتبعه الجنود، فساروا إليه، فلما التقى بأطراف كوثى جيش شهريار وأوائل خيل المسلمين، خرج شهريار فنادى: ألا رجل، ألا فارس منكم شديد عظيم يخرج (إليّ) حتى أنكلكم به، فقال زهرة وكايده: لقد أردت أن أبارزك، فأما إذ سمعت قولك، فإني لا أخرج إليك إلا عبداً، فإن أقمت له قتلك وإن فررت منه فإنما فررت من عبد، ثم أمر أبا نباتة نائلاً الأعوجي[2] وكان من شجعان بني تميم، فخرج إليه، مع كل واحد منهما الرمح، وكلاهما وثيق الخلق، إلا أن شهريار مثل الجمل، فلما رأى نائلاً ألقى الرمح ليعتنقه، وألقى نائل الرمح ليعتنقه، وانتضيا سيفيهما فاجتلدا، ثم اعتنقا فخرا عن دابتيهما، فوقع شهريار على نائل كأنه بيت، فضعضعه بفخذه، وأخذ الخنجر وأراد حل أزرار درعه ليذبحه، فوقعت إبهامه في فم نائل، فمضغها فحطم عظمها وأحس منه فتوراً، فثاوره فجلد به الأرض، ثم قعد على صدره، وأخذ خنجره فكشف درعه عن بطنه، فطعن في بطنه وجنبه حتى مات، فأخذ فرسه وسواريه وسلبه، وانكشف

---

(١) الماهين: الدينور ونهاوند، إحداهما ماه البصري والأخرى ماه الكوفة - ياقوت معجم البلدان.

(٢) كذا في الأصول، وفي الطبري والروض المعطار: نائل بن جعثم الأعرجي.

أصحابه، فذهبوا في البلاد، وأقام زهرة بكوثى حتى قدم عليه سعد، فغنم سعد نائلاً ذلك السلب كله، وقال له: عزمت عليك يا نائل إلا لبست سواريه وقباءه ودرعه وركبت دابته، فانطلق فتدرع سلبه ثم أتاه في سلاحه على دابته، فقال له سعد: اخلع سواريك إلا أن ترى حرباً فالبسهما، وكان أول رجل من المسلمين سور بالعراق.

قالوا: فأقام سعد بكوثى أياماً وأتى المكان الذي حبس فيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ بكوثى، والبيت الذي كان فيه محبوساً فنظر إليه وصلى على رسول الله وعلى إبراهيم وعلى أنبياء الله ـ صلوات الله على جميعهم ـ وقرأ: ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾ (١٤٠: آل عمران) ثم إن سعداً قدم زهرة إلى بهرسير فمضى من كوثى في المقدمات وتبعته المجنبات، وخرج هاشم، وخرج سعد في أثره، وقد فل زهرة كتيبة كسرى التي كانت تدعى بوران حول المظلم، مظلم ساباط، وكان رجالها يحلفون كل يوم بالله لا يزول ملك فارس ما عشنا. ولما انتهى هاشم إلى مظلم ساباط وقف لسعد حتى لحق به، فلما نزله قال: ﴿**أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال**﴾ (٤٤: إبراهيم)، ووافق ذلك رجوع المقرط ـ أسد كان كسرى قد ألفه وتخيره من أسود المظلم ـ فبادر المقرط الناس حتى انتهى إليهم سعد، فنزل إليه هاشم فقتله، فقبل سعد رأسه، وقبل هاشم // قدميه. ٢٠٣ أ

وقال المدائني: فنظر هاشم إلى الناس وقد أحجموا ووقفوا فقال: ما لهم؟ فقيل له: أسد قد منعهم، ففرج هاشم الناس وقصد له فثاوره الأسد وضربه هاشم فقطع موصله[1] كأنما اجتلم[2] به غصناً، ووقعت الضربة في خاصرته، وقال بعضهم: على هامته، فقتله.

قالوا: وقدم سعد هاشماً إلى بهرسير ثم ارتحل سعد فنزل على الناس بها وجعل

---

(١) موصله: ما بين عجزه وفخذه.

(٢) جلمت الشيء: قطعته.

المسلمون المتقدمون إليها كلما قدمت عليهم خيل وقفوا ثم كبروا حتى نجز آخر من كان مع سعد، ولما نزل سعد على بهرسير بث الخيول، فأغار على ما بين دجلة إلى[1] من له عهد من أهل الفرات، فأصابوا مائة ألف فلاح، فقال شيرزاذ، دهقان ساباط - وكان قد تلقى زهرة في طريقه بالصلح وتأدية الجزية - فقال لسعد عندما أتى بالفلاحين فخندق لهم: إنك لا تصنع بهؤلاء شيئاً، إنما هؤلاء علوج لأهل فارس فدعهم إليّ حتى يفرق لك الرأي[2] فيهم، فكتب عليه بأسمائهم، ودفعهم إليه، فقال لهم شيرزاذ: انصرفوا إلى قراكم. وكتب سعد إلى عمر رحمهما الله: إنا وردنا بهرسير بعد الذي لقينا بين القادسية وبهرسير، فلم يأتنا أحد لقتال، فبثت الخيول فجمعت الفلاحين من القرى والآجام، فرأيك. فأجابه عمر: إن من أتاكم من الفلاحين إذا كانوا مقيمين لم يعينوا عليكم فهو أمانهم، ومن لم يأتكم ولم يهرب فهو أمانهم، ومن هرب فأدركتموه فشأنكم به.

فلما جاء سعداً الكتاب خلى عنهم. وراسله الدهاقين، فدعاهم إلى الإسلام أو الجزاء ولهم الذمة والمنعة، فرضوا بالجزية والمنعة، ولم يبق في غربي دجلة إلى أرض العرب سوادي إلا أمن واغتبط بملك الإسلام واستقبلوا الخراج.

وأقام سعد بالناس على بهرسير شهرين يرمونهم بالمجانيق ويدبون إليهم بالدبابات[3]، ويقاتلونهم بكل عدة.

قال بعضهم: وكان سعد عندما نزلها وعليها خنادقها وحرسها وعدة الحرب استصنع شيرزاذ المجانيق[4] فنصب على أهلها عشرين منجنيقاً فشغلهم بها،

---

(١) «الى» مكررة في ط.

(٢) أي: يبدو ويظهر.

(٣) في اللسان: الدبابة آلة تتخذ من جلود وخشب، يدخل فيها الرجال ويقربونها من الحصن المحاصر لينقبوه وتقيهم ما يرمون به من فوقهم.

(٤) المجانيق: المقذاف الذي ترمى به الحجارة.

وكان الأعاجم والعرب مطيفين[1] بهم، وربما خرجوا يمشون على المسنيات[2] المشرفة على دجلة في جماعتهم وعدتهم لقتال المسلمين، فلا يقومون لهم، فكان آخر ما خرجوا في رجالة وناشبة، وتجردوا للحرب، وتتابعوا على الصبر، فقاتلهم المسلمون فكذبوا وتوالوا[3]، وكانت على زهرة بن الجوية يومئذ درع مفصومة، فقيل له: لو أمرت بهذا الفصم فسرد فقال: ولم؟ فقالوا: إنا نخاف عليك منه، فقال: إني لكريم على الله، أن ترك سهم فارس الجند كلهم ثم أتاني من هذا الفصم حتى يثبت فيّ، فكان أول رجل من المسلمين أصيب يومئذ بنشابة، فثبتت فيه من ذلك الفصم، فقال بعضهم: إنتزعوها عنه، فقال: دعوني، فإن نفسي معي ما دامت فيّ، لعلي أن أصيب فيهم بطعنة أو بضربة أو خطوة، فمضى نحو العدو، فضرب بسيفه شهربراز من أهل اصطخر، فقتله، وأحيط به فقتل وانكشفوا. وسيأتي بعد من أخبار زهرة بن الجوية وآثاره في الوقائع التي لا شك في كونها بعد هذه ما يوهن خبر قتله المذكور آنفاً، والأولى بحسب هذا إن شاء الله أن يكون غير زهرة هو صاحب هذه القصة. إذ قد ذكر المدائني أن هاشم بن عتبة قال لزهير بن سليم الأزدي - قال: ويقال لغيره، ورأى في درعه فصماً - إني لا آمن أن تصيبك نشابة في هذا الموضع، فلو سردته قال، لئن تركت نشابة الفارسي جسدي كله إلا هذا الموضع إني إذاً لسعيد، ثم ذكر نحو ما تقدم، فالله أعلم.

وقال أنيس بن الحليس[4]: بينا نحن محاصرون بهرسير بعد زحفهم وهزيمتهم، أشرف علينا رسول فقال: إن الملك يقول لكم: هل لكم إلى المصالحة على أن لنا ما يلينا من دجلة وجبلها، ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم؟ أما شبعتم لا أشبع الله بطونكم؟ فبدر الناس أبو مفزر[5] الأسود بن قطبة، وقد أنطقه

(١) في الأصول: مطيفون.

(٢) المنساة: ضفيرة تقام على النهر لترد الماء.

(٣) كذا في الأصول، ولعلها: وتولوا.

(٤) الطبري ج ٤ ص ٧.

(٥) في الأصول: مفور.

الله ـ عز وجل ـ بما لا يدري ما هـو ولا نحن ، فـأجـابـه بـالفـارسيـة ولا يعـرف منها شيئاً هو ولا نحن ، فرجع الرجل ورأيناهم يقطعون الى المدائن ، فقلنا : يا أبا مفزر ما قلت له ؟ قال : لا والذي بعث محمداً بالحق ما أدري ما هـو ، وإلا أني علتني سكينة ، وأرجو أن أكون أنطقت بالذي هو خير ، وانتاب[1] الناس يسألونه حتى سمع بذلك سعد ، فجاءنا فقال : يا أبا مفزر ما قلت له ؟ فوالله إنهم لهراب ، فحدثه بمثل حديثه إيانا ، فنادى في الناس ، ثم نهد بهم ، فما ظهر على المدينة أحد ولا خرج إلينا إلا رجل نادى بالأمان فأمناه ، فقال : ما بقي أحد فيها فما يمنعكم ، فتسورها الرجال ، وافتتحناها ، فما وجدنا فيها شيئاً ولا أحداً ، إلا أسارى أسرناهم خارجاً منها ، فسألناهم وذلك الرجل : لأي شيء هربوا ؟ فقال : بعث إليكم الملك يعرض عليكم الصلح ، فأجبتموه أنه لا يكون بيننا وبينكم صلح أبداً حتى نأكل عسل أفريذون[2] بأترج كوثى ، فقال الملك : وا ويلة ألا أرى الملائكة تكلم على ألسنتهم ، ترد علينا وتجيبنا عن العرب ، ووالله لئن لم يكن كذلك ، ما هو إلا شيء ألقي عليّ في هذا الرجل لننتهي ، فأرزوا إلى المدينة القصوى .

قالوا : ولما دخل سعد والمسلمون بهرسير أمر بها فثلمت وتحول العسكر إليها ولاح لهم وذلك في جوف الليل القصر الأبيض ، فقال ضرار بن الخطاب : الله أكبر ، أبيض كسرى هذا ما وعد الله رسوله ، وتابعوا التكبير حتى أصبحوا .

وقال القعقاع بن عمرو :

ألم يـأتيـكَ والأخبـار تَنْمِـي ... وتصعـد في الململمَّعـة الفيـافِ
تـوافينـا ومَنْـزِلُنـا جميعـاً ... أمـام الخيـل بـالسُّمْـرِ الثقـاف
قسمنـا أرضَهُـمْ قسمينِ حتى ... نـزلنـا مِثْـلَ منـزلهم كفـافِ
دعـاء مـا دعـونـا آل كسرى ... وقـد هَـمَّ المرازبُ بـانصراف
ومـا أنْ طبّهـم جبْـنٌ ولكـنْ ... رمينـاهـم بـداعيـةٍ ذعاف[3]

(١) في الأصول : وتتابنا .

(٢) في الطبري : أفريذين ، وفي الروض المعطار : أفرندين : موضع بالعراق بناحية المدائن .

(٣) ذعاف : سم ساعة .

فتحنـــا بهرسير بقـــول حـــقٍّ أتـانـا ليس مـن سَجْـعِ القـــوافي
وقـد طـارت قلـوبُ القـوم منـا ومَلّوا الضرْبَ بالبيضِ الخفـافِ [1]
(الوافر)

ولما نزل سعد بهرسير، وهي المدينة الدنيا من المدائن، طلب السفن ليعبر بالناس إلى المدينة القصوى منها، فلم يقدر على شيء، ووجدهم قد ضموا السفن، فأقاموا أياماً يريدونه على العبور فيمنعه الإبقاء على المسلمين، ودجلة قد طما ماؤها يتدفق جانباها، فيروى أنه بينا سعد والمسلمون كذلك إذ سمعوا ليلاً قائلاً يقول: يا معشر المسلمين، هذه المدائن قد غلقت أبوابها وغيبت السفن
٢٠٣ ب // وقطعت الجسور فما تنتظرون، فربكم الذي يحملكم في البر هو الذي يحملكم في البحر، فندب سعد الناس إلى العبور، فأتاه قوم من العجم ممن قد اعتقد منه ذمة فقالوا: ندلك على موضع أقل غمراً من هذا، فدلوه على ديلمايا [2].

وقيل [3]: إن سعداً رأى رؤيا كأن خيول المسلمين اقتحمت دجلة فعبرتها، وقد أقبلت من المد بأمر عظيم، فعزم على تأويل رؤياه على العبور، وفي سنة جَوْدُ صيِّبها متتابع، فجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليهم معه، وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا، فيناوشونكم في سفنهم، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه، فقد كفاكموهم أهل الأيام، واعطوا ثغورهم، وأفنوا ذادتهم، وقد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصدكم الدنيا: ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم، فقالوا جميعاً: عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل، فقال: من يبدأ ويحمي لنا الفراض حتى يتلاحق به الناس لكيلا يمنعوهم الخروج؟ فانتدب له عاصم بن عمرو أول الناس، وانتدب معه ستمائة من أهل النجدات،

---

(١) البيتان في الروض المعطار ص ٥٢٧ ـ ٥٢٨.
(٢) موضع بالعراق على دجلة، والخبر والتعريف في الروض المعطار ص ٢٤٩.
(٣) الطبري ج ٤ ص ٩ ـ ١٠.

واستعمل عليهم عاصماً، فسار فيهم حتى وقف على شاطيء دجلة فقال: من ينتدب معي لنمنع الفراض من عدوكم حتى تعبروا؟ فانتدب له ستون فجعلهم نصفين على خيول إناث وذكور، ليكون أسلس لعوم الخيل، ثم اقتحموا دجلة واقتحم بقية الستمائة [1] على أثرهم وقد شدوا على خيولهم حزمها وألبابها وقرطوها أعنتها وشدوا عليهم أسلحتهم، فلما رأتهم الأعاجم [2] وما صنعوا أعدوا للخيل التي تقدمت خيلاً مثلها، فاقتحموا إليهم دجلة، فلقوا عاصماً في السرعان، وقد دنا من الفراض، فقال: الرماح الرماح أشرعوها وتوخوا العيون، فالتقوا، فاطَّعنوا في الماء، وتوخى المسلمون عيونهم، فتولوا نحو البر والمسلمون يشمسون [3] بهم خيلهم حتى ما يملكون منها شيئاً، فلحقوا بهم في البر فقتلوا عامتهم، ونجا [4] باقيهم عوراناً [5]. ونزلت بالمسلمين خيولهم حتى انتقضت على الفراض، وتلاحق باقي الستمائة [6] بأوائلهم الستين غير متعتعين.

ويروى أن أولئك الستين خرجوا يومئذ من دجلة منقطعين زمراً، الزمرة الأولى تسعة فيهم عاصم، والثانية ثمانية عشر، والثالثة ثلاثة وثلاثون، ويومئذ سميت كتيبة عاصم هذه كتيبة الأهوال، لما رأى منهم في الماء والفراض.

ولما رأى سعد عاصماً على الفراض وقد منعها، أذن للناس في الاقتحام، وقال: قولوا نستعين بالله، ونتوكل على الله، حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وتلاحق عظم الجند فركبوا اللجة، واعترضوا دجلة وإنها لمسودة تزخر، لها حدب يقذف بالزبد، فكان أول من اقتحم سعد ابن أبي وقاص، ثم اقتحم الناس، وقد قرنوا أنثى بكل حصان يتحدثون على ظهورها كما يتحدثون على الأرض، وطبقوا دجلة خيلاً ودواب ورجالاً حتى ما

---

(١) في الأصول: ست المائة.

(٢) في الأصول: العجم.

(٣) شمس وشمص الفرس: نخسه ليتحرك.

(٤) في الأصول: ولجا.

(٥) عوراناً: صاغرين أذلاء، وفي الأصول: عوران.

(٦) في الأصول: ست المائة.

يرى الماء من الشاطىء أحد، وسلمان الفارسي يساير سعداً يحدثه، والماء يطفو بهم، والخيل تعوم، فإذا أعيا فرس استوى قائماً يستريح كأنه على الأرض، فقال قيس بن أبي حازم: إني لأسير في دجلة في أكثر مائها إذ نظرت إلى فارس وفرسه كأنه واقف ما يبلغ الماء حزامه.

وقال بعضهم: لم يكن بالمدائن أمر أعجب من ذلك، فقال سعد: ﴿**ذلك تقدير العزيز العليم**﴾ (١٤ : فصلت).

وفي رواية أنه قال لسلمان وهو يسايره في الماء: والله لينصرن الله وليه، وليظهرن الله دينه، وليهزمن عدوه، إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات، فقال سلمان: يا أبا إسحاق، الإسلام جديد، ذلل الله لكم البحر كما فرقه وذلله لبني إسرائيل، والذي نفس سلمان بيده، لتخرجن منه أفواجاً كما دخلتموه أفواجاً، فخرجوا منه كما قال سلمان، لم يفقدوا شيئاً، ولم يغرق فيه أحد.

قال أبو عثمان النهدي [١] : إلا رجلاً من بارق يدعى غرقدة، زل عن ظهر فرس له شقراء، كأني أنظر إليها عرياً تنفض عرفها، والغريق طاف، فثنى القعقاع بن عمرو عنان فرسه إليه، فجره حتى عبر، فقال البارقي: وكان من أشد الناس: أعجزْت الأخوات أن يلدن مثلك يا قعقاع وكانت للقعقاع فيهم خؤولة [٢].

وقال بعض رجال سيف بن عمر [٣] : إنه لم يذهب للمسلمين يومئذ في الماء شيء إلا قدح كانت علاقته رثة، فانقطعت، فذهب به الماء، فقال الرجل [٤]

(١) الطبري ج ٤ ص ١٠.

(٢) في الأصول: خولة.

(٣) الطبري ج ٤ ص ١٢.

(٤) هو: عامر بن مالك.

الذي كان يعاوم صاحب القدح[1] معيراً له: أصابه القدر فطاح، فقال: إني لأرجو والله أن لا يسلبني الله قدحي من بين أهل العسكر، وإذا رجل من المسلمين ممن تقدم ليحمي الفراض قد سفل حتى طلعت عليه أوائل الناس، وقد ضربت الرياح والأمواج القدح حتى وقع إلى الشاطىء، فتناوله برمحه، فجاء به إلى العسكر فعرّفه، فعرفه صاحبه فأخذه، وقال لصاحبه الذي كان يعاومه: ألم أقل لك؟ فيروى أن عمر ـ رحمه الله ـ بلغه ما كان قال له صاحبه أولاً[2]، فأنكره وأرسل إليه: أنت القائل أصابه القدر فطاح؟ تفجع مسلماً!

وقال الأسود بن قطبة أبو مفزر يرتجز يومئذ:

يا دجلَ إنَّ الله قد أشجاكِ ... هذي جنود الله في قراكِ
فلتشكري الذي بنا حباكِ ... ولا تَرُوعِي مسلماً أتاكِ

(الرجز)

وقال عاصم بن عمرو في ذلك:

ألا هل أتاها أنَّ دجلةَ ذُلِّلَتْ ... على ساعة فيها القلوبَ تُقلَّبُ
ترانا عليها حين عبَّ عُبابها ... تباري إذا جاشت بموج تصوب
نفينا بها كسرى عن الدار فانتوى ... لِأبْعَدِ ما يَنْوِي الركيكُ المرقَّبُ

(الطويل)

قال: وفجأ المسلمون أهل فارس من هذا العبور بأمر لم يكن في حسبانهم، فأجهضوهم وأعجلوهم عن حمل أموالهم، وخرجوا هراباً، وقد كان يزدجرد خرج قبلهم إلى حلوان فنزلها بعد أن قدم إليها عياله حين أُخذت بهرسير وخرجوا معهم بما قدروا عليه من حر متاعهم وخفيفه، وبالنساء والذراري وما قدروا عليه من بيت المال، وتركوا في الخزائن من الثياب والمتاع والآنية والألطاف والأدهان ما لا يدري ما قيمته، وخلفوا[3] ما كانوا أعدوا للحصار

(١) هو: مالك بن عامر ـ حليف لقريش من عنزة.

(٢) في الأصول: أول.

(٣) في الأصول: وخلوا.

من البقر والغنم وكل الأطعمة والأشربة، فدخل المسلمون المدائن واستولوا على ذلك كله، فكان أول من دخلها كتيبة الأهوال، ثم تبعتها الخرساء، كتيبة سعد، فأخذوا في سككها لا يلقون أحداً ولا يحسونه إلا ماكان في القصر الأبيض، فأحاطوا بهم ودعوهم فاستجابوا لسعد على الجزاء والذمة، ويرجع إليها أهل المدائن على مثل عهدهم، ليس في ذلك ما كان لآل كسرى ومن خرج معهم. ونزل سعد القصر الأبيض وسرح زهرة في آثار القوم إلى النهروان فانتهى إليها، وسرح مقدار ذلك في طلبهم من كل وجه.

٢٠٤ أ وقال حبيب بن صبهان [١]: لما عبر / / المسلمون دجلة، جعل أهل فارس وهم ينظرون إليهم يعبرون يقول بعضهم لبعض بالفارسية ما تفسيره بالعربية: إنكم والله ما تقاتلون الإنس وإنما تقاتلون الجن.

قالوا: وما زالت حماة أهل فارس يقاتلون على ماء الفراض يمنعون المسلمين من العبور، حتى ناداهم مناد: علام تقتلون أنفسكم؟ فوالله ما في المدائن من أحد، فانهزموا واقتحمتها الخيول عليهم، ولما دخلها سعد فرأى خلوتها وانتهى إلى إيوان كسرى أقبل يقرأ ﴿**كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم. ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين**﴾ [٢٥ ـ ٢٨: الدخان)، وصلى فيه صلاة الفتح ـ ولا تصلي جماعة ـ فصلى ثماني ركعات لا يفصل بينهن، واتخذ الإيوان مسجداً، وفيه تماثيل الجص رجال وخيل، فلم يمتنع هو ولا المسلمون ـ يعني من الصلاة فيه ـ لأجلها، وتركوها على حالها، وأتم سعد الصلاة يوم دخلها لأنه أراد المقام بها. وبالمدائن كانت أول جمعة جمعت بالعراق في صفر سنة ست عشرة. ووكل سعد بالأقباض [٢] من يجمعها [٣]، وأمره بجمع ما في القصر والإيوان ومنازل كسرى وسائر الدور، وإحصاء ما يأتيه به

---

(١) الطبري ج ٤ ص ١٤.

(٢) الأقباض: جمع قبض، بفتحتين، وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن يقسم.

(٣) هو: عمرو بن عمرو بن مقرن.

الطلب، وقد كان أهل المدائن تأهبوا عند المدائن للغارة، ثم طاروا في كل وجه، فما أفلت أحد منهم بشيء ولا بخيط، ألح عليهم الطلب فتنفذوا ما في أيديهم، ورجعوا بما أصابوا من الأقباض، فضموها إلى ما قد جمع.

وقال حبيب بن صُهبان: دخلنا المدائن، فأتينا على قباب تركية مملوءة سلالاً مختمة بالرصاص، فما حسبناها إلا طعاماً، فإذا هي آنية الذهب والفضة وقسمت بعد بين الناس.

قال: ولقد رأيت الرجل يطوف ويقول: من معه بيضاء بصفراء؟ وأتينا على كافور كثير فما حسبناه إلا ملحاً، فجعلنا نعجن به حتى وجدنا مرارته في الخبز.

وعن الرفيل بن ميسور [١] قال: خرج زهرة - يعني ابن الجوية - في المقدمة يتبعهم حتى انتهى إلى جسر النهروان وهم عليه، فازدحموا فوقع [٢] بغل في الماء وعجلوا عنه ثم كلبوا عليه، فقال زهرة: أقسم بالله إن لهذا البغل لشأناً، ما كلب القوم عليه ولا صبروا للسيوف بهذا الموقف الضنك بعدما أرادوا تركه إلا لشيء، فترجل حتى إذا أزاحهم أمر أصحابه فاحتملوا البغل بما عليه حتى أدوه إلى الأقباض ما يدرون ما عليه، وإذا الذي عليه حلية كسرى، ثيابه وخرزاته ووشاحه ودرعه التي كان فيها الجوهر، وكان يجلس فيها للمباهاة.

وقال الكلج الضبي: كنت فيمن خرج للطلب، فإذا أنا ببغالين قد ذبا الخيل عنهما بالنشاب، فما بقي معهما غير نشابتين، فالتظظت بهما، فاجتمعا، وقال أحدهما لصاحبه: ارمه وأحميك، أو أرميه وتحميني، فحمى كل واحد منهما صاحبه حتى رميا بهما. ثم إني حملت عليهما فقتلتهما، وجئت بالبغلين ما أدري ما عليهما، حتى بلغتهما صاحب الأقباض، فإذا هو يكتب ما يأتيه به الرجال وما كان في الخزائن والدور، فقال: على رسلك حتى ننظر ما معك فحططت عنهما، فإذا سفطان على أحد البغلين فيهما تاج كسرى مفسخاً - وكان لا تحمله إلا

---

(١) الطبري ج ٤ ص ١٧.

(٢) في الأصول: فيقع.

أسطوانتان ـ وفيها الجوهر، وعلى الآخر سفطان فيهما ثياب كسرى التي كان يلبس من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر وغير الديباج منسوجاً منظوماً.

قالوا [1] : وخرج القعقاع يومئذ في الطلب، فلحق بفارسي يحمي الناس، فاقتتلا فقتله القعقاع، وإذا معه جنيبة عليها عيبتان وغلافان في أحدهما خمسة أسياف وفي الآخر ستة، وفي العيبتين أدراع، درع كسرى ومغافره وساقاه وساعداه، ودرع هرقل، ودرع خاقان، ودرع النعمان، ودرع داهر، ودرع سياوخش، ودرع بهرام شوبين [2]، وكانوا استلبوا ما لم يرثوا منها، مما استلبوا أيام غزاتهم خاقان وهرقل وداهر، وأما النعمان وبهرام فحين هربا وخالفا كسرى. وفي أحد الغلافين سيف كسرى وهرمز وكسوتي قباذ وفيروز، وفي الآخر سيوف سائر من نسبت إليه دروع من تلك الدروع، فجاء القعقاع بذلك كله إلى سعد، فقال له: اختر أحد هذه الأسياف، فاختار سيف هرقل، وأعطاه (إياه) معه درع بهرام، ونفل سعد سائر ذلك في الخرساء ـ كتيبته ـ إلا سيف كسرى والنعمان، فإنه بعث بهما إلى عمر في الأخماس مع حلى كسرى وتاجه وثيابه، ليرى ذلك المسلمون، ولتسمع به العرب، لمعرفتهم بها.

وقال عصمة الضبي [3] : خرجت فيمن خرج يطلب، فأخذت طريقاً مسلوكاً فإذا عليه حَمّار، فلما رآني حث حماره فلحق آخر قدامه، فمالا، وحثا حماريهما، فانتهينا إلى جدول قد كسر جسره، فثبتا حتى أتيتهما، ثم تفرقا، ورماني أحدهما فألظظت [4] به حتى قتلته، وأفلت الآخر، فرجعت إلى الحمارين، فأتيت بهما صاحب الأقباض، فنظر فيما على أحدهما، فإذا سفطان في أحدهما فرس من ذهب مسروج بسرج من فضة على ثغره ولببه الزمرد والياقوت منظومين على

---

(1) الطبري ج ٤ ص ١٨.

(2) في الأصول: بهرام شوش، والتصويب من الطبري.

(3) الطبري ج ٤ ص ١٨ ـ ١٩.

(4) يريد: أتبعته.

الفضة، ولجام كذلك، وفارس من فضة مكلل بالجوهر، وإذا في الآخر ناقة من فضة عليها شليل [1] من ذهب، وبطان من ذهب وزمام من ذهب، وكل ذلك منظوم بالياقوت، وإذا عليها رجل من ذهب مكلل بالجوهر، كان كسرى يضعهما إلى أسطوانتي التاج.

وعن أبي عبيدة العنبري [2] قال: لما هبط المسلمون بالمدائن، وجمعوا الأقباض، أقبل رجل بحق فدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال هو والذين معه، لما نظروا إلى ما فيه: ما رأينا مثل هذا قط، ثم قالوا له: هل أخذت منه شيئاً؟ فقال: أما والله لولا الله ما أتيتكم به، فعرفوا أن للرجل شأناً، فقالوا: من أنت؟ فقال: لا والله لا أخبركم لتحمدوني، ولا غيركم ليقرظوني، ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه. فأتبعوه رجلاً حتى أتى إلى أصحابه، فسأل عنه، فإذا هو عامر ابن عبد قيس.

ويروى أن سعداً ـ رحمه الله ـ قال حين رأى ما رأى من ورع الناس وكونهم لم يتعلق على أحد منهم بغلول فيما جمعوا من الغنائم: والله إن هذا الجيش لأهل أمانة، ولولا ما سبق لأهل بدر ما فضلتهم عليهم، ولقد نالت الدنيا من رجال من أهل بدر حين أصابوها.

وقال جابر بن عبد الله: والله الذي لا إله إلا هو، ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية يريد الدنيا مع الآخرة.

قال بعضهم، ولقد كانوا يخافون قيس بن مكشوح، وعمرو بن معدي كرب، وطليحة بن خويلد، وأشباههم على الغلول، فما تعلق على أحد منه بشيء يكرهونه ولا أرادوا الدنيا.

ولما قدم على عمر ـ رحمه الله ـ بسيف كسرى ومنطقته وزبرجه، قال: إن

(١) الشليل: مسح من صوف أو شعر يجعل على عجز البعير.
(٢) الطبري ج ٤ ص ١٩.

أقواماً أدوا هذا لذوو أمانة. فقال علي -رضي الله عنه-: إنك عففت فعفَّت الرعية.

قالوا: ولما اجتمعت الغنائم، وتراجع الطلب // قسم سعد بين الناس فيئهم بعدما ٢٠٤ ب خمسه، فأصاب الفارس اثنا عشر ألفاً، وكلهم كان فارساً ليس فيهم راجل، وكانت الجنائب في المدائن كثيرة، ويقال: كانوا بين أهل الأيام وأهل القادسية الذين لم يشهدوا الأيام، وبين من لحق بهم في ثلاث من غير أهل الأيام بالقادسية، وبين أهل الروادف ستين ألفاً، وقسم سعد دور المدائن بين الناس، وأوطنوها، وكان الذي ولي القبض عمرو بن عمرو المزني، والذي ولي القسم سلمان بن ربيعة.

وقال الشعبي[١]: بعث سعد إلى العيالات فأنزلهم الدور لما قسمها وفيها المرافق، فأقاموا بالمدائن حتى فرغوا من جلولاء وحلوان وتكريت والموصل، ثم تحولوا إلى الكوفة بعد.

قالوا[٢]: وجمع سعد الخمس، وأدخل فيه كل شيء أراد أن يعجب به عمر، من ثياب كسرى وحليه وسيفه ونحو ذلك، ونفل من الأخماس في أهل البلاء، ولم يجهدها، وفضل بعد القسم بين الناس، وإخراج الخمس، القطف فلم يعتدل، فقال للمسلمين: هل لكم في أن تطيب أنفسنا عن أربعة أخماسه، ونبعث به إلى عمر فيضعه حيث يرى، فإنا لا نراه يتفق: وهو بيننا قليل، و[هو] يقع من أهل المدينة موقعاً؟ فقالوا: نعم، فبعث به على ذلك الوجه - والقطف هو بهار كسرى ثقل عليهم أن يذهبوا به، فتركوه بالمدائن، فأصابه المسلمون، وكان بساطاً واحداً ستين ذراعاً في ستين ذراعاً فيه طرز[٣] كالسور وفصوص كالأنهار، وفي خلال ذلك كالدير، في حافاته كالأرض المزروعة والأرض

(١) الطبري ج ٤ ص ٢١.

(٢) نفسه.

(٣) في الطبري: فيه طرق كالصور..

المبقلة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب ونواره بالذهب والفضة وأشباه ذلك. وكانوا يعدونه للشتاء إذا ذهبت الرياحين، فكان إذا أرادوا الشراب شربوا عليه، فكأنهم في رياض، وكانت العرب تسميه القطف ـ فبعث به سعد مع الأخماس إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ مع بشير بن الخصاصية، فلما قدم عليه نفل من الخمس أناساً، وقال: إن الأخماس ينفل منها من شهدها ومن غلب من أهل البلاء فيما بين الخمسين، ولا أرى القوم جهدوا الخمس، ثم قسم الخمس في مواضعه، ثم قال: أشيروا عليّ في هذا القطف. فأجمع ملؤهم على أن قالوا: قد جعلوا ذلك لك، فراء رأيك، إلا ما كان من علي ـ رضي الله عنه ـ فإنه قال: يا أمير المؤمنين، الأمر كما قالوا، ولم يبق إلا التروية، إنك إن تقبله اليوم على هذا لم تعدم في غد من يستحق به ما ليس له، قال: صدقتني ونصحتني.

وفي رواية أن عمر ـ رضي الله عنه ـ استشارهم فيه، فمن بين مشير بقبضه، وآخر مفوض إليه، وآخر مرفق، فقام علي ـ رضي الله عنه ـ حين رأى عمر تأنى حتى انتهى إليه، فقال: لم تجعل علمك جهلاً، ويقينك شكاً إنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت، أو لبست فأبليت، أو أكلت فأفنيت. قال: صدقتني، فقطعه فقسمه بين الناس، فأصاب علياً قطعة منه، فباعها بعشرين ألفاً، وما هي بأجود تلك القطع.

وذكر المدائني أن عمر حين قال له علي: إن قبلته لم تعدم بعدك من يستحق مأثماً بك، صرفه إلى سعد، وكتب إليه: أن بعه واقسم ثمنه على من أفاءه الله عليهم.

قال رجال سيف [1]: ولما أُتي عمر بحلى كسرى وزيه في المباهاة، وفي غير ذلك ـ وكانت له عدة أزياء لكل حالة زي ـ قال: عليَّ بمحلم ـ وكان أجسم عربي يومئذ بأرض المدينة ـ فألبس تاج كسرى على عمودين من خشب،

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٢ ـ ٢٣.

وصب عليه أوشحته وقلائده وثيابه، وأجلس للناس، فنظر إليه عمر، ونظر إليه الناس، فرأوا أمراً عظيماً من أمر الدنيا وفتنتها، ثم قام عن ذلك،فألبس زيه الذي كان يلبسه، فنظروا إلى مثل ذلك في غير نوع، حتى أتى على الأزياء كلها، ثم ألبسه سلاحه، وقلده سيفه، فنظروا إليه في ذلك، ثم وضعه ثم قال: والله إن أقواماً أدوا هذا لذووا أمانة، ونفل سيف كسرى محلماً، هكذا وقع ذكر محلم في هذا الحديث، ولا أعرف ولا أعلم في ذلك الصدر مَن اسمه محلم إلا محلم بن جثامة، ويقال إنه توفي على عهد رسول الله -ﷺ- وقصته في الدم الذي أصابه، والعفو عند وجوب القود، ودعاء النبي ﷺ لما مثل بين يديه، قصة مشهورة.

وقد قيل: إنه عاش بعد النبي ﷺ فالله أعلم.

وكذلك قيل: إن الذي ألبسه عمر سواري كسرى هو سراقة بن مالك المدلجي.

وروى سفيان بن عيينة عن أبي موسى عن الحسن أن رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك: كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟ قال: فلما أتى عمر بسواري كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة فألبسه إياهما، وكان سراقة رجلاً أزب كثير شعر الساعدين، وقال له: ارفع يديك فقل: الحمد لله، الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز الذي كان يقول: أنا رب الناس، وألبسهما سراقة بن مالك بن جعشم أعرابياً من بني مدلج، ورفع بها عمر صوته.

وذكر أبو الحسن المدائني في فتوح العراق خبر المدائن، فخالف فيه كثيراً مما تقدم وزاد ونقص، وسأذكر من ذلك ما يحسن ذكره على سبيل الإختصار والتوخي لحذف ما يكون ذكره تكراراً إلا ما يعتاض فضله من الحديث للحاجة إليه.

فمن ذلك أن يزدجرد لما غلب سعد على مدينة نهرسير واعتقد أهل غربي دجلة منه الذمة نقل خزائنه وأمواله ودواوينه إلى حلوان، وأقام في الإيوان في

مقاتلته، وسعد والمسلمون في دير المنازل، فبينما هم به ودجلة قد طماها ماؤها يتدفق جانباها، إذ سمعوا ليلاً قائلاً يقول: يا معشر المسلمين، هذه المدائن قد غلقت أبوابها، وغيبت السفن، وقطعت الجسور، فما تنتظرون، فربكم الذي يحملكم في البر يحملكم في البحر؟ فندب سعد الناس إلى العبور، ثم ساق الحديث في ركوبهم دجلة على ظهور خيلهم نحواً مما تقدم، ثم قال: ونظر ضرار بن الخطاب والمسلمون فرأوا بناء أبيض، فقال ضرار: الله أكبر، أبيض المدائن ورب الكعبة، وهرب أهل المسالح حين عبر المسلمون، واعروها وقالوا: هؤلاء من السماء، وخرج أهل الرومية ومن كان فيها من الأساورة معهم الفيلة فقاتلهم المسلمون، فكانت الفيلة تهم في وجوه الخيل، والمسلمون قليل ليست لهم رجالة تقاتل عن خيلهم، فكانت الخيل تنفر، فأتى رجل سعداً فقال: تؤمنني على نفسي وأهلي ومالي وأدلك على ما ترد به الفيلة؟ قال: نعم. قال: الخنازير. قال: وأنى لي بها؟ قال: أنا أجيئك بها، فجاءه بخنازير فضربت فجعلت تقيع في وجوه
٢٠٥ أ الفيلة، فولت وانهزم المشركون. // فوقف رجل يحميهم واعترض الطريق فلما دنا منه المسلمون ضرب فرسه ليقدم عليهم، فاعتاص وضربه ليهرب، فاعتاص فطعنه رجل من المسلمين فقتله، ودخل الآخرون الرومية، ومضى الأساورة إلى يزدجرد بالإيوان، فهرب هو وأساورته ومقاتلته، وسمعوا صوتاً من ورائهم علام تقتلون أنفسكم وقد ذهبت مدة ملككم.

ومضى سعد إلى المدينة العتيقة، فمر المسلمون بمجلس لكسرى كان يسمى بهشت إيوان، فوقفوا ينظرون إليه وقد تقدم سعد فانطوى عليه، فظن أنهم اقتطعوا، فسأل عنهم، فأخبر، فقال لبعض من معه من العجم، ما هذا المجلس؟ قالوا: بهشت إيوان. قال: وما تفسيره؟ قالوا[1]: الجنة. فأرسل سعد قوماً فأحرقوه، وخرج أهل المدائن إلى سعد فتلقوه بجامات الذهب والفضة مملوءة دنانير ودراهم يسألونه الأمان على أن يعطوا الجزية، فقبل ذلك منهم، ونزل القصر الأبيض، وأمر أهل المدائن فعقدوا الجسر، فعبر المسلمون جميعاً وأثقالهم

(١) في الأصول: قال.

وإبلهم، وتحول سعد فعسكر في مكانين على الناقوس وعلى نهر أبغش، بين العسكرين ميل، وكان أكثر العسكرين أهلاً الذين على نهر أبغش، واتخذ سعد مسجداً على الناقوس فهو إلى اليوم يسمى مسجد العسكر، وصلى فيه علي بن أبي طالب حين قدم المدائن وهو يريد صفين.

ولم يأخذ سعد من المدينة ومن أهلها إلا ما كان للملك وأهل بيته ولمن هرب، وأصابوا في خزائنهم ما عجزوا عن حمله من المتاع وصنوف الأطعمة ما لا يوصف كثرة، فأمر سعد بجمع ذلك، فجمع وولاه النعمان بن مقرن ثم تلا:

﴿أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال. وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾ (٤٤ - ٤٥ إبراهيم).

وكتب سعد إلى عمر بفتح المدائن وبهرب ابن كسرى، فكتب إليه عمر:

أوصيك بتقوى الله الذي بتقواه سعد من سعد وبترك تقواه شقي من شقي، وقد عرفت بلاء الله عندنا أيها الرهط أنه استنقذنا من الشرك وأهله، وأخرجنا من عبادة أوثانهم، وهدانا من ضلالتهم، وعرفت مخرجنا من عندهم، كيف خرجنا [1]، وأن الرهط على بعير عليه أنفسهم وزادهم يتعاور اللحاف الواحد العدة منا من بلغ مأمنه منا بلغ مجهوداً، ومن أقام في أرضه أقام مفتوناً في دينه معذباً في بدنه، أشد أهله عليه أقربهم منه، ورسول الله ﷺ يقسم بالله لتأخذن كنوز كسرى وقيصر، يعجب من ذلك من سمعه، فأبقاك الله حتى وليت ذلك بنفسك، فأعرض عن زهرة ما أنت فيه، حتى تلقى الخماص الذين ذهبوا في شماهم، لاصقة بطونهم بظهورهم، ليس بينهم وبين الله حجاب، لم تفتنهم الدنيا، ولم يغتروا بها، فاقتدوا بهديهم، ولا تُضَلِّلُنَّ أنفسكم، وكونوا الأمة الممدوحة

---

(١) «خرجنا» مكررة في ط.

المباركة التي قال الله تبارك وتعالى: ﴿**وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين**﴾ (٧٣: الأنبياء).

قال: وحصر سعد الرومية تسعة أشهر حتى أكل السنانير والكلاب بعضهم، فأتى سعداً رجل مستأمن، فسأله الأمان لنفسه وأهله، على أن يدله على عورة المدينة، فأمنه فدله على مجرى الماء إلى المدينة، وكان يأتيهم الماء في قناة من دجلة، فغورها المسلمون فارتحل أهل الرومية حين انقطع الماء عنهم من ليلتهم، وحملوا ما خف من أموالهم، وخرجوا على حامية معهم أثقالهم، فأخذوا طريق خراسان، فأتت امرأة منهم سعداً فسألته الأمان فأمنها، فقالت: لم يبق في المدينة أحد من المقاتلة ولا من عيالاتهم، بقي قوم ضعفاء، فدخلها سعد، فأصابوا متاعاً كثيراً وسلاحاً وسبياً قليلاً، فبعث بخمس ما أصاب من الرومية، وما صالح عليه أهل المدائن إلى عمر مع بشير بن الخصاصية.

وذكر من حديث البساط الذي مر ذكره نحواً مما تقدم.

وذكر - أيضاً - عن حرملة بن صدقة بإسناده إليه قال: غزوت خراسان فرأيت رجلاً من العجم يشبه الروم فسألني عن مسكني، فقلت: المدائن، قال: أيها؟ قلت: الرومية. قال: فأين منزلك منها؟ فوصفته له، قال: هذه داري، إني أحدث أصحابي عنها وعن حالي، وما كنت فيه فيكذبونني، ولقد دفنت حين حصرنا العرب في الدكان التي على باب الدار عشرة آلاف درهم وآنية ذهب وفضة كثيرة، فأغضيت على ما قال، واستأذنت أميري في القفل، فأذن لي، فقدمت فاحتفرت ذلك الموضع فأصبت ما قال على ما قال، فأحرزته ورجعت إلى مركزي.

قال المدائني: واقتسم المسلمون الرومية أرباعاً فنزلوها، ونسبت الأرباع إلى قبائل، ومعهم فيها غيرهم، غير أنه قيل: ربع عبد القيس وربع بجيلة وأسد وربع خزاعة وربع بقي على ما كان يسمى في الجاهلية، طسوج هندوان.

وكان كسرى أنزله قوماً من الزط فهو يسمى بذلك الإسم إلى اليوم، واتخذ آل صوحان مسجداً بالرومية، واختطت القبائل فيما حول الإيوان، ونزلوا المدينة العتيقة، ولم ينزلوا إلا ما كان للملك ولأهل بيته ولمن هرب مما لم يصالح عليه، فاختط حول الإيوان والرومية تميم وسليم وعبس وبكر ومزينة وجهينة وهمدان وثقيف والأنصار ومراد، ونزل بنو أسد الفارقين، ونزل المسلمون الإيوانات وبيوت النيران والمرابط والسكك ودور الضرب والدواوين، وصار بستان الملك الذي كان يدخله إذا فرغ من الزمزمة مقابر للمسلمين، ونزل حذيفة مربط يزدجرد، ونزل سعد القصر الأبيض والمسجد الذي يجتمعون فيه مسجد العسكر على الناقوس، فلم يزل المسلمون بالمدائن وما حولها حتى تحولوا إلى الكوفة، فتركوا خططهم على حالها تعرف بهم، وأقام قوم اتخذوا الضياع بالسواد، فلم يتحولوا، وكان مقامهم بعد الحرب سنتين.

وذكر أيضاً أن سعد بن أبي وقاص كان حين سار إلى المدائن خلف قوماً بأرض الكوفة، فقسم لهم مع من شهد المدائن حين فتحها، فقام إليه رجل من هذيل فقال له: عمدت إلى فيئنا فأعطيته من لم يشهد، وركب إلى عمر فشكا
// سعداً، فأرسل عمر ـ عمار بن ياسر وعبدالله بن مسعود، فقال: إن وجدتماه ٢٠٥ ب
بالكوفة فلا تبيتن بها، وإن وجدتماه خارجاً عن الكوفة فلا تدعاه يدخلها وخذا الخاتم من يده، فلقياه بفيين فأخذ أحدهما الخاتم من يده، فنظر إلى الآخر، فقال: أمر بذلك، فقال سعد:

خذيني فجريني ضباعُ وأبشري بلحم امريء لم يحضر اليوم ناصره
(الطويل)

قال: دعوني أدخل الكوفة، قالا: لا، فقطعا به الفرات من دير الأعور، فلما قدم على عمر قال: أين الهذلي؟ فقام، فقال: ما يقول هذا؟ قال سعد: صدق، قال: ارجع فخذه منهم ثم أقسمه.

وذكر عن عبد الله بن سليم وغيره، قالوا: اجتمع الأساورة بحلوان عند

يزدجرد، فذكروا العرب ورثاثة سلاحهم وسوء عدتهم وظهورهم عليهم، فتلاوموا وقالوا: أسلمنا ملكنا وما كنا فيه إلى عصابة لم تكن في الأرض أمة أصغر أمراً عندنا منهم، فقال بعضهم: لا تعجبوا من هذا، فإنها دولة جاءت قوماً، ومدة انقضت عنكم، وهذا أمر أراده الله، والله لا يغلب. فقال رجل منهم: ارفعوا لي كرة، فرفعوها فرماها بنشابات فلم يخطئها، قال: هذا ما ترون من رمي، ولقد رأيتني مرة في بستان أرمي الزنانير بجلاهق[1]. فما أخطأت بواحدة، فقدم العرب فهربت وأتبعني رجل فرميته بخمس نشابات فما أصبته، ودعا رجل بقوسه فرمى بنشابة في حائط لبن فغيبها إلى قريب من الريش، ثم اعترض ساقاً من شجرة بسيفه فاجتمه، ثم قال: ترون رمي وضربي؟ قالوا: نعم، قال، فإني رميت رجلاً - يعني من المسلمين - ليس عليه سلاح ولا ثوب يقيه، فأصبت بطنه فما خدشه، ولقد ضربت رجلاً حاسراً أصلع بسيفي هذا، فخرج من رأسه شبه الدقيق، وحدث بعض العجم قال: كنت فيمن انهزم عن العرب، فإني لأسير في عشرة من الأساورة إذ انتهينا إلى نهر ورجل من العرب يسقي فرسه، فلما رآنا شد حزام فرسه وألجمه وركبه وحمل علينا فولينا، وانفردت من أصحابي دهشاً وطمع فيّ فأتبعني حتى صرت في مؤخر النهر وفرسي أقوى من فرسه، فزجرت فرسي، فطغى بي النهر، ووقف ينظر إليّ لا يقدر على العبور، فالتفت إليه، فقال: أولى لك، فلم أدر ما قال لي حتى سألت بعد وعلمت، فما خرج رعب تلك الكلمة من قلبي.

وذكر بإسناد له إلى عبد الله بن معقل بن مقرن المزني قال: اصطفى عمر من مال العجم أصنافا، مال من هرب ومن قتل، وكل مال لكسرى أو لأحد من أهل بيته، وكل مسيل ماء، وكل دير يريد، فكان خراج ما اصطفى سبعة آلاف ألف حتى كان يوم دير الجماجم أحرق الديوان، فأخذ كل قوم ما يليهم.

قال المدائني: وكان المغنم بالمدائن والرومية قريباً من مغنم القادسية.

---

(١) في هامش «ط» و «ح»: الجلاهق كعلابط، البندق الذي يرمى.

ومما قيل في ذلك من الشعر قول أبي بجيد، نافع بن الأسود التميمي يفخر بقومه:

بنو تميم عتاد الحرب قد علموا ... والناهضون إذا فرسانها ركبوا
والحاملون إذا ما أزمة أزمت ... ثِقْلَ العشائر إن جموا وإن ندبوا
والفاصلون إذا ما خطة جهلت ... عند الجموع وفيهم تفصل الخطب
والمانعون من الأعداء دارهم ... عند الهياج إذا ما اهتزت الطنب
والواردون على كسرى مدائنَه ... قسْراً ومن دونها بحْرٌ له لَجَبُ
نحوى نهابهم والخيل مشعلة ... وسْطَ الديار ومنها حولَهُم عُصَبُ
شُعْثٌ عليها ليوثٌ ما يهجهجها ... عند الصياح بها عجم ولا عرب
شمس بأيديهم سمر مثقفة ... وكل عضب له في متنه شطب
إذا جلوها على الأعداء في فزع ... لاحت كأنْ فوق أيديهم بها شهب

(البسيط)

وقال أيضاً:

و[1] نحن صبحنا يوم دجلة أهلها ... سيوفاً وأرماحاً وجيشاً عرمرما
نراوح بالبيض الرقاق رءوسهم ... إذ الرمي أغرى بيننا فتضرما
أذقناهم يوم المدائن بأسنا ... صراحاً وأسعطنا الألائم علقما
سقيناهم لما تولوا إلى الردى ... كؤوساً ملأناهن صاباً وشبرما
أبيتم علينا السلم ثم رجعتمو ... إلى السلم لما أصبح السلم محرما
ويوم يطير القلب من نعراته ... ربطنا له جأشاً وهجنا به دما
دعونا إليه من تميم معاشرا ... يجيبون داعيهم وإن كان مجرما
يحلون[2] في اليوم الشديد قيامه ... عن الشمس والآفاق أغبر مظلما
ألا أيها ذا السائل عن عشيرتي ... ستخبر عنهم إنْ سألت لتعلما
فمهما عقدنا جاز في الناس حكمنا ... وننقضه منهم وإن كان محكما

(الطويل)

---

(١) الواو ساقطة من الأصول.
(٢) في باقي الأصول: يحملون.

وقال أيضاً:

أيُّ يوم لنا كيوم قديس قد تركنا به القنا مرفوضا
كم سبينا من تاج ملْكٍ وأسوا رِ ترَى في نطاقه تفضيضا
وقربنا خير الجيوش شتاء وربيعاً مجملاً وغريضا
ونفرنا في مثلهم عن تراض لم نعرض ولم نذق تغميضا
ثم سرنا من فورنا نحو كسرى ففضضنا جموعه تفضيضا
وأملنا على المدائن خيلاً بحرها مثل بَرِّهنَّ أريضا
وانتثلنا خزائن المرء كسرى يوم ولي وحاص منا جريضا
(الخفيف)

وقال النابغة الجعدي من كلمة يذكر أيامهم تلك مع كسرى وغيره:

فمضت كتائبنا إليه عنوة حتى حللنا حيث ينخرق الصبا
نرمي مدينته ونحطم جمعه ونصك رأس عموده حتى انشطا
ولقيصر أخرى رمينا رمية قطعت قرينته كما انقطع السدا
والخيل تخفق بين دجلة عنوة بالسفح من أقر إلى وادي القرى
لا قيصر أبداً ولا كسرى بها قضى الحديث وكان شيئاً فانقضى
(الكامل)

حديث[1] وقعة جلولاء (*)

ذكر سيف[2] عن قيس بن أبي حازم قال: أقمنا بالمدائن حين هبطناها واقتسمنا ما فيها، فأتانا الخبر بأن مهران قد عسكر بجلولاء، وخندق عليه، وأن أهل الموصل قد عسكروا بتكريت، فكتب سعد بذلك إلى عمر، فأجابه: أن سرح هاشم بن عتبة إلى جلولاء في اثني عشر ألفاً، واجعل على مقدمته القعقاع ابن عمرو[3].

وروى من سماه سيف من رجاله: أن عمر كتب - أيضاً - إلى سعد: لئن هزم الله الجندين: جند مهران وجند الأنطاق، فقدم القعقاع حتى يكون على حد سوادكم، بين السواد والجبل.

قالوا: وكان من حديث جلولاء أن الأعاجم لما انتهوا إليها بعد الهرب من المدائن، وتفرقت الطرق بأهل أذربيجان والباب وبأهل الجبال (وفارس) تذامروا وقالوا: إن افترقتم لم تجتمعوا أبداً، وهذا مكان يفرق بيننا، // فهلموا ٢٠٦ أ

---

(١) الخبر منقول عن الطبري ج ٤ ص ٢٤ - ٣٥، وهو في فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٢٤ - ٢٣٧، البدء والتاريخ للبلخي ص ١٧٨ - ١٧٩، وكتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي ج ١ ص ٢٧٠ - ٢٧٨، والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٣٦١ - ٣٦٤، وكنز الدرر للدواداري ج ٣ ص ١٩٩ - ٢٠٢، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ٢٣٠ - ٢٣٣، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٦٩ - ٧١، وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١٠٢ - ١٠٣.

(*) أشار صاحب الروض المعطار إلى أن جلولاء بالعراق في أول الجبل، وهي مدينة صغيرة عامرة بها نخل وزرع، ومنها إلى خانقين سبعة وعشرون ميلاً (ص ١٦٧).

(٢) الطبري ج ٤ ص ٢٤ - ٢٥.

(٣) وأشار الطبري الى أنه عين لميسرته عمرو بن مالك بن عتبة، ولميمنته سعر بن مالك، ولساقته عمرو بن مرة الجهني - ج ٤ ص ٢٤ - ٢٥.

فلنجتمع به للعرب ولنقاتلهم، فإن كان لنا فهو الذي نريد، وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا ما علينا، وأبلينا عذراً. فاحتفروا الخندق، واجتمعوا فيه على مهران، ونفذ يزدجرد إلى حلوان فنزل بها، ورماهم بالرجال، وخلف فيهم الأموال، فأقاموا في خندقهم، وقد أحاطوا به الحسك من الخشب إلا طرقهم. ففصل هاشم بالناس من المدائن في اثني عشر ألفاً، فيهم وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب، فسار إلى جلولاء أربعاً، حتى قدم عليهم، فحاصرهم وأحاط بهم، فطاولهم أهل فارس، وجعلوا لا يخرجون عليهم إلا إذا أرادوا، وزاحفهم المسلمون ثمانين زحفاً، كل ذلك يعطيهم الله الظفر على المشركين، وغلبوهم على حسك الخشب، فاتخذوا حسك الحديد.

وعن بعض الرواة[1] أن هاشماً لما نزل على مهران بجلولاء جعل يقوم في الناس، ويقول: إن هذا منزل له ما بعده، وجعل سعد يمده بالفرسان حتى إذا كانوا أخيراً[2] قال بعضهم لبعض: أبلوا الله بلاء حسناً يتم لكم عليه الأجر والمغنم، واعملوا لله فإنكم ردء المسلمين، فالتقوا فاقتتلوا، وبعث الله عليهم ريحاً أظلت عليهم البلاد، ولم يستطيعوا إلا المحاجزة، فتهافتت فرسانهم في الخندق، فلم يجدوا بداً من أن يجعلوا فرضاً مما يليهم، تصعد منه خيلهم، فأفسدوا حصنهم، وبلغ ذلك المسلمين، فنظروا إليه، فقالوا: ننهد إليهم ثانية فندخله عليهم أو نموت دونه، فلما نهدوا الثانية خرج القوم، فرموا حول الخندق مما يلي المسلمين بحسك الحديد لكيلا تقدم عليهم الخيول، وتركوا للمجال وجهاً، فخرجوا منه على المسلمين، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يقتتلوا مثله ولا ليلة الهرير[3] إلا أنه كان أكمش وأعجل، وانتهى القعقاع في الوجه الذي زحف منه إلى باب خندقهم، فأخذ به، وأمر منادياً فنادى: يا معشر المسلمين، هذا أميركم قد دخل خندق القوم فأقبلوا إليه، ولا يمنعكم من بينكم وبينه من دخوله. وإنما

(١) هو بطان بن بشر - راجع الطبري ج ٤ ص ٢٥.

(٢) في الأصول: آخراً.

(٣) في الطبري: إلا ليلة الهرير.

فعل القعقاع ذلك ليقوي المسلمين، فحملوا حملة لم يقم لها شيء، حتى انتهوا إلى باب الخندق، ولا يشكون أن هاشماً به، فإذا هم بالقعقاع قد أخذ به، وأخذ المشركون في الهزيمة يمنة ويسرة عن المجال الذي بحيال خندقهم، فهلكوا فيما أعدوا للمسلمين فعقرت دوابهم، وعادوا رجالة، وأتبعهم المسلمون، فلم يفلت منهم إلا من لا يعد، وقتل الله منهم يومئذ مائة ألف، فجللت القتلى المجال وما بين يديه وما خلفه، فسميت جلولاء لما جللها من قتلاهم، فهي جلولاء الوقيعة.

وقال بعضهم[1]: كان أشقى أهل فارس بجلولاء أهل الري، كانوا بها حماة أهل فارس، ففني أهل الري يوم جلولاء.

وفي حديث عن محفز بن ثعلبة[2] ـ وكان شهدها: أن أهل فارس لما رأوا أمداد المسلمين بادروا بقتالهم توأ في عددهم، ثم وصف من شدة قتالهم. قال: حتى أنفذوا النبل، وقصفوا الرماح حتى صاروا إلى السيوف والطبرزينات[3] وكانوا بذلك صدر نهارهم إلى الظهير[ة]، ولما حضرت الصلاة صلى الناس إيماء، حتى إذا كان بين الصلاتين خنست[4] كتيبة من كتائب المشركين وجاءت أخرى فوقفت مكانها، فأقبل القعقاع على الناس، فقال: أهالتكم هذه؟ قالوا: نعم، نحن مكلون وهم مريحون، والكال يخاف العجز إلا أن يعقب، فقال: إنا حاملون عليهم ومجادوهم وغير كافين عنهم ولا مقلعين عنهم حتى يحكم الله بيننا، فاحملوا حملة رجل واحد حتى تخالطوهم، ولا يكذبن أحد منكم. فحمل فانفرجوا فما نهنه أحد عن باب الخندق، وألبسهم الليل رواقه، فأخذوا يمنة ويسرة، ونادى منادي القعقاع: أين تحاجزون وأميركم في الخندق فحمل المسلمون، فأدخل الخندق، فأتى فسطاطاً فيه مرافق وثياب، وإذا ترس[5] على

---

(١) هو باهان ـ راجع الطبري ج ٤ ص ٣٢.

(٢) سماه صاحب الأخبار الطوال: محفن بن ثعلبة.

(٣) الطبرزين: آلة من السلاح تشبه الفأس.

(٤) خنست: تأخرت ليحل غيرها مكانها.

(٥) في الطبري: فرش.

إنسان فأنبشه، فإذا امرأة كالغزال في حسن الشمس، فأخذها وثيابها، فاديت الثياب، وطلبت الجارية حتى صارت إليّ فاتخذتها أم ولد.

قالوا [1]: وأمر هاشم القعقاع بالطلب، فطلبهم حتى بلغ خانقين، وأدرك بها مهران فقتله، وأدرك الفيرزان فنزل، فتوقل في الظراب [2] وخلى فرسه [3]، وأصاب القعقاع سبايا، فبعث بهن إلى هاشم، فكن مما اقتسم، واتخذن، فولدن في المسلمين، فذلك السبي ينسب إلى جلولاء، ومنه كانت أم الشعبي، ويقال من القادسية.

ويروى أن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال وقد بلغه ما أصيب من هؤلاء السبايا: اللهم إني أعوذ بك من أبناء الجلوليات [4].

قالوا: ولما بلغت الهزيمة يزدجرد سار من حلوان نحو الجبل، فنزل القعقاع بحلوان في جند فلم يزل بها إلى أن تحول سعد بالناس من المدائن إلى الكوفة، فلحق به.

قالوا: وكتبوا إلى عمر بفتح جلولاء وبنزول القعقاع حلوان، واستأذنوه في اتباعهم، فأبى، وقال: لوددت أن بين السواد والجبل سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم، حسبنا من الريف السواد، إني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال.

وساق المدائني خبر جلولاء مساقاً بينه وبين ما تقدم بعض اختلاف وأسنده عن جماعة سمي منهم، قال: وبعضهم يزيد على بعض، فسقت حديثهم: أن يزدجرد هرب إلى حلوان، فلما فتح سعد الرومية كتب إلى عمر يستأذنه في البعثة إلى ابن كسرى، فكتب إليه: «الحمد لله الذي أذل ابن كسرى وشرده، فأقم بمكانك واحذر على من معك من المسلمين» فأقام سعد بالمدائن سنتين لم يوجه

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٨.

(٢) توقل في الظراب: صعد فيها، والظراب: الروابي الصغار، وفي الأصول: الضراب.

(٣) أي: ترك سبيلها للسير.

(٤) الأخبار الطوال ص ١٢٩.

أحداً، وكتب ابن كسرى إلى الجبال فجمع المقاتلة فوجههم إلى جلولاء، وأمر الأساورة والجنود فنزلوها، فاجتمع بها جمع عظيم عليهم خرزادين خرمهر، فكتب سعد إلى عمر بجمعهم، فكتب إليه: أقم بمكانك ووجه إليهم جيشاً، فإن الله ناصرك ومتم وعده الذي وعد نبيه ﷺ فعقد سعد لهاشم بن عتبة وندب الناس، فانتدب معه أربعة آلاف فيهم طليحة بن خويلد، وعمرو بن معدي كرب وفرسان المسلمين، فسار فلما كان بمهروذ أتاه دهقانها فصالحه على أن يفرش له جريباً دراهم، فقبل منه ومضى إلى جلولاء، فقدم على قوم قد أعدوا عدة عظيمة، وتحرزوا بالخنادق، فقاتلوهم قتالاً شديداً عن العيال والذراري، وكتب هاشم إلى سعد يستمده، وأتى المشركون أهل أذربيجان مدداً فعاجلوهم القتال، وكثروهم، فجال المسلمون وانكشفوا، فناداهم هاشم: يا معشر المسلمين أين؟ أما رأيتم ما خلفتم؟ أتأتون عمر منهزمين؟ فعطف الناس، وعلى الميمنة حجر بن عدي، وعلى الميسرة عمرو بن معدي كرب، وعلى الخيل زهرة بن جوية، وعلى الرجال طليحة بن خويلد، فاشتد القتال بينهم حتى مضى وقت الظهر فصلى المسلمون يومئون إيماء، وألح المشركون عليهم، وطلعت كتيبة
// للمشركين حامية فجازت الخندق، ثم طلعت أخرى، فقال طليحة وعمرو بن ٢٠٦ ب
معدي كرب: يا معشر الفرسان، الأرض واقرنوا خيولكم، ففعلوا وجثوا وأشرعوا الرماح فرجعت الخيل عنهم، ورموهم بالنشاب، فتترسوا، فمكثوا بذلك مليا، وأشفق المسلمون فحضهم طليحة وزهرة وعمرو، فبينا هم على ذلك إذ سمعوا تكبيراً للمسلمين وراءهم، فإذا قيس بن مكشوح قد جاءهم في ألف وأربعمائة فارس وستمائة راجل، فانهزم المشركون قبل أن يصل إليهم، وهاجت ريح شديدة أظلمت لها الأرض، فتهافت المشركون في الخندق، وأتبعهم المسلمون فانتهوا إلى خنادقهم وقد انجلت عنهم الظلمة فركبوا أكتافهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وحووا عسكرهم، فأصابوا شيئاً لم يصيبوا مثله من الأموال والسلاح والمتاع والسبايا والدواب، فجمع ذلك كله إلى هاشم، فجاء رجل من آل خارجة بن الصلت بتمثال ناقة من ذهب موشحة بالدر وألقاها في المغنم، وجاء

مجفر بن ثعلبة بجارية، وجاء كل رجل بما صار في يديه، فحمل هاشم ذلك كلة إلى سعد، فكتب سعد إلى عمر بالفتح وبما أصاب من السبايا واستأذنه في اتباع العجم والمسير إلى الجبال، فكتب إليه عمر - رحمه الله: أقم مكانك عامك هذا حتى ننظر، واحذر على المسلمين، واترك أهل الجبال ما تركوك، فوددت أن بيننا وبين الجبال سداً من نار لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم، حسبنا من الريف السواد، فأقم ولا تطلب ما سوى ذلك عامك هذا إلا أن ينزل عدو بقربك، واقسم بين المسلمين ما أفاء الله عليهم.

وكانت الغنائم ثمانية عشر ألف ألف، فبلغت السهام ثلاثة آلاف، للفرس سهمان وللراجل سهم، وقال قوم: كانت الغنائم ستة وثلاثين ألف ألف، وكانت السهام ستة آلاف وثمانية من الدواب، للفرس سهمان وللراجل سهم، فحمل سعد الخمس مع زياد بن أبي سفيان.

وفي كتاب سيف[١] عمن سمي من رجاله قالوا: ونفل سعد من أخماس جلولاء من أعظم البلاء ممن شهدها، ومن أعظمه ممن كان ثابتاً بالمدائن، وبعث بالأخماس مع قضاعي بن عمرو الدؤلي [٢] من الذهب والورق والآنية والثياب، وبعث بالسبي مع أبي مفزر [٣] الأسود بن قطبة. قال بعضهم: وبعث بالحساب مع زياد بن أبي سفيان، وكان الذي يكتبه للناس ويدونهم، فلما قدموا على عمر كلم زياد عمر فيما جاء به ووصف له، فقال له عمر: هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذي كلمتني به؟ فقال: والله ما على الأرض شخص أهيب في صدري منك، فكيف لا أقوى على هذا في غيرك؟ فقام في الناس بما أصابوا وبما صنعوا، وبما يستأذنون فيه من الانسياح في البلاد، فقال عمر - رضي الله عنه: هذا الخطيب المصقع [٤]، فقال زياد: إن جندنا أطلقوا بأفعالهم لساني.

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٩.

(٢) في الطبري: الديلي.

(٣) في الأصول: مفوّز.

(٤) في الأصل: المسقع.

وعن أبي سلمة قال[1] : لما قُدم على عمر ـ رحمه الله ـ بالأخماس من جلولاء، قال عمر: والله لا يجنه سقف بيت حتى أقسمه. فبات عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن أرقم يحرسانه في صحن المسجد، فلما أصبح جاء في الناس وكشف عنه جلابيبه ـ وهي الأنطاع ـ فلما نظر إلى ياقوته وزبرجده وجوهره بكى، فقال له عبد الرحمن: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ فوالله إن هذا إلا موطن شكر. فقال عمر: والله ما ذاك يبكيني، وتالله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا، ولا تحاسدوا إلا ألقى بأسهم بينهم. ثم دعا الحسن فيما ذكر المدائني فحثا له، ثم دعا الحسين فحثا له، ثم قال: ما ترى [2]؟ أنحثي لهم حثياً أم نكيل بالصاع. قال: بل احث لهم، ففعل، ثم دون الدواوين وفرض وقسم.

وذكر المدائني ـ أيضاً ـ أن سعداً كتب إلى عمر ـ رحمه الله ـ مع زياد يستأذنه في اتباع المشركين ويصغر أمرهم عنده، فكتب إليه عمر: جاءني كتابك تستأذنني في اتباع المشكرين، وسيأتي فيهم أمري، وذلك من حق إمامك عليك، وإنما حق المسلم على المسلم بحق الله، وإن أعظم أهل الإسلام حقاً عليهم إمامهم، وذلك أنه لا تجد أحداً من الناس صلاح أهل الأرض في صلاحه إلا نبي أو خليفة، فالأمر إليك في اتباعهم في غير تغرير بالمسلمين، وانظر ما أجلب الناس به عليك في العساكر من مال أو كراع أو سلاح أو متاع، فاقسمه بين من حضر، واترك الأرضين والأنهار فتكون في أعطية المسلمين، فإنك إن قسمتها بين من حضرك لم يكن لمن بعدهم شيء ولا توطن ولداً من والده، ولا تمسن أنثى من السبي حتى يطيب رحمها، ولا تتخذن مشركاً أميناً على المسلمين، فإنهم يأخذون الرشوة في دينهم ولا رشوة في دين الله، وادع الناس فمن استجاب لك وأسلم قبل القتال فهو رجل من المسلمين وله سهم في الإسلام، ومن أسلم بعد القتال وبعد الهزيمة فهو رجل من المسلمين وماله لأهل الإسلام، والأسير إذا أسلم في أيدي المسلمين فقد أمن على دمه، وهو فيء للمسلمين، وأقر الفلاحين على حالهم

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٣٠.

(٢) في الأصول: ما ترون؟

إلا من حاربك أوِ هرب أو ترك أرضه وخلاها ، فهي لكم فإن رجع فقبلتم منه الجزية فهو ذمة.

وذكر سيف[1] عن رجاله قالوا : كان صلح عمر الذي صالح عليه أهل الذمة ، أنهم إن غشوا المسلمين لعدوهم برئت منهم الذمة ، وإن سبوا مسلماً أن ينهكوا عقوبة ، وإن قاتلوا مسلماً أن يقتلوا ، وعلى عمر منعهم ، وبرىء عمر إلى كل ذي عهد من معرة الجيش.

قال بعضهم : فكان الفلاحون للطرق والجسور والأسواق والحرث ، والدلالة مع الجزي عن أيديهم على قدر طاقتهم ، وكانت الدهاقين للجزية عن أيديهم والعمارة ، وعلى كلهم الإرشاد وضيافة ابن السبيل من المهاجرين.

قال المدائني : وشهد عبد الله بن عمر جلولاء ، واشترى من المغنم متاعاً بأربعين ألفاً ، فلما قدم المدينة أتاه عمر في منزله ، فقال لامرأته : يا صفية احتفظي بما جاء به عبد الله ولا يصلن منه إلى شيء ، ثم قال لعبد الله : يا عبد الله اشتريت من غنائم المسلمين؟ فقالوا : ابن عمر وصاحب رسول الله ﷺ فلأن يرخصوا عليك بمائة أحب إليهم من أن يغلوا عليك بدرهم ، لك فما اشتريت ربحاً لدرهم درهم ، فدعا عمر التجار فعرضه عليهم وقال : اشتروا فإنه للمسلمين ، فتزايدوا حتى بلغ مائة ألف ، فباعه ، وأعطى عبد الله ثمانين ألفاً ، وبعث بالباقي إلى سعد ، وكتب إليه : اقسمه فيمن شهد سنة تسع عشرة.

وعن رجال سيف[2] قالوا : ولما رجع أهل جلولاء إلى المدائن نزلوا
٢٠٧ أقطائعهم ، وصار السواد ذمة لهم إلى ما أصفاهم الله به من مال الأكاسرة ، //
ومن لج معهم.

وقال القعقاع بن عمرو يذكر نزوله بجلولاء :

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٣٢.

(٢) نفسه ج ٤ ص ٣٣.

مـن مبلـغ عني القبـائـل مـالكـاً وقد أحسنت عنـد الهيـاج القبـائـل
فللـه جـاهـدنـا وفي الفـرس بغيـة ونحن على الثغر المخـوف نسـاجـل
وأنتم عتـــاد إن ألـمـت ملمـــة وجلّـت علينـا في الثغـور الجلائـل
وهل تذكـرونـا إن نـزلنـا وأنتُـم منـازل كسرى والأمـور حـوائـل
فصرنا لكـم ردءاً بجلـوان بعـدمـا نـزلنـا جميعـاً والجمـوع نـوازل
فنحن الأولى فزنا بجلـوان بعـدمـا أرنت على كسرى الإمـا والحلائـل

(الطويل)

وقال أبو بجيد في ذلك:

ويـوم جَلـولاءَ الوقيعـة أصبحَـتْ كتـائبنـا تَـرْدَى بـأُسْـدٍ عـوابِسِ
فضضْـتُ جموع الفـرس ثم أَنمْتهـم فتبـاً لأجسـاد المجـوس النجـائس
وأفلَتهُـــنَّ الفيرزانُ بجرعـــة ومهران أردت يـوم حَـزِّ القـوانس
أقـامـوا بـدار للمنيـة مـوعـد وللترب تحثوها خجوج الروامس [1]

(الطويل)

---

(١) الأبيات في الطبري ج ٤ ص ٣٤ ، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٧١ .

حديث يوم تكريت[1]

وكان سعد ـ رحمه الله ـ لما كتب إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ بأمر جلولاء، وأجابه بما ذكر قبل، كتب إليه ـ أيضاً ـ باجتماع أهل الموصل إلى الأنطاق وإقباله بهم إلى تكريت حتى نزل بها، وخندق عليه ليحمي أرضه، فأمر عمر سعداً أن يسرح عبدالله بن المعتم إلى الأنطاق، وعين لمقدمته وميمنته وميسرته وساقته رجالاً سماهم له[2]، ففصل على ذلك عبد الله من المدائن في (خمسة) آلاف، فسار إلى تكريت حتى ينزل على الأنطاق، ومعه الروم وإياد وتغلب والنمر، وقد خندقوا، فحصرهم أربعين يوماً وتزاحفوا أربعة وعشرين زحفاً، في كلها هزم المشركون ولا يخرجون خرجة إلا كانت عليهم، فلما رأت الروم ذلك تركوا أمراءهم، ونقلوا متاعهم إلى السفن، وقد كان عبد الله بن المعتم وكل بالعرب ليدعوهم إليه وإلى نصرته على الروم رجالاً من تغلب وإياد والنمر، فكانوا لا يخفون عليه شيئاً، فأقبلت إليه العيون منهم بما فعلت الروم وسألوه للعرب السلم وأخبروه أنهم قد استجابوا، فأرسل إليهم: إن كنتم صادقين فاشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأقروا بما جاء به من عند الله، ثم اعملوا بما نأمركم. فردوا إليه رسلهم بالإسلام، فأرسل إليهم: إذا سمعتم تكبيرنا فاعلموا أنا قد نهدنا إلى الأبواب التي تلينا لندخل عليهم منها، فخذوا بالأبواب التي تلي دجلة، وكبروا وقاتلوا واقتلوا من قدرتم عليه، فانطلقوا حتى واطؤوهم على ذلك. ونهد عبد الله والمسلمون لما يليهم وكبروا وكبرت تغلب

(١) الخبر منقول عن الطبري ج ٤ ص ٣٥ ـ ٣٧، وهو في الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٣٦٤ ـ ٣٦٦، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٧١ ـ ٧٢، والروض المعطار للحميري ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢) تسميتهم في الطبري ج ٤ ص ٣٥.

وإياد والنمر وقد أخذوا بالأبواب، فحسب القوم أن المسلمين قد أتوهم من خلفهم، فابتدروا الأبواب التي أمامهم، فأخذتهم سيوف المسلمين، مستقبلتهم، وسيوف الربعيين الذيـن أسلموا ليلتئذ من خلفهم، فلم يفلت من أهل الخندق إلا من أسلم من تغلب وإياد والنمر.

قال سيف[١]: وكان عمر - رضي الله عنه - قد عهد إلى سعد، إن هزم أهل تكريت أن يأمر عبد الله بن المعتم بتسريح ربعي بن الأفكل العنزي إلى الحصنين، وربعي هو الذي كان عمر رسم أن يكون على مقدمة عبد الله في هذا الوجه، فسرحه عبد الله إلى الحصنين، وقال له: اسبق الخبر، (وسر ما دون القيل) وأحي الليل، وسرح معه تغلب وإياد والنمر، فقدمهم وعليهم عتبة بن الوعل، أحد بني سعد بن جشم[٢] وذو القرط وأبو وداعة بن أبي كرب وابن ذي السنينـة[٣] قتيـل الكلاب وابـن الحجير[٤] الأيـادي وبشر بـن أبي حـوط متساندين، فساروا يسبقون إلى الحصنين خبر الهزيمة ليغزوا أهلها، فلما كانوا قريباً منها، قدموا عتبة بن الوعل فادعى الظفر والنفل (والقفل)، ثم الرجال المسمون آنفاً واحداً بعد آخر، كلما وصل واحد منهم ذكر مثل ما ذكر عتبة، فوقفوا بالأبواب وقد أخذوا بها، وأقبلت سرعان الخيل مع ربعي بن الأفكل، حتى اقتحمت الحصنين على أهلها، فكانت إياها، فنادوا بالإجابة إلى الصلح، فأقام من استجاب، وهرب من لم يستجب، إلى أن أتاهم عبد الله بن المعتم، فدعا من لج وهرب، ووفى لمن أقام، فتراجع الهارب واغتبط مع المقيم، وصارت لهم جميعاً الذمة والمنعة، واقتسم المسلمون بتكريت ما أفاء الله عليهم على أن لكل سهم ألف درهم للفارس ثلاثة آلاف وللراجل ألف، وبعثوا بالأخماس مع فرات ابن حيان، وبالفتح مع الحارث بن حسان، وولي حرب الموصل ربعي بن الأفكل، والخراج عرفجة بن هرثمة.

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٣٦.

(٢) في الطبري: جشم بن سعد.

(٣) في الأصول: السبيبه.

(٤) في الأصول: الجبن.

ذكر يوم ماسبذان (*)، ويوم قرقيسيا (**)

ذكروا [١] أنه: لما رجع هاشم من جلولاء إلى المدائن، بلغ سعداً أن آذين [٢] ابن الهرمزان جمع جمعاً، فخرج بهم إلى السهل، وأن أهل الجزيرة بعثوا جنداً إلى هيت، فكتب سعد بذلك إلى عمر، فكتب إليه أن يبعث ضرار بن الخطاب في جند إلى ابن الهرمزان، ويبعث عمر بن مالك (بن عتبة) بن نوفل بن عبد مناف في جند إلى هيت، ورسم لكلا الجندين صاحب مقدمتيه ومجنبتين وساقة وسماهم [٣]، فخرج ضرار في الجند، وقدم صاحب مقدمته حتى انتهى إلى سهل ماسبذان، فالتقوا بمكان يدعى بهندف، فاقتتلوا به، فأسرع المسلمون في المشركين، وأخذ ضرار آذين بن الهرمزان سلماً، فأسره فانهزم عنه جيشه، فقدمه فضرب عنقه، ثم خرج في الطلب حتى انتهى إلى السيروان فأخذ ماسبذان عنوة، فتطاير أهلها في الجبال، فدعاهم فاستجابوا له، وأقام بها حتى تحول سعد من المدائن فأرسل إليه، فنزل الكوفة واستخلف على ماسبذان [٤]، وكانت إحدى [٥] فروج الكوفة.

(*) ماسبذان: أحد فروج الشام، بالقرب من هيت - الحميري. الروض المعطار ص ٥١٩.

(**) قرقيسيا: كورة من كور ديار ربيعة، كانت في الجانب الشرقي من الفرات - نفسه ص ٤٥٥.

(١) الخبر منقول عن الطبري ج ٤ ص ٣٧ - ٣٨، وهو في فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٧٧ - ٣٧٩، والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٣٦٦ - ٣٦٧، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ٢٣٨ - ٢٣٩، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٧٢ - ٧٣، والروض المعطار للحميري ص ٥٩٧ - ٥٩٨.

(٢) في الأصل: الأزاد.

(٣) تسميتهم في الطبري.

(٤) المستخلف عليها هو: ابن الهذيل.

(٥) في الأصل: أحد.

وخرج عمر بن مالك في جنده سائراً نحو هيت، وقدم الحارث بن يزيد العامري ـ وهو المعين لمقدمته ـ حتى نزل بهيت[1] وقد خندقوا عليهم. فلما رأى عمر بن مالك امتناع القوم بخندقهم استطال أمرهم، فترك الأخبية على حالها وخلف عليهم الحارث (بن يزيد) يحاصرهم، وخرج في نصف الناس يعارض الطريق حتى جاء قرقيسيا في عرة، فأخذها عنوة، فأجاب أهلها إلى الجزاء، وكتب إلى الحارث في أهل هيت: إن هم استجابوا فخل عنهم وإلا فخندق على خندقهم خندقاً أبوابه مما يليك حتى أرى من رأيي، فسمحوا بالإستجابة، وانضم الجند إلى عمر بن مالك والأعاجم إلى أهل بلدهم.

وقال ضرار بن الخطاب يذكر ملتقاهم بهندف:

ولما لقينا في بهنْدَفَ جمعَهُم ... تنادَوْا وقالوا: يا صَبْرُ وايالَ فارِس
فقلنا جميعاً: نحن أصبر منكم ... وأكرم في يوم الوغى والتمارس
// ضربناهم بالبيض حتى إذا انثنت ... أقمنا لها ميلاً بضرب القوانس ٢٠٧ ب
فَوَلَّوْا سراعاً نحو دار أبيهم ... وقد خومروا يوم الوغا بالوساوس
فما برِحَتْ خيلي تقص طريقهم ... وتقتلهم بين اشتباك الحنادس
(الطويل)

(١) هيت: مدينة بين الرحبة وبغداد، وهي على شاطيء الفرات، والهيت الربوة. سميت بذلك لأنها في هوة، وهي الأرض المنخفضة ـ الروض المعطار ص ٥٩٧.

ذكر الحديث عن تمصير الكوفة والبصرة، وتحول سعد بن أبي وقاص عن المدائن إلى الكوفة، وما يندرج مع ذكر البصرة من فتح الأبلة [١]

ذكروا [٢] أنه جاء عمر - رضي الله عنه - فتح جلولاء، وما ذكر بعدها، ونزول المسلمين حيث ذكر قبل نزولهم منها، ولما قدمت الوفود بذلك عليه، أنكرهم حين رآهم، وقال: والله ما هيئتكم بالهيئة التي بدوتم بها، ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وإنهم لكما بدوا [٣]، فما غيركم؟ قالوا: وخومة البلاد. فنظر في حوائجهم، وعجل سراحهم، وكتب إلى سعد: أنبئني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم؟ فكتب إليه: إن العرب خدَّدهم [٤] وغير ألوانهم وخومة المدائن ودجلة، فكتب إليه عمر: إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان، فابعث سلمان رائداً وحذيفة - وكانا رائدي الجيش - فليرتادا منزلاً برياً بحرياً، ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر، ولم يكن بقي من أمر الجيش شيء إلا وقد أسنده عمر إلى رجل، فبعث سعد حذيفة وسلمان، فخرج سلمان حتى أتى الأنبار، فسار في غربي الفرات لا يرى [٥] شيئاً، حتى أتى الكوفة، وخرج

---

(١) راجع بشأن ذلك، الطبري ج ٤ ص ٤٠ وما بعدها، البلاذري. فتوح البلدان ص ٣٣٨ - ٣٥٤، ٤٢٥ - ٤٥٨، وابن الأثير. الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٣٦٧ - ٣٧١، والحميري. الروض المعطار ص ١٠٥ - ١٠٨، ٥٠١ - ٥٠٢.

(٢) الطبري ج ٤ ص ٤٠.

(٣) في الطبري: أبدءوا.

(٤) خددهم: أهزلهم. وفي الأصول: «حرّدهم».

(٥) في الطبري: لا يرضى.

حذيفة في شرقي الفرات (لا يرضى شيئاً) حتى أتى الكوفة، فأتيا عليها وفيها ديارات ثلاث: دير حرقة، ودير أم عمرو، ودير سلسله، وأخصاص خلال ذلك، فأعجبتهما البقعة، فنزلا فصليا، وقال كل واحد منهما: اللهم رب السموات وما أظلت، ورب الأرضين وما أقلت، ورب الريح وما أذرت، والنجوم وما هوت، والبحار وما جرت، والشياطين وما أضلت، والخصاص وما أجنت، بارك لنا في هذه الكوفة، واجعله منزل ثبات. فرجعا إلى سعد بالخبر.

وذكر المدائني أن الناس اجتووا المدائن بعد أن رجعوا من جلولاء، فشكوا ذلك إلى عمر، فقال عمر: هل تصبر بها الإبل؟ قالوا: لا، لأن بها بعوضاً، قال: فإن العرب لا تصبر ببلاد لا تصبر بها الإبل، اخرجوا فارتادوا منزلا.

قال أبو وائل: فخرجنا فأردنا أن ننزل الحيرة، فقال رجل من أهلها: يا معشر المعذبين، ألا أدلكم على ما ارتفعت عن البعوضة[1] وتطأطأت عن الثلجة وطعنت في البرية وخالطت الريف؟ قلنا: بلى. فدلنا على الكوفة، فاختط الناس ونزلوا الكوفة، فكتب إلى عمر بذلك.

وذكر سيف[2] عمن سماه من رجاله قالوا: مصر المسلمون المدائن وأوطنوها، حتى إذا فرغوا من جلولاء وتكريت وأخذوا الحصنين كتب عمر إلى سعد أن ابعث عتبة بن غزوان إلى فرج الهند فليرتد منزلاً يمصره، وابعث معه سبعين رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ وابعث بعده عرفجة بن هرثمة، واجعل مكانه الحارث بن حسان، وابعث عاصم بن عمرو، وحذيفة بن محصن، ومجزأة ابن ثور، والحصين بن القعقاع، فخرج عتبة في سبعمائة من المدائن وأتبعه عرفجة في سبعمائة ثم عاصم ثم حذيفة ثم مجزأة ثم الحصين، كل واحد منهم في سبعمائة، ثم سعد بن سلمى في سبعمائة فساروا حتى أتوا على البصرة اليوم فنزلوها وثبتوا بها، والبصرة كل أرض حجارتها جص.

---

(١) في الأصل: البعوطة.

(٢) الطبري ج ٤ ص ٤٣.

قالوا [١]: ولما نزل أهل الكوفة الكوفة، واستقرت بأهل البصرة الدار، عرف القوم أنفسهم، وثاب إليهم ما كانوا فقدوا. ثم إن أهل المصرين استأذنوا في بنيان القصب، فقال عمر - رضي الله عنه - : العسكرة أجدّ لحربكم وأذكى لكم، وما أحب أن أخالفكم، وما القصب؟ قالوا: العكرش إذا رُوِيَ قَصَّبَ فصار قصباً، قال: فشأنكم، فابنوا بالقصب، ثم وقع الحريق في المصرين، وكانت الكوفة أشدهما حريقاً، فاحترق ثمانون عرشاً [٢]، ولم يبق فيها قصبة، فبعث سعد نفراً منهم إلى عمر يستأذنونه في البنيان باللبن، ويخبرونه عن الحريق، وما بلغ منهم - وكانوا لا يدعون شيئاً ولا يأتونه إلا أمروه [٣] فيه - فقال: ابنوا، ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات، ولا تطاولوا في البنيان، والزموا السنة تلزمكم الدولة. فرجع القوم بذلك إلى الكوفة.

وكتب عمر إلى عتبة وأهل البصرة بمثل ذلك، وعهد عمر إلى الوفد، وتقدم إلى الناس ألا يرفعوا بنياناً فوق القدر، قالوا: وما القدر؟ قال: ما لا يقربكم من السرف، ولا يخرجكم من القصد.

فأول شيء خط بالكوفة، وبني حين عزموا على البناء المسجد، فاختط ثم قام رجل شديد النزع، فرمى عن يمينه ومن بين يديه ومن خلفه وعن شماله، وأمر من شاء أن يبني وراء مواقع تلك السهام، وبنوا لسعد داراً بحياله، بينهما الطريق، وجعل فيها بيوت الأموال، وهي قصر الكوفة اليوم، وبنى سعد في الذي خطوا للقصر قصراً بحيال محراب مسجد الكوفة اليوم، وجعل فيه بيت المال، وسكن ناحيته. ثم إن بيت المال نقب عليه منه، فأخذ من المال. وكتب سعد بذلك إلى عمر، ووصف له موضع الدار وبيوت المال من الصحن، فكتب إليه عمر: أن انقل المسجد حتى تضعه إلى جانب الدار، واجعل الدار قبالته، فإن للمسجد أهلاً بالنهار وبالليل، وفيهم حصن لمالهم، فنقل المسجد وأراغ بنيانه، فقال له

(١) المصدر السابق ج ٤ ص ٤٣.

(٢) في الأصل: عروشاً.

(٣) أمروه: شاوروه.

دهقان من أهل همذان، يقال له روزبة بن بزرجمهر: أنا أبنيه لك، وأبني لك قصراً وأصلهما، ويكون بنياناً واحداً. فخط قصر الكوفة على ماخط عليه، ثم أنشأه من بعض آجر قصر كان للأكاسرة في ضواحي الحيرة على مساحته اليوم، ووضع المسجد بحيال بيوت الأموال، وكان بنيانه على أساطين من رخام، كانت لكنائس لكسرى بغير مجنبات، فلم يزل على ذلك حتى بنى زمن معاوية بنيانه اليوم على يدي زياد. ولما أراد زياد بناءه دعا بنائين من بنائي الجاهلية، فوصف لهم موضع المسجد وقدره وما يزيد من طوله في السماء، وقال: أشتهي من ذلك شيئاً لا أقع على صفته، فقال له بناء قد كان بني لكسرى: لا يجيء هذا إلا بأساطين من جبال الأهواز، تنقر ثم تثقب، وتحشى بالرصاص وبسفافيد (١) الحديد، فترفعه ثلاثين ذراعاً في السماء ثم تسقفه، ثم تجعل له مجنبات ومواخر، فيكون أثبت له. فقال: هذه الصفة التي كانت نفسي تنازعني إليها ولم تعبرها.

قال عطاء مولى إسحاق بن طلحة (٢): كنت أجلس في المسجد الأعظم من قبل أن يبنيه زياد، وليست له مجنبات ولا مواخر، فأرى منه دير هند وباب الجسر.

وذكر الطبري (٣) عن المدائني أن عمر بن الخطاب وجه عتبة بن عزوان إلى البصرة سنة أربع عشرة، وذكر عن الشعبي قال: قتل مهران في صفر سنة أربع
عشرة. / / فقال عمر لعتبة: قد فتح الله على إخوانكم الحيرة وما حولها، وقتل عظيم ٢٠٨ أ
من عظمائها، ولست آمن أن يمدهم إخوانهم من أهل فارس، فأنا أريد أن أوجهك إلى أرض الهند - والبصرة يومئذ تدعى أرض الهند - لتمنع أهل ذلك الحيز من إمداد إخوانهم على إخوانكم وتقاتلهم، لعل الله أن يفتح عليكم. فسر على بركة الله، واتق الله ما استطعت، واحكم بالعدل، وصل الصلاة لوقتها، وأكثر ذكر الله.

---

(١) السفافيد: جمع سفود، حديدة معقفة ذات شعب.

(٢) الطبري ج ٤ ص ٤٧.

(٣) نفسه ج ٣ ص ٥٩٠، وكذا الأخبار الطوال ص ١١٦ - ١١٨.

فأقبل عتبة في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وضوى إليه قوم من الأعراب وأهل البوادي، فقدم البصرة في خمسمائة، يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً.

وذكر من طريق آخر[1] أنه قدمها في ثلاثمائة، فلما رأى منبت القصب، وسمع نقيق الضفادع قال: إن أمير المؤمنين أمرني أن أنزل أقصى البر من أرض العرب، وأدنى أرض الريف من أرض العجم، فهذا حيث وجب علينا طاعة إمامنا. فنزل الخريبة.

وفي حديث الشعبي[2]: وليس بها - يعني بالبصرة - يومئذ إلا سبع دساكر، فكتب إلى عمر، ووصف له منزله. فكتب إليه عمر: أجمع الناس موضعاً واحداً ولا تفرقهم، وأقام عتبة أشهراً لا يغزو ولا يلقى أحداً.

وفي حديث آخر[3]: أن عتبة أقبل بمن كان معه حتى إذا كانوا بالمربد وجدوا هذا الكذان[4]. قالوا: هذه البصرة، فساروا حتى بلغوا حيال الجسر الصغير، فإذا حلفاء وقصب نابتة، فقالوا: هاهنا أمرتم، فنزلوا دون صاحب الفرات، فأتى فقيل له: إن هاهنا قوماً معهم راية، وهم يريدونك، فأقبل في أربعة آلاف أسوار، فقال: ما هم إلا ما أرى، اجعلوا في أعناقهم الحبال، وأتوني بهم، فجعل عتبة يوجل[5] ويقول: إني شهدت القتال مع رسول الله ﷺ يعني فكان لا يقاتل حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر، حتى إذا زالت الشمس، قال عتبة لأصحابه: احملوا، فحملوا عليهم فقتلوهم أجمعين، إلا صاحب الفرات، أخذوه أسيراً، فقال عتبة: ابغوا لنا منزلاً هو أنزه من هذا - وكان يوم عكاك[6] - فرفعوا له منبراً، فقام يخطب، فقال: إن

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٥٩٤.

(٢) نفسه ج ٣ ص ٥٩١.

(٣) نفسه ج ٣ ص ٥٩١ - ٥٩٢.

(٤) الكذان: حجارة رخوة كالمدر.

(٥) في الطبري: يزجل (أي يرفع صوته)، ويوجل: يخوف.

(٦) العكاك: شدة الحر مع سكون الريح.

الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء [١]، ولم يبق منها إلا صبابة [٢] الإناء. ألا وأنكم منتقلون منها إلى دار القرار، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم. ولقد ذكر لي: أن صخرة ألقيت من شفير جهنم هوت سبعين خريفاً، ولتملأنه، أفعجبتم! ولقد ذكر لي أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عاماً، وليأتين عليه يوم وله كظيظ [٣] من الزحام، ولقد رأيتني وإني لسابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق السمر، حتى تقرحت أشداقنا، والتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد، فما منا من أولئك السبعة من أحد إلا وهو أمير مصر من الأمصار، وستجربون الأمراء بعدنا [٤].

وفي بعض ما ذكره الطبري [٥] من الأحاديث عن مقدم عتبة البصرة، وأنه نزل الخريبة قال: وبالأبلة خمسمائة من الأساورة يحمونها. وكان مرفأ السفن من الصين وما دونها، فسار عتبة فنزل دار الإجانة، فأقام نحواً من شهر، ثم خرج إليه أهل الأبلة فناهضهم عتبة، وجعل قطبة بن قتادة السدوسي، وقسامة بن زهير المازني في عشرة فوارس، وقال لهما: كونا في ظهورنا، فتردا [٦] المنهزم، وتمنعا من أرادنا من ورائنا. ثم التقوا فما اقتتلوا مقدار جزر جزور وقسمها، حتى منحهم الله أكتافهم، وولوا منهزمين، حتى دخلوا المدينة، ورجع عتبة إلى عسكره فأقاموا أياماً وألقى الله في قلوبهم الرعب فخرجوا عن المدينة، وحملوا ما خف لهم، وعبروا إلى الفرات، وخلوا [٧] المدينة، فدخلها المسلمون فأصابوا متاعاً وسلاحاً وسبياً رميناً، فاقتسموا العين، فأصاب كل رجل منهم درهمان،

(١) حذاء: مسرعة.

(٢) الصبابة: البقية.

(٣) الكظيظ: الممتلىء.

(٤) خطبة عتبة في صحيح مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه - راجع: المزي: تحفة الأشراف ج٧ ص٢٣٣.

(٥) الطبري ج ٣ ص ٥٩٤.

(٦) خلوها: تركوها.

(٧) في الأوصل: فتردان.. وتمنعان.

وولي نافع بن الحارث أقباض الأبلة، فأخرج خمسه ثم قسم الباقي بين من أفاء الله عليه، وكتب بذلك (مع) نافع بن الحارث[1].

وقال داود بن أبي هند: أصاب المسلمون بالأبلة من الدراهم ستمائة درهم، فأخذ كل رجل درهمين، ففرض عمر لأصحاب الدرهمين في ألفين من العطاء.

وقال الشعبي [2]: شهد فتح الأبلة مائتان وسبعون، فيهم أبو بكرة، نفيع[3] بن الحارث، وشبل بن معبد، والمغيرة بن شعبة، ومجاشع بن مسعود، وأبو مريم البلوي.

وفي حديث يروى عن عمرة ابنة قيس [4]: أنه لما خرج الناس لقتال أهل الأبلة، وكانوا حيالها، قالوا للعدو: نعبر إليكم أو تعبرون إلينا؟ قال: اعبروا إلينا، فأخذوا خشب العشر [5] فأوثقوه، وعبروا، فقال المشركون: لا تأخذوا أولهم حتى يعبر آخرهم. فلما صاروا على الأرض كبروا تكبيرة، ثم كبروا الثانية، فقامت دوابهم على أرجلها، ثم كبروا الثالثة، فجعلت الدابة تضرب بصاحبها الأرض، وجعلنا ننظر إلى رءوس تندر، ما نرى من يضربها، وفتح الله على أيديهم المدينة.

وقال سلمة بن المحبق [6]: شهدت فتح الأبلة، فوقع في سهمي قدر نحاس، فلما نظرت إذا هي ذهب فيها ثمانون ألف مثقال، وكتب في ذلك إلى عمر، فكتب: أن تصبر[7] يمين سلمة بالله لقد أخذها يوم أخذها وهي عنده نحاس، فإن حلف سلمت إليه، وإلا قسمت بين المسلمين. قال: فحلفت، فسلمت لي.

---

(١) في الهامش: هو أخو أبي بكرة الآتي ذكره بعد سطرين - راجع الطبري ج ٣ ص ٥٩٤.

(٢) نفسه ج ٣ ص ٥٩٥.

(٣) كذا في الأصول، وفي المصادر: «نافع».

(٤) الطبري ج ٣ ص ٥٩٧.

(٥) العشر: شجر فيه حراق، لم يقتدح الناس في أجود منه.

(٦) الطبري ج ٣ ص ٥٩٦.

(٧) أي تحبس على اليمين حتى يحلب بها.

قال المثنى بن موسى بن سلمة : فأصول أموالنا اليوم منها .

وقال عباية بن عبد عمرو [١] : شهدت فتح الأبلة مع عتبة ، فبعث نافعاً إلى عمر ، وجمع لنا أهل دست ميسان ، فقال عتبة : أرى أن نسير إليهم ، فسرنا فلقينا مرزبان دست ميسان ، فقاتلناه ، فانهزم أصحابه وأخذ أسيراً ، فأخذ قباؤه ومنطقته فبعث بها عتبة مع أنس بن حجية اليشكري .

قال أبو المليح الهذلي [٢] : فسأله عمر : كيف المسلمون ؟ قال : انثالت عليهم الدنيا ، فهم يهيلون الذهب والفضة . فرغب الناس في البصرة فأتوها .

وعن علي بن زيد [٣] قال [٤] : لما فرغ عتبة من الأبلة جمع له مرزبان دست ميسان [٥] فسار إليه عتبة من الأبلة فقتله ، ثم سرح مجاشع بن مسعود إلى الفرات وبها مدينة ، ووفد عتبة إلى عمر ، وأمر المغيرة بن شعبة أن يصلي بالناس حتى يقدم مجاشع من الفرات ، فإذا قدم فهو الأمير ، فظفر مجاشع بأهل الفرات ، ورجع إلى البصرة ، وجمع الميلكان - عظيم من عظماء الأعاجم - للمسلمين ، فخرج إليه المغيرة ، فلقيه بالمرغاب [٦] ، فظفر به ، فكتب إلى عمر بالفتح ، فقال عمر لعتبة : من استعملت على البصرة ؟ فقال : مجاشع بن مسعود ، قال : تستعمل رجلاً من أهل الوبر على أهل المدر ؟ تدري ما حدث ؟ قال : لا ، فأخبره بما كان من
أمر المغيرة ، وأمره أن يرجع إلى عمله ، فمات عتبة في الطريق ، // واستعمل عمر ٢٠٨ ب
المغيرة .

وفي رواية أن أهل ميسان هم الذين جمعوا ، فلقيهم المغيرة ، وظهر عليهم قبل قدوم مجاشع من الفرات ، وبعد أن شخص عتبة إلى عمر أثر ما قتل مرزبان دست ميسان .

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٥٩٥ .

(٢) نفسه ، والأخبار الطوال ص ١١٧ .

(٣) في الأصول : زياد .

(٤) الطبري ج ٣ ص ٥٩٥ .

(٥) كورة كبيرة بين واسط والبصرة والأهواز - راجع ياقوت . معجم البلدان .

(٦) المرغاب : بالفتح ثم السكون : موضع نهر بالبصرة - نفسه ج ٥ ص ١٠٧ .

وذكر الطبري بسنده عن قتادة قال [1] : جمع أهل ميسان للمسلمين، فسار إليهم المغيرة، وخلف الأثقال، فلقيهم دون دجلة، فقالت أردة بنت الحارث بن كلدة: لو لحقنا بالمسلمين فكنا معهم، فاعتقدت لواء من خمارها، واتخذ النساء من خمرهن رايات، وخرجن يردن المسلمين، فانتهين إليهم، والمشركون يقاتلونهم، فلما رأى المشركون الرايات مقبلة، ظنوا أن مدداً أتى المسلمين فانكشفوا، وأتبعهم المسلمون، فقتلوا منهم عدة.

أردة بنت الحارث بن كلدة:

هذه كانت تحت شبل بن معبد البجلي، وكانت أختها صفية عند عتبة بن غزوان، فلما ولي عتبة البصرة، انحدر معه أصهاره، أبو بكرة ونافع وشبل، وانحدر معهم زياد، فلما فتحوا الأبلة لم يجدوا قاسماً يقسم بينهم، فكان زياد قاسمهم، وهو ابن أربع عشرة سنة، له ذؤابة، فأجروا عليه كل يوم درهمين.

قال الطبري [2] : وكان ممن سبي من ميسان يسار أبو الحسن البصري، وأرطبان جد عبد الله بن عون بن أرطبان.

والأخبار في شأن هذين المصرين يوهم ظاهرها الاختلاف المتباين في وقت عمارة المسلمين لها، فأكثرها على أن ذلك كان بعد المدائن، وبعد جلولاء، وقد ذكرنا ما ذكر الطبري في بعض ما أورده، أن عمر وجه الناس مع عتبة إلى البصرة في سنة أربع عشرة، وهذا يقتضي أنه قبل القادسية، فضلاً عن المدائن، وكذلك ذكر المدائني من حديث حميد بن هلال، أن خالد بن عمير العدوي حدثه قال: لما كان أيام القادسية، كتب إلينا أهل الكوفة يستمدوننا، فأمدهم أهل البصرة بألف وخمسمائة راكب، كنت فيهم، فقدمنا على سعد بالقادسية وهو مريض، وذكر بقية الحديث.

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٥٩٦ .

(٢) نفسه.

ولعل نزول المسلمين بهذين الموضعين كان متقدماً على تمصيرهما وبنيانهما بزمان، ومع ذلك فلا يرتفع الخلاف في ذلك بين الأخبار كل الارتفاع، والله تعالى أعلم.

وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ قد أمر سعداً بعدما وجهه إلى العراق أن يجعل الناس أعشاراً، فلما كان بعد ذلك رجح الأعشار بعضهم بعضاً رجحاناً كثيراً، فكتب سعد إلى عمر في تعديلهم، فكتب إليه: أن عدلهم، فأرسل سعد إلى قوم من نساب العرب وعقلائهم وذوي الرأي منهم، كسعيد بن نمران، ومشعلة بن نعيم، فعدلوهم فجعلوهم أسباعاً، فلم يزالوا كذلك عامة إمارة معاوية حتى ولي زياد فربعهم.



ذكر الجزيرة، وذكر السبب الذي دعا عمر إلى الأمر بقصدها[1]

وذلك أن هرقل أغزى حمص في البحر بعد أن غلب عليها المسلمون، واستمد أهل الجزيرة على أبي عبيدة ومن فيها من المسلمين، فأجابوه، وبلغت أمداد الجزيرة ثلاثين ألفاً، سوى أمداد قنسرين من تنوخ وغيرهم، فبلغوا من المسلمين كل مبلغ، فضم أبو عبيدة مسالحه، وعسكروا بفناء مدينة حمص، وخندقوا عليها، وكتبوا إلى عمر واستصرخوه، وكان عمر - رضي الله عنه - قد اتخذ في كل مصر على قدرها خيولاً من فضول أموال المسلمين، عدة لما يعرض، فكان من ذلك بالكوفة أربعة آلاف فرس يشتيها في قبلة قصر الكوفة وميسرته، بمكان يسمى لأجل ذلك الآريّ، ويربعها فيما بين الفرات والأبيات من الكوفة، مما يلي العاقول، فسمته الأعاجم «آخر الشاهجان»، يعنون معلف الأمراء، وكان قيمه عليها سلمان بن ربيعة الباهلي في نفر من أهل الكوفة، يصنع سوابقها، ويجريها في كل يوم، وبالبصرة نحو منها، وقيمه عليها جزء بن معاوية، وفي كل مصر من الأمصار على قدره، فلما وقع إلى عمر كتاب أبي عبيدة يستصرخه، كتب إلى سعد بن أبي وقاص: أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو، وسرحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى حمص، فإن أبا عبيدة قد أحيط به، وتقدم إليهم[2] في الجد والحث.

وكتب إليه - أيضاً: أن سرح سهيل بن عدي إلى الجزيرة في الجند، وليأت الرقة فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص، وإن أهل

---

(١) الخبر في الطبري ج ٤ ص ٥٠ وما بعدها، والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٣٧٢ - ٣٧٩، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٧٦، وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١٠٩ وما بعدها.
(٢) تقدم إليهم: أمرهم.

قرقيسيا لهم سلف، وسرح عبد الله بن عتبان إلى نصيبين، ثم لينفضا حران والرها، وسرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ، وسرح عياض بن غنم، فإن كان قتال فقد جعلت أمرهم جميعاً إلى عياض، فمضى القعقاع في أربعة آلاف من يومهم الذي أتاهم فيه الكتاب نحو حمص - وحديثهم مذكور في أمر حمص من فتح الشام، وإنما أعيد منه هنا هذا القدر تطريقاً لحديث الجزيرة وتمهيداً له - وخرج عياض بن غنم، وأمراء الجزيرة، فسلكوا طريق الجزيرة على الفراض وغيرها، فتوجه كل أمير إلى الكورة التي أمّر عليها، ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم على أهل حمص أن الجنود قد خرجت من الكوفة، ولم يدروا: الجزيرة يريدون أم حمص؟ تفرقوا إلى بلدانهم خوفاً عليها، وخلوا الروم، فأتى سهيل بن عدي حتى انتهى إلى الرقة، وقد حصر فيها أهلها الذين ارفضوا عن حمص، فنزل عليهم، وأقام محاصرهم حتى صالحوه، وذلك أن قالوا فيما بينهم: إنكم بين أهل العراق وأهل الشام، فما بقاؤكم على حرب هؤلاء وهؤلاء؟ فبعثوا بذلك إلى عياض، وهو في منزل واسط بالجزيرة، فقبل منهم وعقد لهم عن أمرة سهيل بن عدي، وخرج عبد الله بن عبد الله بن عتبان، فسلك على دجلة حتى انتهى إلى الموصل، عبر إلى بلد ثم أتى نصيبين، فلقوه بالصلح، وصنعوا كما صنع أهل الرقة، وخافوا مثل الذي خافوا، فعقد لهم عبد الله عن أمر عياض، وأجروا، ما أخذوه عنوة من الرقة ونصيبين، ثم أجابوا مجرى أهل الذمة، ولما أعطى أهل الرقة ونصيبين الطاعة، ضم عياض سهيلاً وعبدالله إليه، فسار بالناس إلى حران، فأخذ ما دونها، فلما انتهى إليهم اتقوه بالإجابة إلى الجزية، فقبل منهم، وأجرى من أجاب بعد غلبته مجرى أهل الذمة، ثم سرح سهيلاً وعبد الله إلى الرها، فاتقوهما بالإجابة إلى الجزية، فقبل ذلك عياض منهم، وأجرى من دونهم مجراهم، فكانت الجزيرة أسهل البلدان أمراً وأيسره فتحاً.

وقال سهيل بن عدي في ذلك:

// وصادَمْنا الفراتَ غداةَ سرْنا ... إلى أهل الجزيرة بالعوالي ٢٠٩ أ

ولم نثن الأعِنَّةَ حين سرْنا ... بِجُرْدِ الخيل والأسَلِ النهال

فأجهضْنا الأولى قادوا لحِمْصٍ — وقد مَنَّوْا أمانيَّ الضلال
أخذنا الرقَّةَ البيضاء لما — رأينا الشهر لوح بالهلال
وازعجت الجزيرة بعد خفض — وقد كانت تخوف بالزوال
وصار الخرج صافيةً إلينا — بأكناف الجزيرة عن تغال

(الوافر)

وقال في ذلك عبد الله بن عتبان:

ألا من مبلغ عني بجيرا — فما بيني وبينك من بعاد
فإن تقبل تلاق العدل فينا — وتنسى ما عهدت من الجهاد
وإن تدبر فما لك من نصيب — نصيبيٌّ فيلحق بالعباد
وقد ألقت نصيبين إلينا — سواد البطن بالخرج السداد
لقد لقيت نصيبين الدواهي — بدهم الخيل والجرد الوراد
ونفست الجياد عن أهل حمص — جنود الروم أصحاب الفساد(*)
وعاين عامر منهم عديداً — ودهماً مثل سائمة الجراد

(الوافر)

وخرج الوليد بن عقبة حتى قدم على بني تغلب وعرب الجزيرة، فنهض معه مسلمهم وكافرهم إلا أياد بن نزار، فإنهم ارتحلوا بكليتهم، فاقتحموا أرض الروم، فكتب الوليد بذلك إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فكتب إلى ملك الروم: إنه بلغني أن حياً من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك، فوالله لتخرجنه أو لننبذن إلى النصارى، ثم لنخرجنهم إليك. فأخرجهم ملك الروم، فتم منهم على الخروج أربعة آلاف، وخنس بقيتهم، فتفرقوا مما يلي الشام والجزيرة من بلاد الروم، فكل أيادي في أرض العرب من أولئك الأربعة آلاف، وأبى الوليد أن يقبل من بني تغلب إلا الإسلام، وكتب فيهم إلى عمر، فأجابه: إنما ذلك لجزيرة (العرب) لا يقبل منهم فيها إلا الإسلام، فدعهم على أن لا ينصروا وليداً، وأقبل منهم إذا أسلموا. فقبل منهم على أن لا ينصروا وليداً، ولا يمنعوا أحداً منهم من الإسلام، وأبى بعضهم إلا الجزاء، ورضي منهم بما

(*) ورد البيت في الأصول مختل الوزن هكذا.

رضي به من العباد وتنوخ.

وفي حديث عن أبي سيف التغلبي[1]: أن رسول الله ﷺ كان عاهد وفد بني تغلب على أن لا ينصروا وليداً، فكان ذلك الشرط على الوفد وعلى من وفدهم، ولم يكن على غيرهم، فلما كان زمان عمر قال مسلموهم: لا تنفروهم بالخراج فيذهبوا، ولكن أضعفوا عليهم الصدقة التي تأخذونها من أموالهم، فإنهم يغضبون من ذكر الجزاء على أن لا ينصروا وليداً إذا أسلم آباؤهم. فخرج وفدهم في ذلك إلى عمر - رحمه الله.

ولما بعث الوليد إليه برءوس النصارى وبديانيهم، فأمرهم عمر بأداء الجزية قالوا له: أبلغنا مأمننا، فوالله لئن وضعت علينا الجزاء لندخلن أرض الروم، ووالله لتفضحنا من بين العرب، فقال لهم: أنتم فضحتم أنفسكم، وخالفتم أمتكم، والله[2] لتؤدنها وأنتم صغرة قمأة[3]، ولئن هربتم إلى الروم لأكتبن فيكم، ثم لأسبينكم. قالوا: فخذ منا شيئاً ولا تسميه جزاء. فقال: أما نحن فنسميه الجزاء، وسموه أنتم ما شئتم. فقال له علي بن أبي طالب وأصغى إليه عمر: يا أمير المؤمنين، ألم يضعف عليهم سعد بن مالك الصدقة؟ قال: بلى، قال: فرضي به منهم جزاء ورضي القوم بذلك. فبنو تغلب تسمى جزيتهم صدقة، وأما تنوخ فلم تبال أي ذلك كان فهم يسمونها الجزية، وكان في (بني) تغلب عز وامتناع، فلا يزالون ينازعون الوليد فيهم بهم ويقول:

إذا ما عصبْت الرأس مني بمِشْوَذٍ[4]   فغيّك مني تغلِبُ ابْنَةَ وائِلِ
(الوافر)

وبلغت عمر - رحمه الله - فخاف أن يخرجوه وأن يضعف صبره فيسطو عليهم، فعزله وأمر عليهم فرات بن حيان وهند بن عمرو (الجملي).

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٥٦.

(٢) في الطبري: تالله، وفي ابن كثير: فوالله.

(٣) القميء، الحقير.

(٤) المشوذ: العمامة، والبيت في تاج العروس مادة «شوذ»، وفي اللسان - كذلك.

ذكر فتح سوق الأهواز ومناذر ونهرتير [1]

ذكر سيف عن شيوخه قالوا [2] : لما انهزم الهرمزان بالقادسية جعل وجهه إلى أمته، فملكهم وقاتل بهم من أرادهم، فكان يغير على ميسان ودست ميسان من وجهين، من مناذر ونهرتير، فاستمد عتبة بن غزوان سعداً فأمده بنعيم بن مقرن ونعيم بن مسعود، وأمرهما أن يكونا بين أهل ميسان ودست ميسان وبين نهرتير، ووجه عتبة ـ سلمى بن القين وحرملة بن مريطة الحنظليين، فنزلا على حدود أرض ميسان (ودست ميسان) [3]، بينهم وبين مناذر، ودعوا بني العم بن مالك، فخرج إليهم غالب الوائلي وكليب بن وائل الكلبي، فتركا نعيماً (ونعيما) [4]، وأتيا سلمى وحرملة، وقالا: أنتما من العشيرة، وليس لكما منزل، فإذا كان يوم كذا فانهدوا للهرمزان، فإن أحدنا يثور بمناذر، والآخر بنهرتير، فنقتل المقاتلة، ثم يكون وجهنا إليكم، فليس دون الهرمزان شيء إن شاء الله.

فلما [5] كانت ليلة الموعد خرج سلمى وحرملة صبيحتها في تعبئة، وأنهضا نعيماً، ونعيم وسلمى على أهل البصرة، ونعيم بن مقرن على أهل الكوفة، فالتقوا هم والهرمزان بين دلث ونهرتير فاقتتلوا، فبينا هم في ذلك أقبل المدد من قبل

---

(١) الخبر منقول عن الطبري ج ٤ ص ٧٢ ـ ٧٧ . وهو في فتوح البلدان للبلاذري ص ٤٦٤ وما بعدها، والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٣٧٩ ـ ٣٨٢، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٨٢ ـ ٨٣، وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١١ وما بعدها.

(٢) الطبري ج ٤ ص ٧٢ ـ ٧٣.

(٣) الإضافة من الطبري.

(٤) ساقط من الأصول مثبت من الطبري، وهما: نعيم بن مقرن، ونعيم بن مسعود.

(٥) الطبري ج ٤ ص ٧٤.

غالب وكليب، وأتى الهرمزان الخبر بأخذ مناذر ونهرتير، فكسر الله في ذرعه وذرع جنده، وهزمه وإياهم، فقتل المسلمون منهم ما شاءوا وأصابوا ما شاءوا وأتبعوهم حتى وقفوا على شاطيء دجيل، وأخذوا ما دونه، وعسكروا بحيال سوق الأهواز، وقد عبر الهرمزان جسر سوق الأهواز، وأقام بها، وصار دجيل بينه وبين المسلمين، ورأى الهرمزان ما لا طاقة له به، فطلب الصلح وكتبوا إلى عتبة يستأمرونه فيه، وكاتبه الهرمزان، فأجاب عتبة إلى ذلك على الأهواز كلها ومهرجان قذق، ما خلا نهرتير ومناذر، وما غلبوا عليه من سوق الأهواز، فإنا لا نرد عليهم ما تنقذنا. وجعل عتبة على مناذر سلمى بن القين مسلحة وأمرها إلى غالب، وحرملة على نهرتير، وأمرها إلى كليب، فكانا على مسالح البصرة، وهاجرت طوائف بني العم، فنزلوا البصرة، وجعلوا يتبايعون على ذلك، وكتب عتبة بذلك إلى عمر - رحمه الله - ووفد وفداً منهم سلمى وحرملة وأمرهما أن يستخلفهما على عمليهما وغالب وكليب، ووفد يومئذ من البصرة // وفوداً، فأمرهم ٢٠٩ ب
عمر أن يرفعوا حوائجهم، فكلهم قال: أما العامة فأنت صاحبها، فلم يبق إلا خواص أنفسنا، فطلبوا لأنفسهم، إلا ما كان من الأحنف بن قيس، فإنه قال: يا أمير المؤمنين، إنه لكما ذكروا، ولقد يغرب عنك ما يحق علينا إنهاؤه إليك مما فيه صلاح العامة، وإنما ينظر الوالي فيما غاب عنه بأعين أهل الخير، ويسمع بآذانهم، (وإنا لم نزل ننزل منزلاً بعد منزل حتى أرزنا إلى البر)(١)، وإن إخواننا من أهل الكوفة نزلوا في مثل حدقة البعير الغاسقة(٢)، من العيون العذاب، والجنان الخصاب، فتأتيهم ثمارهم غضة، لم تخضد، وإنا معاشر أهل البصرة نزلنا بسبخة(٣) هشاشة(٤) زعقة(٥) نشاشة(٦)، طرف لها في الفلاة،

---

(١) الإضافة من الطبري.
(٢) في هامش ط، ح: أي المظلمة.
(٣) السبخة: أرض ذات ملح.
(٤) هشاشة: لينة.
(٥) زعقة: أي ماؤها مر.
(٦) نشاشة: أي لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها.

وطرف لها في البحر الأجاج، يجر إليها ما جر في مثل مرىء النعامة، دارنا مفعمة، ووظيفتنا [1] ضيقة، وعددنا كثير، وأشرافنا قليل، وأهل البلاء فينا كثير، ودرهمنا كبير، وفقيرنا صغير، وقد وسع الله علينا، وزادنا في أرضنا، فوسع علينا يا أمير المؤمنين، وزدنا وظيفة، تطوف علينا، ونعيش بها. فنظر عمر إلى منازلهم التي كانوا بها، إلى أن صاروا إلى الحجر، فنفلهموها، وأقطعهم إياها - وكان ذلك مما كان لآل كسرى - فصار فيئاً فيما بين دجلة والحجر، فاقتسموه، وكان سائر ما كان لآل كسرى في أرض البصرة على (حال) ما كان في أرض الكوفة ينزلونه من أحبوا، ويقتسمونه بينهم، لا يستأثرون به على بدء ولا ثني، بعدما يرفعون خمسه إلى الوالي. فكانت قطائع أهل البصرة نصفين، نصفها مقسوم، ونصفها متروك للعسكر وللاجتماع، وكان أصحاب الألفين ممن شهد القادسية ثم أتى البصرة مع عتبة خمسة آلاف، وكانوا بالكوفة ثلاثين ألفاً، فألحق عمر أعدادهم بأهل البصرة، حتى ساواهم بهم، ألحق جميع من شهد الأهواز، ثم قال: هذا الغلام سيد أهل البصرة - يعني الأحنف - وكتب إلى عتبة أن يسمع منه، ورد سلمى وحرملة وغالباً وكليباً إلى مناذر ونهرتير، فكانوا عدة فيها لما يعرض.



(١) في الهامش: الوظيفة ما يقدر للإنسان كل يوم من طعام أو رزق.

حديث فتح الأهواز ومدينة سُرّق

واتصل ما بين أهل البصرة وبين أهل ذمتهم، على ما ذكر، إلى أن وقع بين الهرمزان وبين غالب وكليب في حدود الأرضين اختلاف، فحضر سلمى وحرملة لينظرا فيما بينهم، فوجدا غالباً وكليباً محقين، والهرمزان مبطلاً، فحالا بينه وبينهما، فكفر الهرمزان، ومنع ما قبله، واستعان بالأكراد، فكثف جنده. وكتبوا ببغيه وكفره إلى عتبة، فكتب بذلك إلى عمر، فأمدّهم عمر بحرقوص ابن زهير السعدي - وكانت له صحبة - وأمّره على القتال، وعلى ما غلب عليه. فنهدوا معه، ونهد الهرمزان بمن معه حتى إذا انتهوا إلى جسر سوق الأهواز عبر الهرمزان فوق الجسر، بعد أن خيرهم، فقالوا له: أعبر، فاقتتلوا هنالك، فهزم الله الهرمزان، ووجه نحو رامهرمز، وافتتح حرقوص سوق الأهواز، فأقام بها، ونزل الجبل، واتسقت له بلاد سوق الأهواز إلى تستر، ووضع الجزية، وكتب بالفتح والأخماس إلى عمر، فحمد الله، ودعا[1] (له) بالثبات والزيادة.

وكان عمر - رضي الله عنه - قد عهد إلى حرقوص: إن فتح الله عليهم أن يبعث جزء بن معاوية في أثر الهرمزان، وهو متوجه إلى رامهرمز، فما زال يقاتلهم حتى انتهى إلى قرية الشغر، وأعجزهم بها الهرمزان، فمال منها جزء إلى دورق، ومدينة سرق فيها قوم لا يطيقون منعها، فأخذها صافية، ودعا من هرب إلى الجزاء والمنعة، فأجابوه، وكتب بذلك كله إلى عمر وإلى عتبة، فكتب عمر - رحمه الله - إلى جزء وإلى حرقوص بلزوم ما غلبا عليه، والمقام

---

(١) في الأصول: ودعاه.

حتى يأتيهما أمره، ففعلا، واستأذنه جزء في عمران ما دثر، فأذن له، فشق الأنهار، وعمر الموات.

ولما نزل الهرمزان رامهرمز وضاقت عليه الأهواز بالمسلمين، طلب الصلح وراسل فيه حرقوصاً وجزءاً، فكتب فيه حرقوص إلى عمر، فكتب إليه وإلى عتبة، يأمر بقبول صلح الهرمزان على ما لم يفتتحوا من البلاد، على رامهرمز وتستر والسوس وجندي سابور والبنيان[1] ومهرجان نقذق[2]، فقبل ذلك الهرمزان، وأجابهم إليه، فأقام أمراء الأهواز على ما أسند إليهم عمر، وأقام الهرمزان على صلحه يجبي إليهم ويمنعونه، وإن غاوره أكراد فارس أعانوه وذبوا عنه.

وكتب عمر إلى عتبة أن يوفد عليه عشرة من صلحاء جند البصرة، فوفد إليه منهم عشرة، فيهم الأحنف بن قيس. فلما قدموا عليه، قال للأحنف: إنك عندي مصدق، وقد رأيتك رجلاً، فأخبرني: أظلمت الذمة، ألمظلمة نفروا، أم لغير ذلك؟ فقال: بل لغير مظلمة، والناس على ما تحب، قال: فنعم إذا انصرفوا إلى رحالكم.

وكتب عمر إلى عتبة: أن اصرف الناس عن الظلم، واتقوا الله، واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغي، فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه، وقد تقدم إليكم فيما أخذ عليكم، فأوفوا بعهد الله، وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً.

وبلغ عمر ـ رحمه الله ـ أن حرقوصاً نزل جبل الأهواز والناس يختلفون إليه، والجبل كئود يشق على من رامه، فكتب إليه: بلغني أنك نزلت منزلاً كئوداً لا تؤتي فيه إلا على مشقة، فأسهل ولا تشقن (به) على مسلم ولا معاهد، وقم في أمرك على رجل تدرك الآخرة وتصف لك الدنيا، ولا تدركنك فترة ولا عجلة، فتكدر دنياك وتذهب آخرتك.

---

(١) في الأصول: والثيتان.

(٢) في الأصول: قذق.

ذكر غزو المسلمين أرض فارس[1]

قالوا :[2] : وكان المسلمون بالبصرة وأرضها يومئذ سوادها ، والأهواز على ما هم عليه ، ما غلبوا عليه منها ففي أيديهم ، وما صالحوا عليه ففي أيدي أهله يؤدون الخراج ، ولا يدخل عليهم ، ولهم الذمة والمنعة ، وعميد الصلح الهرمزان. وقد قال عمر - رحمه الله : حسبنا لأهل البصرة سوادهم والأهواز ، وددت أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا نصل إليهم منه ولا يصلون إلينا ، كما قال لأهل الكوفة : وددت أن بينهم وبين الجبل جبلاً من نار لا يصلون إلينا منه ولا نصل إليهم.

وكان العلاء بن الحضرمي على / / البحرين ، رده إليها عمر بعد أن عزله عنها ٢١٠ أ
بقدامة بن مظعون ، وكان العلاء يناوىء سعد بن أبي وقاص لصدع صدعه القضاء بينهما ، فطار العلاء على سعد في الردة بالفضل ، فلما ظفر سعد بالقادسية ، وأزاح الأكاسرة ، واستعلى بأعظم مما كان جاء به العلاء ، أسر العلاء أن يصنع شيئاً في الأعاجم ، ورجاء أن يدال كما قد كان أديل ، ولم يقدر العلاء ، ولم ينظر فيما بين فضل الطاعة وفضل المعصية وعواقبها ، فندب أهل البحرين إلى أهل فارس ، فتسرعوا إلى ذلك ، ففرقهم أجناداً ، على أحدها الجارود بن المعلى ، وعلى الآخر السوار بن همام ، وعلى الآخر خليد بن المنذر بن ساوى ، وهو مع ذلك على جماعة الناس ، فحملهم في البحر إلى فارس بغير إذن عمر ، وكان

---

(١) الخبر منقول عن الطبري ج ٤ ص ٧٩ - ٨٣ ، وهو في الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٣٧٦ - ٣٧٩ ، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ٢٤٩ - ٢٥٠ ، وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٢) الطبري ج ٤ ص ٧٩ وما بعدها.

عمر ـ رحمه الله ـ لا يأذن لأحد في ركوبه غازياً، يكره التغرير بجنده استناناً بالنبي ﷺ وبأبى بكر، إذ لم يغزيا فيه أحداً. فعبرت تلك الجنود من البحرين إلى فارس، فخرجوا في اصطخر، وبإزائهم أهل فارس، قد اجتمعوا على الهربذ [1]، فحالوا بين المسلمين وبين سفنهم، فقام خليد في الناس فقال، إن الله إذا قضى لأحد أمراً جرت به المقادير حتى يصيبه، وإن هؤلاء القوم لم يزيدوا بما صنعوا على أن دعوكم لحربهم، وإنما جئتم لمحاربتهم، والسفن والأرض لمن غلب، ﴿**فاستعينوا بالصبر والصلاة، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين**﴾ (٤٥ : البقرة)، فأجابوه، فصلوا الظهر ثم ناهدوهم فاقتتلوا قتالاً شديداً في موضع يدعى طاووس، وجعل السوار يحض ويذكر قومه عبد القيس [2] حتى قتل، وقتل الجارود، ويومئذ ولى عبد الله بن المسور والمنذر بن الجارود حياتها إلى أن ماتا. وجعل خليد بن المنذر يومئذ يقول للمسلمين: انزلوا، فنزلوا فقاتلوا القوم فقتل أهل فارس مقتلة عظيمة لم يقتلوا قبلها مثلها، ثم خرج المسلمون يريدون البصرة إذ غرقت سفنهم، ولم يجدوا إلى الرجوع في البحر سبيلاً، فوجدوا شهرك قد أخذ عليهم الطرق فعسكروا وامتنعوا.

ولما بلغ عمر ـ رحمه الله ـ ما صنع العلاء من بعثه ذلك الجيش في البحر ـ يعني قبل أن يبلغه ما عرض لهم ـ ألقى في روعه نحو (من) الذي كان، فاشتد غضبه على العلاء وكتب إليه بعزله وتوعده وأمره بأثقل الأشياء عليه، وأبغض الوجوه إليه، بتأمر سعد عليه، وقال: الحق بسعد بن أبي وقاص فيمن قبلك، فخرج نحوه بمن معه.

وكتب عمر إلى عتبة بن غزوان: أن العلاء بن الحضرمي حمل جنداً من

---

(١) في الأصل: الهزيز.

(٢) من رجزه يذكر قومه ما سجله الطبري (ج ٤ ص ٨٠) في هذه الوقعة من قوله:

يــا آل عبــد القيس للقــراع ... قــد حفــل الأمــداد بــالجراع
وكلهــم في سنــن المصــاع ... يحسن ضرب القــوم بــالقطــاع

(الرجز)

المسلمين، فأقطعهم أهل فارس، وعصاني، وأظنه لم يرد الله بذلك، فخشيت عليهم ألا ينصروا وأن يغلبوا وينشبوا، فاندَب الناس إليهم، واضممهم إليك من قبل أن يُجْتاحوا. فندب عتبة الناس، وأخبرهم بكتاب عمر، فانتُدِبَ عاصم بن عمرو وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محصن ومجزأة بن ثور والأحنف بن قيس وصعصعة بن معاوية[1] وآخرون من رءوس المسلمين وفرسانهم، فخرجوا في اثني عشر ألفاً على البغال يجنبون الخيل، وعليهم أبو سبرة بن أبي رهم ـ أحد بني مالك بن حسل بن عامر بن لؤي ـ والمسالح على حالها بالأهواز والذمة، وهم رِدء الغازي والمقيم، فسار أبو سبرة بالناس، وساحل لا يلقاه أحد، ولا يعرض له حتى التقى بخليد وأصحابه بحيث أخذ عليهم الطريق، وكان أهل اصطخر حيث أخذوا عليهم الطريق وأنشبوهم، استصرخوا عليهم أهل فارس كلهم، فضربوا إليهم من كل وجه وكورة، فالتقوا هم وأبو سبرة، وقد توافت إلى المسلمين أمدادهم وإلى المشركين أمدادهم، وعلى المشركين شهرك ـ وهو الذي كان أخذ عليهم الطريق غب وقعة القوم بطاووس ـ فاقتتلوا، ففتح الله على المسلمين، وقُتل المشركون وأصاب المسلمون منهم ما شاءوا، وهي الغزاة التي شرفت بها نابتة[2] البصرة، فكانوا أفضل المصرين نابتة، ثم انكفأوا بما أصابوا، وقد عهد إليهم عتبة وكاتبهم بالحث وقلة العرجة[3]، فانضموا إليه بالبصرة، فرجع أهلها إلى منازلهم منها، وتفرق الذين تنقذوا من أهل هجر إلى قبائلهم، (والذين تنقذوا من عبد القيس في موضع سوق البحرين[4]). ولما أحرز عتبة الأهواز وأوطأ فارس[5]، استأذن عمر في الحج، فأذن له، فلما قضى حجه استعفاه، فأبى أن يعفيه، وعزم عليه ليرجعن إلى عمله، فدعا الله ثم انصرف، فمات

---

(١) في الأصل: وصعصعة بن قيس، والتصويب من الطبري.

(٢) النابتة: النشء الصغير.

(٣) العرجة: المقام.

(٤) الإضافة من الطبري.

(٥) أي غلبها على أمرها.

في بطن نخلة، فدفن بها، ومر به عمر زائراً لقبره، فقال: أنا قتلتك ،لولا أنه أجل معلوم وكتاب مرقوم، وأثنى عليه بفضله. ومات عتبة وقد استخلف على النـاس أبا سبرة بن أبي رهم وعماله على حالهم، ومسالحه على نهرتير ومناذر وسوق الأهواز وسرق. وأمرّ عمر أبا سبرة على البصرة بقية السنة التي مات فيها عتبة، ثم عزله، واستخلف عبد الرحمن بن سهل، ثم استعمل المغيرة بن شعبة فعمل عليها بقية تلك السنة التي ولاه فيها والسنة التي تليها، لم ينتقض عليه أحد في عمله، وكان مرزوق السلامة.



ذكر فتح رامهرمز والسوس وتستر وأسر الهرمزان[1]

ذكر سيف[2] عن أصحابه قالوا: لم يزل يزدجرد يثير أهل فارس أسفاً على ما خرج عنهم، فكتب إليهم وهو بمرو، يذكرهم الأحقاد ويؤنبهم، أن قد رضيتم ياأهل فارس أن غلبتكم العرب على السواد وما والاه، وعلى الأهواز، ثم لم يرضوا بذلك حتى يوردوكم في بلادكم وعقر داركم، فخرجوا وتكاتبوا هم وأهل الأهواز، وتعاهدوا وتواثقوا على النصرة، وجاءت الأخبار حرقوص بن زهير وجزءاً وسلمى وحرملة عن خبر غالب وكليب، فكتبوا إلى عمر وإلى المسلمين بالبصرة، فكتب عمر إلى سعد: أن ابعث إلى الأهواز بعثاً كثيفاً مع النعمان بن مقرن وعجل، وابعث سويد بن مقرن، وعبد الله بن ذي السهمين، وجرير بن عبد الله الحميري، وجرير بن عبد الله البجلي، فلينزلوا بإزاء الهرمزان حتى يتيقنوا أمره. وكتب إلى أبي موسى - وهو على البصرة: أن ابعث إلى الأهواز
جنداً كثيفاً، وأمر عليهم سهيل بن عدى، وابعث معه البراء // بن مالك، وعاصم ٢١٠ ب
بن عمرو، ومجزأة بن ثور، وكعب بن سور، وعرفجة بن هرثمة، وحذيفة بن محصن، وعبد الرحمن بن سهل، والحصين بن معبد، وعلى أهل الكوفة والبصرة جميعاً أبو سبرة بن أبي رهم، وكل من أتاه فمدد له.

وخرج النعمان بن مقرن في أهل الكوفة، فأخذ وسط السواد حتى قطع دجلة

---

(١) الخبر منقول عن الطبري ج ٤ ص ٨٣ وما بعدها، وهو في البدء والتاريخ للبلخي ج ٥ ص ١٨٧ - ١٨٨، والأخبار الطوال للدينوري ص ١٣٢ - ١٣٣، والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٣٨٢ - ٣٨٧، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ٢٤١ - ٢٤٧، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٨٥ - ٨٩.

(٢) الطبري ج ٤ ص ٨٣/ ٨٤.

بجيال ميسان، ثم أخذ البر إلى الأهواز على البغال يجنبون[1] الخيل، وانتهى إلى نهرتير فجازها، وجاز مناذر، ثم شق الأهواز، وخلف حرقوصاً وسلمى وحرملة، ثم سار نحو الهرمزان ـ وهو برامهرمز ـ فلما سمع الهرمزان بمسير النعمان إليه بادره، ورجا أن يقتطعه، وقد طمع في نصر أهل فارس، وقد أقبلوا نحوه، ونزلت أوائل أمدادهم بتستر، فالتقى النعمان والهرمزان بأزبك، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم إن الله هزم الهرمزان، وأخلى رامهرمز ولحق بتستر، وسار النعمان من أربك حتى ينزل برامهرمز، ثم صعد لا يذج، فصالحه عليها تيرويه، فقبل منه وتركها، ورجع إلى رامهرمز فأقام بها.

وجاء سهل في أهل البصرة حتى نزلوا سوق الأهواز، فأتاهم بها خبر الوقعة التي أوقعها النعمان بالهرمزان حتى لحق بتستر، فمالوا نحوه من سوق الأهواز، فكان وجههم منها إلى تستر، ومال النعمان إليها من رامهرمز، وخرج سلمى وحرملة وحرقوص وجزء، فنزلوا جميعاً على تستر، وبها الهرمزان وجنوده من أهل فارس وأهل الجبال وأهل الأهواز في الخنادق، فكتبوا بذلك إلى عمر ـ رحمه الله ـ واستمده أبو سبرة فأمده بأبي موسى، فساجلوهم[2]، وعلى أهل الكوفة النعمان، وعلى أهل البصرة أبو موسى، وعلى الفريقين أبو سبرة، فحاصروهم أشهراً، وأكثروا فيهم القتل. وقتل البراء بن مالك فيما بين أول ذلك الحصار إلى أن فتح الله على المسلمين مبارزة مائة، سوى من قتل في غير المبارزة، وقتل مجزأة بن ثور مثل ذلك، و (قتل) كعب بن سور وأبو تميمة كل واحد منهما مثل ذلك، وهؤلاء (في عدة) من أهل البصرة، وفعل مثل ذلك من الكوفيين رجال منهم حبيب بن قرة، وربعي بن عامر، وعامر بن عبد الأسد ـ وكان من الرؤساء ـ في ذلك، ما ازدادوا به إلى ما كان منهم، وزاحفهم المشركون في أيام تستر ثمانين زحفاً تكون عليهم مرة ولهم أخرى، حتى إذا كان في آخر زحف منها واشتد القتال، قال المسلمون: يا براء أقسم على ربك ليهزمنهم[3]

---

(١) يقال: جنب الدابة إذا قادها إلى جنبه.

(٢) ساجلوهم: باروهم.

(٣) في الأصول: ليهزمهم.

لنا. فقال البراء بن مالك: اللهم اهزمهم (لنا) واستشهدني فهزموهم حتى أدخلوهم خنادقهم ثم اقتحموها عليهم، فارزوا إلى مدينتهم، فأحاط المسلمون بها، فبينا هم على ذلك وقد ضاقت المدينة بهم، وطالت حربهم، خرج رجل إلى النعمان فاستأمنه على أن يدله على مدخل يوصل منه إلى المدينة، ويكون منه فتحها، فأمنه النعمان، فقال: انهدوا من قبل مخرج الماء، ورمى رجل آخر غير ذلك الرجل في ناحية أبي موسى بسهم يستأمنهم فيه على أن يدلهم على ذلك، فأمنوه في نشابة، فرمى إليهم بأخرى، ودلهم على مخرج الماء، فندب الأميران أصحابهما، فانتدب لأبي موسى كعب بن سور ومجزأة بن ثور وبشر كثير. وانتدب للنعمان - أيضاً - بشر كثير منهم: سويد بن المثعبة، وعبد الله بن بشر الهلالي، فنهدوا، فالتقوا هم وأهل البصرة على ذلك المخرج، وقد تسرب سويد وعبد الله، فأتبعهم الفريقان، حتى إذا اجتمعوا فيها - والناس على رجل من خارج - كبروا فيها، وكبر المسلمون من خارج، وفتحت الأبواب، فاجتلدوا فيها، فأناموا كل مقاتل، وأرز الهرمزان إلى القلعة فأطاف به الذين دخلوا من مخرج الماء، فلما عاينوه وأقبلوا قبله قال لهم: ما شئتم، قد ترون ضيق ما أنا فيه وأنتم، وإن معي في جعبتي مائة نشابة، ووالله لا تصلون إليّ، ما دامت معي نشابة، وما يقع لي سهم إلا في رجل، وما خير أسارى إذا أصبت منكم مائة بين قتيل وجريح. قالوا: فتريد ماذا؟ قال: أن أضع يدي في أيديكم على حكم عمر يصنع بي ما شاء، قالوا: فذلك لك، فرمى بقوسه، وأمكنهم من نفسه، فشدوه وثاقاً، واقتسموا ما أفاء الله عليهم، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف، والراجل ألفاً، وجاء الرجل الذي خرج بنفسه إلى النعمان، والآخر الذي رمى بالسهم في ناحية أبي موسى، فقالا للمسلمين: من لنا بالأمان الذي طلبنا علينا وعلى من مال معنا؟ قالوا: ومن مال معكم؟ قالوا: من أغلق عليه بابه مدخلكم. فأجازوا ذلك لهم، وقتل ليلتئذ من المسلمين ناس كثير، منهم مجزأة بن ثور، والبراء بن مالك، قتلهما الهرمزان.

وخرج أبو سبرة من تستر في أثر الفل، وقد قصدوا السوس، وأخرج معه النعمان وأبا موسى ومعهما الهرمزان، حتى نزلوا على السوس، وكتبوا بذلك إلى

عمر، فكتب إلى أبي موسى برده على البصرة، فانصرف عليها، وأمرّ عمر على جند البصرة المقترب ـ وهو الأسود بن ربيعة ـ وكتب إلى زرّ بن عبد الله (ابن كليب) الفقيمي أن يسير إلى جندي سابور، فسار حتى نزل عليها ـ وكان الأسود وزرّ من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين إليه، الوافدين عليه، فقال له الأسود لما وفد عليه: جئت لأقترب إلى الله بصحبتك، فسماه المقترب، وقال له زر: يا رسول الله، فني بطني، وكثر إخوتنا، فادع الله لنا، فقال: اللهم أوف لزر عمارته[1]. فتحول إليهم العدد ـ ووفد أبو سبرة وفداً، فيهم أنس بن مالك، والأحنف بن قيس، وأرسل الهرمزان معهم، فقدموا مع أبي موسى البصرة، ثم خرجوا نحو المدينة، حتى إذا دخلوها هيئوا الهرمزان في هيئته، فألبسوه كسوته من الديباج، ووضعوا على رأسه تاجاً مكللاً بالياقوت، كيما يراه عمر والمسلمون في هيئته، ثم خرجوا به على الناس يريدون عمر في منزله فلم يجدوه، فسألوا عنه، فقيل لهم: جلس في المسجد لوفد قدموا عليه من الكوفة،
٢١١ أ فانطلقوا // يطلبونه في المسجد، فلم يروه، فلما انصرفوا مروا بغلمان يلعبون، فقالوا لهم: ما تلددكم[2] تريدون أمير المؤمنين؟ فإنه نائم في ميمنة المسجد، متوسد برنسه. وكان عمر ـ رحمه الله ـ قد جلس لوفد الكوفة في برنس، فلما فرغ من كلامهم وارتفعوا عنه، وأخلوه نزع برنسه ثم توسده فنام، فانطلقوا ومعهم النظارة، حتى إذا رأوه جلسوا دونه، وليس في المسجد نائم ولا يقظان غيره، والدرة في يده، فقال الهرمزان: أين عمر؟ قالوا: هو ذا، وجعل الوفد يشيرون إلى الناس أن اسكتوا عنه، فقال لهم الهرمزان: أين حرسه وحجابه؟ فقالوا: ليس له حارس ولا حاجب، ولا كاتب ولا ديوان، فقال: ينبغي (له) أن يكون نبياً. قالوا: بل يعمل عمل الأنبياء، وكثر الناس، فاستيقظ عمر ـ رحمه الله ـ بالجلبة، فاستوى جالساً، ثم نظر إلى الهرمزان، فقال: الهرمزان؟ قالوا: نعم، فتأمله، وتأمل ما عليه، وقال: أعوذ بالله من النار، وأستعين الله ثم قال: الحمد لله الذي أذل

(١) في الطبري: عمره.
(٢) التلدد: التلفت يميناً وشمالاً.

بالإسلام هذا وأشباهه[1]، يا معشر المسلمين، تمسكوا بهذا الدين، واهتدوا بهدى نبيكم، ولا تبطرنكم الدنيا فإنها غرارة. فقال الوفد: هذا ملك الأهواز فكلمه. فقال: لا، حتى لا يبقى عليه من حليته شيء، فرمى عنه بكل شيء كان عليه إلا شيئاً يستره، وألبسوه ثوباً صفيقاً، فقال عمر: هي ياهرمزان، كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله؟ فقال: يا عمر، إنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم، فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم، فلما كان معكم غلبتمونا. فقال عمر: إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا. ثم قال عمر: ما عذرك وما حجتك في انتقاضك مرة بعد مرة؟ فقال: أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك، قال: لا تخف ذلك. واستسقى ماء، فأتى به في قدح غليظ، فقال: لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هذا، فأتى به في إناء يرضاه، فجعلت يده ترعد، وقال إني أخاف أن أقتل وأنا أشرب، فقال عمر: لا بأس عليك حتى تشربه، فأكفأه، فقال عمر: أعيدوا عليه، ولا تجمعوا عليه القتل والعطش، فقال: لا حاجة لي في الماء، إنما أردت أن أستأمن به، فقال عمر: إني قاتلك. فقال: قد أمنتني. قال: كذبت. قال أنس: صدق يا أمير المؤمنين، قد أمنته. قال: ويحك يا أنس، أنا أؤمن قاتل مجزأة والبراء بن مالك والله لتأتين بمخرج وإلا عاقبتك[2]. قال: قلت له: لا بأس عليك حتى تخبرني، وقلت له: لا بأس عليك حتى تشربه، وقال له من حوله مثل ذلك، فأقبل على الهرمزان، وقال: خدعتني، والله لا أنخدع إلا أن تسلم[3]، فأسلم ففرض له على ألفين وأنزله المدينة.

ويروى أن المغيرة بن شعبة كان الترجمان يومئذ بين عمر وبين الهرمزان إلى أن جاء المترجم، وكان المغيرة يفقه من الفارسية شيئاً، فقال له عمر: ما أراك بها حاذقاً، ما أحسنها أحد منكم إلا خب، ولا خب إلا دق، إياكم وإياها، فإنها تنقص الإعراب.

---

(١) في الطبري: الذي أذل بالإسلام هذا وأشياعه.

(٢) في الطبري: وإلا لأعاقبنك.

(٣) في الطبري: والله لا أنخدع إلا لمسلم.

ذكر فتح السوس

والأخبار التي نذكرها بعد ذلك شديدة الخلاف لبعض ما تقدم، وكذلك قال أبو جعفر الطبري[1]: إن أهل السير اختلفوا في أمرها. قال: فأما المدائني فإنه قال: لما انتهى فل جلولاء إلى يزدجرد وهو بحلوان، دعا بخاصته وبالموبذ فقال: إن القوم لا يلقون جمعاً إلا فلوه، فما ترون؟ فقال الموبذ: نرى أن نخرج فننزل اصطخر، فإنها بيت المملكة، وتضم إليك خزائنك، وتوجه الجنود. فأخذ برأيه، وسار إلى أصبهان ودعا سياه، فوجهه في ثلاثمائة فيهم سبعون من عظمائهم، وأمره أن ينتخب من كل بلدة يمر بها من أحب، فمضى سياه وأتبعه يزدجرد، حتى نزلوا اصطخر وأبو موسى محاصر السوس، فوجه سياه إلى السوس، والهرمزان إلى تستر، فنزل سياه منزلاً[2] تحول عنه حين سار أبو موسى إلى تستر، فنزل سياه بينها وبين رامهرمز، ودعا الرؤساء الذين كانوا (خرجوا) معه من أصبهان، وقد عظم أمر المسلمين عنده، فقال: قد علمتم أنا كنا نتحدث أن هؤلاء القوم أهل الشقاء والبؤس سيغلبون على هذه المملكة، وتروث دوابهم في إيوانات اصطخر ومصانع الملوك، ويشدون خيولهم بشجرها، وقد غلبوا على ما رأيتم، وليس يلقون جنداً إلا فلوه، ولا ينزلون بحصن إلا فتحوه، فانظروا لأنفسكم. قالوا: رأينا رأيك، قال: فليكفني كل رجل منكم حشمه والمنقطعين إليه، فإني أرى أن ندخل في دينهم. فوجهوا شيرويه في عشرة من الأساورة إلى أبي موسى، فقدم عليه فقال: إنا قد رغبنا في دينكم، فنسلم على أن نقاتل العجم

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٨٩.

(٢) هو الكلتانية، راجع بشأنها: ياقوت. معجم البلدان ج ٤ ص ٤٧٦، وهو في الطبري (ج ٤ ص ٩٠): الكلبانية.

معكم، وإن قاتلنا أحد من العرب منعتمونا منهم، وننزل حيث شئنا، ونكون فيمن شئنا منكم، وتلحقونا بأشرف العطاء، ويعقد لنا بذلك الأمير الذي هو فوقك. فقال أبو موسى: بل لكم ما لنا، وعليكم ما علينا. فقال: لا نرضى.

وكتب أبو موسى إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بأمرهم، فأجابه: أعطهم ما سألوك. فكتب لهم أبو موسى، فأسلموا، وشهدوا معه حصار تستر، فلم يكن أبو موسى يرى منهم جداً ولا نكاية، فقال لسياه: يا أعور، ما أنت وأصحابك كما كنا نرى، قال: لسنا مثلكم في هذا الدين ولا بصائرنا كبصائركم، وليس لنا فيكم حرم نحامي عنهم، ولم تلحقونا بأشرف العطاء ولنا سلاح وكراع وأنتم حسر. فكتب أبو موسى إلى عمر في ذلك، فكتب إليه: أن ألحقهم على قدر البلاء في أفضل العطاء وأكثر شيء أخذه أحد من العرب. ففرض لمائة منهم في ألفين ألفين، ولستة منهم في ألفين وخمسمائة، لسياه وخسرو وابنه مقلاص(1) وشهريار وشهرويه(2) وأفريذون(3) وإياهم عنى الشاعر بقوله:

ولما رأى الفاروق حسن بلائهم ... وكان بما يأتي من الأمر أبصرا
فسن لهم ألفين فرضاً وقد رأى ... ثلاثمئين فرض عك وحميرا(4)

(الطويل)

قال: فحاصروا حصناً بفارس، فمشى سياه في آخر الليل في زي العجم حتى رمى بنفسه إلى جانب الحصن، ونضح ثيابه بالدم، وأصبح أهل الحصن، فرأوا رجلاً في زيهم صريعاً، فظنوا أنه رجل منهم أصيبوا به، ففتحوا باب الحصن ليدخلوه، وثار فقاتلهم حتى دخلوا (عن) باب الحصن وهربوا، ففتح الحصن وحده، ودخله المسلمون، وقوم يقولون: فعل هذا الفعل سياه بتستر، وحاصروا

---

(1) في الطبري: وخسرو، ولقبه مقلاص.

(2) في الأصل: وشيرويه.

(3) في الطبري: أفروذين.

(4) البيتان في الطبري ج ٤ ص ٩١.

٢١١ ب حصناً آخر فمشى خسرو إلى الحصن // فأشرف عليه رجل منهم فكلمه، فرماه خسرو بنشابة فقتله.

أما سيف[1] فإنه ذكر بإسناد له قال: لما نزل أبو سبرة في الناس على السوس، وأحاط المسلمون بها، وعليهم شهريار، أخو الهرمزان، ناوشهم مرات، كل ذلك يصيب أهل السوس من المسلمين، فأشرف عليهم الرهبان والقسيسون، فقالوا: يا معشر العرب، إن مما عهد إلينا علماؤنا وأوائلنا، أنه لا يفتح السوس إلا الدجال، أو قوم فيهم الدجال، فإن كان الدجال فيكم فستفتحونها، وإن لم يكن معكم فلا تعنوا بحصارنا، وجاء صرف أبي موسى إلى البصرة، وعمل مكانه على جندها الذين بالسوس المقترب، والنعمان على أهل الكوفة، فحاصر السوس مع أبي سبرة، فجاء كتاب عمر بصرف النعمان إلى أهل نهاوند لاجتماع الأعاجم بها، فتهيأ للمسير، ثم استقبل في تعبئته فناوش أهل السوس قبل مضيه فعاد الرهبان والقسيسون، وأشرفوا على المسلمين، وغاظوهم، وصاف ابن صياد يومئذ مع النعمان في خيله، فأتى باب السوس غضبان فدقه برجله، وقال: انفتح، فتقطعت السلاسل، وتكسرت الأغلاق، وتفتحت الأبواب، ودخل المسلمون، فألقى المشركون بأيديهم، ونادوا: الصلح الصلح، فأجابهم المسلمون إلى ذلك، بعدما دخلوها عنوة، واقتسموا ما أصابوا قبل الصلح، ثم افترقوا.



(١) المصدر السابق ج ٤ ص ٩١ - ٩٢.

فتح جندي سابور

قالوا [1]: ولما فرغ أبو سبرة من السوس خرج في جنده حتى ينزل على جندي سابور، وزر بن عبد الله محاصرهم، فأقاموا عليها يغادونهم ويراوحونهم القتال، فلم يفجأ المسلمين يوماً إلا وأبوابها تفتح، ثم خرج السرح، وخرجت الأسواق، وانبث أهلها، فأرسل إليهم المسلمون: أن ما لكم؟ قالوا: رميتم لنا بالأمان فقبلناه، وأقررنا لكم الجزاء، على أن تمنعونا. فقال المسلمون، ما فعلنا، فقال أهل جندي سابور: ما كذبنا، فسأل المسلمون فيما بينهم، فإذا عبد يدعى مكنفاً كان أصله منها، هو الذي كتب لهم أماناً، فرمى به إليهم من عسكر المسلمين. فقالوا: إنما هو عبد، فقال المشركون: إنا لا نعرف حركم من عبدكم، وقد جاءنا أمان فنحن عليه قد قبلناه، ولم نبدّل، فإن شئتم فاغدروا. فأمسكوا عنهم، وكتبوا بذلك إلى عمر، فأجابهم: إن الله عظيم الوفاء، فلا تكونون أوفياء حتى توفوا، ما دمتم في شك أجيزوهم، وفوا لهم. ففعلوا وانصرفوا عنهم.

وقال عاصم بن عمرو في ذلك:

لعمري لقد كانت قرابة مكنف ... قرابة صدق ليس فيها تقاطُعُ
أجارهم من بعد ذل وقلة ... وخوف شديد والبلاء بلاقع
فجاز جوازَ العبْدِ بعد اختلافنا ... وردَّ أموراً كان فيها تنازُعُ
إلى الركن والوالي المصيب حكومةً ... فقال بحق ليس فيه تَخادُع
فلله جندي ساهَبُورَ لقد نَجْتَ ... غداةً مَنَتها بالبلاء اللوامعُ

(الطويل)

(1) الخبر منقول عن الطبري ج ٤ ص ٩٣ - ٩٤. وهو في الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٣٨٧، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ٢٤٧، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٨٩.

حديث وقعة نهاوند [1]

والاختلاف فيها بين أهل الأخبار كثير، ولكن الذي ذكره أبو الحسن المدائني من حديثها أحسن ما وقفت عليه من الأحاديث منساقاً، وأطوله اقتصاصاً، فلذلك آثرت الإبتداء به، وربما أدرجت في تضاعيفه من حديث غيره ما يحسن إدراجه فيه، ثم أذكر بعد انقضائه ما اختار ذكره من الأخبار التي أوردها سواه عن هذه الوقعة إن شاء الله.

ذكر المدائني [2] عن رجال من أهل العلم - يزيد بعضهم على بعض - أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - شاور الهرمزان فقال له: أما إذ فتني بنفسك فأشر عليّ، أبفارس أبدأ، أم بالجبال: أذربيجان وأصبهان؟ قال: فارس الرأس والجبال جناحان فاقطع الجناحين فلا يتحرك الرأس، قال عمر: بل أقطع الرأس فلا يقوم جسد ولا جناح ولا رجل. فكتب عمر إلى عثمان بن أبي العاص وهو بتوّج: أن سر إلى اصطخر، وقدم عليه أبو موسى ،فأمره أن يرجع إلى البصرة، ويسير إلى ابن كسرى مع عثمان بن أبي العاص، وقال: كل واحد منكم أمير على جنده، فقدم أبو موسى البصرة، فسار إلى يزدجرد باصطخر، وسار

(١) الخبر في البدء والتاريخ للبلخي ج٥ ص١٨٠ - ١٨١، والطبري ج٤ ص١٢٢ وما بعدها، والأخبار الطوال للدينوري ص ١٣٣ - ١٣٨، وفتوح البلدان للبلاذري ص ٣٧١ - ٣٧٦، ومروج الذهب للمسعودي ج ١ ص ٥٣٤ - ٥٣٦، ومعجم البلدان لياقوت ج ٥ ص ٣١٣ - ٣١٤، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ٢٥٠ - ٢٦٠، وتتمة المختصر لابن الوردي ج ١ ص ٢٢٦، والعبر للذهبي ج ١ ص ٢٥، ومرآة الجنان لليافعي ج ١ ص ٧٧، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ١٠٥ وما بعدها، وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١١٥ - ١١٨.

(٢) الرواية - كذلك - في الطبري ج ٤ ص ٥٣٤ - ٥٣٦، والأخبار الطوال للدينوري ص ١٣٣ - ١٣٨، ومروج الذهب للمسعودي ج ١ ص ٥٣٤ - ٥٣٦.

إليه عثمان من توج، فلما ألحوا على يزدجرد كتب إلى أهل الري وأهل الجبال: أصبهان وهمدان وقومس، أن العرب قد ألحوا عليّ فاشغلوهم عني، وردوهم إلى بلادهم، فكتب بعضهم إلى بعض: أن صاحب العرب الذي جاء بدينهم وأظهر أمرهم هلك، وملك بعده رجل لم يلبث إلا قليلاً حتى هلك، وإن صاحبهم هذا عمّر وطال سلطانه، وأغزى جنوده بلادكم فليس بمنته حتى تخرجوه من بلادكم وتغزوه في بلاده، فأجمعوا على ذلك وتمالوا عليه، وتعاقدوا، وأنفذوا أن يجتمعوا بنهاوند، وبلغ ذلك أهل الكوفة، فكتبوا به إلى عمر، فخرج يمشي حتى قام على المنبر فقال: أين المسلمون؟ أين المهاجرون والأنصار؟ فاجتمع الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وقال، إن عظماء أهل الري وأهل أصبهان وأهل همذان وأهل نهاوند وأهل قومس وأهل حلوان، أمم مختلفة ألوانها وألسنتها وأديانها ومللها، وقد تعاهدوا أن يخرجوا إخوانكم من بلادهم وأن يغزوكم في بلادكم، فأشيروا عليّ وأوجزوا ولا تطنبوا، فتفشع [1] بكم الأمور. فقام طلحة ـ وكان من خطباء قريش وذوي رأيهم ومن علية أصحاب رسول الله ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين قد حنكتك الأمور، وجربتك الدهور، وعجمتك البلايا، وأحكمتك التجارب، فأنت ولي ما وليت، لا ينبثر في يديك، ولا يحل عليك، فمرنا نطع، واحملنا نركب، وقدنا ننقد، فإنك مبارك الأمر، ميمون النقيبة، وقد أخبرت وخبرت وجربت، فلم ينكشف شيء من عواقب قضاء الله لك إلا عن خيار.

قال: تكلموا. فقال عثمان: اكتب إلى أهل الشام أن يسيروا من شامهم، وإلى أهل اليمن فليسيروا من يمنهم، وسر بنفسك في أهل الحرمين إلى أهل المصرين، فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين، فيتعال في عينك ما قد كثر عندك، وتكون أعز منهم، إنك لن تستبقي من نفسك باقية بعد العرب، ولن تمتنع من الدنيا بعزيز، ولا تلوذ منها بحريز، وهذا يوم له ما بعده، فاحضرهم برأيك، واشهدهم بمقدرتك.

قال: تكلموا. فقال علي بن أبي طالب: يا أمير المؤمنين، إن كتبت إلى أهل

(١) الفشع والإنفشاع: اتساع الشيء وانتشاره.

٢١٢ أ الشام فساروا من / / شامهم أغارت الروم على بلادهم ، وإن سار أهل اليمن من يمنهم خلفتهم الحبش في عيالاتهم ، وإن سرت بأهل الحرمين انتقضت الأرض عليك من أقطارها ، حتى يكون ما تخلفه من العورات في العيالات أهم إليك مما بين يديك ، وأما ما ذكرت من مسيرهم فالله لمسيرهم أكره ، وهو أقدر على تغيير ما كره ، وأما كثرتهم فإنا لم نكن نلق [1] عدونا بالكثرة ، ولكنا كنا نلقاهم بالصبر ، إنك إن نظر إليك الأعاجم قالوا : هذا أمير العرب ، فكان أشد لحربهم وكلبهم ، ولكن اكتب إلى أهل البصرة فليتفرقوا على ثلاث فرق ، فلتقم فرقة في ديارهم ، وفرقة في أهل عهدهم ، وتسير فرقة إلى إخوانهم بالكوفة.

قال: هذا رأي ، وقد كنت أحب أن أتابع عليه ، لعمري لئن سرت بأهل الحرمين ونظر إليّ الأعاجم لتنقضن الأرض وليمدنهم من لم يمدهم ، وليقولن : أمير العرب إن قطعناه قطعنا أصل العرب ، فأشيروا عليّ برجل أوليه واجعلوه عراقياً. قالوا : أنت أفضل رأياً وأعلم بأهل العراق ، وهم عمالك وقد وفدوا عليك وعرفتهم. قال: لأولينها رجلاً يكون لأول أسنة يلقاها ، النعمان بن مقرن. وكان النعمان بكسكر قد كتب إلى عمر : يا أمير المؤمنين ، إنما مثلي ومثل كسكر مثل شاب عند مومسة تلون له كل يوم وتعطر ، وإني أذكرك الله إلا بعثتني في جيش إلى ثغر غازياً ولا تبعثني جابياً ، فندب عمر أهل المدينة ، فانتدب منهم جمع ، فوجههم إلى الكوفة ، وكتب إلى عمار بن ياسر أن يستنفر ثلث أهل الكوفة ، وأن يسيروا إلى العجم بنهاوند ، فقد وليت عليهم النعمان بن مقرن المزني ، وكتب إلى أهل الكوفة بذلك ، وكتب إلى أبي موسى أن يستنفر ثلث أهل البصرة إلى نهاوند ، وكتب إلى النعمان : إني وجهت جيشاً من أهل المدينة وأهل الكوفة وأهل البصرة إلى نهاوند ، فأنت على الناس ومعك في الجيش طليحة ابن خويلد وعمرو بن معدي كرب فأحضرهما الناس وشاورهما في الحرب فإن حدث بك حدث فأمير الناس حذيفة فإن قتل فجرير بن عبد الله فإن قتل فالمغيرة ابن شعبة فإن قتل فالأشعث بن قيس ، وذكر الأشعث في هذا غريب [2] ، فإن

(١) في الأصول : «نلقى».
(٢) ورد - كذلك - في الأخبار الطوال ص ١٣٥ ، دون تعليق.

المعروف من عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه لم يستعمل أحداً ممن ارتد، ولكن هذا وقع في هذا الحديث، والله أعلم.

وبعث عمر بالكتاب مع السائب بن الأقرع بن عوف، وقال له: إن سلم الله ذلك الجند فقد وليتك مغانمهم ومقاسمهم فلا ترفعن إليّ باطلاً ولا تمنعن أحداً حقه، وإن هلك ذلك الجند فاذهب فلا أرينك أبداً، فقدم السائب الكوفة فيمن نفر من أهل المدينة، وبعث بكتاب أهل البصرة مع عمرو بن معدي كرب فاستنفرهم أبو موسى فنفر ثلثهم، وخرجوا إلى الكوفة عليهم مجاشع بن مسعود وعلى أهل الكوفة حذيفة بن اليمان، ثم ساروا جميعاً مع من قدم من أهل المدينة إلى نهاوند، وسار النعمان بن مقرن فتوافوا بنهاوند، والأعاجم بها ستون ألفاً عليهم ذو الفروة، وهو ذو الحاجب، وهم بمكان يقال له: الاسفيذهان بقرية يقال لها فيديسجان، دون مدينة نهاوند بفرسخين، وقد خندق الأعاجم وهالوا في الخندق تراباً قد نخلوه، فبعث النعمان طليحة بن خويلد وبكير بن الشداخ ـ فارس أطلال ـ ليعلما علم القوم، فأما بكير فانصرف، فقيل له: ما ردك؟ قال: أرض العجم، ولم يكن لي بها علم فخفت أن يأخذ عليّ مضيق أو بعض جبالها، ومضى طليحة فأبطأ حتى ساء ظن الناس به، فعلم علمهم ثم رجع فلم يمر بجماعة إلا كبروا، فأنكر ذلك منهم، وقال: ما لكم تكبرون إذا رأيتموني؟ قالوا: ظننا أنك فعلت كفعلتك. قال: لو لم يكن دين لحميت أن أجزر العرب هذه الأعاجم الطماطم، وأخبر الناس بعدة القوم وكثرتهم، فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل. وأقام النعمان أياماً حتى استجم الناس أنفسهم وظهرهم، فلما كان يوم الأربعاء من بعض تلك الأيام دنا من عسكر المشركين وقال: إن أمير المؤمنين كتب إليّ أن لا أقاتلهم حتى أدعوهم، فمن رجل يأتيهم بكتابه؟ ومعه في عسكره ممن قدم من المدينة عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر أو الزبير وابنه عبد الله، فتواكل الناس، فقام المغيرة بن شعبة يتذيل في مشيته، وكان آدم طويلاً ذا ضفيرتين أعور، فأخذ الكتاب فأتاهم فقال: القوا إليّ شيئاً، فألقوا له ترساً فجلس عليه، فقال الترجمان: ما أقدمكم؟ فذكر ما كانوا فيه من ضيق المعيشة، وقال: كنا

أهل جهد وجفاء بين شوك وحجر، ومدر وحية وعقرب، يغير بعضنا على بعض، فأتينا بلادكم فأصبنا مطعماً طيباً وشراباً عذباً ولبوساً ليناً وطلا بارداً، فلسنا براجعين إلى ما كنا فيه حتى نصيب حاجتنا أو نموت. فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: صدق. فقالوا: إنكم معشر العرب أرجاس أنجاس وإنما غركم مناخر نبد جوى[1] الأهواز، وعوران المدائن الذين لقوكم، وإنه ليس ممن ترى إلا فارسي محض اسوار، ولولا فساد الأرض لقتلناكم، فما حاجتكم التي تريدون أن تصيبوها؟ فقرأ عليهم المغيرة كتاب عمر: إنا ندعوكم إلى ما دعاكم الله إليه ورسوله، أن تدخلوا في السلم كافة، فإن فعلتم فأنتم إخواننا، لكم ما لنا وعليكم ما علينا، فإن أبيتم الإسلام فالجزية، فإن أبيتم الجزية استنصرنا الله عليكم.

قالوا: الآن حين نقرنكم في الجبال، فرجع المغيرة فقال للنعمان: حبست الناس حتى طمحت أبصارهم، أما والله إن لو كنت صاحبها؟ قال: ربما كنت، فلم يخزك الله ولم تخب. ونهض المسلمون للحرب، فأقبل ذو الحاجب على برذون أمام العجم فقالوا: انزلوا بالطائر الصالح الذي نصرتم به على الأمم، وتهزمون به العرب، فبرز له رجل من المسلمين فقتله ذو الحاجب، وتهايجوا واقتتلوا حتى كثرت بينهم القتلى والجرحى، ثم تحاجزوا، وغدا المشركون غداة الخميس من غد يجرون الحديد ويسحبون الدروع، وغدا المسلمون على راياتهم فتقدم رجل من العجم قد أعلم بعصابة فيها جواهر أمام أصحابه فحمل عليه أوفى بن سبرة القشيري فقتله وسلبه، فنفله النعمان سلبه، وحمل المشركون فتلقاهم المسلمون
٢١٢ ب فاقتتلوا حتى صبغت الدماء ثنن[2] // الخيل وتحاجزوا عند المساء، فبات المسلمون يوقدون النيران، ويعصبون بالخرق، لهم أنين من الجراح، ودوي بالقرآن كدوي النحل، وبات المشركون في المعازف والخمور وبهم من الجراح مثل ما

---

(١) كذا في الأصل.

(٢) الثنة من الفرس: مؤخر الرسغ، وهي شعرات مدلاة مشرفات من خلف، وفي هامش «ط»، و «خ» نقلاً عن اللسان (ص ٥١١): الثنن: جمع ثنة، وهي الشعرات التي في مؤخر رسغ الدابة التي أسبلت على أم القردان إلى أن تكاد تبلغ الأرض.

بالمسلمين، وأصبحوا يوم الجمعة، فأقبل النعمان معلماً ببياض، على برذون قصير، عليه قباء أبيض مصقول وقلنسوة بيضاء مصقولة، فوقف على الرايات فحضهم، وقال: يا معشر المسلمين إن هؤلاء قد أخطروا لكم أخطاراً وأخطرتم لهم أخطاراً، اخطروا لكم دنيا، وأخطرتم لهم الإسلام، فالله الله في الإسلام أن تخذلوه، فإنكم أصبحتم باباً بين المسلمين والمشركين، فإن كسر الباب دخل على الإسلام ليشغل كل امرىء منكم قرْبه ولا يخلفه على صاحبه، فإنه لوم وخذلان ووهن وفشل، إني هاز الراية فإذا هززتها فليأخذ الرجال هما يينها في احقيتها وشسوعها في نعالها، وليتعهد أصحاب الخيل أعنتها وحزمها، فإذا هززتها الثانية فليعرف كل امرىء منكم مصوب رمحه وموضع سلاحه ووجه مقاتله، فإذا هززتها الثالثة وكبرت فكبروا واستنصروا الله واذكروه، فإذا حملت فاحملوا، فقال رجل من أهل العراق: قد سمعنا مقالتك أيها الأمير، فنحن واقفون عند قولك، منتهون إلى رأيك، فأي النهار أحب إليك؟ أوله أم آخره، قال آخره حين تهب الرياح، وتحل الصلاة وينـزل النصر لمواقيت الصلاة، فأمهل النـاس حتى إذا زالت الشمس، هز الراية فقضى الناس حوائجهم وشدت الرجال مناطقها، ونزع أصحاب الخيل المخالي عن خيلهم وقرطوها أعنتها وشدوا حزمها وتأهبوا للحرب، ثم أمهل حتى إذا كان في آخر الوقت هزها فصلى الناس ركعتين وجال أصحاب الخيل في متونها[1] وصوبوا رماحهم فوضعوها بين آذان خيولهم، وأقبلت الأعاجم على براذينهم عليهم الرايات المدبجة، والمناطق المذهبة، ووقف ذو الحاجب على بغلة: فلقد رأى الأعاجم وهم في عدتهم وإن لأقدامهم في ركبهم لزلزلة، وإن الأسوار ليأخذ النشابة فما يسدد الفوق للوتر وما يتمالك أن يضعها على قوسه، فقال النعمان: يا معشر المسلمين، إني هاز الراية وحامل فاحملوا، ولا يلوي أحد على أحد، وإن قيل قتل النعمان فلا يلوين عليّ أحد، وأنا داع بدعوة فعزمت على كل رجل منكم إلا أمن، ثم قال: اللهم اعط النعمان اليوم الشهادة في نصر المسلمين، وافتح عليهم، ثم نثل درعه، وهز الراية وكبر، فكبر الأدنى فالأدنى ممن حوله حتى غشيهم التكبير من السماء، وصوب رايته كأنها جناح

(١) في الهامش: جال في متن فرسه: إذا وثب.

طائر، وحمل وحمل الناس، فكان أول صريع رحمه الله، ومر به معقل بن يسار فذكر عزمته ألا يلوي أحد عليّ، فجعل علماً عنده، ومر أخوه سويد بن مقرن أو نعيم، فألقى عليه ثوباً لكي لا يعرف، ونصب الراية وهي تقطر دماً، قد قتل بها قبل أن يصرع، وسقط ذو الحاجب عن بغلته فانشق بطنه، وانهزم المشركون، فأتبعوهم يقتلونهم كيف شاءوا. فقال بعض من حضر ذلك اليوم: إني لفي الثقل فثارت بيننا وبين القوم عجاجة قسطلانية، فجعلت أسمع وقع السيوف على الهام، ثم كشفت، فإذا المسلمون يتبعونهم كالذباب يتبع الغنم، فأتبعتهم طائفة من المسلمين حتى دخلوا مدينتهم، ثم رجعوا، وحوى المسلمون عسكرهم، ورجع معقل بن يسار إلى النعمان بعد انهزام المشركين ومعه أداوة فيها ماء فغسل التراب عن وجهه، فقال: من أنت؟ قال: معقل بن يسار، قال: ما فعل الناس؟ قال: فتح الله عليهم، قال: الحمد لله، اكتبوا بذلك إلى عمر. وفاضت نفسه، فاجتمع الناس وفيهم ابن الزبير وابن عمر فأرسلوا إلى أم ولده فقالوا: أعهد إليك عهداً؟ فقالت: ها هنا سفط فيه كتاب، فأخذوه فإذا كتاب عمر إلى النعمان: إن حدث بك حدث فالأمير حذيفة، فإن قتل ففلان، فإن قتل ففلان، فتولى أمر الناس حذيفة، فأمر بالغنائم فجمعت، ثم سار إلى مدينة نهاوند وقد حملت الغنائم إلى عسكرهم، وحصر أهل المدينة وقاتلوهم، فبيناهم يطاردونهم إذ لحق سماك بن عبيد عظيماً من عظمائهم يقال له دينار، فسأله الأمان، فأمنه وأدخله على حذيفة، فصالحه عن البلد على ثمانمائة ألف وشيء من العسل والسمن، وقال: إن لكم لوفاء بالعهد، وأخاف عليكم خمسة أشياء: الخب والبخل والغدر والخيلاء والفجور، وأخاف أن يأتيكم الخب من قبل النبط، والخيلاء من قبل الروم، والبخل من قبل فارس، والفجور والغدر من قبل أهل الأهواز، وأتى السائب ابن الأقرع دهقان وقد جمعت الغنائم، فقال له: أتؤمنني على دمي ودماء قرابتي وأدلك على كنز النخيرجان؟ ثم تجلبوا عليه في الحرب فيقسم وتجري عليه السهام، ولم يحرزوه بجزية أقاموا عليها، وإنما هو دفين دفنوه وفروا عنه، فتأخذه لصاحبكم - يعني عمر رضي الله عنه - تخصه به. قال: أنت آمن إن كنت

صادقاً، قال: فانهض معي، فنهض معه فانتهى به إلى قلعة، فرفع صخرة ودخل غاراً فاستخرج سفطين، فإذا قلائد منظومة بالدرر والياقوت وقرطة وخواتم وتيجان مكللة بالجوهر، فأمنه ثم أتى به حذيفة فأخبره، فقال: اكتمه فكتمه حتى قسم الغنائم بين الناس وعزل الخمس، ثم خرج السائب مسرعاً فقدم على عمر، فقال له عمر: ما وراءك، فوالله ما نمت هذه الليلة إلا تغرراً، وما أتت عليّ ليلة بعد الليلة التي أصبح فيها رسول الله ﷺ ميتاً أعظم من هذه الليلة. قال: أبشر بفتح الله ونصره وحسن قضائه لك في جنودك، ثم اقتص الخبر حتى انتهى إلى قتل النعمان، فقال: إنا لله، يرحم الله النعمان، ثم مه، قال: ثم والله ما أصيب بعده رجل يعرف وجهه. قال: لا أم لك، ولا أب، قتل الضعفاء الذين لا يعرفهم عمر ابن أم عمر، وأكب طويلاً وبكى، ثم قال: أصيبوا بمضيعة؟ قال: لا، ولكن أكرمهم الله بالشهادة، وساقها إليهم، فقال: ويحك، أغلبتم على أجساد إخوانكم أم دفنتموهم؟ قال: دفناهم، قال: فأعطيت الناس حقوقهم؟ قال: نعم، قال: فنهض عمر فأخذ السائب بثوبه وقال: حاجة. قال: ما حاجتك

إذ أعطيت الناس حقوقهم؟ قال: حاجة لك وإليك، فجلس، فجر السائب الغرارة فأخرج السفطين ففتحها ونظر إلى ما فيهما// كأنه النيران يشب بعضها ٢١٣ أ
بعضاً، فقال عمر: ما هذا؟ فأخبره، فدعا علياً وعبد الله بن أرقم وغيرهما، فختموا على السفطين وقال له: اختم معهم. فختمه، وقال لعبد الله بن أرقم: ارفعه، ورجع السائب، فرأى عمر ليالي كالحيات يردن نهشه، فسرح رجلاً، وكتب إلى السائب: إن صادفك رسولي في الطريق فلا تصلن إلى أهلك حتى تأتيني، وإن وصلت إلى أهلك فعزمة مني إليك إذا قرأت كتابي أن تشد على راحلتك وتقبل إليّ، وكتب إلى عمار: لا تضعن كتابي حتى تُرحل إليّ السائب،

وأمر الرسول أن يعجله، فقدم الرسول، فقال له السائب: أبلغه عني شيء أم به على سخطة؟ قال: ما رأيت ذلك ولا أعلمه بلغه عنك خير ولا شر، وركب فقدم على عمر، فقال له: يا ابن أم مليكة، يا ابن الحميرية، ما لي ولك أم مالك ولي، ثكلتك أمك، ما الذي جئتني به؟ فلقد بت مما جئتني به مروعاً أظن

الحيات تنهشني، أخبرني عن السفطين، قال: والله لئن أعدت عليك الحديث فزدت حرفاً أو نقصت حرفاً لأكذبن، قال: إنك لما انصرفت فأخذت مضجعيّ لمنامي أتتني الملائكة فأوقدوا عليّ سفطيك جمراً ودفعوهما في نحري وأنا أنكص وأعاهدهم أن أردهما فأقسمهما على من أفاءهما الله عليه، فكاد ابن الخطاب يحترق، ثم لم أزل مروعاً أظن الحيات تنهشني، فأردد هذين السفطين فبعهما بعطاء الذرية والمقاتلة أو بنصف ذلك، وأقسم ثمنهما على من أفاءهما الله عليه.

وقال بعضهم: قال له: بعهما واجعل ثمنهما في أعطية المسلمين بالبصرة والكوفة. فإن خرج كفافاً فذاك، وإن فضل فاجعله في بيت مال المسلمين.

فقدم السائب بهما فاشتراهما عمرو بن حريث[1] بعطاء الذرية والمقاتلة. وقال بعضهم: اشتراهما بأعطية أهل المصرين، فباع أحدهما من أهل الحيرة بما أخذهما به، واستفضل الآخر، وقال بعضهم: استفضل مائة ألف دينار، فكان أول مال اعتقده.

قال[2]: وكان النخيرجان تحصن في قلعة من قلاع نهاوند ومعه مائة امرأة من نساء الأساورة ومعه حلية كثيرة من كنز كسرى، فصالحه حذيفة على ما كان معه، وافتتح حذيفة رساتيق مما يلي أصبهان.

وكان أهل نهاوند قد حفروا خندقاً وهالوا فيه تراباً متحولاً، فلما انهزموا جعلوا يسقطون في ذلك الخندق ويغرقون في ذلك التراب.

وكان يقال لفتح نهاوند فتح الفتوح.

وذكر المدائني - أيضاً - عن موسى بن عبيدة عن أخيه قال: قدمت البصرة فرأيت بها شيخاً أصم، فقلت ما أصابك؟ قال: أنا من أهل نهاوند، فنزل المسلمون - يعني عندما نزلوا عليها - فكبروا تكبيرة ذهب سمعي منها.

---

(١) في الأخبار الطوال: عمرو بن الحارث.

(٢) الخبر في الأخبار الطوال ص ١٣٧ - ١٣٨.

وذكر الطبري [1] فيما ذكره من الأخبار المختلفة في هذه الوقعة عن سيف عن أبي بكر الهذلي نحواً من هذا الحديث وزاد فيه أشياء وخالفه في أماكن منه، منها أن النعمان بن مقرن عندما أمّره عمر - رضي الله عنه - على هذه الحرب في هذا الوجه كان يومئذ بالبصرة ومعه قواد من قواد أهل الكوفة قد أمدّ بهم عمر - رحمه الله - أهل البصرة عند انتقاض الهرمزان فافتتحوا رامهرمز وايذج، وأعانوهم على تستر وجندي سابور والسوس، فكتب إليه عمر: إني قد وليتك حربهم - يعني الأعاجم الذين اجتمعوا بنهاوند - فسر من وجهك هذا حتى تأتي ماه، فإني قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها، فإذا اجتمع إليك جندك فسر إلى الفيرزان ومن تجمع إليه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم، واستنصر الله، وأكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله، وإن حدث بك حدث فعلى الناس نعيم بن مقرن.

وفي حديثه: أنه لما استحث أهل الكوفة كان أسرعهم إلى ذلك الوجه الروادف ليبلوا في الدين وليدركوا حظاً، وأن حذيفة بن اليمان خرج بأهل الكوفة أميراً عليهم بأمر عمر حتى ينتهي إلى النعمان، وخرج معه نعيم بن مقرن حتى قدموا على النعمان بالطرز، وجعلوا بمرج القلعة خيلاً عليها النسيسر، وكتب عمر - رحمه الله - إلى سلمى بن القين وحرملة بن مريطة، وزر بن كليب، والمقترب بن ربيعة، والقواد الذين كانوا بين فارس والأهواز أن اشغلوا فارس عن إخوانكم، وحوطوا بذلك أمتكم وأرضكم، وأقيموا على حدود ما بين فارس والأهواز حتى يأتيكم أمري، وبعث مجاشع بن مسعود إلى الأهواز، وقال له: أفصل منها على ماه، ففعلوا ما أمرهم به، وقطعوا بذلك على أهل نهاوند أمداد فارس.

وفيه [2] أن النعمان لما أتاه طليحة بخبر نهاوند وأعلمه أنه ليس بينه وبينها

---

(١) الطبري ج ٤ ص ١٢٦.

(٢) نفسه ج ٤ ص ١٢٨.

أحد ولا شيء يكرهه، وقد توافى إليه أمداد المدينة، نادى عند ذلك بالرحيل، وبعث إلى مجاشع أن يسوق الناس، وسار النعمان على تعبئته، وعلى مقدمته أخوه نعيم، وعلى مجنبتيه أخوه سويد وحذيفة بن اليمان، وعلى المجردة القعقاع، وعلى الساقة مجاشع، فانتهوا إلى الأسبيذهان[1] والفرس به وقوف على تعبئتهم وأميرهم الفيرزان، وقد توافى إليه بنهاوند كل من غاب عن القادسية والأيام من أهل الثغور وأمرائها وأعلام من أعلامهم ليسوا بدون من شهد الأيام والقوادس، فلما رآهم[2] النعمان كبر ثلاثاً وكبر الناس معه، فزلزلت الأعاجم، وأمر النعمان وهو واقف بحط الأثقال، وبضرب الفسطاط، فضرب وهو واقف، وابتدره أشراف أهل الكوفة وأعيانهم، فسبق إليه عدة منهم سابقوا أكفاءهم فسبقوهم، وهم أربعة عشر رجلاً: حذيفة بن اليمان، وعقبة بن عمرو، والمغيرة بن شعبة، وبشير بن الخصاصية، وحنظلة بن الربيع الكاتب، وابن الهدير[3]، وربعي بن عامر، وعامر بن مطر، وجرير بن عبد الله الحميري، وجرير البجلي، والأشعث ابن قيس، والأقرع بن عبد الله الحميري، وسعيد بن قيس الهمداني، ووائل بن حجر. فلم ير بناة فسطاط بالعراق كهؤلاء، وأنشب النعمان القتال، فاقتتلوا يوم الأربعاء ويوم الخميس، والحرب بينهم في ذلك سجال، ثم انحجزوا[4] في خنادقهم يوم الجمعة، وحصرهم المسلمون، فأقاموا عليهم ما شاء الله والأعاجم بالخيار، لا يخرجون إلا إذا أرادوا (الخروج)، فاشتد ذلك على المسلمين، وخافوا أن يطول أمرهم، وأحبوا المناجزة، فتجمع أهل الرأي من المسلمين،
١١٣ ب وأتوا النعمان في ذلك فوافقوه تروّي في الذي روّوا فيه، فقال: على // رسلكم، لا تبرحوا، ثم بعث إلى من بقي ممن لم يأته من أهل النجدات والرأي في الحرب، فتوافوا إليه، فتكلم النعمان، فقال: قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن، وأنهم لا يخرجون إلا إذا شاءوا، ولا يقدر المسلمون على

(١) في الأصول: الاسبيدنهان.

(٢) في الأصل: فلما تراهم.

(٣) في الطبري: وابن الهوبر.

(٤) في الطبري: وانجحروا.

إنغاضهم [١] وانبعاثهم قبل مشيئتهم، وهمَ يرون ما المسلمون فيه من التضايق. فما الرأي الذي به نحمشهم ونستخرجهم إلى المناجزة؟

فقال بعض المسلمين[٢] : التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم، فدعهم وطاولهم وقاتل من أتاك منهم.

فردوا جميعاً عليه رأيه. وقالوا: إنا لعلى يقين من إنجاز ربنا موعده، فما لنا وللمطاولة حتى لا نجد منها بداً؟

وتكلم [٣] عمرو بن معدي كرب ـ يومئذ، فلم يوافقهم قوله الذي قال، وردوه عليه.

وقال طليحة: أما أنا فأرى أن نبعث خيلاً مؤدية، فيحدقوا بهم، ثم يراموهم ليحمشوهم وينشبوا القتال، فإذا استحمشوا واختلطوا بهم أرزت إلينا خيلنا تلك استطراداً، فإنا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم، وإنا إذا فعلنا ورأوا ذلك منا طمعوا في هزيمتنا ولم يشكوا فيها، فخرجوا فجادونا وجاددناهم، حتى يقضي الله فينا وفيهم ما أحب.

فأمر [٤] النعمان القعقاع ـ صاحب المجردة ـ بذلك، ففعل، وأنشب القتال، فأنغضهم فلما خرجوا نكص، ثم نكص، ثم نكص، فاغتنمتها الأعاجم، ففعلوا كما ظن طليحة وخرجوا، فلم يبق أحد إلا من يقوم لهم على الأبواب، وجعلوا يركبون القعقاع حتى أرزا إلى الناس، وانقطع القوم من حصنهم بعض الانقطاع، والنعمان والمسلمون على تعبئتهم في يوم الجمعة وفي صدر النهار، وقد عهد النعمان إلى الناس عهده، وأمرهم أن يلزموا الأرض ولا يقاتلوهم حتى يأذن لهم، ففعلوا واستتروا بالحجف من الرمي، وأقبل المشركون عليهم يثفنونهم حتى

---

(١) في الأصل: أنقاضهم، والتصويب من الطبري، وانغاضهم: تحريكهم.
(٢) هو عمر بن ثبي ـ الطبري ج ٤ ص ١٣٠.
(٣) الطبري ج ٤ ص ١٣٠.
(٤) نفسه ج ٤ ص ١٣٠ ـ ١٣١.

أفشوا فيهم الجراحات، وشكا الناس ذلك بعضهم إلى بعض، ثم قالوا: للنعمان: ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما لقي الناس؟ فما تنتظر بهم؟ أئذن للناس في قتالهم. فقال النعمان: رويداً رويداً تروا أمركم، فقال المغيرة: لو أن هذا الأمر إليّ علمت ما أصنع. فقال النعمان: رويداً ترى أمرك، فقد كنت تلي الأمر فتحسن، ولا يخذلنا الله وإياك، ونحن نرجو في المكث مثل الذي ترجو في الحث، وجعل النعمان ينتظر بالكتائب [1] أحب الساعات كانت إلى رسول الله ﷺ في القتال أن يلقى فيها العدو، وذلك عند الزوال وتفيؤ الأفياء ومهب الأرواح. فلما كان قريباً من تلك الساعة تحشحش [2] النعمان وسار في الناس على برذون أحوى قريب من الأرض، فجعل يقف على كل راية فيحمد الله عز وجل ويثني عليه ويقول: قد علمتم ما أعزكم الله به من هذا الدين وما وعدكم من الظهور، وقد أنجز لكم هوادي ما وعدكم وصدوره، وإنما بقيت اعجازه وأكارعه، والله منجز وعده، ومتبع آخر ذلك أوله، واذكروا ما مضى إذ أنتم أذلة، وما استقبلتم من هذا الأمر وأنتم أعزة، فأنتم اليوم عباد الله حقاً وأولياؤه، وقد علمتم انقطاعكم من إخوانكم من أهل الكوفة، والذي لهم في ظفركم وعزكم، والذي عليهم في هزيمتكم وذلكم، وقد ترون ما أنتم بإزائه من عدوكم، وما أخطرتم وما أخطروا لكم، فأما ما أخطروا لكم فهذه الزينة [3] وما ترون من هذا السواد، وأما ما أخطرتم لهم فدينكم وبيضتكم، ولا سواء ما أخطرتم وأخطروا فلا يكونن على دنياهم أحمى منكم على دينكم، وأتقى الله عبد صدق الله وأبلى نفسه فأحسن البلاء، فإنكم بين خيرين تنتظرون إحدى الحسنيين، من بين شهيد حي مرزوق، أو فتح قريب وظفر يسير. فكفى (كل) رجل ما يليه، ولم يكل قرنه إلى أخيه، فإذا قضيت أمري فاستعدوا، فإني مكبر ثلاثاً، فإذا كبرت الأولى فليتهيأ من لم يكن تهيأ، فإذا كبرت الثانية فليجمع عليه رداءه،

---

(١) في الطبري: ينتظر بالقتال إكمال ساعات كانت أحب إلى رسول الله.

(٢) تحشحش: تحرك.

(٣) في الطبري: فهذه الرثة = المتاع.

وليشد عليه سلاحه وليتأهب للنهوض، فإذا كبرت الثالثة فإني حامل إن شاء الله، فاحملوا معاً. اللهم أعز دينك، وانصر عبادك، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك.

وفي رواية [1] إنه قال: اللهم إني أسألك أن تقر عيني بفتح يكون فيه عز الإسلام وذل يذل به الكفار، ثم اقبضني بعد ذلك على الشهادة، أمنوا يرحمكم الله، فأمنا وبكينا.

فلما فرغ النعمان من التقدم إلى أهل المواقف رجع إلى موقفه، فكبر الأولى والثانية والثالثة، والناس سامعون مطيعون مستعدون للمناهضة ينحى بعضهم بعضاً عن سننه، وحمل النعمان وحمل الناس، وراية النعمان تنقض نحوهم انقضاض العقاب، فالتقوا بالسيوف فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يسمع السامعون بوقعة يوم قط كانت أشد منها قتالاً، فقتلوا فيها من أهل فارس فيما بين الزوال والاعتام ما طبق أرض المعركة دماً، يزلق الناس والدواب، وأصيب فرسان من فرسان المسلمين في الزلق في الدماء، منهم النعمان أميرهم، زلق فرسه في الدماء فصرعه، فأصيب عند ذلك ـ رحمه الله ـ وتناول الراية منه قبل أن تقع أخوه نعيم بن مقرن، وسجى النعمان بثوب، وأتى حذيفة بالراية فدفعها إليه، وكان اللواء مع حذيفة، وقال المغيرة: اكتموا مصاب أميركم حتى ننظر ما يصنع الله فينا، وفيهم، لئلا يهن الناس، فاقتتلوا حتى إذا أظلم الليل عليهم انكشف المشركون وذهبوا، والمسلمون ملظون بهم، فعمى على المشركين قصدهم، فتركوه وأخذوا نحو اللهب وهو الخندق الذي كانوا انزلوا دونه، فوقعوا فيه، فمات فيه منهم مائة ألف أو يزيدون، سوى من قتل منهم في المعركة، وهم أعداد الذين هووا، ولم يفلت إلا الشريد، ونجا الفيرزان من (بين) الصرعى في المعركة، فهرب نحو همدان في ذلك الشريد، فأتبعهم نعيم بن مقرن، وقدم القعقاع فأدركه حين انتهى إلى ثنية همدان، والثنية مشحونة من بغال وحمير موقورة عسلاً، فحبسه

---

(١) الطبري ج ٤ ص ١٣٢.

على أجله، فقتله على الثنية بعدما امتنع - لم يزل يتوقل في الجبل لما غشيه إذ لم يجد مساغاً، وتوقل القعقاع في أثره حتى أخذه، واستاق العسل وما خالطه من سائر الأحمال، فأقبل به، وسميت تلك الثنية بذلك: ثنية العسل. وقال القعقاع في ذلك:

قولا لأصرام بأكناف الجبل بأن لله جنوداً من عسل
تقتل أحياناً بأسياف الأجل

(الرجز)

ومضى الفلال حتى انتهوا إلى مدينة همدان فدخلوها والخيل في آثارهم، فنزلوا[1] عليها وحووا ما حولها، فلما رأى ذلك خسروشنوم استأمنهم على أن
٢١٤ أ يضمن لهم // همدان ودستبي، وأن لا يؤتي المسلمون منهم، فقبل المسلمون ذلك، وأجابوا إليه، وآمنوهم فأقبل كل من كان هرب، ولما بلغ الخبر أهل الماهين بأن همدان قد أخذت، ونزلها نعيم بن مقرن والقعقاع بن عمرو اقتدوا بخسروشنوم[2]، فراسلوا حذيفة فأجابهم إلى ماطلبوا، فأجمعوا على إتيانه، فخدعهم دينار - وكان ملكاً إلا أنه كان دون أولئك الملوك، وأتى إلى المسلمين في الديباج والحلي، فأعطاهم حاجتهم واحتمل لهم ما أرادوا، فعاقدوه عليهم، ولم يجد الآخرون بداً من متابعته والدخول في أمره، فقيل لأجل ذلك: ماه دينار. فنسبت إليه، وذهب حذيفة بها، وكان النعمان بن مقرن قد عاهد بهراذان على مثل ذلك فقيل: ماه بهراذان، فنسبت إليه لأجل ذلك، ووكل النسير بن ثور بقلعة قد كان لجأ إليها قوم فحاصرها فافتتحها، فنسبت إلى النسير.

وفي غير هذا الحديث[3] أن أهل نهاوند خرجوا ذات يوم على المسلمين فلم

---

(١) المسلمون.

(٢) في الأصل: بخسرو وشنوم.

(٣) الطبري ج ٤ ص ١٣٥ - ١٣٦.

يلبثهم المسلمون أن هزموهم، وتبع سماك بن عبيد العنسي رجلاً منهم معه نفر ثمانية على أفراس لهم، فبارزهم فلم يبرز له أحد منهم إلا قتله حتى أتى عليهم، ثم حمل الفارسي الذي كانوا معه فأسره سماك وأخذ سلاحه، ووكل به رجلاً، فقال: اذهبوا بي إلى أميركم حتى أصالحه على هذه الأرض وأؤدي إليه الجزية، واسألني أنت (عن أسارك) ما شئت، وقد مننت عليّ إذ لم تقتلني، وإنما أنا عبدك الآن، وإن أدخلتني على الملك فأصلحت ما بيني وبينه وجدت لي شكراً، وكنت لي أخاً. فخلى سبيله وآمنه، وقال: من أنت؟ قال: أنا دينار - والبيت يومئذ في آل قارن - فأتى به حذيفة فحدثه دينار عن نجدة سماك وما قتل، وصالحه على الخراج ،فنسبت إليه ماه، فكان بعد يواصل سماكاً ويهدي له، ويوافي الكوفة، فقدمها في إمارة معاوية مرة، فقال للناس: يا معشر أهل الكوفة، إنكم أول ما مررتم بنا كنتم خيار الناس، فعمرتم بذلك زمان عمر وعثمان، ثم تغيرتم وفشت فيكم خصال أربع: بخل وخب وغدر وضيق، ولم تكن فيكم واحدة منهن، فرمقتكم، فإذا ذلك في مولّديكم، فعلمت من أين أتى ذلك، وإذا الخب من قبل النبط، والبخل من قبل فارس، والغدر من قبل خراسان، والضيق من قبل الأهواز.

وقسم حذيفة لمن خلفوا بمرج القلعة وغيره، ولأهل المسالح جميعاً من فيء نهاوند مثل الذي قسم لأهل المعركة، لأنهم كانوا ردءاً للمسلمين، وكان سهم الفارس يوم نهاوند ستة آلاف، وسهم الراجل ألفين، ونفل حذيفة من الأخماس من شاء من أهل البلاء، ودفع ما بقي منها إلى السائب، فخرج بها إلى عمر، وتململ عمر - رضي الله عنه - تلك الليلة التي كان قدر لملاقاتهم، وجعل يخرج ويلتمس الخبر، فبينا رجل من المسلمين قد خرج في بعض حوائجه، فرجع إلى المدينة ليلاً، لحق به راكب في الليلة الثالثة من يوم نهاوند يريد المدينة، فقال له الرجل: يا عبد الله من أين أقبلت، فقال: من نهاوند. فقال: الخبر؟ قال: فتح الله على النعمان واستشهد، واقتسم المسلمون فيء نهاوند، فأصاب الفارس منه ستة آلاف، وطواه الراكب حتى انغمس في المدينة، فلما أصبح الرجل تحدث بحديثه،

ونمى الخبر حتى بلغ عمر ـ رحمه الله ـ وهو فيما هو فيه، فأرسل إليه، فسأله فأخبره، فقال: صدق وصدقت، هذا غيثم بريد الجن، وقد رأى بريد الإنس[1]، فقدم بعد ذلك عليه بالفتح طريف بن سهم ـ أخو ربيعة بن مالك ـ وقدم السائب على أثره بالأخماس.

وذكر من حديث السفطين قريباً مما تقدم في الحديث الآخر، إلا أنه ذكر فيه أنه صرف معه السفطين من فوره وقال له: النجاء (النجاء)، عودك على بدئك حتى تأتي حذيفة فيقسمهما على من أفاءهما الله عليه، وأنه أصاب الفارس منهما لما باعهما حذيفة وقسم ثمنهما أربعة آلاف.

وفي بعض ما ذكره الطبري[2] عن سيف عن شيوخه أن انبعاث الأعاجم للاجتماع بنهاوند كان بدؤه في زمان سعد بن أبي وقاص بالكوفة، وإليه بلغ الخبر فأعلم به عمر، ثم انبرى لسعد قوم تشكوا منه ظالمين له إلى عمر، أحدهم الجراح بن سنان الأسدي، فاستقدمه عمر مع محمد بن مسلمة، بعد أن وجه محمداً لسؤال أهل الكوفة عنه، والطواف به على مساجدها، فكلهم يقول إذا سئل: لا نعلم إلا خيراً، ولا نشتهي به بدلاً، إلا الجراح وأصحابه فإنهم كانوا يسكتون، يتعمدون ترك الثناء، ولا يسوغ لهم قول الشر، حتى انتهوا إلى بني عبس، فقال محمد: أنشد الله رجلاً علم حقاً إلا قاله. فقال أسامة بن قتادة: اللهم إذ نشدتنا فإنه لا يقسم بالسوية، ولا يعدل في الرعية، ولا يغزو في السرية. فقال سعد: اللهم إن كان قالها كاذباً رياء وسمعة فأعم بصره، وأكثر عياله، وعرضه لمضلات الفتن. فعمي، واجتمع عنده عشر بنات، وكان يسمع بخبر المرأة فيأتيها حتى يجسها، فإذا عُيّر عليه يقول: دعوة سعد الرجل المبارك. ثم أقبل سعد يدعو على أولئك النفر الذين انبروا له وخرجوا إلى عمر متشكين به، فقال: اللهم إن كانوا خرجوا اشراً وبطراً وكذباً فأجهد بلاءهم، ففعل الله ذلك

---

(١) هكذا في الأصل وفي الطبري، وقد سماه عثيم.

(٢) الطبري ج ٤ ص ١٢٠ وما بعدها.

بهم، فقطع جراح بالسيوف يوم ثاور الحسن بن علي ليغتاله بساباط، وشدخ قبيصة بالحجارة، وقتل أربد بالوجء[1] وبَنعال السيوف[2]. وقال سعد: والله إني لأول رجل هراق دما في المشركين، ولقد جمع لي رسول الله ﷺ أبويه، وما جمعها لأحد قبلي، ولقد رأيتني خمس الإسلام، وبنو أسد تزعم أني لا أحسن أصلي وأن الصيد يلهيني. وخرج محمد بن مسلمة به وبهم حتى قدموا على عمر، فقال: يا سعد، ويحك كيف تصلي؟ فقال: أطيل الأوليين، وأحذف الأخريين، فقال: هكذا الظن بك، ثم قال: لولا الاحتياط لكان سبيلهم بيننا، ثم قال: من خليفتك يا سعد على الكوفة؟ فقال: عبد الله بن عبد الله بن عتبان. فأقره عمر واستعمله.

قال[3]: فكان سبب نهاوند وبدء مشورتها وبعوثها في زمان سعد، وأما الوقعة ففي زمان عبد الله.

وكان من حديثهم أنهم نفروا لكتاب يزدجرد، فتوافوا إلى نهاوند مائة وخمسين ألف مقاتل، واجتمعوا على الفيرزان // وإليه كانوا توافوا، ثم قالوا: إن ٢١٤ ب
محمداً الذي جاء العرب بالدين لم يغرض غرضاً، يريدون النبي ﷺ قالوا: ثم ملكهم أبو بكر من بعده فلم يغرض غرض فارس، إلا في غارة تعرض لهم فيها، وإلا فيما يلي بلادهم من السواد، ثم ملك عمر فطال ملكه وغرض، حتى تناولكم وانتقضكم السواد والأهواز وأوطأها، ثم لم يرض حتى أتى أهل فارس في عقر دارهم، وهو آتيكم إن لم تأتوه، وقد أخذ بيت مملكتكم فاقتحم بلاد ملككم، وليس بمنته حتى تخرجوا من في بلادكم من جنوده وتقلعوا هذين المصرين، ثم تشغلوه في بلاده وقراره. فتعاهدوا على ذلك وتعاقدوا، وكتبوا بينهم به كتاباً.

وبلغ الخبر سعداً، فكتب به إلى عمر، ثم لقيه بالخبر مشافهة لما شخص إليه،

---

(١) الوجء: الضرب في أي موضع كان.

(٢) نعال السيوف: ما يكون من أسفل غمدها.

(٣) الطبري ج ٤ ص ١٢٢.

وقال: إن أهل الكوفة يستأذنونك في الإنسياح إليهم ومبادرتهم الشدة - وكان عمر منعهم من الإنسياح في الجبل - ثم كتب إليه عبد الله بن عبد الله بمن اجتمع منهم، وقال: إن جاؤنا قبل أن نبادرهم الشدة ازدادوا جرأة وقوة، وإن نحن عاجلناهم كان لنا ذلك عليهم. وبعث بكتابه مع قريب بن ظفر العبدي.

فلما قرأ عمر الكتاب قال للرسول: ما اسمك؟ قال: قريب، قال: ابن من؟ قال: ابن ظفر، فتفاءل إلى ذلك، وقال: ظفر قريب إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ونودي في الناس: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، وحينئذ وافاه سعد، فتفاءل أيضاً إلى سعد بن مالك، وقام عمر على المنبر خطيباً، فأخبر الناس الخبر، واستشارهم، وقال: هذا يوم له مابعده من الأيام، ألا وإني قد هممت بأمر وإني عارضه عليكم، فاسمعوه ثم أجيبوني وأوجزوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، ولا تكثروا ولا تطيلوا، فتفشع بكم الأمور، ويلتوي (عليكم) الرأي، أفمن الرأي أن أسير فيمن قبلي ومن قدرت عليه حتى أنزل منزلاً واسطاً بين المصرين، فأستنفرهم ثم أكون لهم ردءاً حتى يفتح الله عليهم ويقضي ما أحب؟

فقام عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف في رجال من أهل الرأي من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: لا نرى ذلك، ولكن لا يغيبن عنهم رأيك وأمرك، وبإزائهم وجوه العرب وفرسانهم وأعلامهم ومن قد فضّ جموعهم وقتل ملوكهم وباشر من حروبهم ما هو أعظم من هذا، وإنما استأذنوك ولم يستصرخوك، فأذن لهم، واندب إليهم، وادع لهم، فقام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقال: أصاب القوم يا أمير المؤمنين الرأي، وفهموا ما كتب به إليك، وإن هذا الأمر لم يبن نصره ولا خذلانه لكثرة ولا لقلة هو دينه الذي أظهر، وجنده الذي أعز وأمده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ، ونحن على موعود من الله سبحانه، والله منجز وعده، وناصر جنده، ومكانك منهم مكان النظام [1]

(١) النظام: الخيط الذي ينظم به الخرز وغيره.

من الخرز يجمعه ويمسكه، فإن انحل تفرق ما فيه، وذهب ثم لم تجتمع بجذافيره أبداً، والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فهم كثير عزيز بالإسلام، فأقم واكتب إلى أهل الكوفة، فهم أعلام العرب ورؤساؤهم، ومن لم يحفل بمن هو أجمع من هؤلاء وأحد وأجد فليأتهم الثلثان وليقم الثلث، واكتب إلى أهل البصرة أن يمدوهم ببعض من عندهم.

فسر عمر ـ رحمه الله ـ بحسن رأيهم، وأعجبه ذلك منهم. وقام سعد فقال: خفض عليك يا أمير المؤمنين، فإنهم إنما جمعوا لنقمة نازلة بهم.

وبالوقوف على ما أثبتناه من الأخبار عن هذه الوقعة يعرف ما اتفقت عليه وما اختلفت فيه، وقد حذفنا منها ما قدرنا الاستغناء عن إيراده مما لعل في بعضه زيادة في الخلاف.

وذكر المدائني أن وقعة نهاوند كانت في سنة إحدى وعشرين، وذكر الطبري [١] أنها كانت في أول سنة تسع عشرة لست سنين من إمارة عمر ـ رضي الله عنه.

وذكر ـ أيضاً ـ عن سيف [٢] عن شيوخه ما كتب به النعمان بن مقرن من الأمان لأهل ماه بهراذان، وحذيفة لأهل ماه دينار، وكلا الكتابين موافق للآخر لفظاً ومعنى، وكتاب النعمان:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ماأعطى نعمان بن مقرن أهل ماه بهراذان، أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأراضيهم [٣]، لا يغيرون على ملتهم [٤]، ولا يحال بينهم وبين شرائعهم، ولهم المنعة ما أدوا الجزية في كل سنة إلى من وليهم، على كل حالم في ماله ونفسه على قدر طاقته، وما أرشدوا ابن السبيل،

---

(١) الطبري ج ٤ ص ١١٤.

(٢) نفسه ج ٤ ص ١٣٦ ـ ١٣٧.

(٣) في الأصل: أرضيهم.

(٤) في الأصل: لا يغيروا عن ملتهم.

وأصلحوا الطرق، وقروا جنود المسلمين ممن مر بهم (فأوى إليهم) [1] يوماً وليلة، ووفوا ونصحوا، فإن غشوا وبدلوا، فذمتنا منهم بريئة. شهد عبد الله بن ذي السهمين، والقعقاع بن عمرو، وجرير بن عبد الله، وكتب في المحرم سنة تسع عشرة.

قالوا: وألحق عمر ـ رضي الله عنه ـ من شهد نهاوند من الروادف فأبلى بلاءً حسناً فاضلاً في ألفين، ألحقهم بأهل القادسية.

وقال القعقاع بن عمرو في ذلك:

جَدَعْتُ على الماهات آناف [2] فارسٍ ... لكل فتى من صلب فارسَ حادرِ
هتكت بيوت الفرس لما لقيتهم ... وما كل من يلقى الحروب بثائرِ
حبست ركاب الفيرزان وجمعه ... على قتر من حرها غير فاترِ
هدمت به الماهات والدرب بغتة ... إلى غاية أخرى الليالي الغوابرِ

(الطويل)

وقال أبو بجيد في ذلك:

لو أن قومي في الحروب أذلة ... لأخنث عليهم فارس في الملاحم
ولكن قومي أحرزتهم سيوفُهم ... فآبوا وقد عادوا حُواةَ المكارم
أبينا فلم نعط الظلامةَ فارساً ... ولكنْ قبلنا عفوَ سلْمِ المسالم
ونحن حبسنا في نهاونْدَ خيلَنا ... لشر ليالٍ أنتجت للأعاجم
نتجن لهم فينا وعضل سخْلُها ... غداةَ نهاوندٍ لإحدى العظائم
ملأنا شعاباً في نهاونْدَ منهم ... رجالا وخيلا أضرمت في الضرائم
وأركضهن الفيرزان على الصفا ... فلم ينجه منا انفساح المخارم [3]

(الطويل)

---

(١) الإضافة من الطبري.

(٢) في الأصل: أنُف.

(٣) الأبيات في معجم البلدان لياقوت ج ٥ ص ٣١٤.

ذكر الانسياح في بلاد فارس، وعمل المسلمين به بإذن عمر ـ رضي الله عنه ـ فيه بعد منعه إياهم، وما تبع ذلك من الفتوح في بقية خلافته وقتال الترك والديلم وغيرهم[1]

// ولم يزل عمر ـ رضي الله عنه ـ ينهى المسلمين عن الإنسياح في بلاد ٢١٥ أ فارس، ويأمرهم بالاقتصار على ما في أيديهم، والجد في قتال من قاتلهم، نظراً للإسلام واحتياطاً على أهله وإشفاقاً، ولا يزال أهل فارس يجهدون بعد كل نيل منهم وهزيمة تأتي على جموعهم في انبعاث جموع أخر، رجاء الإستدراك لما قد أذن الله في إقامته، والإبقاءمن أمرهم لما سبقت المشيئة بزواله واستيلاء الإسلام عليه وعلى سواه، تتميماً لنوره، وإنجازاً لموعود رسوله الذي أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

وكان بعض أهل الذمة الذين قهرهم الإسلام على الصلح وأقرهم على الجزية ينتقضون عند تحرك أهل فارس، فسأل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وفد أهل البصرة عن ذلك، وهل يفضي المسلمون إلى أهل الذمة بأذى أو بأمور لها ينتقضون؟ فقالوا: لا نعلم إلا وفاء وحسن ملكة. قال: كيف هذا؟ فلم يجد عند أحد منهم شيئاً يشفيه ويبصر به ما يقولون، إلا ما كان من الأحنف بن قيس فإنه قال: يا أمير المؤمنين، أخبرك أنك نهيتنا عن الإنسياح في البلاد، وأمرتنا بالاقتصار على ما كان في أيدينا، وأن ملك فارس حيٌّ بين أظهرهم، وأنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم، ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه، وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلا

---

(١) الخبر منقول عن الطبري ج ٤ ص ٩٤ ـ ١٣٨، وهو في فتوح البلدان للبلاذري ص٤٧٦ وما بعدها.

بانبعاثهم، وأن ملكهم هو الذي يبعثهم، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فنسيح في بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعن أمته، فهناك ينقطع رجاء أهل فارس. فقال: صدقتني والله وشرحت لي الأمر عن حقه، وأذن عمر عند ذلك في الإنسياح، وانتهى إلى رأي الأحنف، وعرف فضله وصدقه، ورأى أن يزدجرد يبعث عليه في كل عام حرباً إن لم يأذن للناس في الإنسياح في أرض العجم، ورأى أن يزدجرد على ما كان في يدي كسرى، فوجه عمر - رضي الله عنه - الأمراء من أهل البصرة ومن أهل الكوفة، وأمر على كلا المصرين أمراء، أمرهم بأمره، وأذن لهم في الإنسياح، فانساحوا وبعث بألوية من ولي مع سهيل بن عدي حليف بني عبد الأشهل، فقدم سهيل البصرة بالألوية، فدفع لواء خراسان إلى الأحنف بن قيس، ولواء أردشيرخره[1] وسابور إلى مجاشع بن مسعود السلمي، ولواء اصطخر إلى عثمان بن أبي العاص، ولواء فساودرابجرد إلى سارية بن زنيم الكناني، ولواء كرمان مع سهيل بن عدي، ولواء سجستان إلى عاصم بن عمرو، ولواء مكران إلى الحكم بن عمرو التغلبي، فعسكروا ليخرجوا إلى هذه الكور، وذلك في سنة سبع عشرة في بعض ما ذكره الطبري[2] عن سيف عن شيوخه. قالوا: فلم يستتب مسيرهم حتى دخلت سنة ثمان عشرة.

وذكر الطبري[3] - أيضاً - عن سيف أن إذن عمر في الإنسياح إنما كان بعد فتح نهاوند، وهذا لا يكون إلا في سنة تسع عشرة أو بعدها، على ما ذكرنا من الإختلاف في فتح نهاوند.

وذكر[4] - أيضاً - أنه قدمت الألوية من عند عمر - رحمه الله - إلى نفر بالكوفة، فقدم لواء منها على نعيم بن مقرن، وأمره بالمسير نحو همدان، وكان أهلها كفروا بعد الصلح الذي تقدم ذكره بعد هزيمة فارس بنهاوند[5]،

---

(١) في الأصول: أردشيرجرد.

(٢) الطبري ج ٤ ص ٩٤.

(٣)،(٤) نفسه ج ٤ ص ١٣٨.

(٥) راجع ص ٢٠٣ - ٢٠٤ من هذا الجزء.

وقال له: إن فتح الله عليك فما وراءك لك، في وجهك كذلك إلى خراسان، وبعث عقبة [1] بن فرقد وبكير بن عبد الله، وعقد لهما على أذربيجان وفرقها بينهما، وأمر أحدهما أن يأخذ إليها من حلوان على ميمنتها، والآخر أن يأخذ إليها من الموصل على ميسرتها، فتيامن هذا عن صاحبه، وتياسر هذا، وبعث إلى عبد الله بن عبد الله بن عتبان بلواء، وأمره أن يسير إلى أصبهان، وكان شجاعاً بطلاً، من أشراف الصحابة، ومن وجوه الأنصار، وأمده بأبي موسى من البصرة، وأمّر مكانه على البصرة عمر بن سراقة، وكان عبد الله خليفة سعد على الكوفة عندما توجه إلى عمر، فأقره عمر مستعملاً عليها، ثم صرفه عنها بزياد ابن حنظلة، وكتب إليه عندما أراد توجيهه إلى أصبهان أن سر من الكوفة حتى تنزل المدائن، فاندبهم ولا تنتخبهم، ثم أكتب إليّ بذلك، فلما أتى عمر انبعاث عبد الله، بعث - حينئذ - زياد بن حنظلة على الكوفة، فلما أتاه انبعاث الجنود وانسياحهم أمّر عمار بن ياسر على الكوفة، وقرأ قول الله تعالى: ﴿**ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين**﴾ (٥: القصص).

ويروى أن زياداً ألح على عمر في الاستعفاء بعد أن عمل قليلاً فأعفاه وولي عماراً، وكان زياد من المهاجرين.

ولما بعث عمر - رضي الله عنه - عماراً على الكوفة بعث عبد الله بن مسعود ليعلم الناس، وكتب إلى أهل الكوفة: إني بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً، وجعلت عبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، وهما من النجباء من أصحاب محمد ﷺ.

وفي رواية: ووليت حذيفة بن اليمان ما سقت دجلة وما وراءها، ووليت عثمان ابن حنيف الفرات وما سقى.

---

(١) في الطبري: عتبة بن فرقد.

وسنذكر إن شاء الله الجهات والكور التي عقد عليها عمر ـ رضي الله عنه ـ الألوية لمن ذكر قبل من أمرائه جهة جهة وبلداً بلداً، غير متقلدين في ذلك تاريخاً ولا متبرئين فيه من عهدة الخطأ في تقديم مؤخر أو تأخير مقدم، لكثرة ما بين أهل الأخبار في ذلك من الاختلاف الذي لا يتحصل معه حقيقة سوى المقصود من صنع الله لأوليائه في إظهار كلمة الإسلام ونصره إياهم على كل من ناوأهم من الأمم تتميماً لأمره وإنجازاً لموعوده وتصديقاً في كل زمان ومكان لقوله ﴿**وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم**﴾ (٤٠ : التوبة).



(ذكر الخبر عن أصبهان *)

فأما أصبهان، فإن عبد الله بن عبد الله بن عتبان خرج إليها بأمر عمر - رضي الله عنه - وعلى مقدمته عبد الله بن ورقاء الرياحي، وعلى مجنبتيه عبد الله بن بديل بن ورقاء الأسدي - وليس الخزاعي - وعصمة بن عبد الله، وسار عبد الله في الناس نحو جيّ وقد اجتمع له أهل أصبهان عليهم الأستندار[1]، وعلى مقدمته شهربراز // جاذويه، شيخ كبير في جمع عظيم، فالتقى المسلمون ٢١٥ ب
ومقدمة المشركين برستاق من رساتيق أصبهان، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ودعا الشيخ إلى البراز، فبرز له عبد الله بن ورقاء، فقتله وانهزم أهل أصبهان، وسمى المسلمون ذلك الرستاق رستاق الشيخ، فما زال ذلك اسمه بعد. ودعى عبد الله من يليه فسارع الأستندار إلى الصلح، فصالحه عبد الله، ثم سار من رستاق الشيخ نحو جيّ فانتهى إليها، وبها يومئذ ملك أصبهان الفاذوسفان في جمعه، فحاصرهم عبد الله، وخرجوا إليه، فلما التقوا قال له ملكهم: لا تقتل أصحابي ولا أقتل أصحابك، ولكن ابرز إليّ، فإن قتلتك رجع أصحابك، وإن قتلتني سالمك أصحابي، وإن كان أصحابي لا تقع لهم نشابة إلا في رجل. فبرز له عبد الله، وقال: إما أن تحمل عليّ، وإما أن أحمل عليك، فقال: أحمل عليك، فوقف له عبد الله، فحمل عليه الفاذوسفان، فطعنه، فأصاب قربوس السرج فكسره، وقطع اللبد والحزام، وزال اللبد والسرج، فوقع عبد الله قائماً، ثم استوى على

(*) الخبر منقول بكامله عن الطبري ج ٤ ص ١٣٩ - ١٤١، وهو في فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٨٣ - ٣٨٦، والكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٨ - ٩، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ٢٦٢.

(١) في الأصول: الاسبيذار.

الفرس عريا، وقال له: اثبت، فحاجزه وقال: ما أحب أن أقاتلك، فإني قد رأيتك رجلاً كاملاً، ولكن ارجع معك إلى عسكرك فأصالحك وأدفع المدينة إليك على أن من شاء أقام وأدى الجزية وقام على ماله، وعلى أن تجري مجراهم من أخذتم ماله عنوة ويتراجعون، ومن أبى أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه.

فقال له عبد الله: لكم ذلك. فرجع القوم إلى جيّ، إلا ثلاثين رجلاً من أصبهان خالفوا قومهم، فخرجوا فلحقوا بكرمان، ودخل عبد الله وأبو موسى جيا ـ مدينة أصبهان ـ وإنما وصل إليه أبو موسى من ناحية الأهواز بعد الصلح، واغتبط من أقام، وندم من شخص.

وكتب عبد الله بالفتح إلى عمر، فأمره أن يلحق بسهيل بن عدي فيجتمع معه على قتال من بكرمان، وأن يستخلف على أصبهان السائب بن الأقرع، ففعل عبد الله ما أمره به، وخرج في جريدة خيل فلحق بسهيل قبل أن يصل إلى كرمان، وسيأتي ذكر فتحها بعد إن شاء الله [1].

والكتاب الذي كتبه عبد الله لأهل أصبهان:

« بسم الله الرحمن الرحيم. كتاب من عبد الله للفاذوسفان وأهل أصبهان وما حواليها، إنكم آمنون ما أديتم الجزية، وعليكم من الجزية على قدر طاقتكم كل سنة تؤدونها إلى الذي يلي بلادكم (عن كل حالم)، ودلالة المسلم وإصلاح طريقه وقراه يوماً وليلة، وحملان الراجل (إلى مرحلة)، ولا تسلطوا على مسلم، وللمسلمين نصحكم وأداء ما عليكم، ولكم الأمان ما فعلتم، فإذا غيرتم شيئاً أو غيره مغير منكم ولم تسلموه فلا أمان لكم، ومن سب مسلماً بلغ منه، فإن ضربه قتلناه. وكتب وشهد عبد الله بن قيس، وعبد الله بن ورقاء، وعصمة بن عبد الله ».

---

(١) راجع: ص ٣٨٧ من هذا الجزء.

ذكر فتح همذان ثانية وقتال الديلم[1]

وقد كان حذيفة اتبع فالة نهاوند نعيم بن مقرن والقعقاع بن عمرو، فبلغا همذان فصالحهم خسروشنوم على همذان ودستبي، فرجعوا عنه، ثم إن أهل همذان كفروا بعد ونقضوا ذلك الصلح، فكتب عمر ـ رحمه الله ـ إلى نعيم ابن مقرن: أن سر حتى تأتي همذان، وابعث على مقدمتك سويد بن مقرن، وعلى مجنبتيك ربعي بن عامر ومهلهل بن زيد، هذا طائي، وذاك تميمي. فخرج نعيم في تعبئته فسار حتى نزل مدينة همذان وقد تحصنوا، فحاصرهم وأخذ ما بينها وبين جرميذان، واستولى على بلاد همذان كلها. فلما رأى ذلك أهل المدينة سألوا الصلح، على أن يجريهم ومن استجاب له مجرى واحداً، ففعل، وقبل منهم الجزاء على المنعة، وفرق دستبي بين النفر من أهل الكوفة، بين عصمة بن عبد الله الضبي، ومهلهل بن زيد الطائي، وسماك بن عبيد العبسي، وسماك بن مخرمة الأسدي، وسماك بن خرشة الأنصاري، فكان هؤلاء أول من ولى مسالح دستبي وقاتل الديلم.

فبينا نعيم في مدينة همذان في توطئتها في اثني عشر ألفاً من الجند تكاتب الديلم وأهل الري وأهل أذربيجان، ثم خرج موثا في الديلم حتى ينزل بواج الروذ، وأقبل أبو الفرخان في أهل الري، حتى انضم إليه، وأقبل أخو رستم في أهل أذربيجان حتى انضم إليه، وتحصن أمراء مسلح[2] دستبي وبعثوا إلى نعيم بالخبر،

---

(١) الخبر منقول عن الطبري ج ٤ ص ١٤٦ ـ ١٤٩، وهو في فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٨٠ ـ ٣٨٢، والكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٣ ص ٧ ـ ٨، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ٢٦٠ ـ ٢٦٢، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ١٢٠ ـ ١٢٢، وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١١٨ ـ ١١٩.

(٢) في الأصول: مسالح.

فاستخلف يزيد بن قيس، وخرج إليهم في الناس حتى نزل عليهم بواج الروذ[1]، فاقتتلوا بها قتالاً شديداً، وقتل القوم مقتلة عظيمة لم تكن دون وقعة نهاوند، ولا قصرت ملحمتهم عن الملاحم الكبار، وقد كانوا كتبوا إلى عمر - رحمه الله - باجتماعهم، ففزع عمر واهتم لحربهم، وتوقع ما يأتيه عنهم، فلم يفجأه إلا البريد بالبشارة، فقال: أبشير؟ فقال: بل عروة، فلما ثنى عليه: أبشير؟ فهم عنه ما أراد، فقال: بشير، فقال عمر: رسول نعيم؟ قال: رسول نعيم، قال: الخبر؟ قال: البشرى بالفتح والنصر، وأخبره الخبر، فحمد الله، وأمر بالكتاب فقرىء على الناس، فحمد الله - تعالى - ثم قدم عليه بالأخماس سماك بن مخرمة، وسماك بن عبيد، وسماك بن خرشة في نفر من أهل الكوفة، فنسبهم، فانتسبوا له، فقال: بارك الله فيكم، اللهم أسمك بهم الإسلام وأيدهم بالإسلام، ثم كتب إلى نعيم:

«أما بعد، فاستخلف على همذان وآمد بكير بن عبد الله بن سماك بن خرشة، وسر حتى تقدم الري فتلقى جمعهم، ثم أقم بها، فإنها أوسط تلك البلاد وأجمعها لما تريد.

فأقر نعيم يزيد بن قيس على همذان، وسار بالناس من واج الروذ إلى الري.

وقال نعيم يذكر قتالهم في واج الروذ من أبيات:

صدمناهم في واج روذٍ بجمْعِنا ... غداة رميناهمْ بإحدى القواصمِ[2]
فما صبروا في حومة الموت ساعةً ... لجدِّ الرماح والسيوفِ الصوارم[3]
أصبنا بها موتا ومَنْ لَفَّ جمعه ... (وفيها نِهابٌ قَسْمُها غير عاتم)[4]
(تبعناهُم حتى أوَوْا في شعابهم)[5] ... نُقتّلهُم قَتلَ الكلاب الحوائم[6]

---

(١) في الأصل: بواجروذ.

(٢) في الطبري وياقوت: العظائم.

(٣) في ياقوت: بجد، وفي الطبري: لحد.

(٤، ٥) ساقط من الأصول، مثبت من الطبري وياقوت.

(٦) في الطبري: الجواحم.

كــأنهُم عنــد انثيــاب جموعهــم جـداررٌ تَشَظَّى لبنــه للهــوادم

(الطويل)

وقال سماك بن مخرمة الأسدي بعد تلك الأيام[1]:

بـرزت لأهــل القــادسيــة معلماً وما كل مَـن يَلقَـى الكـريهة يُعلَـمُ
وقومي بنو عمـرو بـن نصر كـأنهم أسـودٌ بتـوج حين شبـوا وأسلمـوا
// ويوم بـأكنـاف النخيلـة قبلهـا لججْـتَ فلم أبـرحْ أُدَمّـى وأُكْلَـمُ ٢١٦ أ
وأقعص منهم فـارسـاً بعـد فـارس وما كلُّ مَـن يَغْشى الكـريهة يسلَـمُ
فنجَّــانيَ اللهُ الأجــلُّ وجُـــرأتي وسيـفٌ لأطـراف المآرب مِخْــذَمُ
وحــولي بنـو ذودان لا يَبْـرحـونني إذا سرحت صاحوا بهم ثم صممـوا
وأيقنــت يـــوم الديلميين أنـــه متى ينصرفْ قومي عن الناس يُهـزَمُ
محافظــةً إني امــرؤٌ ذو حفيظـــةٍ إذا لم أجـد مستــأخــراً أتقــدَّمُ

(الطويل)



---

(١) الأبيات في البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ١٢١، ومعجم البلدان لياقوت ج ٥ ص ٣٤١، والطبري ج ٤ ص ١٤٩، وترتيب البيت الأخير - هنا - قبل البيت الثالث مع إبدال كلمة: «انثياب» بكلمة «انبثاث».

فتح الري(*)

وخرج نعيم بن مقرن إلى الري فلقيه أبو الفرخان مسالماً، ومخلفاً بالري يومئذ سياوخش بن مهران بن بهرام، وكان سياوخش قد استمد أهل دنباوند(١) وطبرستان وقرمس وجرجان، وقال: قد علمتم أن هؤلاء إن حلوا بالري، إنه لا مقام لكم، فاحتشدوا له، فناهد بهم المسلمين، فالتقوا بسفح جبل الري الذي إلى جانب مدينتها فاقتتلوا به، وقد كان أبو الفرخان قال لنعيم: إن القوم كثير وأنتم في قلة: فابعث معي خيلاً أدخل مدينتهم من مدخل لا يشعرون به، وناهدهم أنت، فإنهم إذا خرجوا عليهم لم يثبتوا لك، فبعث معه نعيم من الليل خيلاً عليها ابن أخيه المنذر بن عمرو، فأدخلهم المدينة، ولا يشعر القوم، وبيتهم نعيم بياتاً فشغلهم عن مدينتهم، فاقتتلوا وصبروا حتى سمعوا التكبير من ورائهم، فانهزموا، فقتلوا مقتلة عدوا فيها بالقصب، وأفاء الله على المسلمين بالري نحواً من فيء المدائن، وصالح أبو الفرخان نعيماً على أهل الري، فلم يزل بعد شرف الري في آله، وسقط آل بهرام، وأخرب نعيم مدينة الري، وهي التي يقال لها العتيقة، وأمر أبا الفرخان فبنى مدينة الري الحدثاء، وكتب لهم نعيم كتاباً أعطاهم فيه الأمان لهم ولمن كان معهم من غيرهم، على أن على كل حالم من الجزية طاقته في كل سنة، وعلى أن ينصحوا ولا يغلوا ولا يسلوا، ويدلوا المسلم ويقروه يوماً وليلة، ويفخموه، فمن سب مسلماً أو استخف به نهك عقوبة، ومن ضربه قتل،

(*) الخبر في الطبري ج ٤ ص ١٥٠ ـ ١٥١، والروض المعطار ـ نقلاً عن الاكتفاء ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩، وفتوح البلدان للبلاذري ص ٣٨٩ ـ ٣٩٣، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ١٢١ ـ ١٢٢.

(١) في الأصول: دباوند.

ومن بدل منهم فلم يسلم برمته فقد غير[1] جماعته.

وراسل عند ذلك نعيماً مردانشاه مصمغان نهاوند في الصلح على شيء يفتدى به من غير أن يسأله النصر والمعونة، ففعل ذلك نعيم، وكتب له به ولأهل موضعه كتاباً على أن يتقي من ولي الفرج بمائتي ألف درهم في كل سنة.

وقال أبو بجيد في يوم الري:

ألا هل أتاها أن بالري معشرا ... شفوا سقماً لما استجاشوا[2] وقَتَّلوا[3]
لها[4] موطنان عاينوا الهلك فيهما ... بأيد طوال لم يخنهن مفصل
وخيل تعادي لا هوادة عندها ... وزاد وكمت تمتطى ومحجل
ودهم وشقر تنشر البلق[5] بينها ... إذا ناهبت[6] قوماً تولوا وأوهلوا
قتلناهم بالسفح مثنى وموحدا ... وصار لنا فيها[7] مداد[8] ومأكل
قتلنا سيا وخشا ومن مال ميله ... ولم يَنْجُ منهم بالسفوح مؤمل[9]
جزى الله خيراً معشراً عصبوهم ... وأعطاهم خير العطاء الذي وَلُوا

(الطويل)

وقال أيضاً:

وبالري إن سألت بنا أم جعفر ... فمنا صدورُ الخيل والخيل تنفرُ
إذا حذر الأقرام منهن قارح ... تفخمه في الموت أغيد أزهر

---

(١) في الأصول: «غرّ».
(٢) في الروض: استجابوا.
(٣) في الأصل: وقتل.
(٤) فيه: لهم.
(٥) في الروض: ينشر العقيق.
(٦) فيه: ناهدت.
(٧) فيه: منهم.
(٨) فيه، مراد.
(٩) فيه: ومأكل.

أخو الهيج والروعات إن زفرت به — أناخ إليها صابراً حين يزفر

فتسفر عنها الحرْبُ بعد انصبابها — وفينا البقايا والفعال المسهر

قتلنا بني بهْرامَ لما تتابعوا — على أمر غاويهم وغاب المسوَّر

وبالسفح موتى لا تطير نسورها — لها في سواء السفح مثوى ومَغْبَرُ

ولولا اتقاء القوم بالسلم أقفرت — بلادهم أو يهربون فيعذروا

خلفناهم بالري والري منزل — له جانب صعب هناك معور

(الطويل)



ذكر فتح قومس وجرجان

فأما قومس، فإن عمر - رحمه الله - كان كتب إلى نعيم بن مقرن حين أعلمه بفتح الري: أن قدم سويد بن مقرن إلى قومس، ففصل إليها سويد من الري في تعبئته، فلم يقم له أحد، فأخذها سلماً، وعسكر بها، وكاتب الذين لجأوا إلى طبرستان منهم، والذين أخذوا المفاوز يدعوهم إلى الصلح والجزاء، وكتب لهم بذلك كتاباً (١).

وأما جرجان، فإن سويداً سار إليها فكاتبه ملكها، وبدأه بالصلح على أن يؤدي له الجزاء ويكفيه حرب جرجان، فإن غلب أعانه. فقبل سويد ذلك منه، ثم تلقاه قبل أن يدخل جرجان، فدخلها معه، وعسكر سويد بها حتى جُبي إليه خراجها، وسمى فروجها، فسدها بترك دهستان، ورفع الجزاء عمن أقام بمنعها، وأخذ الخراج من سائر أهلها، وكتب سويد بذلك كتاباً لملكها رزبان صول (٢) وأهل دهستان وسائر أهل جرجان (٣).



---

(١) الخبر منقول عن الطبري ج ٤ ص ١٥١ - ١٥٢، وطرف منه في الروض المعطار ص ٤٨٥.

(٢) في الأصول: مرزبان صول، والتصويب من الطبري، والسهمي ص ٤٤ - ٤٥.

(٣) الخبر منقول عن الطبري ج ٤ ص ١٥٢ - ١٥٣، وعن جرجان وفتحها يمكن مراجعة: السهمي. تاريخ جرجان ص ٤٤ وما بعدها، والروض المعطار ص ١٦٠ - ١٦٢.

(ذكر فتح طبرستان)

وراسل الاصبهبذ سويداً في الصلح على أن يتوادعا ، ويجعل له شيئاً على غير نصرة ولا معونة على أحد ، فقبل ذلك منه ، وكتب له :

(بسم الله الرحمن الرحيم). هذا كتاب من سويد بن مقرن للفرخان اصبهبذخراسان على طبرستان وجبل جيلان (١) ، إنك آمن بأمان الله على أن تكف نصرتك وأهل حواشي أرضك ، ولا تؤوي لنا بغية وتتقي من ولي فرج أرضك بخمسمائة ألف درهم من دراهم أرضك ، فإذا فعلت ذلك فليس لأحد منا أن يغير عليك ، ولا أن يتطوف (٢) أرضك ، ولا يدخل عليك إلا بإذنك ، سبيلنا عليكم بالإذن آمنة ، وكذلك سبيلكم ، ولا تسألون لنا إلى عدو ولا تغلون ، فإن فعلتم فلا عهد بيننا وبينكم (٣) .



---

(١) في الطبري : جيل جيلان من أهل العدو .

(٢) في الطبري : لا يتطرق أرضك .

(٣) الخبر منقول عن الطبري ج ٤ ص ١٥٣ .

فتح أذربيجان

ولما [1] افتتح نعيم همذان ثانية، وسار إلى الري كتب إليه عمر: أن يبعث سماك بن خرشة الأنصاري ـ وليس بأبي دجانة ـ ممداً لبكير بن عبد الله بأذربيجان، وكان عمر قد فرق أذربيجان بين بكير وبين عتبة بن فرقد، وأمر كل واحد منهما بطريق غير طريق صاحبه، فسار بكير حين بعث إليها حتى إذا طلع بجبال جرميذان ـ طلع عليه اسفندياذ [2] بن الفرخزاد مهزوماً من واج روز، [3] فكان أول قتال لقيه بكير بأذربيجان، فاقتتلوا، فهزم الله جند اسفندياذ
وأخذه بكير أسيراً، فقال له: الصلح أحب إليك أم الحرب؟ فقال بكير: // بل ٢١٦ ب
الصلح، قال: فأمسكني عندك، فإن أهل أذربيجان إن لم أصالح عليهم وأراضي لم يقيموا لك، وجلوا إلى الجبال التي حولها من القبج والروم ومن كان في حصن تحصن إلى يوم ما، فأمسكه عنده، وصارت البلاد إليه إلا ما كان من حصن، وقدم سماك على بكير واسفندياذ في إساره، وقد افتتح ما يليه، وافتتح عتبة بن فرقد ما يليه. وتشوفت نفس بكير إلى المضي قدماً فقال لسماك: إن شئت كنت معي، وإن شئت أتيت عتبة، فإني لا أراني إلا تارككما وطالباً وجهاً هو أكره من هذا. فاستأذن عمر، فكتب إليه بالإذن على أن يتقدم نحو الباب، وأمره أن يستخلف على عمله، فاستخلف عتبة على ما افتتح منه، ودفع إليه اسفندياذ،

(١) الخبر منقول عن الطبري ج ٤ ص ١٥٣ ـ ١٥٥، وهو في فتوح البلدان للبلاذري ص ٤٠٠ ـ ٤٠٦، الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٣ ص ١٣، نهاية الأرب للنويري ج١٩ ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧، البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ١٢٢، تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١١٩ ـ ١٢٠.

(٢) في الأصل: أسبندباذ.

(٣) في الأصل: واجروذ.

فأمر عتبة سماكاً على ما استخلفه عليه بكير، وجمع عمر ـ رحمه الله ـ أذربيجان كلها لعتبة بن فرقد، وكان بهرام بن الفرخزاذ قد أخذ بطريق عتبة، وأقام له في عسكره حتى لحق عتبة فاقتتلوا، فهزمهم عتبة، وهرب بهرام، فلما بلغ الخبر اسفندياذ وهو بعد في إسار بكير قال: الآن تم الصلح، وطفئت الحرب، فصالح بكير، وأجاب إلى ذلك جميعهم، وعادت أذربيجان سلماً، وكتب عتبة بينه وبين أهلها كتاباً إذ جمع له عمل بكير إلى عمله:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عتبة بن فرقد ـ عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ـ أهل أذربيجان: سهلها وجبلها وحواشيها وشعاريها [1] وأهل ملكها [2] كلهم من الأمان على أنفسهم وأموالهم وملتهم وشرائعهم، على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم، ليس ذلك على صبي ولا على امرأة ولا زمن [3] ليس في يده من الدنيا شيء، ولا متعبد متخل ليس في يديه من الدنيا شيء، لهم ذلك ولمن سكن معهم، وعليهم قرى المسلم من جنود المسلمين يوماً وليلة ودلالته، ومن حشر منهم في سنة رفع عنه جزاء تلك السنة، ومن أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك، ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حرزه.



(١) في الطبري: وشفارها.

(٢) في الطبري: مللهم.

(٣) الزمن: الضعيف.

حديث فتح الباب (*)

وبعث عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ سراقة بن عمرو إلى الباب بعد أن رد أبا موسى مكانه إلى البصرة، وكان سراقة يدعى ذا النور، وجعل عمر على مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة، وكان أيضاً يدعى ذا النور، وجعل على إحدى مجنبتيه حذيفة بن أسيد الغفاري، وسمى للأخرى بكير بن عبد الله الليثي، وكان بإزاء الباب قبل قدوم سراقة عليه، وكتب إليه: أن يلحق به، وجعل على المقاسم سلمان بن ربيعة، فقدم سراقة عبد الرحمن، وخرج في الأثر، حتى إذا خرج من أذربيجان نحو الباب، قدم عليه بكير في أدنى الباب، فاستدفأ ببكير، ودخل بلاد الباب على ما عباه عمر ـ رحمه الله ـ وكان ملك الباب يومئذ شهربراز ـ رجل من آل شهربراز الملك الذي أفسد بني إسرائيل وأعرى منهم الشام ـ فلما أطل عليه عبد الرحمن بن ربيعة بالباب كاتبه شهربراز واستأمنه على أن يأتيه، فأمنه عبد الرحمن على ذلك، فأتاه فقال: إني بإزاء عدو كلب وأمم مختلفة، لا ينسبون إلى أحساب، وليس ينبغي لذي العقل والحسب أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوي الأحساب والأصول، وذو الحسب قريب ذي الحسب حيث كان، ولست من الفتح في شيء ولا من الأرض، وإنكم قد غلبتم على بلادي وأمتي، فأنا اليوم منكم يدي مع أيديكم، وصبري [1] معكم، فمرحباً بكم، وبارك الله لنا ولكم، وجزيتنا إليكم، ولكم

(*) الخبر منقول بأكمله عن الطبري ج ٤ ص ١٥٥ ـ ١٦٠، وهو في الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٤، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ٢٦٨، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

(١) الصغو: الميل.

النصر والقيام بما تحبون، ولا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم. فقال عبد الرحمن: فوقي رجل قد أظلك فسر إليه، فجوزه، فسار إلى سراقة، فلقيه بمثل ذلك، فقال له سراقة: قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا ما دام عليه، ولا بد من الجزاء على من يقيم ولا ينهض، فقبل ذلك شهربراز، وصارت سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين، وفيمن يستنفر من أهل الجزية، فتوضع عنه جزية تلك السنة التي استنفر فيها.

وكتب سراقة إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بذلك، فأجازه وحسنه، وليس في تلك البلاد التي في ساحة الجبال نبك[1] لم يقم الأرمن بها إلا على أوفاز، وإنما بها سكان ممن حولها ومن الطراء استأصلت الغارات نبكها من أهل القرار، وأرز أهل الجبال منهم إلى جبالهم، وجلوا عن قرار أرضهم، فكان لا يقيم بها إلا الجنود ومن أعانهم أو تجر إليهم.

واكتتبوا من سراقة بن عمرو كتاباً بالأمان لشهربراز وسكان أرمينية والأرمن، على أنفسهم وأموالهم وملتهم، لا يضارون ولا ينتقضون، وعلى أهل أرمينية والأبواب، الطراء منهم والتناء[2] ومن حولهم فدخل معهم أن ينفروا لكل غارة، وينفروا لكل أمر رآه الوالي صلاحاً، ناب أو لم ينب، على أن توضع[3] على من أجاب إلى ذلك الجزاء، ومن استغنى منهم فقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء، والدلالة والنزول يوماً كاملاً، فإن حشروا وضع ذلك عنهم، وإن تركوا أخذوا به.

ثم إن سراقة بن عمرو وجه بعد ذلك بكير بن عبد الله وحبيب بن مسلمة - وكان عمر أمد به سراقة - وحذيفة بن أسيد وسلمان بن ربيعة إلى أهل تلك الجبال المحيطة بأرمينية، فوجه بكيراً إلى موقان، وحبيباً إلى تفليس، وحذيفة إلى من بجبال اللان، وسلمان إلى وجه آخر.

(١) النبك: المكان المرتفع.

(٢) التناء: المقيمون.

(٣) في الأصل: «وضع».

وكتب سراقة بالفتح وبالذي وجه فيه هؤلاء إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فأتى عمر أمر لم يكن يرى أنه يستتم له على ما خرج عليه سريعاً بغير مؤنة، وكان فرجاً عظيماً به جند عظيم، إنما ينتظر أهل فارس صنيعهم، ثم يضعون الحرب أو يبعثونها.

فلما استوثقوا واستحلوا عدل الإسلام مات سراقة - رحمه الله - واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة، وقد مضى أولئك القواد الذين بعثهم سراقة، فلم يفتح أحد منهم ما وجه له إلا بكيراً فإنه فض موقان، ثم تراجع أهلها على الجزية، فقبل منهم وكتب لهم بها وبأمانهم عليها.

ولما بلغ عمر - رحمه الله - موت سراقة واستخلافه عبد الرحمن أقره عمر وأمره بغزو الترك، فخرج بالناس حتى قطع الباب، فقال له شهربراز: ما تريد أن تصنع؟ قال: أريد بلنجر. فقال شهربراز: إنا لنرضى منهم أن يدعونا من وراء الباب. فقال عبد الرحمن: لكنا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيهم في ديارهم، وبالله إن معنا لأقواماً لو يأذن لنا أميرنا في الإمعان لبلغت بهم الردم. قال: وما هم؟ قال: أقوام صحبوا رسول الله ﷺ ودخلوا في هذا الأمر بنية، وكانوا
٢١٧ أ أصحاب حياء وتكرم في الجاهلية، فازداد حياؤهم وتكرمهم // ولا يزال هذا الأمر دائماً لهم، والنصر معهم حتى يغيرهم من يغلبهم، وحتى ينقلوا عن حالهم، فغزا عبد الرحمن بلنجر غزاة في زمان عمر - رضي الله عنه - لم تئم فيها امرأة ولم ييتم صبي، وبلغت خيله في غزاته البيضاء على رأس مائتي فرسخ من بلنجر، ثم غزا فسلم، ثم غزا غزوات في زمان عثمان - رضي الله عنه - ثم أصيب عبد الرحمن حين تبدل أهل الكوفة في إمارة عثمان لاستعماله من كان ارتد استصلاحاً لهم، فلم يصلحهم ذلك وزادهم فساداً، أن سادهم من طلب الدنيا، وعضلوا بعثمان - رضي الله عنه ورحمه - حتى جعل يتمثل:

وكنت وعمراً كالمسمن كلبه ... فخدشه أنيابه وأظافره

(الطويل)

وقال سلمان بن ربيعة[1]: لما دخل عبد الرحمن بن ربيعة عليهم ـ يعني على الترك ـ حال الله بينهم وبين الخروج عليه، وقالوا: ما اجترأ علينا هذا الرجل إلا ومعهم الملائكة تمنعهم من الموت، فتحصنوا منه، فرجع بالغنم والظفر، وذلك في إمارة عمر، ثم لما غزاهم غزوات في زمان عثمان ظفر بهم كما كان يظفر، حتى إذا تبدل أهل الكوفة ـ وذكر بعض ما تقدم من استعمال من ارتد ـ وغزاهم بعد ذلك تذمرت الترك وقالوا: انظروا، وكانوا يقولون إنهم لا يموتون. قال: فاختفوا لهم في الغياض، فرمى رجل منهم رجلاً من المسلمين على غرة فقتله، وهرب عنه أصحابه، فخرجوا عليه عند ذلك، فاقتتلوا فاشتد قتالهم، ونادى مناد من الجو: صبراً آل عبد الرحمن موعدكم الجنة (فقاتل) حتى قتل عبد الرحمن وانكشف المسلمون، وأخذ سلمان بن ربيعة الراية، فقاتل بها، ونادى مناد من الجو: صبراً آل سلمان، فقال سلمان: أوترى جزعاً؟ ثم خرج بالناس وخرج سلمان الفارسي وأبو هريرة الدوسي على جيلان، فقطعوها إلى جرجان، واجترأ الترك بعدها ولم يمنعهم ذلك من اتخاذ جسد عبد الرحمن، فما زالوا بعد يستسقون به.

وجعل عثمان ـ رحمه الله ـ يغزيها مع حبيب بن مسلمة.

وحدث مطر بن ثلج التيمي قال، دخلت على عبد الرحمن بن ربيعة بالباب وشهربراز عنده، فأقبل رجل عليه شحوب حتى جلس إلى شهربراز، فتساءلا، ثم إن شهربراز قال لعبد الرحمن: أيها الأمير، أتدري من أين جاء هذا الرجل؟ إني بعثته منذ سنتين[2] نحو السند لينظر لي ما حاله ومن دونه، وزودته مالاً عظيماً، وكتبت له إلى من يليني، وأهديت له، وسألته أن يكتب إلى من وراءه، وزودته لكل ملك هدية، ففعل ذلك بكل ملك بيني وبينه، حين انتهى إليه، حتى انتهى إلى الملك الذي السد في ظهر أرضه، فكتب له إلى عامله على ذلك البلد، فأتاه فبعث معه بازياره ومعه عقابه. فذكر أنه أحسن إلى البازيار وقال: فتكشر لي

(١) الطبري ج ٤ ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

(٢) في الطبري: سنين.

البازيار، فلما انتهينا إذا جبلان بينهما سد مَسدود، حتى ارتفع على الجبلين بعدما استوى بهما، وإذا دون السد خندق أشد سواداً من الليل لبعده، فنظرت إلى ذلك وتفرست فيه، ثم ذهبت لأنصرف، فقال لي البازيار: على رسلك، أكافئك، إنه لا يلي ملك بعد ملك إلا تقرب إلى الله بأفضل ما عنده من الدنيا، فيرمى به في هذا اللهب، فشرح بضعة (لحم) معه، فألقاها في ذلك الهوى، وانقضت عليها العقاب، وقال: إن أدركتها قبل أن تقع فلا شيء، وإن لم تدركها حتى تقع فذلك شيء، فخرجت علينا (العقبان) باللحم في مخالبها، وإذا فيها ياقوتة، فأعطانيها، وهي هذه. فتناولها منه شهربراز وهي حمراء فناولها عبد الرحمن، فنظر إليها ثم ردها إليه، فقال شهربراز: لهذه خير من هذه البلد - يعني الباب - وأيم الله لأنتم أحب إليَّ ملكةً من آل كسرى، ولو كنت في سلطانهم ثم بلغهم خبرها لانتزعوها مني، وأيم الله لا يقوم لكم شيء ما وفيتم أو وفى ملككم الأكبر.

فأقبل عبد الرحمن على الرسول وقال: ما حال الردم وما شبهه؟ فقال: هذا الثوب الذي على هذا الرجل، وأشار إلى مطر بن ثلج، وكان عليه قباء برود يمنية أرضة حمراء ووشيه أسود أو وشيه أحمر وأرضه سوداء، فقال مطر: صدق والله الرجل، لقد نفذ ورأى، قال عبد الرحمن: أجل، ووصف صفة الحديد **والصُفر** وقرأ ﴿آتوني زبر الحديد﴾ إلى آخر الآية (٩٦: الكهف) وقال عبد الرحمن لشهربراز: كم كانت هديتك؟ قال: قيمة مائة ألف في بلادي هذه، وثلاثة آلاف ألف وأكثر في تلك البلدان.

ذكر مسير يزدجرد إلى خراسان ودخول الأحنف إليها غازياً(*)

ذكروا(١) أن يزدجرد لما انهزم أهل جلولاء خرج يريد الري، وقد جعل له محمل يطيق(٢) ظهر بعيره، وكان إذا سار نام ولم يعرس بالقوم، فانتهى به إلى مخاضة وهو نائم في محمله، فأنبهوه ليعلم، ولئلا يفزع إن هو استيقظ إذا خاض البعير به، فعنفهم على إنباهه وقال: بئس ما صنعتم، والله لو تركتموني لعلمت ما مدة هذه الأمة، إني رأيت أني ومحمداً - يعني النبي ﷺ - تناجينا عند الله - تعالى - فقال له: أملككم مائة سنة، فقال: زدني، فقال: عشراً ومائة، فقال: زدني، فقال: عشرين ومائة سنة، فقال: زدني، فقال: لك. وأنبهتموني، ولو تركتموني لعلمت.

فلما انتهى إلى الري، وثب عليه آبان جاذويه، وكان على الري - حينئذ - فأخذه، فقال له يزدجرد: يا آبان جاذويه، تغدر بي! فقال: لا ولكن قد تركت ملكك وصار في يدي غيرك، فأحببت أن أكتتب على ما كان لي من شيء، وما أردته من غير ذلك، وأخذ خاتم يزدجرد ووصل الأدم، واكتتب الصكاك وسجل السجلات بكل ما أعجبه، ثم ختم عليها ورد الخاتم، ثم أتى بعد سعداً فرد عليه كل شيء في كتابه.

(*) الخبر منقول عن الطبري ج ٤ ص ١٦٦ - ١٧٣، وهو في تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١٢٠ - ١٢٢.

(١) الطبري ج ٤ ص ٦٦ وما بعدها.

(٢) كذا في الأصل، وفي الطبري: يطبق.

ولما صنع آبان جاذويه بيزدجرد ما صنع خرج يزدجرد من الري إلى أصبهان وكره جوارآبان ولم يأمنه، ثم عزم على كرمان، فأتاها ومعه النار، فأراد أن يضعها في كرمان، ثم عزم على خراسان، فأتى مرو فنزلها وقد نقل النار، فبنى لها بيتاً واتخذ بستاناً، وبنى أزجا[1] فرسخين من مرو إلى البستان، فاطمأن في نفسه وأمن أن يؤتى، وكاتب من مرو من بقي من الأعاجم حيث لم يفتتحه المسلمون، فدانوا له، حتى إذا ثار أهل فارس والفيرزان[2] فنكثوا، وثار أهل الجبال والفيزران فنكثوا، وصار ذلك داعية إلى إذن عمر ـ رضي الله عنه ـ في الإنسياح، فانساح أهل البصرة وأهل الكوفة حتى أثخنوا في الأرض، فخرج الأحنف إلى خراسان، فأخذ على مهرجان نقذف[3]، ثم خرج على أصبهان ـ وأهل الكوفة محاصروجي ـ

٢١٧ ب فدخل // خراسان من الطبسين، فافتتح هراة عنوة، واستخلف عليها صحار بن فلان العبدي، ثم سار نحو مرو الشاهجان، وأرسل إلى نيسابور ـ وليس دونها قتال ـ مطرف بن عبد الله بن الشخير، وإلى سرخس الحارث بن حسان، فلما دنا الأحنف من مرو الشاهجان خرج منها يزدجرد نحو مرو الروذ حتى نزلها، ونزل الأحنف مرو الشاهجان، وكتب يزدجرد إلى خاقان وملك الصغد وصاحب الصين يستمدهم ويستعين بهم، وخرج الأحنف من مرو الشاهجان، واستخلف عليها حارثة[4] بن النعمان الباهلي بعدما لحقت به أمداد الكوفة، على أربعة أمراء: علقمة بن النضر النضري، وربعي بن عامر التميمي، وعبد الله بن أبي عقيل الثقفي، وابن أم غزال الهمداني، وبلغ يزدجرد خروج الأحنف سائراً نحوه فخرج إلى بلخ، ونزل الأحنف مرو الروذ، وقدم أهل الكوفة فساروا إلى بلخ، وأتبعهم الأحنف، والتقى أهل الكوفة ويزدجرد ببلخ، فهزمه الله بهم، وتوجه في أهل فارس إلى النهر فعبروا، ولحق الأحنف بأهل الكوفة وقد فتح الله عليهم، وتتابع أهل خراسان ممن شذ وتحصن على الصلح فيما بين نيسابور إلى

(١) في الأصل: زجا، والأزج: بيت يبنى طولاً.

(٢) في الأصول الهرمزان.

(٣) في الأصول فدق.

(٤) في الطبري: حاتم، وسوف يتكرر هذا الاسم في الاكتفاء فيما بعد بلفظ «حارثة».

طخارستان، وعاد الأحنف إلى مرو الروذ فنزلها، واستخلف على طخارستان ربعي بن عامر ـ وهو الذي يقول له النجاشي وينسبه إلى أمه، وكان من أشراف العرب:

ألا ربَّ مَنْ تدعو[1] فتًى ليس بالفتى ألا إنَّ رِبْعِيَّ بْنَ كـأسٍ هـو الفتى
طويلُ قعـودِ القـومِ في قعْـرِ بيتِـهِ إذا شبعوا من ثفـلِ جَفْنَتِـهِ سَقَـى
(الطويل)

وكتب الأحنف بفتح خراسان إلى عمر ـ رحمه الله ـ فقال: لوددت أني لم أكن بعثت إليها جنداً، ولوددت أنه كان بيننا وبينها بحر من نار، فقال علي ـ رضي الله عنه: ولم يا أمير المؤمنين؟ قال: لأن أهلها سينقضون ثلاث مرات، فيجتاحون في الثالثة، فكان أن يكون ذلك بأهلها أحب إليّ من أن يكون بالمسلمين.

وكتب عمر إلى الأحنف: أما بعد، فلا تجوزن النهر واقتصر على ما دونه، وقد عرفتم بأي شيء دخلتم خراسان، فدوموا على الذي دخلتم به يدم لكم النصر، وإياكم وإياكم أن تغيروا فتنقضوا.

ولما بلغ رسول يزدجرد إلى خاقان لم يستتب له إنجاده حتى عبر إليه النهر مهزوماً، وقد استتب له ذلك، والملوك ترى على أنفسها إنجاد الملوك، فأقبل في الترك، وحشر أهل فرغانة والصغد، ثم خرج بهم، وخرج يزدجرد راجعاً إلى خراسان حتى عبر النهر إلى بلخ، وعبر معه خاقان، فأرز أهل فارس إلى الأحنف بمرو الروذ، وجاء المشركون حتى نزلوا بها عليه، وكان حين بلغه عبورهم قاصدين له خرج ليلاً في عسكره يتسمع في ليلة مظلمة هل يسمع برأي ينتفع به؟ فمر برجلين ينقيان علفاً، إما تبناً وإما شعيراً، وأحدهما يقول لصاحبه: لو أن الأمير أسندنا إلى هذا الجبل فكان النهر بيننا وبين عدونا خندقاً، والجبل في ظهورنا لئلا يأتونا من خلفنا، وكان قتالنا من وجه واحد

(١) في الطبري: ويدعى.

رجوت أن ينصرنا الله عز وجل. فرجع الأحنف واجتزأ بها، فلما أصبح جمع الناس وقال: إنكم قليل وإن عدوكم كثير، فلا يهولنكم، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين، ارتحلوا من مكانكم هذا فاسندوا إلى هذا الجبل، فاجعلوه في ظهوركم، واجعلوا النهر بينكم وبين عدوكم، وقاتلوهم من وجه واحد. ففعلوا، وقد أعدوا ما يصلحهم، والأحنف في عشرة آلاف من أهل البصرة، وأهل الكوفة نحو منهم، واقبلت الترك ومن اجتلبت حتى نزلوا بهم، فكانوا يغادونهم ويراوحونهم، ويتنحون عنهم بالليل ما شاء الله، وطلب الأحنف علم[1] مكانهم بالليل حتى علم علمهم، ثم خرج ليلة طليعة لأصحابه حتى كان قريباً من عسكر خاقان فوقف، فلما كان في وجه الصبح خرج فارس الترك بطوقه وضرب طبله، ثم وقف من العسكر موقفاً مثله، فحمل عليه الأحنف، فاختلفا طعنتين، فطعنه الأحنف فقتله، وهو يرتجز:

إن على كــل رئيـس حقــاً ... أن يخضب الصعـدة أو تنـدقـا
إن لها[2] شيخــاً بهــا ملقــاً[3] ... سيـف أبي حفـص الذي تبقــى
(الرجز)

ثم وقف موقف التركي وأخذ طوقه، ثم خرج آخر من الترك، ففعل فِعل صاحبه، ثم وقف دونه، فحمل عليه الأحنف، فاختلفا طعنتين فطعنه الأحنف فقتله وهو يرتجز:

إن الرئيـس يـرتبي ويَطْلُـعُ ... ويمنع الخُلاّء[4] إذا مـا أرتَعـوا
(الرجز)

ثم وقف موقف التركي الثاني، وأخذ طوقه، ثم خرج ثالث من الترك، ففعل فعل صاحبيه، ووقف دون الثاني منهما، فحمل عليه الأحنف فاختلفا طعنتين، فطعنه الأحنف فقتله وهو يرتجز:

---

(١) في الأصول: عليّ.
(٢) في الطبري: أن لنا.
(٣) في الطبري: ملقى.
(٤) في الأصول: الخِلّيّ

جَرْيَ الشموسِ ناجزاً بناجِزِ   محتفلاً في جرْيِهِ مشارز[1]

(الرجز)

ثم انصرف الأحنف إلى عسكره، ولا يعلم بذلك أحد منهم حتى دخله واستعد. وكان من شيمة الترك أنهم لا يخرجون حتى يخرج ثلاثة من فرسانهم كهؤلاء، كلهم يضرب بطبله ثم يخرجوا بعد خروج الثالث، فخرجت الترك ـ ليلتئذ ـ بعد الثالث، فأتوا على فرسانهم مقتلين، فتشاءم خاقان وتطير، وقال: قد طال مقامنا، وقد أصيب هؤلاء بمكان لم يصب بمثله قط أحد منا، فما لنا في قتال هؤلاء القوم من خير، فانصرفوا بنا، فكان وجههم راجعين، وارتفع النهار للمسلمين ولا يرون شيئا، فأتاهم الخبر بانصراف خاقان إلى بلخ، فقال المسلمون للأحنف: ما ترى في اتباعهم؟ فقال: أقيموا بمكانكم ودعوهم.

وكان يزدجرد لما نزل خاقان بمرو الروذ خرج إلى مرو الشاهجان فتحصن منه حارثة بن النعمان[2] ومن معه، فحاصرهم واستخرج خزائنه من مواضعها، وخاقان ببلخ مقيم له، فلما جمع يزدجرد ما كان في يديه مما وضع بمرو، فأعجل عنه وأراد أن يستقل منها، إذا أمر عظيم من خزائن أهل فارس، فقال له أهل فارس: أي شيء تريد أن تصنع؟ فقال: أريد اللحاق بخاقان، فأكون معه أو بالصين، فقالوا له: مهلاً، فإن هذا رأي سوء، إنك إنما تأتي قوماً في مملكتهم وتدع أرضك وقومك، ولكن ارجع إلى هؤلاء القوم ـ يعنون المسلمين ـ فنصالحهم، فإنهم أوفياء وأهل دين، وهم يلون بلادنا، وإن عدوا يلينا في بلادنا أحب إلينا ملكه من عدو يلينا في بلاده لا دين لهم ولا ندري ما وفاؤهم، فأبى
٢١٨ أ عليهم وأبوا عليه، فقالوا: فدع خزائننا نردها إلى بلادنا ومن يليها، // ولا تخرجها من بلادنا إلى غيرها، فأبى، فقالوا: إنا لا ندعك، فاعتزلوه وتركوه في حاشيته، فاقتتلوا، فهزموه وأخذوا الخزائن واستولوا عليها، وكتبوا إلى الأحنف

---

(١) في حاشية «ط» و«ح»: المشارز: السيء الخلق.

(٢) في الطبري: حاتم.

بالخبر، فاعترضهم المسلمون والمشركون يثفنونه [١]، فقاتلوه، وأصابوا في آخر القوم، وأعجلوه عن الأثقال، ومضى مزايلاً [٢] حتى يقطع النهر إلى فرغانة والترك، فلم يزل مقيماً بقية زمان عمر -رضي الله عنه- يكاتبهم ويكاتبونه، أو من شاء الله منهم، إلى أن كان زمن عثمان -رضي الله عنه- فكفر أهل خراسان، فأقبل حتى نزل مرو، فكان من أمره إلى حين مقتله ما نذكره بعد في موضعه إن شاء الله.

وأقبل أهل فارس على الأحنف فصالحوه، ودفعوا إليه تلك الخزائن والأموال، وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا في زمان الأكاسرة، فكانوا كأنهم في ملكهم، إلا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل عليهم، فاغتبطوا، وأصاب الفارس يوم يزدجرد كسهم الفارس يوم القادسية.

ولما سمع خاقان وهو والترك ببلخ ما لقي يزدجرد، وأن الأحنف خرج مع المسلمين من مرو الروذ نحوه، ترك بلخ وعبر النهر، وأقبل الأحنف حتى نزل بلخ، ونزل أهل الكوفة في كورها الأربع، ثم رجع إلى مرو الروذ فنزل بها، وكتب بالفتح الذي صنع الله في خاقان ويزدجرد إلى عمر -رحمه الله- وبعث إليه بالأخماس، ووفد الوفود.

ولما عبر خاقان النهر، وعبر(ت) معه حاشية آل كسرى، أو من أخذ نحو بلخ منهم مع يزدجرد، لقوا رسول يزدجرد الذي كان بعثه إلى ملك الصين، وأهدى إليه معه، ومعه جواب كتاب يزدجرد من ملك الصين، فسألوه عما وراءه، فقال: لما قدمت عليه بالكتاب والهدايا كافأنا بما ترون، وأراهم هديته، وأجاب يزدجرد بهذا الكتاب بعد أن كان قال لي: قد عرفت أن حقاً على الملوك إنجاد الملوك على من غلبهم، فصف لي صفة هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم، فإني أراك تذكر منهم قلة وكثرة منكم، ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل

---

(١) يثفنونه: يدفعونه.

(٢) في الطبري: موائلا.

الذي تصف منكم فيما أسمع من كثرتكم إلا لخير عندهم وشر فيكم، فقلت: اسألني عما أحببت، فقال: أيوفون[1] بالعهد؟ قلت: نعم. قال: وما يقولون لكم قبل أن يقاتلوكم؟ قلت: يدعوننا إلى واحدة من ثلاث: إما دينهم فإن أجبناهم أجرونا مجراهم، أو الجزية والمنعة، أو المنابذة، قال: فكيف طاعتهم أمراءهم؟ قلت: أطوع قوم لمرشدهم، قال: فما يحلون وما يحرمون؟ فأخبرته، فقال: أيحرمون ما حلل لهم، أو يحلون ما حرم عليهم؟ قلت: لا، قال: فإن هؤلاء القوم لا يهلكون أبداً حتى يحلوا حرامهم ويحرموا حلالهم، ثم قال: أخبرني عن لباسهم، فأخبرته، وعن مطاياهم، فقلت: الخيل العراب - ووصفتها - فقال: نعمت الحصون هذه، ووصفت له الإبل - بركها[2] وانبعاثها بحملها - فقال: هذه صفة دواب طوال الأعناق.

وكتب معه إلى يزدجرد: إنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق علي، ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك لو يحاولون الجبال لهدوها، ولو خلي لهم سربهم أزالوني ما داموا على ما وصف، فسالمهم وأرْضَ منهم بالسلامة، ولا تهيجهم ما لم يهيجوك.

فأقام يزدجرد وآل كسرى بفرغانة على عهد من خاقان، ولما وقع الرسول بالفتح والوفد بالخبر ومعهم الغنائم لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من قبل الأحنف، جمع الناس وخطبهم، وأمر بكتاب الفتح فقرىء عليهم، وقال في خطبته: إن الله - تبارك وتعالى - ذكر رسوله وما بعثه به من الهدى، ووعد على اتباعه من عاجل الثواب وآجله خير الدنيا والآخرة، فقال عز وجل: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**﴾ (٣٣: التوبة)، فالحمد لله الذي أنجز وعده، ونصر جنده. ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم، لينظر كيف تعملون، ألا وإن المصرين اليوم من مسالحها كأنتم والمصرين فيما مضى من البعد وقد وغلوا في

(١) في الأصل: أيفون.

(٢) في الأصل: بركوها.

البلاد، والله بالغ أمره، ومنجز وعده، ومتبع آخر ذلك أوله، فقوموا في أمره على رجل يوف لكم بعهده ويؤتكم وعده، ولا تغيروا فيستبدل الله بكم قوماً غيركم، فإني لا أخاف على هذه الأمة أن يؤتوا إلا من قبلكم.

وسيأتي بعد إن شاء الله ما كان من انتقاض خراسان [1] وغيرها في خلافة عثمان - رضي الله عنه.

ونذكر الآن بقية فتوح أهل البصرة الذين عقد لهم عمر - رضي الله عنه - عند الإذن لهم في الإنسياح على ما تقدم.



(١) راجع: ص ٤١٤ ومابعدها من هذا الجزء.

فتح توج

قالوا:[1] وخرج أهل البصرة الذين وجهوا أمراء على فارس، ومعهم سارية ابن زنيم ومن بعث معهم إلى ما وراء ذلك، وأهل فارس مجتمعون بتوج، فلم يصمدوا بجمعهم، ولكن قصد كل أمير منهم قصد إمارته وكورته التي أمر بها، وبلغ ذلك أهل فارس، فتفرقوا إلى بلدانهم ليمنعوها كما تفرق المسلمون في القصد إليها، فكانت تلك هزيمة أهل فارس، تشتت أمورهم وتفرقت جموعهم، فتطيروا من ذلك كأنما كانوا ينظرون إلى ما صاروا إليه، فقصد مجاشع بن مسعود فيمن معه من المسلمين لسابور[2] وأردشير خُرّه[3]، فالتقوا بتوج مع أهل فارس، فاقتتلوا ماشاء الله عز وجل. ثم إن الله عز وجل سلط المسلمين على أهل توج فهزموهم وقتلوهم كل قتلة، وبلغوا منهم ماشاءوا، وغنمهم ما في عسكرهم فحووه.

وهذه توج الآخرة، لم يكن لها بعدها شوكة، والأولى التي تنقذ فيها جنود العلاء بن الحضرمي أيام طاووس، والوقعتان متساجلتان.

ثم دعوا بعد هزيمتهم هذه الآخرة إلى الجزية والذمة، فتراجعوا وأقروا وخمس مجاشع الغنائم، وبعث بخمسها، ووفد وفداً، وقد كانت البشرى والوفود يجازون وتقضي لهم حوائجهم، لسنة جرت بذلك من رسول الله ﷺ.

وحدث عاصم بن كليب عن أبيه قال: خرجنا مع مجاشع غازين توج،

---

(١) الخبر منقول عن الطبري ج ٤ ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٢) في الأصل: نيسابور.

(٣) في الأصل: جرد، والتصويب من الطبري.

فحاصرناها [1]، وقاتلناهم ما شاء الله، فلما افتتحناها حوينا نهباً كثيراً، وقتلنا قتلى عظيمة، فكان عليّ قميص قد تخرق، فأخذت إبرة وسلكاً، فجعلت أخيط قميصي بها. ثم إني نظرت إلى رجل من القتلى عليه قميص فنزعته، فأتيت به الماء، فجعلت أضربه // بين حجرين حتى ذهب ما فيه، فلبسته، فلما جمعت الرثة، ٢١٨ ب
قام مجاشع خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس لا تغلوا، فإنه من غل جاء بما غل يوم القيامة، ردوا ولو المخيط. فلما سمعت ذلك نزعت القميص فألقيته في الأخماس.

وفي ذلك يقول مجاشع [2]:

[و] نحن وَلِينا مرةً بعد مرة — بتوَّجَ أبناء الملوك الأكابر
لقينا جنودَ[3] الماهيان بسحرةٍ — على ساعة تلوي بأيدي الخطائر
فما فتئَتْ خيلي تكر عليهم — ويلحق منها[4] لاحقٌ غير جائر
لَدُنْ غدوةٍ حتى أتى الليلُ دونهم — وقد عولجوا بالمرهفات البواتر
وكان كذاك الدأب في كل كورة — أجابت لإحدى المنكرات الكبائر
(الطويل)

* * *

(١) في الأصول: فحصرناها.
(٢) الأبيات في الروض المعطار ص ١٤٣.
(٣) في الروض: جيوش.
(٤) في الروض: منهم.

حديث إصطخر

قالوا [1]: وقصد عثمان بن أبي العاص لاصطخر، فالتقى هو وأهلها بجور فاقتتلوا ما شاء الله، ثم فتح الله على المسلمين جور واصطخر، فقتلوا ماشاء الله، وتفرق من تفرق، ثم إن عثمان دعا الناس إلى الجزاء والذمة، فراسلوه وراسلهم، فأحابه الهربذ وكل من هرب أو تنحى، فتراجعوا وباحوا بالجزاء، وجمع عثمان حين هزمهم ما أفاء الله عليهم فخمسه وبعث بالخمس إلى عمر - رحمه الله - وقسم الباقي في الناس، وعف الجند عن النهاب، وأدوا الأمانة، واستدقوا الدنيا، فجمعهم عثمان ثم قام فيهم وقال: إن هذا الأمر لا يزال مقبلاً وأهله معافون مما يكرهون ما لم يغلوا، فإذا غلوا رأوا ما ينكرون ولم يسد الكثير مسد القليل اليوم.

وعن الحسن قال: قال عثمان بن أبي العاص يوم اصطخر: إن الله - عز وجل - إذا أراد بقوم خيراً كفهم ووفر أمانتهم، فاحفظوها، فإن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، فإذا فقدتموها جدد لكم في كل يوم فقدان شيء من أموركم.

ثم إن شهرك خلع في آخر إمارة عمر أو أول إمارة عثمان - رحمهما الله - ونشط أهل فارس ودعاهم إلى النقض، فوجه إليه عثمان بن أبي العاص

---

(١) الخبر منقول عن الطبري ج ٤ ص ١٧٥ - ١٧٧، وهو في الروض المعطار ص ٤٤ - ٤٥، وقد أحال على الاكتفاء، وفي الأخبار الطوال ص ١٣٩ - ١٤٠، والكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٠ - ٢١، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ٢٧٧، وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١٢٢ - ١٢٣.

ثانية، وبعث معه جنوداً أمدَّ بهم عليهم عبيد الله بن معمر، وشبل بن معبد، فالتقوا بفارس، فقال شهرك لابنه وهو في المعركة،وبينهم وبين قرية لهم تدعى ريشهر [1] ثلاثة فراسخ، وكان بينهم وبين قرارهم اثنا عشر فرسخاً: يا بني، أين ترى أن يكون غداؤنا هنا أو بريشهر؟ فقال: يا أبت إن تركونا فلا يكون غداؤنا هنا ولا بريشهر، ولا يكون إلا في المنزل، ولكن والله ما أراهم يتركوننا. فما فرغا من كلامهما حتى أنشب المسلمون القتال، فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل فيه شهرك وابنه وقتل من المشركين مقتلة عظيمة، وولي قتل شهرك الحكم بن أبي العاص أخو عثمان بن أبي العاص.

وذكر الطبري عن أبي معشر: أن اصطخر الآخرة كانت سنة ثمان وعشرين، وذلك وسط إمارة عثمان بن عفان - رضي الله عنه.

وذكر - أيضاً - بسنده إلى عبيد الله بن سليمان قال: كان عثمان بن أبي العاص أرسل إلى البحرين، فأرسل أخاه الحكم في ألفين إلى توج، وكان كسرى قد فر عن المدائن، ولحق بجور من أرض فارس.

قال الحكم: فقصد إلى شهرك - وكان كسرى أرسله - فهبطوا من عقبة، عليهم الحديد، فخشيت أن تغشى أبصار الناس، فأمرت منادياً فنادى: أن من كانت له عمامة فليلقها على عينيه، ومن لم يكن له عمامة فليغمض بصره، وناديت: أن حطوا عن دوابكم. فلما رأى شهرك ذلك حط - أيضاً - ثم ناديت: أن اركبوا، وصففنا لهم، وركبوا، فجعلت الجارود العبدي على الميمنة، وأبا صفرة - يعني أبا المهلب - على الميسرة، فحملوا على المسلمين فهزموهم حتى ما أسمع لهم صوتاً، فقال لي الجارود: أيها الأمير، الجند! فقلت: إنك سترى أمرك، فما لبثنا أن رجعت خيلهم، ليس عليها فرسانهم، والمسلمون يتبعونهم يقتلونهم، فنثرت الرءوس بين يدي، وأتيت برأس ضخم، وكان معي

---

(١) في الأصل: بسهرك، والتصويب من تصويبات الطبري ط. أوربا.

بعض ملوكهم فارق كسرى ولحق بي، فقال[1]: هذا رأس الأزدهاق - يعنون شهرك - فحوصروا في مدينة سابور، فصالحهم الحكم، وكان ملكهم آذربيان، فاستعان به الحكم على قتال أهل اصطخر.

وقال يزيد بن الحكم بن أبي العاص يذكر اصطخر الآخرة:

أنا ابن عظيم القريتين كليهما ... نَمَتْني إلى العليا الفروع الفوارعُ
لنا مجد بَطْحاوَيْ ثقيفٍ وغالبٍ ... إذا عُدَّ بطحاواهما والدَّ سائِعُ
لنا الحسب العَوْدُ الذي لا تناله ... عيونُ العدى والحاسداتُ الدواسع
أبِي سَلَب الجبارَ بيضَةَ ملكه ... فخرَّ وأطرافَ الرماح شوارع
بمعترك ضنك به قصد القَنَى ... وهام وأيد تختليها القواطع
بأيدي سراةٍ كلُّهم باع نفسَه ... فأوْفوا بما باعوا وأوْفى المبايِعُ
هم المؤمنون الواردو الموت في الوغى ... كما ترد الماءَ العطاشُ النوائعُ
نجاهد في نصر لخير شريعة ... إذا ذُكِرَتْ يومَ الحساب الشرائع
سَمَوْنا لزحفِ المشركين بوقعةٍ ... بها دَرَّ مالِ الجزيةِ المتتابع
تركنا من القتلى نثاراً[2] تعودها ... نسورُ تراماها الضباع الجوامع
جثى من عظام المشركين كأنها ... تلوح من الرأي البعيد صوامع
تركنا سباع الأرض والطير منهم ... شباعاً وما فيها إلى الحول جائع

(الطويل)

* * *

(١) في الأصل: فقالوا.
(٢) في الأصل: مناراً.

حديث فساودارابجرد (*)

قالوا[1] : وقصد سارية بن زنيم لفساودارابجرد[2] حتى أفضى إلى عسكرهم، فنزل عليهم وحاصرهم ما شاء الله، ثم إنهم استمدوا، فتجمعوا وتجمعت اليهم أكراد فارس، فدهم المسلمين أمر عظيم وجمع كثير، فرأى عمر - رضي الله عنه - في تلك الليلة معركتهم وعددهم في ساعة من النهار، فنادى من الغد، الصلاة جامعة، حتى إذا كان في الساعة التي رأى فيها ما رأى خرج إليهم، وكان أريهم والمسلمين بصحراء، إن أقاموا فيها أحيط بهم وإن أرزوا إلى جبل من خلفهم لم يؤتوا إلا من وجه واحد، ثم قام فقال: أيها الناس، إني رأيت هذين الجمعين - وأخبر بحالهما - ثم قال: يا سارية، الجبل الجبل، ثم أقبل عليهم فقال: إن لله عز وجل جنوداً، ولعل بعضها أن يبلغهم، ولما كان تلك الساعة من ذلك اليوم أجمع سارية والمسلمون على الإسناد إلى الجبل، ففعلوا وقاتلوا القوم من وجه واحد، فهزمهم الله (لهم)، وكتبوا بذلك إلى عمر - رحمه الله - وباستيلائهم على البلد ودعاء أهله وتسكينهم.

وعن رجل من بني مازن قال: كان عمر - رحمه الله - قد بعث سارية بن
٢١٩ أ زنيم الدؤلي إلى فساودارابجرد فحاصرهم، // ثم إنهم تداعوا فأصحروا له، وكثروه
وأتوه من كل جانب فقال عمر - رضي الله عنه - وهو يخطب في يوم جمعة: يا سارية بن زنيم، الجبل الجبل.

(*) الخبر منقول عن الطبري ج ٤ ص ١٧٨ - ١٧٩، وهو في الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢١ - ٢٢، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ٢٧٨ - ٢٧٩، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ١٣٠ - ١٣٢، وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١٢٣.

(١) الطبري: ج ٤ ص ١٧٨ - ١٧٩.

(٢) في الأصل: لفساودرابجرد.

وفي غير هذا الحديث: ثم عاد عمر في خطبته فعجب الناس لندائه سارية على بعده، فقضى الله ـ سبحانه ـ أن كان سارية وأصحابه في ذلك الوقت موافقين للمشركين، وقد ضايقهم المشركون من كل جانب، وإلى جانب[1] المسلمين جبل، إن لجأوا إليه لم يؤتوا إلا من وجه واحد، فسمعوا صوتاً يقول: يا سارية بن زنيم، الجبل الجبل كما قال عمر ـ رضي الله عنه ـ وفي ذلك الوقت بعينه، فلجأوا إلى الجبل، فنجوا وهزموا عدوهم وأصابوا مغانم كثيرة.

قال المازني في حديثه: إن سارية أصاب في المغانم سفطاً فيه جوهر، فاستوهبه المسلمون لعمر، فوهبوه له، فبعث به وبالفتح رجلاً، وقال له: استقرض ما تبلغ به وما تخلفه في أهلك على جائزتك. وكان الرسل والوفد يجازون، فقدم الرجل البصرة ففعل، ثم خرج فقدم على عمر ـ رحمه الله ـ فوجده يطعم الناس، ومعه عصاه التي يزجر بها بعيره، فقصده، فأقبل عليه بها، فقال: اجلس، فجلس حتى إذا أكل انصرف عمر، وقام الرجل فأتبعه، فظن عمر أنه رجل لم يشبع، فقال حين انتهى إلى باب داره، أدخل، فلما جلس في البيت أتى بغذائه، خبز وزيت وملح وجريش، فوضع له، ثم قال للرجل: أدن فكل، فأكلا، حتى إذا فرغ قال له الرجل: رسول سارية بن زنيم يا أمير المؤمنين. فقال: مرحباً وأهلاً، ثم أدناه حتى مست ركبته ركبته، ثم سأله عن المسلمين، ثم سأله عن سارية، فأخبره، ثم أخبره بقصة الدرج[2] فنظر إليه ثم صاح به وقال: لا ولا كرامة حتى تقدم على ذلك الجيش فتقسمه بينهم. وطرده، فقال: يا أمير المؤمنين إني قد أنضيت إبلي واستقرضت على جائزتي، فأعطني ما أتبلغ به، فما زال عنه حتى أبدله بعيراً ببعيره من إبل الصدقة، وأخذ بعيره فأدخله في إبل الصدقة، ورجع الرجل مغضوباً عليه محروماً حتى قدم البصرة، فنفذ لما أمره به عمر ـ رحمه الله ـ وقد كان أهل المدينة سألوه عن سارية وعن الفتح، وهل سمعوا شيئاً يوم الوقعة؟ فقال: نعم سمعنا: يا سارية، الجبل الجبل. وقد كدنا نهلك، فلجأنا إليه ففتح الله علينا.

---

(١) في الأصل: جنب.

(٢) الدرج: السفط الصغير.

حديث فتح كرمان

قالوا [١] : وقصد سهيل بن عدي [٢] إلى كرمان، ولحقه عبد الله بن عبد الله ابن عتبان ،وعلى مقدمته سهيل (بن عدي) النسير بن عمرو العجلي، وقد حشد له أهل كرمان، واستعانوا بالقفس [٣] ، فاقتتلوا في أدنى أرضهم، ففضهم الله ـ تعالى ـ فأخذوا عليهم بالطريق، وقتل النسير مرزبانها، ودخل سهيل من قبل طريق القرى إلى جيرفت، وعبد الله بن عبد الله من مفازة شير، فأصابوا ما شاءوا من بعير أو شاة، فقدموا الإبل والغنم فتحاصوها وأخروا البخت لعظم البخت على العرب، وكرهوا أن يزيدوا. وكتبوا إلى عمر، فأجابهم: إن البعير العربي إنما قوم ببعير [٤] اللحم، وذلك مثله، فإذا رأيتم أن للبخت فضلاً فزيدوا.

وذكر المدائني أن الذي فتح كرمان عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي في خلافة عمر بن الخطاب، ثم أتى الطبسين من كرمان، ثم قدم على عمر ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا أمير المؤمنين، إني افتتحت الطبسين فاقطعنيها، فأراد أن يفعل، فقيل لعمر: إنها رستاقان عظيمان، فلم يقطعه إياها، وهما بابا خراسان.

---

(١) الخبر منقول بأكمله عن الطبري ج ٤ ص ١٨٠.

(٢) في الأصل: سهيل بن عمرو، والتصويب من الطبري.

(٣) في الأصل: بالقعص، والتصويب من الطبري.

(٤) هكذا في الأصول، وفي الطبري والكامل لابن الأثير: «بتعيير اللحم» ـ أي تقديرها.

فتح سجستان

قالوا[1]: وقصد عاصم بن عمرو لسجستان، ولحقه عبد الله بن عمير، فالتقوا هم وأهل سجستان في أدنى أرضهم، فهزموهم ثم أتبعوهم، حتى حصروهم بزرنج[2] ومخر المسلمون أرض سجستان ما شاء الله، ثم إنهم طلبوا الصلح على زرنج وما احتازوا من الأرضين، فأعطاهم ذلك المسلمون، وكان فيما اشترطوا من صلحهم أن فدافدها حمى، فكان المسلمون إذا خرجوا تناذروها خشية أن يصيبوا منها فيخفروا. فتم أهل سجستان على الخراج، فكانت سجستان أعظم من خراسان شأناً، وأبعد فروجاً، يقاتلون القندهار والترك وأمماً كثيرة، وكانت فيما بين السند إلى نهر بلخ، فلم تزل أعظم البلدين وأصعب الفرجين، وأكثرها عدداً وجنداً حتى كان زمن معاوية، فهرب الشاه من أخيه - رتبيل - إلى بلد فيها يدعى آمل، ودانوا لسلم بن زياد وهو يومئذ على سجستان، ففرح بذلك وعقد لهم، وأنزلهم تلك البلاد، وكتب إلى معاوية بذلك يرى أنه قد فتح عليه، فقال معاوية: إن ابن أخي ليفرح بأمر إنه ليحزنني وينبغي له أن يحزنه، قالوا: ولم يا أمير المؤمنين؟ قال: لأن آمل بلدة بينها وبين زرنج صعوبة وتضايق، وهؤلاء قوم غدر نكر، فيضطرب الجبل غداً، فأهون ما يجيء منهم أن يغلبوا على بلاد آمل بأسرها.

وتم لهم على عهد ابن زياد، فلما وقعت الفتنة بعد معاوية كفر الشاه، وخلت آمل، وخافه أخوه فاعتصم منه بمكانه الذي هو به، ولم يرضه ذلك حين تشاغل

---

(١) الخبر بأكمله منقول عن الطبري ج ٤ ص ١٨٠ - ١٨١، وهو مثبت في الروض المعطار ص ٣٠٥ وقد أخذ عن الاكتفاء دون إشارة إلى ذلك.

(٢) في الأصول: بزنج، وهو خطأ، صوابه ما دون في هذا الموضع عن الطبري والروض المعطار.

الناس عنه حتى طمع في زرنج فغزاها، فحصرهم حتى أتتهم الأمداد من البصرة.

قالوا: وسار رتبيل والذين جاءوا معه فنزلوا تلك البلاد شجا[1] لم ينتزع إلى اليوم، وقد كانت البلاد مذللة إلى أن مات معاوية - رحمه الله.

* * *

(١) الشجا: ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه.

فتح مكران

قالوا [1] : وقصد الحكم بن عمرو التغلبي لمكران، حتى انتهى إليها، ولحق به شهاب بن مخارق بن شهاب، فانضم إليه، وأمده سهيل بن عدي، وعبد الله بن عتبان بأنفسهما، فانتهوا إلى دوين النهر، وقد انفض أهل كرمان إليه حتى نزلوا على شاطئه، فعسكروا، وعبر إليهم راسل ملكهم - ملك السند - فازدلف [2] بهم يستقبل المسلمين، فالتقوا فاقتتلوا بمكان من مكران من النهر على أيام، فهزم الله راسلاً وسلبه، وأباح المسلمين عسكره، وقتلوا في المعركة من المشركين مقتلة عظيمة، وأتبعوهم يقتلونهم أياماً، حتى انتهوا إلى النهر.

ثم رجعوا فأقاموا بمكران، وكتب الحكم إلى عمر بالفتح، وبعث بالأخماس مع صحار العبدي، واستأمره في الفيلة، فقدم صحار على عمر - رحمه الله - فسأله عن مكران، وكان لا يأتيه أحد إلا سأله عن الوجه الذي يجيء منه، فقال: يا أمير المؤمنين، أرض سهلها جبل، وماؤها وشل [3]، وتمرها دقل [4]، وعدوها بطل، وخيرها قليل، وشرها طويل، والكثير بها قليل، والقليل بها ضائع، وما وراءها شر منها. فقال عمر - رحمه الله -: أسجاع أنت أم مخبر؟ فقال: بل مخبر، فقال: لا والله، لا يغزوها لي جيش ما أُطعت، وكتب إلى الحكم وإلى سهيل: أن لا يجوزن مكران أحد من جنودكما، واقتصرا على ما دون النهر، وأمره ببيع الفيلة بأرض الإسلام وقسم أثمانها على من أفاءها الله عليه.

(١) الخبر منقول بكامله عن الطبري ج ٤ ص ١٨١ - ١٨٢، وهو في الروض المعطار عن الاكتفاء دون أن ينسبه ص ٥٤٣ - ٥٤٤.
(٢) أي: فاقترب.
(٣) أي: قليل.
(٤) الدقل: أردأ التمر.

حديث بيروذ

قالوا[1] : ولما فصلت الجنود إلى الكور اجتمع ببيروذ جمع // عظيم من الأكراد ٢١٩ ب
وغيرهم، وكان عمر - رحمه الله - قد عهد إلى أبي موسى حين سارت الجنود إلى الكور أن يسير حتى ينتهي إلى حد ذمة البصرة، كي لا يؤتى المسلمون من خلفهم، وخشي أن يستلحم بعض جنوده أو ينقطع منهم طرف أو يخلف في أعقابهم، فكان الذي حذر من اجتماع أهل بيروذ وقد أبطأ أبو موسى حتى تجمعوا، فخرج أبو موسى حتى ينزل ببيروذ على الجمع الذي تجمع بها، وذلك في رمضان، فنزل على جمع لهم منعه، فالتقوا بين نهر تيري[2] ومناذر، وقد توافى إليها أهل النجدات من أهل فارس والأكراد ليكيدوا المسلمين، أو ليصيبوا منهم عورة، ولم يشكوا في واحدة من اثنتين، فقام المهاجر بن زياد وقد تحنط واستقتل فقال لأبي موسى: أقسم على كل صائم إلا رجع فأفطر، فرجع أخوه فيمن رجع لإبرار القسم، وذلك الذي أراد المهاجر أن يرجع أخوه لئلا يمنعه من الاستقتال، وتقدم فقاتل حتى قتل - رحمه الله - وفرق الله - عز وجل - المشركين حتى تحصنوا في قلة وذلة، وأقبل الربيع بن زياد - أخو المهاجر - فاشتد حزنه عليه، ورق له أبو موسى للذي رآه دخله من مصاب أخيه، فخلفه عليهم، وخرج أبو موسى حتى بلغ أصبهان، فلقي بها جنود أهل الكوفة محاصرين جيّ، ثم انصرف إلى البصرة وقد فتح الله على الربيع بن زياد أهل بيروذ من نهرتيري، فهزمهم وجمع السبي والأموال، فتنقى أبو موسى ستين غلاماً من أبناء الدهاقين وعزلهم، وبعث بالفتح إلى عمر - رحمه الله - ووفد وفداً، فجاءه رجل من عنزة

---

(١) الخبر منقول بأكمله عن الطبري ج ٤ ص ١٨٣ - ١٨٥.

(٢) في الأصول: نهرتير، والتصويب من الطبري.

يقال له: ضبة بن محصن، فقال: اكتبني في الوفد. فقال: قد كتبنا من هو أحق منك، فانطلق مغاضباً مراغماً، وكتب أبو موسى إلى عمر بقصة الرجل، فلما قدم الكتاب بالفتح والوفد على عمر قدم العنزي فأتى عمر فسلم عليه، فقال: من أنت؟ فأخبره، فقال: لا مرحباً ولا أهلاً، فقال: أما المرحب فمن الله، وأما الأهل فلا أهل، فاختلف إليه ثلاثاً، يقول هذا ويرد عليه هذا، حتى إذا كان اليوم الرابع فدخل عليه، فقال له: ما نقمت على أميرك؟ فقال: تنقي ستين غلاماً من أبناء الدهاقين لنفسه، وله جارية تدعى عقيلة، تغذى جفنة وتعشى جفنة، وليس منا رجل يقدر على ذلك، وله قفيزان، وله خانان [1]، وفوض إلى زياد ـ وكان زياد هو ابن أبي سفيان، يلي أمور البصرة ـ وأجاز الحطيئة بألف.

فكتب عمر ـ رحمه الله ـ كل ما قال، وبعث إلى أبي موسى، فلما قدم حجبه أياماً، ثم دعا به، ودعا ضبة بن محصن، ودفع إليه الكتاب، فقال: إقرأ ما كتبت، فقرأ: أخذ ستين غلاماً لنفسه، فقال أبو موسى: دللت عليهم، وكان لهم فداء ففديتهم، فأخذته فقسمته بين المسلمين. فقال ضبة: والله ما كذب ولا كذبت، وقرأ: له قفيزان، فقال أبو موسى: قفيز لأهلي أقوتهم به، وقفيز في أيديهم للمسلمين، يأخذون به أرزاقهم، فقال ضبة: والله ما كذب ولا كذبت، فلما ذكر عقيلة سكت أبو موسى ولم يعتذر، وعلم أن ضبة قد صدقه، قال: وزياد يلي أمور الناس ولا يعرف هذا ما يلي، فقال أبو موسى: وجدت له نبلاً ورأياً، فأسندت إليه عملي. قال: وأجاز الحطيئة بألف. قال: سددت فمه بمالي أن يشتمني، فقال: قد فعلت ما فعلت. فرده عمر ـ رحمه الله ـ وقال: إذا قدمت فأرسل إليّ زياداً وعقيلة، ففعل، فقدمت عقيلة قبل زياد، وقدم زياد فأقام بالباب، فخرج عمر وزياد بالباب قائم وعليه ثياب بيض كتان، فقال: ما هذه الثياب؟ فأخبره، فقال: كم أثمانها؟ فأخبره بشيء يسير، وصدقه. فقال له:

---

(١) في الطبري: وله خاتمان.

كم عطاؤك؟ قال: ألفان، قال: ما صنعت بأول عطاء خرج لك؟ فقال: اشتريت به والدتي فأعتقتها، واشتريت في الثاني رَبيبي عبيداً فأعتقته. فقال: وفقت، وسأله عن الفرائض والسنن والقرآن، فوجده فقيهاً. فرده، وأمر أمراء البصرة أن يستعينوا برأيه، وحبس عقيلة بالمدينة.

وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ ألا إن ضبة بن محصن غضب على أبي موسى في الحق أن أصابه، وفارقه مراغماً أن فاته أمر من أمور الدنيا، فصدق عليه وكذب، فأفسد كذبه صدقه، فإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى النار.

وكان الحطيئة قد لقيه في غزاة يبروذ، وكان أبو موسى ابتدأها فحاصرهم حتى فلهم ثم جازاهم ووكل بهم الربيع، ثم رجع إليهم بعد الفتح فولى القسم.

ومن مدح الحطيئة في أبي موسى:

وغارةٍ كشعاع الشمس مشعلة ... تهوى بكل صبيح الوجه بسَّام
قب البطون من التعداء قد عَلِمَتْ ... أنْ كُلَّ عام عليها عام الجام
مستحقبات رواياها جحافِلُها ... يسمو بها أشْعَرِيٌّ طَرْفُهُ سامي
لا يزجر الطيْر إن مرت به سنحاً ... ولا يفاض له قسم بأزلام
جَمَعْتُ من عامر فيها ومن أسَدٍ ... ومن تميم وذبيان ومن حام
وما رضيتُ لهم حتى رَفَدْتُهُمُ ... من وائل رهْطَ بسطام بإصرام
في متلف طائعاً لله محتسباً ... يرجو ثواب كريم العفو رحام

(البسيط)

غزوة سلمة بن قيس الأشجعي الأكراد

ذكر الطبري[١] من طريقين، كلاهما ينمى إلى سليمان بن بريدة، واللفظ في الحديثين متقارب، وربما كان في أحدهما زيادة على الآخر، وأحدهما عن سيف ابن عمر، وفيه: أن سليمان بن بريدة، قال: لقيت رسول سلمة بن قيس الأشجعي، فقال: كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إذا اجتمع له جيش من العرب، بعث عليهم رجلاً من أهل العلم والفقه، فاجتمع إليه جيش، فبعث عليهم سلمة بن قيس، فقال: سر باسم الله، قاتل في سبيل الله من كفر بالله، فإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى ثلاث خصال: ادعوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا واختاروا دارهم فعليهم في أموالهم الزكاة، وليس لهم في فيء المسلمين نصيب، وإن اختاروا أن يكونوا معكم فلهم مثل الذي لكم وعليهم مثل الذي عليكم، وإن أبوا فسلوهم الخراج، فإن أعطوكموه فقاتلوا عدوكم[٢] من ورائهم، وفرغوهم لخراجهم، ولا تكلفوهم فوق طاقتهم، فإن أبوا فقاتلوهم، فإن الله ناصركم عليهم، وإن تحصنوا منكم في حصن فسألوكم أن ينزلوا على حكم الله ورسوله فلا تعطوهم على حكم الله ورسوله، فإنكم لا تدرون ما حكم الله ورسوله فيهم، وإن سألوكم أن ينزلوا على ذمة الله ورسوله
٢٢٠ أ فلا تعطوهم ذمة الله وذمة رسوله، وأعطوهم ذمم أنفسكم، فإن قاتلوكم // فلا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً. قال: فلقينا عدونا من المشركين

---

(١) الخبر بأكمله منقول عن الطبري ج ٤ ص ١٨٦ - ١٩٠، وهو في الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٥، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ٢٨٣ - ٢٨٤، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ١٣٢ - ١٣٣، وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١٢٤.

(٢) في الطبري: عدوهم، والصواب ما ورد في المتن.

من الأكراد، فدعوناهم إلى ما أمر به أمير المؤمنين من الإسلام، فأبوا، فدعوناهم إلى الخراج فأبوا، فقاتلناهم، فنصرنا عليهم، فقتلنا المقاتلة وسبينا الذرية وجمعنا الرثة، فوجد فيها سلمة حقي جوهر، فجعلهما في سفط، ثم قال: إن هذا لا يبلغ فيكم شيئا، فإن طابت أنفسكم به لأمير المؤمنين بعثت به إليه، فإن له برداً ومؤونة[1]. فقالوا: نعم، قد طابت أنفسنا، فبعثني سلمة ـ يعني بالخبر والسفط ـ إلى أمير المؤمنين. قال: فدفعت إليه ضحى والناس يتغدون وهو متكىء على عصا كهيئة الراعي في غنمه يطوف في تلك القصاع يقول: يا يرفاء، زد هؤلاء لحماً، زد هؤلاء خبزا، زد هؤلاء مرقة، فلما دفعت إليه قال: اجلس، فجلست في أداني الناس، فإذا طعام فيه خشونة وغلظ، طعامي الذي معي أطيب منه، فلما فرغ الناس قال: يا يرفاء، ارفع قصاعك، ثم أدبر وأتبعته، فدخل داره ثم دخل حجرته، فاستأذنت وسلمت، فأذن لي، فإذا هو جالس على مسح[2] متكىء على وسادتين من أدم محشوتين ليفاً، فنبذ إليّ إحداهما، فجلست عليها، فقال: يا أم كلثوم، غداءنا فجاؤا إليه بقصعة فيها خبز وزيت في عرضها ملح لم يدق، فقال لي: كل، فأكلت قليلاً، وأكل حتى فرغ، ما رأيت رجلاً أحسن أكلاً منه، ما يتليس طعامه بيده ولا فمه، ثم قال: اسقونا، فجاؤا بغس، فقال: اشرب، فشربت قليلاً، شرابي الذي معي أطيب منه، فأخذه فشربه حتى قرع القدح جبهته، وقال: إنك لضعيف الأكل والشرب، ثم قال: الحمد لله الذي أطعمنا فأشبعنا، وسقانا فأروانا. قال: قلت: قد أكل أمير المؤمنين فشبع، وشرب فروي، حاجتي يا أمير المؤمنين، قال: وما حاجتك؟ قلت: أنا رسول سلمة بن قيس، فقال: مرحباً بسلمة وبرسوله ـ وكأنما خرجت من صلبه ـ قال: حدثني عن المهاجرين، كيف هم؟ قلت: كما تحب من السلامة والظفر على العدو، قال: كيف أسعارهم؟ قلت: أرخص أسعار، قال: كيف اللحم فيهم؟ فإنه شجرة العرب ولا تصلح العرب إلا بشجرتها. قلت: البقرة

---

(١) في الأصول: مؤنة.

(٢) المسح: نسيج من الشعر يتخذ بساطاً يجلس عليه.

بكذا، والشاة بكذا، ثم قلت: يا أمير المؤمنين، سرنا حتى لقينا عدونا من المشركين، فدعوناهم إلى ما أمرتنا به من الإسلام فأبوا، فدعوناهم إلى الخراج فأبوا، فقاتلناهم فنصرنا الله عليهم، فقتلنا المقاتلة وسبينا الذرية، وجمعنا الرثة، وخرج له عن الحديث كله حتى انتهى إلى السفط وأخرجه إليه. قال: فلما نظر إلى تلك الفصوص من بين أحمر وأصفر وأخضر، وثب وجعل يديه في خاصرتيه وقال: لا أشبع الله إذاً بطن عمر! وظن النساء أني قد اغتلته، فكشفن الستر، فقال: يا يرفاء، جأ عنقه، فوجأ عنقي وأنا أصيح، فقال: النجاء، وأظنك ستبطىء. أما والذي لا إله غيره لئن تفرق الناس إلى مشاتيهم قبل أن يقسم هذا فيهم لأفعلن بك وبصاحبك فاقرة، قلت: يا أمير المؤمنين، ابدع بي فاحملني. قال: يا يرفاء أعطه راحلتين من الصدقة، فإذا لقيت أفقر إليهما منك فادفعهما إليه، قلت: نعم. وارتحلت حتى أتيت سلمة، فقلت: ما بارك الله لي فيما اختصصتني به، اقسم هذا في الناس قبل أن أفضح والله وتفضح. قال: فقسمه فيهم قبل التفرق إلى مشاتيهم، والفص يباع بخمسة دراهم وستة دراهم، وهو خير من عشرين ألفاً.

وقد تقدم قبل في فتح «فساودرابجرد خبر لرسول سارية بن زنيم شبيه بهذا الخبر [1]، فالله تعالى أعلم.

وذكر الطبري غزوة سلمة بن قيس هذه في سنة ثلاث وعشرين، وهي السنة التي قتل عمر - رضي الله عنه - في آخرها، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

---

(١) راجع: ص ٣٨٦ من هذا الجزء.

ذكر الخبر عن إحرام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إلى حين مقتله

لم يزل عمر ـ رضي الله عنه ـ قائماً على أمر الله، مجتهداً فيه، مجاهداً لأعدائه متعرفاً منه ـ سبحانه ـ من المعونة والتأييد وجميل الكفاية والعناية والصنع ما وطأ له البلاد ودوخ الممالك، وألقى إليه مقاليد الأمم من الفرس والروم والترك والأكراد وغيرهم من الأمم والأجيال الذين تقدم ذكرهم، وأنجز الله في مدة خلافته معظم ما وعد به رسوله ﷺ من الفتوح، وجمع إليه أكثر ما زواه له من الأرض، وتغلغلت جنوده في الآفاق عندما أذن لها في الإنسياح، حتى أمرهم آخر إمارته بالإقصار، والكف احتياطاً على المسلمين ونظراً للإسلام، وأقبل عندما أذن لهم في ذلك على الدعاء، وتتبع آثار العمال بالعيون والنصحاء في السر والعلانية، وتفقد الناس في الشرق والغرب، إلى أن أتته منيته المحتومة، بالشهادة المقدرة له في مصلاه، على ما يأتي الذكر له إن شاء الله تعالى.

وقد ورد في غير موضع من الآثار ذكر رسول الله ﷺ لاستشهاده مخبراً وداعياً، وهو الداعي المجاب، والصادق المصدوق ـ صلوات الله وبركاته عليه.

وروي عن عوف بن مالك الأشجعي أنه رأى في المنام على عهد أبي بكر ـ رحمه الله تعالى ـ كأن الناس جمعوا، فإذا فيهم رجل قد علاهم، فهو فوقهم بثلاثة أذرع، قال: فقلت من هذا؟ قالوا: عمر، قلت: ولم؟ قالوا: لأن فيه ثلاث خصال: لا يخاف في الله لومة لائم، وإنه خليفة مستخلف، وشهيد مستشهد، قال: فأتى أبا بكر فقصها عليه، فأرسل أبو بكر إلى عمر ليبشره، قال: فجاء فقال لي أبو بكر: اقصص رؤياك، فلما بلغت: خليفة مستخلف،

زبرني عمر وانتهرني ، وقال : اسكت ، تقول هذا وأبو بكر حي ، قال : فلما كان بعد وولي عمر ، مررت بالشام وهو على المنبر ، فدعاني فقال : اقصص رؤياك ، فقصصتها ، فلما قلت : إنه لا يخاف في الله لومة لائم قال : إني لأرجو أن يجعلني الله منهم ، فلما قلت : خليفة مستخلف ، قال : قد استخلفني ، فأسأله أن يعينني على ما ولاني ، فلما ذكرت : شهيد مستشهد ، قال : أنَّى لي الشهادة وأنا بين أظهركم تغزون ولا أغزو ؟ ثم قال : بلى ، يأتي الله بها أنَّى شاء ، يأتي الله بها أنَّى شاء !

وكان عمر ـ رحمه الله ـ ملازماً للحج في سني خلافته كلها ، وكان من سيرته أن يأخذ عماله بموافاته كل سنة في موسم الحج ليحجزهم بذلك عن الرعية ،
٢٢٠ ب ويحجر عليهم الظلم ، ويتعرف أحوالهم في قرب ، وليكون // للرعية وقت معلوم ينهون إليه شكاويهم فيه . فلما كانت السنة التي قتل منسلخها ـ رضي الله عنه ـ خرج إلى الحج على عادته ، وأذن لأزواج النبي ﷺ فخرجن معه ، فلما وقف عمر ـ رحمه الله ـ يرمي الجمرة أتاه حجر فوقع على صلعته فأدماه ، وثم رجل من بني لهب ـ قبيلة من الأزد ، تعرف فيها العيافة والزجر ، وإياها عنى القائل :

تيممت لهباً أبتغي العلم عندهم   وقد رد علم العالمين إلى لهب

فقال اللهبي عندما أدمى عمر ـ رحمه الله : أشعر أمير المؤمنين لا يحج بعدها .

ويروى عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ وحجت مع عمر تلك الحجة : أنه لما ارتحل من الحصبة أقبل رجل متلثم ، قالت ، فقال وأنا أسمع : أين كان منزل أمير المؤمنين ؟ فقال قائل : هذا كان منزله ، فأناخ في منزل عمر ، ثم رفع عقيرته يتغنى :

عليك سلامٌ من أمير وباركَتْ   يَدُ اللهِ في ذلك الأديم الممزَّقِ

فَمَنْ يسْعَ [1] أو يركب جناحي نعامة ... لِيُدْرِكَ ما قدَّمْتَ بالأمس يُسْبَقَ

قضيت أموراً ثم غادرَتْ بعدها ... بوائق في أكمامها لم تفتق [2]

(الطويل)

قالت عائشة: فقلت لبعض أهلي: اعلموا لي من هذا الرجل، فذهبوا، فلم يجدوا في مناخه أحداً، قالت عائشة: فوالله إني لأحسبه من الجن، فلما قتل عمر نحل الناس هذه الأبيات للشماخ بن ضرار أو لأخيه مزرد.

وقال سعيد بن المسيب: لما صدر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من منى أناخ بالأبطح، ثم كوم كومة بطحاء، ثم طرح عليها رداءه واستلقى، ثم مد يديه إلى السماء، فقال: اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط، ثم قدم المدينة، فخطب الناس فقال: أيها الناس، قد سنت لكم السنن، وفرضت لكم الفرائض، وتركتم على الواضحة، إلا أن تضلوا بالناس يميناً وشمالاً، وضرب بإحدى يديه على الأخرى.

قال سعيد: فما انسلخ ذو الحجة حتى قتل - رحمه الله.

وروي عن عمر - رحمه الله - أنه لما انصرف من حجته هذه التي لم يحج بعدها وانتهى إلى ضجنان، وقف فقال: الحمد لله ولا إله إلا الله، يعطي من يشاء ما يشاء، لقد كنت بهذا الوادي أرعى أبلاً للخطاب، وكان فظاً غليظاً يتعبني إذا عملت، ويضربني إذا قصرت، وقد أصبحت وأمسيت وليس بيني وبين الله أحد أخشاه، ثم تمثل:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشَتُهُ ... يَبْقَى الإلَه ويُودي المالُ والولَدُ

لم تُغْنِ عن هرمزٍ يوماً خزائنُهُ ... والخُلْدَ قد حاولَتْ عادٌ فما خلدوا

ولا سليمان إذْ تجري الرياح له ... والإنس والجنُّ فيما بينها بُرُدُ

---

(١) في الأصول: يجر.

(٢) الأبيات في البدء والتاريخ منسوبة للشماخ (ج ٥ ص ١٩٤) على حين نسبها ابن الوردي للجن (تتمة المختصر ج ١ ص ٢٢٧) مشيراً إلى أن بعضهم نسبها لمزرد بن ضرار، وهي في نهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ٣٧٦ - ٣٧٧، ومرآة الجنان لليافعي ج ١ ص ٨١ - منسوبة للجن كذلك.

أين الملوكُ التي كانت نوافلها[1] من كل أوْبٍ إليها وافدٌ يَفِدُ
حوض هنالك مورودٌ بلا كذبٍ لا بد من ورده يوماً كما وردوا[2]
(الطويل)

ثم إن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بعد أن قدم المدينة من حجه خرج يوماً يطوف بالسوق، فلقيه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، وكان نصرانياً، فقال: يا أمير المؤمنين، أعدني على المغيرة، فإن عليّ خراجاً كثيراً، قال: وكم خراجك؟ قال: درهمان في كل يوم، قال: وإيش صناعتك[3]؟ قال: نجار، نقاش، حداد، قال: فما أرى خراجك كثيراً على ما تصنع من الأعمال، قال: وبلغني أنك تقول: لو أردت (أن) أعمل رحا[4] تطحن بالريح لفعلت، قال: نعم، قال: فاعمل لي رحا[5]، قال: لئن سلمت لأعملنّ لك رحاً[6] يتحدث بها من بالمشرق والمغرب، ثم انصرف عنه، فقال عمر: لقد توعدني العلج آنفاً، ثم انصرف عمر إلى منزله، فلما كان من الغد جاءه كعب الأحبار فقال: يا أمير المؤمنين، اعهد، فإنك ميت في ثلاثة أيام، قال: وما يدريك؟ قال: أجده في كتاب الله، التوراة، فقال عمر: آلله إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟ قال: اللهم لا، ولكن أجد صفتك وحليتك، بأنه قد فنى أجلك ـ وعمر لا يحس وجعاً ولا ألماً ـ فلما كان من الغد جاءه كعب فقال: يا أمير المؤمنين؟ ذهب يوم وبقي يومان، ثم جاء من بعد الغد فقال: ذهب يومان وبقي يوم وليلة، وهي لك إلى صبحها، فلما كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة، وكان يوكل بالصفوف رجالاً، فإذا استوت أخبروه فكبر، ودخل أبو لؤلؤة في الناس في يده خنجر له رأسان نصابه في وسطه، فضرب به عمر ست ضربات،

(١) في الأصول: لعزتها، والتصويب من الطبري.
(٢) الأبيات في الطبري ج ٤ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠، والكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٣٣.
(٣) أيش: بمعنى أي شيء لا يليق أن تكون من كلام عمر ـ رضي الله عنه ـ وإنما هي تعبير كاتب.
(٤) في الأصول: رحىً.
(٥) نفسه.
(٦) نفسه.

إحداهن تحت سرته، هي التي قتلته، فلما وجد عمر حر السلاح سقط، وقال: دونكم الكلب فإنه قتلني، وماج الناس وأسرعوا إليه، فجرح منهم ثلاثة عشر رجلاً، حتى جاء رجل منهم فاحتضنه من خلفه، وقيل: ألقي عليه برنساً، فقيل: إنه لما أخذ قتل نفسه[١].

وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ عندما سقط: أفي الناس عبد الرحمن بن عوف؟ قالوا: نعم يا أمير المؤمنين، هو ذا، قال: تقدم فصل بالناس، قال: فصلى عبد الرحمن بن عوف، وحمل عمر إلى منزله، فدعا عبد الرحمن بن عوف فقال: إني أريد أن أعهد إليك، قال: أنشدك الله يا أمير المؤمنين، أتشير عليّ بذلك؟ قال: اللهم لا، قال: والله لا أدخل فيه أبداً، قال: فهبني صمتاً حتى أعهد إلى النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض. ادع لي علياً وعثمان والزبير وسعداً، قال: وانتظروا أخاكم طلحة ثلاثاً، فإن جاء وإلا فاقضوا أمركم، أنشدك الله يا علي إن وليت من أمر الناس شيئاً أن تحمل بني هاشم على رقاب الناس، وأنشدك الله يا عثمان إن وليت من أمور الناس شيئاً أن تحمل بني أبي معيط على رقاب الناس، أنشدك الله يا سعد إن وليت من أمور الناس شيئاً أن تحمل أقاربك على رقاب الناس، قوموا فتشاوروا، ثم اقضوا أمركم، وليصل بالناس صهيب. وأمرهم أن يحضر معهم عبد الله بن عمر على أن لا يكون له في الأمر شيء، ثم دعا أبا طلحة الأنصاري، فقال: قم على بابهم لا تدع أحداً يدخل إليهم، وأوصى الخليفة من بعدي بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان، أن يحسن إلى محسنهم، وأن يتجاوز عن مسيئهم، وأوصي الخليفة من بعدي بالعرب، فإنها مادة الإسلام، أن تؤخذ صدقات أغنيائهم فتوضع في فقرائهم، وأوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم، اللهم هل بلغت، تركت الخليفة من بعدي على أنقى من الراحة. // يا عبد الله بن ٢٢١ أ
عمر، اخرج فانظر من قتلني، فقال: يا أمير المؤمنين، قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، قال: الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل سجد لله سجدة

(١) راجع بشأن ذلك: المسعودي. مروج الذهب ج ١ ص ٥٥٣.

واحدة، يحاجني بلا إله إلا الله، يا عبد الله إن اختلف القوم فكن مع الأكثر، وإن كانوا ثلاثة وثلاثة فاتبع الحزب الذي فيه عبد الرحمن بن عوف، يا عبد الله أئذن للناس، فجعل يدخل عليه المهاجرون والأنصار فيسلمون عليه، ويقول لهم: أعن ملأ منكم كان هذا؟ فيقولون: معاذ الله، ودخل في الناس كعب، فلما نظر إليه عمر أنشأ يقول:

وأوعدني[1] كعب ثلاثاً أعدها ... ولا شك أن القول ما قاله[2] كعب
وما بي حذارُ الموْتِ إني لميِّتٌ ... ولكنْ حذارُ الذنب يتبعه الذنب[3]

(الطويل)

فقيل له: لو دعوت الطبيب، فدعى له طبيب من بني الحارث بن كعب، فسقاه نبيذاً فخرج مشكلاً، فقال: اسقوه لبناً، فخرج اللبن أبيض، فقال له الطبيب: لا أرى أن تمسي، فما كنت فاعلاً فافعل. وفي رواية أنه قيل له عند ذلك: يا أمير المؤمنين، اعهد، قال: قد فرغت. وقال لعبد الله ابنه: يا عبد الله، اذهب إلى عائشة، فاسألها أن تأذن لي أن أدفن مع النبي ﷺ وأبي بكر، وفي رواية أنه قال له: اذهب إلى عائشة فقل لها: إن عمر يستأذن أن يدفن مع صاحبيه، ولا تقل أمير المؤمنين، فإني لست اليوم بأمير المؤمنين، فذهب إليها عبد الله فوجدها تبكي، فذكر لها ذلك، فقالت: نعم، قد كنت أردته لنفسي ولأوثرنه اليوم على نفسي، فرجع إليه عبد الله وهو متطلع إليه، فقال: ما قالت لك؟ قال: أذنت، قال: الحمد لله، ما كان عليّ أمر أهم من هذا، فإذا أنا مت فاغسلني، ثم احملني، وأعد عليها الاستئذان، فإن أذنت وإلا فاصرفني إلى مقابر المسلمين.

---

(١) في الكامل لابن الأثير: توعدني. وكذا في كنز الدرر.

(٢) في الكامل: ما قال لي، وكذا في كنز الدرر.

(٣) الأبيات في: الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٣٧، وكنز الدرر للدواداري ج ٣ ص ٢٤٠، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ٣٧٤.

فلما توفي - رحمه الله ورضي عنه - خرجوا به، فصلى عليه صهيب، ودفن في بيت عائشة - رضي الله عنه وعنها.

ويروى أنه لما احتضر قال ورأسه في حجر ابنه عبد الله - رضي الله عنهما:

ظلوم لنفسي غير أنّيَ مُسْلِمٌ   أصلي الصلاة كلّها وأصوم[1]

(الطويل)

وكان مقتله [2] لأربع بقين من ذي الحجة من سنة ثلاث وعشرين، وقيل: لثلاث بقين منه، وقيل إن وفاته كانت غرة المحرم من سنة أربع وعشرين.

ونزل في قبره عثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف والزبير وسعد بن أبي وقاص، وقيل: صهيب وابنه عبد الله بن عمر عوضاً من الزبير وسعد.

واختلف في مبلغ سنه يوم توفي، وأشهر ما في ذلك أنه توفي ابن ثلاث وستين سنة، وأنه استوفى عدة خلافته سن رسول الله ﷺ التي توفي لها، وسن أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما[3].

---

(١) راجع الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٨.

(٢) راجع الاختلاف بشأن تحديد ذلك في: تاريخ الخلفاء لابن يزيد ص ٢٢، وتاريخ خليفة خياط ص ١٥٢، والطبري ج ٤ ص ١٩٣، والأخبار الطوال للدينوري ص ١٣٩، والمعارف لابن قتيبة ص ١٨٣، ومروج الذهب للمسعودي ج ١ ص ٥٢١، والكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٣٨، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ٣٧١، والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا ج ١ ص ١٦٤ - ١٦٥، وتتمة المختصر لابن السوردي ج ١ ص ٢٢٧، وتاريخ عمر بن الخطاب لابن القيم.

(٣) راجع المصادر السابقة وفيها ترجيح أن يكون سنه حال وفاته: «ثلاث وستين سنة»، ثم قارنه بما ورد لدى ابن قتيبة في المعارف من قوله: (ص ٥٢١) «.. واختلفوا في سنه، فقال ابن إسحاق: قبض وهو ابن خمس وخمسين سنة، وهو قول أبي اليقظان، وذكر الواقدي عن قيس ابن الربيع عن أبي إسحاق عن عامر بن سعد قال: توفي عمر بن الخطاب وهو ابن ثلاث وستين سنة. ولا أرى هذا إلا غلطاً، والقول الصحيح هو الأول، وحدثني زيد بن أخزم، قال: حدثنا أبو قتيبة عن جرير بن حازم عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال: قتل عمر بن الخطاب وهو ابن خمس وخمسين سنة».

ويروى عن عامر الشعبي أنه لما طعن عمر ـ رضي الله عنه ـ دخل عليه عبد الله بن عباس، فقال: يا أمير المؤمنين، أبشر بالجنة، فقال: ما تقول؟ قال: اللهم نعم، أسلمت حين كفر الناس، وقاتلت مع رسول الله ﷺ حين خذله الناس، ومات نبي الله ﷺ وهو عنك راض، ولم يختلف في خلافتك رجلان، ثم قتلت شهيداً. فقال عمر: والله إن من تغرونه لمغرور، والله لو أن لي ما طلعت عليه الشمس من صفراء وبيضاء لافتديت به من هول المطلع.

وعن ابن عباس ـ أيضاً ـ قال: لما وضع عمر في أكفانه، اكتنفه الناس يصلون عليه ويدعون فإذا أنا برجل قد زحمني من خلفي، فنظرت، فإذا علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فقام فدعا له وترحم عليه، ثم قال: والله ما أصبح أحد أحب إليّ من أن ألقى الله بمثل صحيفته منك، وإني لأرجو أن يجعلك الله مع صاحبيك، لأني كثيراً ما سمعت رسول الله ﷺ يقول: خرجت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وفعلت أنا وأبو بكر وعمر، فإني أرجو أن يجعلك الله مع صاحبيك.

وذكر عبد الله بن مسعود يوماً عمر ـ رضي الله عنه ـ فهملت عيناه وهو قائم حتى بل الحصى، ثم قال: إن عمر كان حائطاً كثيفاً يدخله المسلمون ولا يخرجون منه، فلما مات عمر انثلم الحائط فهم يخرجون ولا يدخلون، وما من أهل بيت من المسلمين لم تدخل عليهم مصيبة من موت عمر إلا أهل بيت سوء، فإذا ذكر الصالحون فحيّ هلا بعمر.

وروى أنس عن أبي طلحة أنه قال: والله ما أهل بيت من المسلمين إلا وقد دخل عليهم لموت عمر ـ رضي الله عنه ـ نقص في دينهم وفي دنياهم.

وعن أبي وائل قال: خرج حذيفة إلى المدائن وهم يذكرون الدجال، فأخبرنا مسروق أنه سأله عن ذلك، فقال: نجب تجيء من هاهنا تنعي عمر.

وعن حذيفة ـ أيضاً ـ قال: كان الإسلام كالرجل المقبل لا يزداد إلا

قرباً، فلما قتل عمر - رضي الله عنه - كان كالرجل المدبر، لا يزداد إلا بعداً.

وقالت عاتكة ابنة زيد بن عمرو بن نفيل - امرأة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ترثيه:

(و) فَجَّعَني فيروزُ لا درَّ دَرُّهُ ... بأبيضَ تالٍ للكتاب مُنيبِ
رءوف[1] على الأدنى غليظ على العدا ... أخي ثقة في النائبات نجيب
متى ما يَقُلْ لا يكذب القولَ فِعْلُهُ ... سريع إلى الخيرات غَيْرُ قَطُوبِ[2]
(الطويل)

ومما ينسب إلى الشماخ بن ضرار، وإلى أخيه مزرد بن ضرار أنه قاله في عمر ابن الخطاب، ويروى عن عائشة أن الجن بكت به على عمر - رحمه الله - قبل أن يقتل بثلاث، وقد تقدم ذكر بعض هذا الشعر:

أبعد قتيل بالمدينة أظلَمَتْ ... له الأرض تهتز العَضاهُ بأسْوُق؟
جزى الله خيراً مِن إمامٍ وباركَتْ ... يَدُ اللهِ في ذاك الأديم الممزَّق
وما كنت أخشى أن تكون وفاتُهُ ... بكفَّيْ سَبَنْتَى أزرقِ العينِ مُطرِقِ[3]
(الطويل)

وقبل هذا البيت بيتان قد تقدما قبل فلذلك حذفناهما - الآن - هنا - اختصاراً.

---

(١) في كنز الدرر: عطوف.
(٢) الأبيات في الطبري ج ٤ ص ٢١٩، والكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٣٣، وكنز الدرر للدواداري ج ٣ ص ٢٤٧، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ١٤٠.
(٣) راجع ص ٣٩٩ من هذا الجزء، وحاشية رقم: ٢.

ذكر خلافة ذي النورين أبي عمرو، عثمان بن عفان، أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ ومبايعة أهل الشورى له بعد وفاة عمر ـ رضي الله عنه

ولما مضى عمر ـ رحمه الله ـ لسبيله، تفاوض أهل الشورى فيما بينهم ثلاثاً بعد وفاته، وانصرف أمر جميعهم إلى عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ فبايع لعثمان ـ رحمه الله ـ فبايعه بقية أهل الشورى، وكافة الصحابة ـ رضي الله عن جميعهم ـ وذلك يوم السبت غرة المحرم من سنة أربع وعشرين.

وذكر سيف[1] بإسناد له، أنه لما بايع أهل الشورى عثمان ـ رحمه الله ـ خرج وهو أشدهم كآبة، فأتى منبر النبي ﷺ فخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه ﷺ، ثم قال: إنكم في دار قلعة[2]، وفي بقية أعمار[3]، فبادروا
٢٢١ ب آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أتيتم، صبحتم أو مسيتم، ألا وإن // الدنيا طويت على الغرور، **﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور﴾** (٣٣: لقمان)، اعتبروا بمن مضى، ثم جدوا ولا تغفلوا، فإنه لا يغفل عنكم. أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين آثروها وعمروها ومتعوا بها طويلاً، ألم تلفظهم؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة، فإن الله ضرب لها مثلها، والذي هو خير، فقال: **﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح، وكان الله على**

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٤٣.

(٢) يقال: هم على قلعة: أي على رحلة.

(٣) في الأصول: أعمال.

كل شيء مقتدراً، المال والبنون زينة الحياة الدنيا، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا﴾ (٤٤ - ٤٥ : الكهف).

وذكر سيف[1] أن أول كتاب كتبه عثمان - رضي الله عنه - إلى عماله:

أما بعد، فإن الله - عز وجل - أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم في أن يكونوا جباة، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة، ولم يخلقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور الناس وفيما عليهم (فتعطوهم مالهم، وتأخذوهم بما عليهم)، ثم تثنوا بالذمة، فتعطوهم الذي لهم، وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذي تنتابون، فاستفتحوا عليهم بالوفاء.

قال[2]: وأول كتاب كتبه إلى أمراء الجنود في الفروج:

أما بعد، فإنكم حماة المسلمين وذادتهم، وقد وضع لكم عمر - رحمه الله - ما لم يغب عنا، بل كان عن ملأ منا، فلا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله بكم ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون؟ فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه.

وكتب - رحمه الله - إلى عمال الخراج:

أما بعد، فإن الله - تعالى - خلق الخلق بالحق، ولا يقبل إلا الحق، خذوا الحق وأعطوا (الحق) به، والأمانة الأمانة، قوموا عليها، ولا تكونوا أول من سلبها، فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم، والوفاء الوفاء، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد، فإن الله ورسوله خصم لمن ظلمهم.

وكان كتابه إلى العامة:

أما بعد، فإنكم إنما بلغتم ما بلغتم بالإقتداء والإتباع، فلا تلفتنكم الدنيا عن

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٢) نفسه ج ٤ ص ٢٤٥.

أمركم، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الإبتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن، فإن رسول الله ﷺ قال: الكفر في العجمة، فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا.

وزاد عثمان ـ رضي الله عنه ـ الناس في أعطياتهم مائة مائة، وهو أول خليفة زاد الناس في العطاء. وكان عمر ـ رحمه الله ـ يجعل لكل نفس منفوسة من أهل الفيء في رمضان درهماً في كل يوم، وفرض لأزواج النبي ـ ﷺ ـ درهمين درهمين، فقيل له: لو وضعت لهم طعاماً فجمعتهم عليه، فقال: أشبع الناس في بيوتهم، فأقر عثمان الذي صنع عمر، وزاد فوضع طعام رمضان للمتعبد الذي يبيت في المسجد ولابن السبيل وللمثوبين بالناس في رمضان.

وكان في مدة خلافته ـ رحمه الله ـ فتوح عظام في البر والبحر، وهو أول من أغزى فيه، وقد تقدم ذكر كثير من ذلك كأفريقية وغزوة ذات الصواري في البحر على يدي عبد الله بن سعد، وغزوة قبرس على يدي معاوية بن أبي سفيان، وغير ذلك مما سلف في هذا الكتاب.

ونذكر الآن من ذلك ما تيسر ذكره إن شاء الله تعالى مما لم نذكر قبل، وأكثر من ذلك مما كان قد افتتح على عهد عمر ـ رحمه الله ـ وانتقض بعد وفاته، فوجه إليه عثمان ـ رحمه الله ـ فاسترده، حتى استوثق[1] الأمر، وانتظمت الفتوح.

(١) في الأصل: استوسق.

ذكر غزوة الوليد بن عقبة أذربيجان وأرمينية لمنع أهلها ما صالحوا عليه أهل الإسلام أيام عمر بن الخطاب (★)

ويقال: إنها كانت في السنة التي بويع فيها عثمان، وقيل: في سنة خمس وعشرين بعدها، وقيل: في سنة ست، ذكر ذلك كله الطبري[1].

وحكى[2] - أيضاً - عن أبي مخنف، عن قرة بن لقيط الأزدي ثم العامري[3]: أن مغازي أهل الكوفة كانت الري وأذربيجان، وكان بالبحرين عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة، ستة آلاف بأذربيجان، وأربعة آلاف بالري، وكان بالكوفة إذ ذاك أربعون ألف مقاتل، وكان يغزو هذين المصرين منهم عشرة آلاف كل سنة، فكان الرجل تصيبه في كل أربع سنين غزوة، فغزا الوليد بن عقبة في أزمانه على الكوفة في سلطان عثمان أذربيجان وأرمينية، فدعا سلمان بن ربيعة الباهلي، فبعثه أمامه مقدمة له، وخرج الوليد في جماعة الناس يريد أن يمعن في أرض أرمينية، فمضى حتى دخل أذربيجان، فبعث عبد الله بن شبل بن عوف الأحمسي في أربعة آلاف، فأغار على أهل موقان والببر والطيلسان، فأصاب من أموالهم وغنم، وسبى سبياً يسيراً، وتحرز القوم منه، فأقبل بذلك إلى الوليد.

(★) الخبر منقول عن الطبري ج ٤ ص ٢٤٦ - ٢٤٧، وهو في الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٤٣ - ٤٤، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ٤٠٧ - ٤١٠، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ١٤٩ - ١٥٠.

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٤٦.

(٢) نفسه.

(٣) في الطبري: الغامدي.

ثم إن الوليد صالح أهل أذربيجان على ثمانمائة ألف درهم، و (ذلك) هو (الصلح) الذي كانوا صالحوا عليه حذيفة بن اليمان أيام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ثم حبسوها بعد وفاته، فلما وطئهم الوليد بالجيش، انقادوا وطلبوا إليه أن يتم لهم على ذلك الصلح ففعل، وقبض منهم المال، وبث الغارات فيمن حولهم من أعداء الإسلام، فبعث سلمان بن ربيعة إلى أرمينية في إثني عشر ألفاً، فسار في أرضها، فقتل وسبى، وغنم وانصرف مملوء اليدين إلى الوليد، فانصرف الوليد وقد ظفر وأصاب حاجته. فلما دخل الموصل راجعاً أتاه كتاب من عثمان ـ رحمه الله:

أما بعد، فإن معاوية بن أبي سفيان كتب إليّ يخبرني أن الروم قد أجلبت على المسلمين بجموع كثيرة عظيمة، وقد رأيت أن يمدهم إخوانهم من أهل الكوفة، فإذا أتاك كتابي هذا فابعث رجلاً ممن ترضى نجدته وبأسه وشجاعته وسخاءه وإسلامه في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف أو عشرة آلاف إليهم من المكان الذي يأتيك فيه رسولي، والسلام.

فقام الوليد في الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإن الله قد أبلى المسلمين في هذا الوجه // بلاء حسناً، فرد عليهم بلادهم التي ٢٢٢ أ
كفرت، وفتح بلاداً لم تكن افتتحت، وردهم سالمين غانمين مأجورين، والحمد لله رب العالمين. وقد كتب إليّ أمير المؤمنين أن أندب منكم ما بين العشرة الآلاف إلى ثمانية آلاف، تمدون إخوانكم من أهل الشام، فإنهم قد جاشت عليهم الروم، وفي ذلك الأجر العظيم، والفضل المبين، فانتدبوا رحمكم الله مع سلمان بن ربيعة. فانتدب الناس، فلم يمض ثلاثة أيام حتى خرج في ثمانية آلاف من أهل الكوفة، فمضوا حتى دخلوا مع أهل الشام إلى أرض الروم، فشنوا عليهم الغارات، وأصابوا ما شاءوا من سبي، وملأوا أيديهم من المغانم، وافتتحوا بها حصوناً كثيرة.

وكان على أهل الشام حبيب بن مسلمة، وسلمان على أهل الكوفة، وزعم

الواقدي أن سعيد بن العاص هو الذي أمد حبيباً بسلمان، وأن سبب ذلك أن عثمان ـ رضي الله عنه ـ أمر معاوية بإغزاء حبيب في أهل الشام أرمينية، فوجهه إليها معاوية، فبلغ حبيباً أن الموريان الرومي قد توجه نحوه في ثمانين ألفاً من الروم والترك، فأعلم بذلك معاوية فكتب معاوية إلى عثمان، فكتب عثمان إلى سعيد بإمداد حبيب، فأمده بسلمان في ستة آلاف، وكان حبيب صاحب كيد، فأجمع على أن يبيت الموريان، فسمعته امرأته ـ أم عبد الله بنت يزيد الكلبية ـ يذكر ذلك، فقالت له: فأين موعدك؟ قال: سرادق الموريان أو الجنة، ثم بيتهم، فقتل من اشرأبّ له، وأتى السرادق فوجد امرأته قد سبقت، فكانت أول امرأة من العرب ضرب عليها سرادق، ثم مات عنها حبيب، فخلف عليها الضحاك بن قيس الفهري، فهي أم ولد.



ذكر انتقاض فارس، ومسير عبد الله بن عامر إليها، وفتحه إياها(★)

ولما ولي عثمان ـ رحمه الله ـ أقر أبا موسى الأشعري على البصرة ثلاث سنين، وعزله في الرابعة، وأمر على خراسان عمير بن عثمان بن سعد، وعلى سجستان عبيد الله بن عمير الليثي من بني ثعلبة، فأثخن فيها إلى كابل، وأثخن عمير في خراسان حتى بلغ فرغانة، فلم يدع دونها كورة إلا أصلحها، وبعث إلى مكران عبيد الله بن معمر التيمي، فأثخن فيها حتى بلغ النهر، وبعث على كرمان عبيد الله بن عنيس، وبعث إلى فارس والأهواز نفراً، وأبو موسى في كل ذلك على البصرة، فلما كان في السنة الثالثة كفر أهل ايذج والأكراد، فنادى أبو موسى في الناس، وحضهم، وذكر من فضل الجهاد في الرجلة(١)، حتى حمل نفر على دوابهم، وأجمعوا على ألا يخرجوا إلا رجالة، ثم نشأ بينه وبين أهل البصرة في هذا الاستنفار ما نفرهم عنه، وطلبوا إلى عثمان أن يديلهم عنه، فدعا عثمان عند ذلك عبد الله بن عامر فأمره على البصرة وصرف عبيد الله بن معمر إلى فارس، واستعمل مكانه عمير بن عثمان بن سعد، واستعمل على خراسان (أمين) بن أحمر اليشكري، وعلى سجستان عمران بن الفضل البرجمي، وعلى كرمان عاصم ابن عمرو، فمات بها. فجاشت فارس فانتقضت بعبيد الله بن معمر، واجتمعوا له باصطخر، فالتقوا على بابها، فقتل عبيد الله، وبلغ الخبر عبد الله بن عامر، فاستنفر أهل البصرة إليهم، وخرج في الناس وعلى مقدمته عثمان بن أبي العاص، فالتقى هو وأهل فارس باصطخر، فقتل منهم مقتلة عظيمة لم يزالوا منها في ذل،

(★) الخبر منقول عن الطبري ج ٤ ص ٢٦٤ ـ ٢٦٦.

(١) الرجلة، بالضم: أن يسير المرء راجلاً غير راكب.

وكتب بذلك إلى عثمان بن عفان، فكتب إليه يأمره أن يولي على كور فارس نفراً سماهم له[1]، وفرق خراسان بين ستة نفر[2] منهم الأحنف بن قيس على المروين.



(١) هم: هرم بن حسان اليشكري، وهرم بن حيان العبدي من عبد القيس، والخريت بن راشد من بني سامة، والمنجاب بن راشد، والترجمان الهجيمي - الطبري ج ٤ ص ٢٦٦.

(٢) هم، حبيب بن قرة اليربوعي على بلخ، وخالد بن عبد الله بن زهير على هراة، وأمين بن أحمد اليشكري على طوس، وقيس بن الهيثم السلمي على نيسابور، وعبد الله بن خازم، بالإضافة إلى الأحنف المذكور - الطبري ج ٤ ص ٢٦٦.

ذكر انتقاض خراسان، وخروج سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر إليها وذكر طبرستان واستيلاء سعيد عليها

ذكر الطبري[1] أن أداني أهل خراسان وأقاصيهم اعترضوا زمان عثمان ـ رضي الله عنه ـ لسنتين خلتا من إمارته، فبدأ بنو كناري وهم أخوال كسرى، فأنثروا في نيسابور وألجأوا عبد الرحمن بن سمرة وعماله إلى مرو الروذ، وثنى أهل مرو الشاهجان، وثلث بنيزل فاستولى على بلخ، وأرز من بها إلى مروالروذ وعليها ابن سمرة، فكتب إلى عثمان بخلع أهل خراسان، فأرسل إلى ابن عامر أن يسير في جند البصرة، فخرج ابن عامر في الجنود حتى يدخل خراسان على الطبسين من قبل يزدجرد، وبث الجنود في كورها وأمرهم أن يطأوا فيهم، ووطأ هو في أهل هراة بعدما وهنهم الجزاء، وصالحوه، ثم ثنى بنيسابور ففعلت فعل هراة، ولقيت الكور من الجنود مثل ذلك، فذلوا لهم، واكتتب منهم أهل مرو الشاهجان وسائر خراسان، وسار ابن عامر إلى نيزل فقتل تركه قتل الكلاب، ولحق هو بترك بلاد الشام، وستأتي بعد هذه المجملات مفصلة بعد.

وذكر الطبري[2] بإسناد له قال: غزا سعيد بن العاص، وهو على الكوفة سنة ثلاثين يريد خراسان، ومعه حذيفة بن اليمان وناس من أصحاب رسول الله ﷺ ومعه الحسن والحسين وعبد الله بن عباس وابن عمر وعبد الله بن عمرو وابن الزبير، وخرج عبد الله بن عامر من البصرة يريد خراسان، فسبق سعيداً ونزل ابرشهر، وبلغ ذلك سعيداً، فنزل قرمس، وهي صلح، صالحهم حذيفة بعد

---

(١) هذه العبارة استنتاجية عن الطبري، وليست نصاً فيه.

(٢) الطبري ج ٤ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

نهاوند، فأتى جرجان، فصالحوه على مائتي ألف، ثم أتى طميسة، وهي كلها من طبرستان متاخمة لجرجان، وهي مدينة على ساحل البحر، فقاتله أهلها حتى صلى يومئذ صلاة الخوف، وهم يقتتلون[١]، بعد أن سأل حذيفة فأخبره كيف صلاة رسول الله ﷺ وضرب يومئذ سعيد رجلاً من المشركين على حبل عاتقه، فخرج السيف من مرفقه، وحاصرهم، فطلبوا الأمان، فأعطاهم على أن لا يقتل منهم رجلاً واحداً، ففتحوا الحصن، فقتلهم جميعاً إلا رجلاً واحداً، وحوى ما كان في الحصن.

وذكر // الطبري[٢] من طريق آخر أن سعيد بن العاص صالح أهل جرجان، ثم ٢٢٢ ب امتنعوا وكفروا، فلم يأت جرجان بعد سعيد أحد، ومنعوا ذلك الطريق، فلم يكن يسلك طريق خراسان من ناحية قومس إلا على وجل وخوف من أهل جرجان، (و) كان الطريق إلى خراسان من فارس إلى كرمان، فأول من صير الطريق من قومس قتيبة بن مسلم حين ولي خراسان.

وعن بشر بن حنظلة العمي أن سعيد بن العاص صالح أهل جرجان، فكانوا يجبون أحياناً مائة ألف، ويقولون: صلحنا، وأحياناً مائتي ألف، وأحياناً ثلاثمائة ألف، وكانوا ربما أعطوا ذلك، وربما منعوه، ثم امتنعوا وكثروا، فلم يعطوا خراجاً حتى أتاهم يزيد بن المهلب، فلما صالح صولاً[٣] وفتح البحيرة ودهستان صالح أهل جرجان على صلح سعيد بن العاص.

(١) في الأصول: يصلون.

(٢) الطبري ج ٤ ص ٢٧١.

(٣) في الأصول، صولى، والرسم من الطبري.

ذكر مقتل يزدجرد (١)

قال الطبري (٢) : اختلف في سبب قتله كيف كان، فذكر عن ابن إسحاق أن يزدجرد هرب من كرمان في جماعة ليسير إلى مرو، فسأل مرزبانها مالاً فمنعه، فخافوا على أنفسهم، فأرسلوا إلى الترك يستنصرون بهم عليه، فأتوه فبيتوه، وقتلوا أصحابه، وقيل: بل أهل مرو هم الذين بيتوه لما خافوه، ولم يستجيشوا عليه الترك، فقتلوا أصحابه، وخرج هارباً على رجليه، معه منطقته وسيفه وتاجه: حتى أتى إلى منزل نقار على شط المرغاب، فلما غفل يزدجرد - وقيل: لما نام - قتله النقار وأخذ متاعه، وألقى جسده في المرغاب، فأصبح أهل مرو فاتبعوا أثره، حتى خفي عليهم عند منزل النقار، فأخذوه فأقر لهم بقتله، وأخرج متاعه، فقتلوا النقار وأهل بيته، وأخذوا متاعه ومتاع يزدجرد وأخرجوه من المرغاب فجعلوه في تابوت خشب، فزعم بعضهم أنه حمل إلى اصطخر فدفن بها في أول سنة إحدى وثلاثين.

وكان يزدجرد قد وطيء امرأة بمرو، فولدت منه بعد مقتله غلاماً ذاهب الشق، فسمي المخدج، وعاش حتى ولد له أولاد بخراسان، فوجد قتيبة حين افتتح الصغد أو غيرها جاريتين فقيل له: إنهما من ولد المخدج، فبعث بهما أو بإحداهما إلى الحجاج بن يوسف فبعث بها إلى الوليد بن عبد الملك، فولدت له يزيد بن الوليد بن عبد الملك الناقص.

---

(١) الخبر منقول عن الطبري ج ٤ ص ٢٩٣ - ٣٠٠، وهو في فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٨٧ - ٣٨٨، الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٥٩ - ٦١، البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ١٥٨ - ١٥٩، تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١٣٦ - ١٣٧.

(٢) الطبري ج ٤ ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

وذكر عن المدائني أن يزدجرد أتى خَراسان، ومعه خرزادمهر أخو رستم، فقال لمرزبان مرو واسمه ماهويه إني قد أسلمت إليك الملك، ثم أقام بمرو وهمَّ بعزل ماهويه، فكتب ماهويه إلى الترك يخبرهم بمكانه وعاهدهم على المؤازرة عليه، وخلى لهم الطريق، فأقبلوا إلى مرو وخرج إليهم يزدجرد في أصحابه، فقاتلهم ومعه ماهويه في أساورة مرو، فأثخن يزدجرد في الترك حتى خشي ماهويه أن ينهزموا، فتحول إليهم في أساورة مرو، فانهزم جند يزدجرد وقتلوا، وعقر عند المساء فرس يزدجرد، فمضى ماشياً هارباً حتى انتهى إلى بيت فيه رحى على شط المرغاب، فمكث فيه ليلتين، فطلبه ماهويه فلم يقدر عليه إلى أن دخل صاحب الرحى بيته في اليوم الثاني، فرأى يزدجرد، فقال: ما أنت؟ انسي أم جني؟ قال: انسي، فهل عندك طعام؟ قال: نعم، فأتاه به، فقال: إني مزمزم، فأتني بما أزمزم به، فذهب الطحان إلى بعض الأساورة فطلب منه ما يزمزم به، قال: وما تصنع به؟ فقال: عندي رجل لم أر مثله قط، وقد طلب هذا مني، فجاء الأسوار بالطحان إلى ماهويه، فأخبره فقال: هذا يزدجرد، اذهبوا فجيئوني برأسه، فقال له الموبذ: ليس ذلك إليك، قد علمت أن الدين والملك مقترنان، لا يستقيم أحدهما إلا بالآخر، ومتى فعلت انتهكت الحرمة العظيمة، وتكلم الناس فأعظموا ذلك، فشتمهم ماهويه وقال للأساورة: من تكلم فاقتلوه، وأمر عدة فذهبوا مع الطحان ليقتلوا يزدجرد، فانطلقوا، فلما رأوه كرهوا قتله، وتدافعوا ذلك، وقالوا للطحان: ادخل فاقتله، فدخل عليه وهو نائم ومعه حجر فشدخ به رأسه ثم اجتزه فدفعه إليهم، وألقى جسده في المرغاب، فخرج قوم من أهل مرو فقتلوا الطحان وهدموا أرحاءه [1].

وذكر الطبري[2] حديثين مختلفين مطولين، وأحدهما أطول من الآخر يتضمن ضروباً من الاضطرابات تقلب فيها، وأنواعاً من الدوائر دارت عليه، حتى كانت منيته آخرها، وفيه أن رجال ماهويه الذين وجههم لطلب يزدجرد وأمرهم بقتله لما انتهوا إلى الطحان، فسألوه عنه، فأنكره، فضربوه ليدل عليه فلم يفعل،

(١) في الطبري: رحاه.

(٢) الطبري ج ٤ ص ٢٩٨، وانظر ـ كذلك: الأخبار الطوال ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

فلما أرادوا الانصراف قال أحدهم: إني أجد ريح المسك، ونظر إلى طرف ثوب من ديباج في الماء، فاجتذبه، فإذا هو يزدجرد، فسأله ألا يقتله ولا يدل عليه، وجعل له سواره وخاتمه ومنطقته، فأبى عليه إلا أن يعطيه أربعة دراهم ويخلي عنه، ولم يكن ذلك عند يزدجرد، فقال: قد كنت أخبر أني سأحتاج إلى أربعة دراهم، وقال للرجل: ويحك، خاتمي لك، وثمنه لا يحصى، فأبى وأنذر أصحابه، فأتوه، فطلب إليهم يزدجرد ألا يقتلوه، وقال: ويحكم، إنا نجد في كتبنا أن من اجترأ على قتل الملوك عاقبه الله بالحريق في الدنيا، مع ما هو قادم عليه، فلا تقتلوني وائتوا بي إلى الدهقان ، أو سرحوني إلى العرب، فإنهم يستحيون مثلي من الملوك، فأخذوا ما كان عليه من الحلي، فجعلوه في جراب وختموا عليه، ثم خنقوه بوتر، وطرحوه في نهر مرو.

وفي آخر الحديث[1]: أنه لما بلغ مقتله رجلاً من أهل الأهواز كان مطراناً على مرو، جمع من كان قبله من النصارى وقال لهم: إن ملك الفرس قد قتل، وهو ابن شهريار بن كسرى، ولهذا الملك عنصر في النصرانية، وإنما شهريار ولد شيرين التي قد عرفتم حقها وإحسانها إلى أهل ملتها في غير وجه، مع ما نال النصارى في مملكة جده كسرى من الشرف، وقبل ذلك في مملكة ملوك من أسلافه، حتى بنى لهم بعضهم البيع، وسدد لهم بعضهم ـ يعني للنصارى ـ ملتهم فينبغي لنا أن نحزن لقتل هذا الملك ونظهر من كرامته بقدر ما كان من إحسان سلفه وجدته إلى النصارى، وقد رأيت أن أبني له ناووساً، وأحمل جثته في كرامة حتى أواريها. فقال له النصارى: أمرنا لأمرك تبع، ونحن لك على رأيك هذا مواطئون، فأمر المطران ببناء ناووس في جرف بستان المطارنة بمرو، ومضى بنفسه ومعه نصارى مرو حتى استخرج جثة يزدجرد من النهر وكفنها وجعلها // في تابوت وحملها هو وأولئك النصارى على عواتقهم حتى أتوا به الناووس ٢٢٣أ
الذي بنى له وواروه فيه، وردموا بابه فكان ملك يزدجرد عشرين سنة، منها

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٣٠٠.

أربع سنين في دعة وست عشرة في تعب مَن محاربة العرب إياه.

وكان آخر ملك من آل أردشير بن بابك، وصفا الملك بعده للعرب، فسبحان ذي العظمة والملكوت، الملك الحق الحي الدائم الذي لا يموت، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون.



ذكر فتح أبرشهر، وطوس، وبيورد، ونسا، وسرخس، وصلح مرو

ذكر الطبري[1] أن ابن عامر لما فتح فارس قام إليه أوس بن حبيب التميمي، فقال: أصلح الله الأمير إن الأرض بين يديك، ولم تفتح من ذلك إلا القليل، فسر فإن الله ناصرك. قال: أو لم نأمرك بالمسير؟ وكره أن يظهر له أنه قبل رأيه.

وذكر في بعض ما ذكره عن المدائني أن ابن عامر لما فتح فارس رجع إلى البصرة واستعمل على اصطخر شريك بن الأعور الحارثي، فدخل على ابن عامر رجل من بني تميم يقال له: الأحنف، وقيل غيره[2]، فقال له: إن عدوك منك هارب، ولك هائب، والبلاد واسعة، فسر فإن الله ناصرك ومعز دينه.

فتجهز ابن عامر وأمر الناس بالتجهز للمسير، واستخلف على البصرة زياداً، وسار إلى كرمان، ثم أخذ إلى خراسان.

قال: وأشياخ كرمان يذكرون أنه نزل العسكر بالسيرجان، وسار إلى خراسان، واستعمل على كرمان مجاشع بن مسعود، وأخذ ابن عامر على مفازة رابر[3] - وهي ثمانون فرسخا - ثم سار إلى الطبسين يريد أبرشهر - وهي مدينة نيسابور - وعلى مقدمته الأحنف بن قيس، فأخذ إلى قهستان، وخرج إلى أبرشهر فلقيته الهياطلة فقاتلهم الأحنف فهزمهم، ثم أتى ابن عامر نيسابور،

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٣٠٠ - ٣٠٣.

(٢) تسميته في الطبري، وهو: أوس بن جابر الجشمي، من جشم تميم.

(٣) في الأصول: مفازة دابر، والتصويب من الطبري.

وافتتح ابن عامر مدينة أبرشهر، قيل: صلحاً، وقيل: عنوة، وفتح ما حولها: طوس وبيورد ونسا وحمران وسرخس.

ويقال: إنه بعث إلى سرخس عبد الله بن خازم ففتحها، وأصاب جاريتين من آل كسرى.

ويروى أن أهل ابرشهر لما فتحها ابن عامر صلحاً في قول من قال ذلك - أعطوه جاريتين من آل كسرى.

وعن أشياخ من أهل خراسان: أن ابن عامر سرح الأسود بن كلثوم - من عدي الرباب - إلى بيهق، وهي من أبرشهر - بينهما ستة عشر فرسخا - ففتحها، وقتل الأسود، وكان فاضلاً في دينه ومن أصحاب عامر بن عبد قيس، وكان عامر يقول بعدما خرج من البصرة: ما آسى من العراق على شيء إلا على ظماء [1] الهواجر وتجاوب المؤذنين، وإخوان مثل الأسود بن كلثوم.

ويروى أن ابن عامر لما غلب على من بنيسابور أرسل إليه أهل مرو يطلبون الصلح، فبعث إليهم حاتم بن النعمان الباهلي، فصالح مرزبان مرو على ألفي ألف ومائتي ألف.

وقال مقاتل بن حيان: على ستة آلاف ألف ومائتي ألف.

قال الطبري [2]: وفي سنة اثنتين وثلاثين كانت غزوة معاوية بن أبي سفيان مضيق القسطنطينية، ومعه زوجته عاتكة بنت قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف، وقيل فاختة.

واستعمل سعيد بن العاص - سلمان بن ربيعة على فرج بلنجر، وأمد الجيش الذي كان به مقيماً مع حذيفة بأهل الشام، عليهم حبيب بن مسلمة.

---

(١) في الطبري، ماء الهواجر.

(٢) الطبري ج ٣ ص ٣٠٤ - ٣٠٥.

وكان عثمان ـ رحمه الله ـ قد أمر سعيداً بإغزاء سلمان ـ فيما ذكره سيف عن بعض رجاله ـ وكتب إلى عبد الرحمن بن ربيعة ـ الذي يقال له ذو النور ـ وهو على الباب: أن الرعية قد أبطر كثيراً منها البطنة، فقصر ولا تقتحم بالمسلمين، فإني خاش أن يبتلوا، فلم يزجر ذلك عبد الرحمن عن غايته، فغزا في السنة التاسعة من إمارة عثمان حتى إذا بلغ بلنجر حصرها ونصب عليها المجانيق والعرادات [1]، فجعل لا يدنو منها أحد إلا أعنتوه أو قتلوه، وأسرعوا في الناس.

ثم إن الترك اتعدوا يوماً، فخرج أهل بلنجر، وتوافى إليهم الترك فاقتتلوا، فأصيب عبد الرحمن ـ ذو النور ـ فانهزم المسلمون وتفرقوا.

وقد تقدم ذكر مقتله قبل، وأن المشركين احتازوه إليهم فجعلوه في سفط، فكانوا يستسقون به بعد ويستنصرون به.

وذكر سيف من بعض طرقه [2]: أنه لما تتابعت الغزوات على الخزر تذامروا وتعايروا وقالوا: كنا أمة لا يقوم لها أحد حتى جاءت هذه الأمة القليلة فصرنا لا نقوم لها. فقال بعضهم: إنهم لا يموتون، ولو كانوا يموتون لما افتتحوا علينا. ثم كمنوا في الغياض ليجربوا، فرموا بعض من مر بهم في ذلك الكمين من جند المسلمين فقتلوهم، فعند ذلك تداعوا إلى الحرب وتواعدوا يوماً، فاقتتلوا فقتل عبد الرحمن وتفرق الناس فرقتين، فرقة نحو الباب فحماهم سلمان الفارسي حتى أخرجهم، وفرقة نحو الخزر، فطلعوا [3] على جيلان وجرجان، فيهم سلمان الفارسي وأبو هريرة.

---

(١) في الأصول: الرعادات، والتصويب من الطبري. والعرادة من آلات الحرب، ترمي بالحجارة المرمى البعيد.

(٢) الطبري ج ٣ ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

(٣) في الأصول: قطعوا، والتصويب من الطبري.

وقال بعضهم: غزا أهل الكوفة ثمانَ سنين من إمارة عثمان - رضي الله عنه - لم تئم فيهن امرأة، ولم ييتم فيهن صبي من قتل حتى كان - يعني في السنة التاسعة - فكان ما ذكر من قتل عبد الرحمن بن ربيعة ومن أصيب معه.



ذكر فتح مرو الروذ والطالقان والفارياب والجوزجان وطخارستان

ذكر الطبري[1] بإسناده عن ابن سيرين قال: بعث ابن عامر - الأحنف بن قيس إلى مرو الروذ، فحصر أهلها، فخرجوا إليهم فقاتلوهم، فهزمهم المسلمون حتى اضطروهم إلى حصونهم، فأشرفوا عليهم، فقالوا: يا معشر العرب، ما كنتم عندنا كما نرى، لو علمنا أنكم كما نرى لكانت لنا ولكم حال غير هذه، فأمهلونا ننظر في يومنا، وارجعوا إلى عسكركم، فرجع الأحنف، فلما أصبح غاداهم وقد أعدوا له، فخرج من المدينة رجل من العجم معه كتاب، فقال: إني رسول فأمنوني، فأمنوه، فإذا هو ابن أخي مرزبان مرو ومعه كتابه إلى الأحنف، وإذا فيه: إلى أمير الجيش، إنا نحمد الله الذي بيده الدول، يغير ما شاء من الملك، ويرفع من شاء بعد الذلة، ويضع من شاء بعد الرفعة، إني دعاني إلى مصالحتك وموادعتك ما كان من إسلام جدي، وما كان رأي من صاحبكم من الكرامة والمنزلة، فمرحباً بكم فأبشروا، وأنا أدعوكم إلى الصلح على أن أؤدي إليكم خراجنا ستين ألف درهم، وأن تقروا بيدي ما كان ملك الملوك كسرى أقطع جد أبي حيث قتل الحية التي أكلت الناس وقطعت السبيل من
٢٢٣ ب الأرض والقرى بما فيها من الرجال، ولا تأخذوا من أحد من أهل // بيتي شيئاً من الخراج، ولا تخرجوا المرزبة[2] من أهل بيتي إلى غيرهم، فإن جعلت ذلك لي خرجت إليك، وقد بعثت إليك ابن أخي ماهك ليستوثق منك بما سألت.

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٣١٠ - ٣١٣.

(٢) المرزبة: الرياسة في العجم، والمرزبان: الرئيس المقدم فيهم.

فكتب إليه الأحنف:

بسم الله الرحمن الرحيم، مــن صخــر بــن قيس أمير الجيش إلى بــاذان مــرزبــان مــرو الروذ ومــن معــه مــن الأســاورة والأعــاجــم، سلام على مــن اتبع الهدى، (وآمن واتقى). أما بعد، فإن ابن أخيك ماهك قدم عليّ، فنصح لك جهده، وأبلغ عنك، وقد عرضت ذلك على من معي من المسلمين، وأنا وهم فيما عليك سواء، وقد أجبناك إلى ما سألت، وعرضت عليّ أن تؤدي عن كورتك وفلاحيك والأرضين ستين ألف درهم إليّ وإلى الوالي بعدي من أمراء المسلمين، إلا ما كان من الأرضين التي ذكرت أن كسرى الظالم لنفسه أقطعها جد أبيك، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وإن عليك نصرة المسلمين وقتال عدوهم بمن معك من الأساورة إن أحب المسلمون ذلك، وإن لك على ذلك نصر المسلمين على من يقاتل من ورائك من أهل ملتك، جار لك بذلك مني كتاب يكون لك بعدي، ولا خراج عليك ولا على أحد من أهل بيتك مــن ذوي الأرحام، وإن أنت أسلمت واتبعت الرسول كان لك ما للمسلمين من العطاء والمنزلة والرزق وأنت أخوهم، ولك بذلك ذمتي وذمة أبي وذمة المسلمين وذمم آبائهم.

وعن مقاتل بن حيان: أن ابن عامر صالح أهل مرو، وبعث الأحنف في أربعة آلاف إلى طخارستان فأقبل حتى نزل موضع قصر الأحنف من مرو الروذ، وجمع (له) أهل طخارستان، وأهل الجوزجان، والطالقان، والفارياب، وكانوا ثلاثة زحوف، ثلاثين ألفاً. وأتى الأحنف خبرهــم، فــاستشــار النــاس فاختلفوا، فمن قائل: نرجع إلى مرو، وقائــل: نرجع الى أبرشهر، وقائــل: نقيم ونستمد، وقائــل: نلقاهم فنناجزهم.

قال: فلما أمسى الأحنف خرج يمشي في العسكر، ويسمع حديث الناس، فمر بأهل خباء ورجل يوقد تحت خزيرة أو يعجن، وهم يتحدثون ويذكرون العدو، فقال بعضهم: الرأي للأمير إذا أصبح أن يسير حتى يلقى القوم حيث لقيناهم،

فإنه أرعب لهم، فنناجزهم. فقال صاحب الخزيرة[1] أو العجين: إن فعل ذلك فقد أخطأ، أتأمرونه أن يلقى حد العدو مصحراً في بلاده، فيلقى جمعاً كثيراً بعدد قليل، فإن جالوا جولة اصطلموا؟ ولكن الرأي له أن ينزل بين المرغاب والجبل، فيجعل المرغاب عن يمينه والجبل عن يساره فلا يلقاه من عدوه وإن كثروا إلا عدد أصحابه، فرجع الأحنف وقد اعتقد ما قال، فضرب عسكره، وأقام فأرسل إليه أهل مرو يعرضون عليه أن يقاتلوا معه، فقال: إني أكره أن أستنصر بالمشركين، فأقيموا على ما أعطيناكم، فإن ظفرنا فنحن على ما جعلنا لكم، وإن ظفروا بنا وقاتلوكم فقاتلوا عن أنفسكم.

قال [2]: فوافوا المسلمين صلاة العصر، فعاجلهم المشركون، فناهضوهم وقاتلوهم فصبر الفريقان حتى أمسوا، والأحنف يتمثل:

أحق من لم يكره المنية حَزَوَّرٍ ليست له ذرية

(الرجز)

وفي غير حديث مقاتل أن الأحنف لقيهم في المسلمين ليلاً فقاتلوهم حتى ذهب عامة الليل، ثم هزمهم الله، فقتلهم المسلمون حتى انتهوا إلى رسكن [3] ـ وهي على اثني عشر فرسخاً من قصر الأحنف ـ وكان مرزبان مرو (الروذ) قد تربص بحمل ما كان صالح عليه، لينظر ما يكون من أمرهم، فلما ظفر الأحنف سرح رجلين إلى المرزبان، وأمرهما أن لا يكلماه حتى يقبضاه[4] ففعلا، فعلم أنهما لم يصنعا ذلك به إلا وقد ظفروا، فحمل ما كان عليه.

---

(١) الخزيرة: شبه عصيدة بلحم وبلا لحم.

(٢) في الأصول: قالوا، والمقصود إسناد الحديث إلى مقاتل بن حيان، ولذا أثبت ما ورد في الطبري لكونه أولى وأتم للمعنى.

(٣) في الأصول: دسكر، والمثبت من الطبري.

(٤) في الأصول: يقنعاه، والمثبت من الطبري.

وبعث الأحنف إلى الجوزجان الأقرع بن حابس في جريدة خيل إلى بقية كانت بقيت من الزحوف التي هزمهم الأحنف، فقاتلهم الأقرع بخيله، فجال المسلمون جولة، فقتل بعض فرسانهم، ثم أظفر الله المسلمين بهم فهزموهم وقتلوهم، وأولئك القتلى من فرسان المسلمين عنى أبو كثير النهشلي إذ قال:

سقى مُزْنُ السحاب إذا استهلَّتْ   مصارعَ فتيةٍ بالجوزجان
إلى القصرين من رِسْتاقِ خوطٍ   أقادهم هناك الأقرعان[1]
(الوافر)

وهي طويلة.



(١) البيتان في الطبري ج ٤ ص ٣١٣، وياقوت. معجم البلدان ج ٢ ص ١٨٢، وقد ورد في آخر الشطر الأول من البيت الأول قوله: استقلت مكان: «استهلت»، وقوله في أول الشطر الثاني من البيت الثاني: أبادهم، مكان: أقادهم. وهما في الروض المعطار - كذلك - ص ١٨٢ على نحو ما هو مثبت فوق.

ذكر جري الصلح بين الأحنف وبين أهل بلخ (*)

قال المدائني بإسناده عن إياس بن المهلب: سار الأحنف من مرو الروز إلى بلخ، فحاصرهم، فصالحه أهلها على أربعمائة ألف، فرضي بذلك منهم، واستعمل ابن عمه أسيد بن المتشمس على أخذها منهم، ومضى إلى خوارزم، فأقام حتى هجم عليه الشتاء، فقال لأصحابه: ما ترون؟ فقال له حصين: قد قال عمرو بن معدي كرب:

إذا لم تستطع شيئاً[1] فدعه   وجاوزه إلى ما تستطيع
(الوافر)

فأمر الأحنف بالرحيل، ثم انصرف إلى بلخ، وقد قبض ابن عمه ما صالحهم عليه، ووافق مهرجانهم وهو يجبيهم، فأهدوا إليه هدايا من آنية الذهب والفضة ودنانير ودراهم ومتاع ودواب[2] فقال أسيد: هذا لم نصالحكم عليه. قالوا: لا، ولكن هذا شيء نصنعه في هذا اليوم لمن ولينا، نستعطفه به، قال: ما أدري ما هذا؟ وإني لأكره أن أرده، ولعله من حقي، ولكني أقبضه وأعزله حتى أنظر، وقدم الأحنف، فأخبره، فسألهم عنه، فقالوا مثل ما قالوا له، فقال الأحنف: آتي به الأمير، فحمله إلى ابن عامر وأخبره عنه، فقال: اقبضه يا أبجر، فهو لك، قال: لا حاجة لي فيه، فقال ابن عامر: ضمه إليك يا مسمار، قال: فضمه القرشي، وكان مضماً.

وذكر المدائني بإسناد آخر: أن ابن عامر حين صالح أهل مرو، وصالح

(*) النص منقول بأكمله عن الطبري ج ٤ ص ٣١٣ - ٣١٦.

(١) في الطبري: أمراً.

(٢) في الطبري: وثياب.

الأحنف أهل بلخ بعث خليد بن عبدَ الله الحنفي الى هراة وإلى باذغيس، فافتتحها، ثم كفر العدو بعد ذلك فكان مع قارن.

وقال: ولما رجع الأحنف قال الناس لابن عامر: ما فتح على أحد ما فتح عليك، فارس، وكرمان، وسجستان، وعامة خراسان، فقال: لا جرم، لأجعلن شكري لله على ذلك أن أخرج معتمراً من موقفي، فأحرم بعمرة من نيسابور، فلما قدم على عثمان ـ رضي الله عنه ـ لامه على إحرامه من خراسان، وقال له: ليتك تضبط الميقات الذي يحرم منه الناس.

قال: استخلف ابن عامر على خراسان حين خرج منها سنة اثنتين وثلاثين قيس // بن الهيثم، فجمع قارن جمعاً كثيراً من ناحية الطبسين وأهل باذغيس وهراة ٢٢٤ أ
وقهستان [١]، فأقبل في أربعين ألفاً، فقال قيس لعبد الله بن خازم: ما ترى؟ قال: أرى أن تخلي البلاد فإني أميرها، ومعي عهد من ابن عامر، إذا كانت حرب بخراسان فأنا أميرها، وأخرج كتاباً قد افتعله، فكره قيس مشاغبته، فخلاه والبلاد، وأقبل إلى ابن عامر، فلامه ابن عامر، وقال: تركت البلاد حرباً وأقبلت؟ قال: جاءني بعهد منك.

قال: وسار ابن خازم إلى قارن في أربعة آلاف، وأمر الناس فحملوا الودك، فلما قرب من عسكره أمر الناس أن يدرج كل واحد منهم على زج رمحه ما كان من خرقة أو قطن أو صوف ثم يوسعوه ودكاً من سمن أو زيت أو دهن أو اهالة. وقدم مقدمته ستمائة، ثم أتبعهم، وأمر الناس فأشعلوا النيران في أطراف الرماح، وجعل بعضهم يقتبس من بعض، وانتهت مقدمته إلى عسكر قارن نصف الليل، ولهم حرس، فناوشوهم، وهاج المشركون على دهش، وكانوا آمنين على أنفسهم من البيات، ودنا ابن خازم منهم، فرأوا النيران يمنة ويسرة، وتتقدم وتتأخر، وتنخفض وترتفع، ولا يرون أحداً فهالهم ذلك، ثم غشيهم ابن

---

(١) في الأصول: دهستان، والتصويب من الطبري.

خازم بالمسلمين، ومقدمته تقاتلهم، فقتل قارن وانهزم العدو، فأتبعوهم يقتلونهم كيف شاءوا، وأصابوا سبياً كثيراً، وأخذ ابن خازم عسكر قارن بما كان فيه، وكتب بالفتح إلى ابن عامر، فرضي وأقره على خراسان، فلبث عليها حتى انقضى أمر الجمل[1].

وقد روي: أنه لما جمع قارن هذا الجمع للمسلمين، ضاق المسلمون بأمرهم، واستشار قيس ـ عبد الله بن خازم في ذلك، فقال له: إنك لا تطيق كثرة من أتانا، فاخرج بنفسك إلى ابن عامر فتخبره بكثرة من جمعوا لنا، ونقيم نحن في هذه الحصون نطاولهم حتى تقدم ويأتينا مددكم. فخرج قيس، فلما أمعن أظهر ابن خازم عهداً، وقال: قد ولاني ابن عامر على خراسان، فسار إلى قارن وظفر به، وكتب بالفتح إلى ابن عامر، فأقره على خراسان، فلم يزل أهل البصرة يغزون من لم يكن صالح من أهل خراسان، فإذا رجعوا خلفوا أربعة آلاف للعقبة، فكانوا كذلك حتى كانت الفتنة. فالله أعلم أي ذلك كان.



(١) راجع وقعة صفين لابن مزاحم، ووقعة الجمل لأبي مخنف.

(فتح عمورية وانتقاضها)

وعن سعيد بن عبد العزيز: أن عثمان - رضي الله عنه - إئتم بأبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - في أثرة المجاهدين وتقويتهم بالأموال، ولقد زاد عثمان أهل العطاء مائة مائة، وتابع إغزاءهم أرض الروم، حتى ذلت عمورية وما دونها من مدائن ضاحية الروم على أداء الجزية، وعلى إنزال جماعة من المسلمين مدينة عمورية يقاتلون من خلفها، فلم يزل المسلمون بها حتى بلغ أهل عمورية قتل عثمان - رضي الله عنه - قبل أن يبلغ ذلك من كان بها من المسلمين، فقتلوهم على فرشهم، وانتقض ذلك الصلح.



وتمت الفتوح بعثمان - رضي الله عنه ورحمه - فلم تفتح بعده بلدة إلا صلحاً، كان كفر[1] أهلها، أو أرض مما افتتح، عيال على ما افتتح عمر، لا يقوى عليها الجنود إلا بالفيء الذي أفاء الله عز وجل على عمر - رضي الله عنه.



---

(١) في الأصول: فكفر.

(مقتل عثمان ـ رضي الله عنه)

وقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ بالمدينة في الثامن عشر لذي الحجة سنة خمس وثلاثين، وقيل في وسط أيام التشريق، وقيل يوم التروية، وقيل غير ذلك، ولا خلاف بينهم في أنه قتل في ذي الحجة، وإنما الخلاف في أي يوم منه قتل[1]، وكانت خلافته إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً وأياماً[2]، وسنه يوم قتل مختلف فيها ـ أيضاً ـ على ما قيل في ذلك أنه كان ابن تسعين سنة، وقيل: ابن ثمان وثمانين سنة، وقيل: ابن ست وثمانين [سنة]، وقيل: ابن اثنتين وثمانين، وقيل: ابن ثمانين[3].

وقتل ـ رحمه الله ورضي عنه ـ ظلماً وتعدياً، بمقدمات فتن نشأت على عهده، قد كان رسول الله ﷺ أنذر بها، وأخبر أن الحق مع عثمان ـ رحمه الله ورضي عنه ـ فيها.

وروى مرة البهزي أن رسول الله ﷺ قال: إنها ستكون فتن كأنها صياصي بقمر، فمر علينا رجل متقنع فقال: هذا وأصحابه على الحق، فذهبت فنظرت إليه، فإذا هو عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه.

---

(١) راجع الاختلاف في ذلك في: ابن أبي بكر. التمهيد البيان في مقتل الشهيد عثمان ص ١٤٠، ابن يزيد. تاريخ الخلفاء ص ٢٣، الطبري ج ٤ ص ٤١٥.

(٢) راجع المصادر السابقة بالإضافة إلى: تاريخ خليفة خياط ص ١٧٧، والمعارف لابن قتيبة ص ١٩٨.

(٣) راجع الاختلاف في تقدير عمره ـ رضي الله عنه ـ حال قتله في: التمهيد والبيان ص ١٤٨ وما بعدها، وابن يزيد. تاريخ الخلفاء ص ٢٤، وتاريخ خليفة خياط ص ١٧٧، وابن قتيبة. المعارف ص ١٩٧ ـ ١٩٨، والطبري ج ٥ ص ٤١٥، والمسعودي. مروج الذهب ج ١ ص ٥٥٣ وابن الوردي. تتمة المختصر ج ١ ص ٢٣٣.

وحديث عائشة ـ رضي الله عنها: أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول له: إن الله ملبسك قميصاً تريدك أمتي على خلعه فلا تخلعه، قال: فلم أدر ما هو حتى رأيت عثمان قد أعطى كل شيء سئله إلا الخلع، فعلمت أنه على عهد رسول الله ﷺ الذي سمع منه.

وفي حديث آخر عنها: أنها رأت رسول الله ﷺ يسار عثمان، ولون عثمان يتغير، فلما حصرقيل له: ألا تقاتل؟ قال: لا، إن رسول الله ﷺ عهد إلي عهداً فأنا صابر نفسي عليه.

وضايق الناس عثمان ـ رضي الله عنه ـ وتبسطوا عليه، وآذوه، وهو صابر على عهد رسول الله ﷺ راض بقضاء الله فيه، آمر بكف الأسلحة والأيدي، كل من انبعث لنصره، واق للمؤمنين بنفسه.

حدث عبد الله بن ربيعة أنهم كانوا معه في الدار، فلما سمع أنهم يريدون قتله قال: ما أعلم أنه يحل دم المؤمن إلا الكفر بعد الإيمان، والزنا بعد الإحصان، أو قتل نفس بغير حق، وأيم الله، ما زنيت في جاهلية ولا إسلام، وما ازددت للإسلام إلا حباً، ولا قتلت نفساً بغير حق، فعلام تقتلونني؟ ثم عزم علينا أن نكف أيدينا وأسلحتنا، وقال: إن أعظمكم غناء أكفكم ليده وسلاحه.

وقال أبو هريرة لأهل الدار وهو معهم فيها: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: تكون بعدي فتن وأمور، قلنا: فأين الملتجأ منها يا رسول الله؟ قال: إلى الأمين وحزبه، وأشار إلى عثمان. فقام الناس فقالوا: قد أمكنتنا البصائر، فأذن لنا في الجهاد، فقال عثمان: أعزم على من كانت لي عليه طاعة أن لا يقاتل.

ومما ينسب إلى كعب بن مالك يذكر هذه الحال من عثمان بعد قتله ـ رضي الله عنه ـ وقال مصعب: هي لحسان، وقال ابن أبي شبة: هي للوليد بن عقبة:

فكف يديه ثم أغلق بابَهُ وأيقن أن الله ليس بغافلِ

وقال لأهل الدار: لا تقتلونهم عفا الله عن ذنب امرئ لم يقاتل
فكيف رأيت الله ألقى عليهم الْ عداوةَ والبغضاءَ بعد التواصل
٢٢٤ب // وكيف رأيت الخير أدبر بعده عن الناس إدبار السحاب الحوامل [١]
(الطويل)

وقال ابن عمر لبعض من وقع عنده في عثمان: أما والله ما نعلم عثمان قتل نفساً بغير حق، ولا جاء من الكبائر شيئاً، ولكن هو هذا المال إن أعطاكموه رضيتم، وإن أعطاه ذوي قرابته سخطتم، إنما تريدون أن تكونوا كفارس والروم، لا يتركون أميراً إلا قتلوه، وفاضت عيناه من الدمع، وقال: اللهم إنا لا نريد ذلك.

وحسب عثمان - رضي الله عنه - من الفضل العظيم، والحظ الجسيم، إلى ما له في الإسلام من الآثار الكرام والنفقات التي بيضت وجه النبي - عليه السلام - قوله صلوات الله عليه: أنت وليي في الدنيا والآخرة.

ويروى [٢] أنه لما قتل سقطت من دمه قطرة أو قطرات على المصحف، فصادفت قول الله تعالى: ﴿**فسيكفيكهم الله**﴾ (١٣٧ : البقرة)، ويقال: إن الذي تولى قتله من الذين دخلوا عليه رجل من أهل مصر يقال له جبلة بن الأيهم، وكذلك كان جمهور الداخلين عليه من أهل مصر. فيروى عن يزيد بن أبي حبيب، وهو من جملة المصريين أنه قال: بلغني أن عامة النفر الذين ساروا إلى عثمان بن عفان جنوا.

وعن أبي قلابة قال: كنت في فندق بالشام، فسمعت منادياً ينادي: يا ويلة، النار النار، فقمت فإذا أنا برجل مقطوع اليدين من المنكبين، مقطوع الرجلين من الحقوين، أعمى، منكب لوجهه ينادي: يا ويلة، النار، النار. فقلت:

---

(١) الأبيات في: نهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ١٥٢، وكنز الدرر للدواداري ج ٣ ص ٢٩٦، وتتمة المختصر لابن الوردي ج ١ ص ٢٣٤، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ١٩٦.
(٢) اليافعي. مرآة الجنان ج ١ ص ٩١.

ما لك؟ قال: كنت فيمن دخل على عثمان يوم الدار، وكنت في سرعان الناس، أو من أول الناس وصل إليه، فلما دنوت منه صاحت امرأته فلطمتها، فنظر إليّ عثمان فتغرغرت عيناه بالدموع، وقال: ما لك سلب الله يدك ورجليك وأعمى بصرك وأدخلك جهنم، قال: فأخذتني رعدة شديدة، ولا والله ما أحدثت شيئاً غير هذا، فخرجت وركبت راحلتي، حتى إذا صرت بموضعي هذا ليلاً أتاني آت، والله ما أدري إنسي هو أم جني، ففعل بي الذي ترى، وقد استجاب الله دعوته في يدي ورجلي وبصري، فوالله إن بقي إلا النار. قال أبو قلابة: فهممت أن أطأه برجلي، ثم قلت: بعداً وسحقاً.

وكان مع عثمان - رحمه الله ورضي عنه - في الدار جماعة من الصحابة وأبناء الصحابة، يدرءون عنه، وقاتلوا عنه يوم الدار حتى أخرج منهم يومئذ أربعة من شباب قريش محمولين مضرجين بالدم، وهم: الحسن بن علي، وعبد الله ابن الزبير، ومحمد بن حاطب، ومروان بن الحكم، ولما أخبر علي بقتله قال للذين أخبروه: تباً لكم آخر الدهر، وسمع يومئذ ضجة، فسأل عنها، فقيل: عائشة تلعن قتلة عثمان، والناس يؤمنون، فقال علي: اللهم العن قتلة عثمان، اللهم العن قتلة عثمان.

وقال سعيد بن زيد: لو أن أحداً انقض لما فعل بعثمان لكان حقيقاً أن ينقض.

وقال ابن عباس: لو اجتمع الناس على قتل عثمان لرموا بالحجارة كما رمي قوم لوط.

وقال عبد الله بن سلام: لقد فتح الناس على أنفسهم بقتل عثمان باب فتنة لا ينغلق عنهم إلى يوم القيامة.

وفي ذلك يقول بعضهم:

لعمر أبيكِ ولا تكذبنْ [1] لقد ذهب الخير إلا قليلا

(١) في الأصول: تكذبن.

لقد سَفِهَ الناسُ في دينهم وخَلّى[1] ابْنُ عفانَ شراً طويلا
(المتقارب)

وذكرت عائشة ـ رضي الله عنها ـ قتله وقتلته فقالت: اقتحم عليه النفر الثلاثة حرمة البلد الحرام والشهر الحرام وحرمة الخلافة، ولقد قتلوه وإنه لمن أوصلهم للرحم وأتقاهم لربه.

وقال أيمن بن خُرَيم:

ضحوا بعثمان في الشهر الحرام ضُحَى فأيُّ ذِبْحٍ حرامٍ ويلهم ذبحوا
وأي سنة كفرٍ سَنَّ أولُهم وباب شَر على سلطانهم فتحوا
ماذا أرادوا أضلَّ اللهُ سعْيَهُمُ بسَفكِ ذاك الدم الذاكي الذي سفحوا[2]
(البسيط)

وقال علي بن حاتم: سمعت يوم قتل عثمان صوتاً يقول:

---

(١) في كنز الدرر ج ٣ ص ٣٠٥: وأبقى.

(٢) الأبيات منسوبة في المعارف (ص ١٩٨) مع اختلاف في الصياغة والترتيب، وهي على النحو التالي:

ضحوا بعثمان في الشهر الحرام ولم يخشوا على مطمح الكفر الذي طمحوا
فأي سُنَّةِ كفرٍ سنَّ أولهم وباب كفر على سلطانهم فتحوا

ويلحظ أن عجز البيت الأول ـ هنا ـ في الاكتفاء، يمثل عجزاً للبيت الأول في المعارف، وهو الذي يسبق المثبت في هذا الموضع من الاكتفاء، وهو:

تفاقد الذابحو عثمان ضاحية فأي ذبح حرام ويحهم ذبحوا

كما يتبع البيت الثاني في هذا الموضع من الاكتفاء، بيت ورد في المعارف، هو:

فاستوردتهم سيوف المسلمين على تمام ظمء كما يستورد النضح

وهذا الترتيب الوارد للبيتين الأول والثاني لابن خريم لدى ابن قتيبة، وردا كذلك لدى المسعودي في التنبيه والإشراف ص ٢٩٢، على حين وردت الأبيات المثبتة في هذا الموضع من الإكتفاء وبهذه الكيفية في نهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ٥٠٣.

أبشر يا ابن عفان بروح وريحان   أبشر يا ابن عفان برب غير غضبان
أبشر يا ابن عفان بغفران ورضوان

(الهزج وأحباب
التفعيلة الأولى الخرم)

قال: فالتفت فلم أر أحداً.

والأخبار والأشعار في هذا المعنى كثيرة[1]، أعجلتنا عن الإكثار منها محاولة الخاتمة، فنسأل الله أن يجعلها جميلة، ويتقبلها قربة إليه وإلى رسوله ووسيلة.

★ ★ ★

(١) راجع بشأن ذلك: التمهيد والبيان لابن أبي بكر ص ٢٠٤ وما بعدها، والبدء والتاريخ للبلخي ج ٥ ص ٢٠٧ - ٢٠٨، والطبري ج ٤ ص ٤٢٤ - ٤٢٦، والتنبيه والإشراف للمسعودي ص ٢٩٢، وكنز الدرر للدواداري ج ٣ ص ٣٠٥ - ٣٠٧، ونهاية الأرب للنويري ج ١٩ ص ٥١١ - ٥١٣، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ١٩٦ - ١٩٧.

(الخاتمة)

وقد انتهى والحمد لله ما عملنا عليه في هذا الكتاب من قصد الاستيفاء لمغازي رسول الله ﷺ ومغازي الثلاثة الخلفاء، ولم يقع في خلافة رابعهم في تقلدها المحتوم بأيام إمارته محتوم أمدها، أبي الحسن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه وعنهم - من أمثال هذه الفتوح ما نثبته معها، ونجري في إيراده على الطريقة التي سلكنا مهيعها، لاستقباله بخلافته - رضي الله عنه - من مكابدة الفتن المارجة، ومحاربته الفئة الباغية والفرقة الخارجة، ما اشتهر عند أهل الإسلام، وأغنى العلم به عن الإعلام، ولو كان لاغتنمنا به زيادة الإمتاع، وإفادة القلوب والأسماع، لأن هؤلاء الخلفاء الأربعة - رضي الله عنهم - هم بعد نبيهم - صلوات الله عليه - خير الأمة، والراشدون من الأئمة، وأولى من صرف إلى تقييد أخبارهم وتخليد آثارهم عنان الهمة، وأحق من اعتلق من حبهم، والإيواء إلى شعبهم، والثناء عليهم، والإنضواء إلى حزبهم، بأوثق أسباب العصمة وأمتن ذرائع الحرمة والرحمة، وكل صحابة المصطفى أهل منا لذلك، والموفق من سلك في حبهم هذه المسالك.

وما فضْل أصحاب النبيِّ وقومه لمن رام إحصاء له بمحسَّبِ
ولكنه أجر وزخْرٌ أُعِدُّهُ وأجعلهُ أمْني وحِصني ومهربي
سأقطع عمري بالصلاة عليهم وأدأب في حبي لهم كلَّ مَدْأبِ
إليك رسولَ اللهِ منها وسيلةٌ تناجيك عن قلب بحبك مُشْرَبِ
يزورك عن شَحْطِ الديار مسلِّماً ويلقاك بالإخلاص لم يتنكَّبِ

(الطويل)

* * *

تم كتاب الإكتفاء من مغازي سيدنا رسول الله ﷺ ومغازي الثلاثة الخلفاء - رضي الله عنهم، وحشرنا معهم - وربنا المحمود لا إله غيره، ولا مرجو إلا بركته وخيره. برسم الفقير إلى الله تعالى جمال الدين محمد ابن ناصر الدين محمد بن السابق الحنفي الحموي، لطف الله تعالى به //. على يد الفقير لعفو ربه القدير محمد بن خليل بن إبراهيم الحنفي، عامله الله بلطفه الخفي، وفرغ من كتابته في اليوم المبارك نهار الأربعاء السادس من صفر سنة ستين وثمانمائة، أحسن الله عاقبتها، آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.



فهرست المحتوي

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة